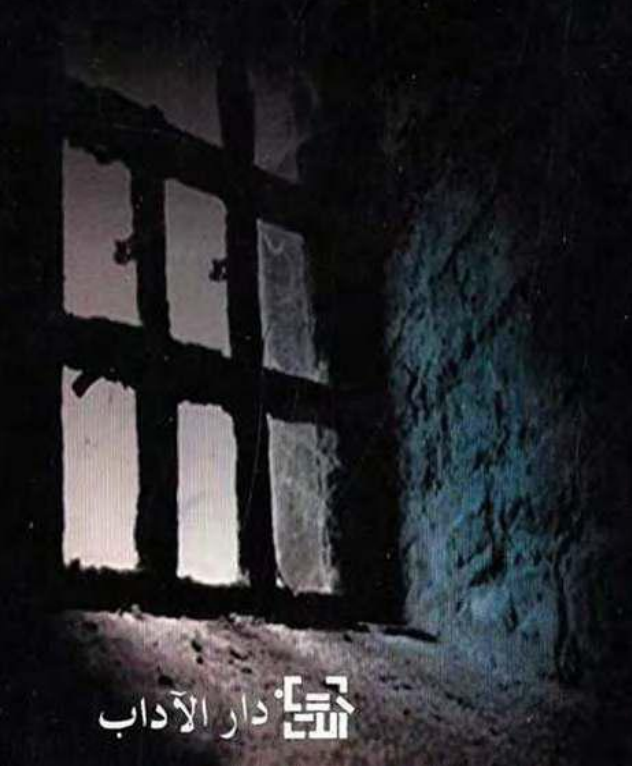
W A C I N Y   L A R E D J

واسيني

2084

حكاية العربي الأخير

رواية



دار الآداب

٢٠٨٤
حكاية العربيّ الأخير
واسيني / روائيّ جزائريّ
الطبعة الأولى عام 2016
ISBN 978-9953-89-510-9



دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com








daraladab.com

العَرَبِيُّ الجَيِّدُ الوَحِيدُ، هُوَ العَرِبِيُّ المَيِّتُ[1]

(١) هذا التصريح هو جزء من رسالة بعث بها الدبلوماسيُّ الأميركيُّ باتريك سربنغ إلى المعهد العربي الأميركيّ. نُشرت في الشرق الأوسط نقلاً عن الواشنطن بوست. اضطرّ بعدها إلى الاستقالة من منصبه. أخذها عنه لاحقًا جورش بوزينستن، أحد المتطرّفين اليهود: *أعزائي اليهود، اقتلوا العرب الآن. العربيُّ الجيِّد الوحيد، هو العربيُّ الميِّت.*

فهم (العرب) متنافسون في الرئاسة، وقلّ أن يسلّم أحدٌ منهم الأمر لغيره ولو كان أباهُ أو أخاه أو كبيرَ عشيرته، إلّا في الأقلّ وعلى كره من أجل الحياء، فيتعدّد الحكّام منهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرعيّة في الجباية والأحكام، فيفسد العمران وينتقض. . . أنظر إلى ما ملكوه وتغلّبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة، كيف تقوّض عمرانه وأقفر ساكنه وبدّلت الأرض فيه غير الأرض، فاليمن قرارهم خراب إلّا قليلاً من الأمصار، وعراق العرب كذلك قد خرِبَ عمرانه الذي كان للفرس أجمع، والشام لهذا العهد كذلك، وإفريقية والمغرب. . . عادت بسائطه خرابًا كلّها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كلّه عمرانًا، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم، وتماثيل البناء وشواهد القرى.

ابن خلدون، *المقدّمة* (ج ١، ١٥٠)

في المنظور المعلوم من حياتنا، لن تكون هناك أيّة إمكانيّة للتغيير. نحن موتى. حياتنا الحقيقيّة الوحيدة تكمن في المستقبل. سنشترك في صنعه حتمًا، لكن في شكل حفنات من غبار وكومات من عظام. المهمّ، على أيّة مسافة منّا يقع هذا المستقبل؟ من المستحيل معرفة ذلك، قد تكون ألف سنة. فلا شيء ممكن حاليًا.

جورج أورويل، ١٩٨٤.

صحافتنا ومدارسنا تزرع الشوفينيّة والعقليّة العسكريّة والدوغمائيّة والتواطؤ والجهل. لا حدّ للتسلّط التعسّفي للحكومة الذي يبقى فريدًا من نوعه في التاريخ. حرّيّات الصحافة، والرأي وحقّ التنظيم، انتفت كلّيًا، وكأنّ إعلان حقوق الإنسان لم يوجد أبدًا. لقد شيّدنا أكبر جهاز أمنيّ أصبح فيه المخبرون الصغار مؤسّسة وطنيّة قائمة بذاتها، بعد أن تمّ تدعيمها بنظام علميّ شديد التحديث في التعذيب النفسيّ والجسديّ. نقود بالسوط الجماهير المتعطّشة نحو سعادة وهميّة قريبة، وحدنا نعرف مآلاتها.

آرثر كوستلر، *الصفر واللامنتهي (الظلمة في منتصف النهار)*، **كالمان ليفي ١٩٤٥.**

أتمنّى أنْ لاَ يَحدُثَ هَذا

مجرَّد صرخة قبل فوات الأوان. أعرف سلفًا انّ المعنيَّ بها تحديدًا، لن يسمعها أبدًا.

١ ــ إقَامَةُ الذّئابِ الضَّالَّة

هناك أمم لا تصبح مفيدة إلّا عندما تتحوَّل إلى رماد. نحن نمنحها فرصة الخروج من رمادها والدخول في تاريخ ظلّت على حوافّه، لتستمرّ في الحياة على الأرض. شرطنا الأوحد أن تؤمن بشعارنا: *الكلّ مع الواحد. والواحد سيّد الكلّ.*

من خطاب ليتل بروز،

بمناسبة الذكرى المئويّة لميلاد جدّه بيغ بروزر.

ـ ١ ـ

أول الخريف. ٢٢ سبتمبر.

أربعة أشهر وتسعة أيّام، وثلاث ساعات وخمس ثوان، قبل بدء سنة الموت.

نزل الليل بسرعة على قلعة أمِيرُوبَا[١].

لا شيء في الطابق السابع إلّا الصمت وبياض مبهم، يتّسع كلّ يوم قليلاً.

رنّ التليفون مرّتين متتاليتين من دون أن يخرج ليتل بروز[٢] من ظلّه.

الغرفة البيضاء التي تحتلّ الطابق السابع والأخير كلّه، هي أهمّ وأعلى ما في القلعة. تطلّ على الكلّ، تراقب حتى التفاصيل الصغيرة والزواحف التي تتقاتل في الرمل، في المدّ الذي لا حدّ له إلّا الأسلاك الشائكة المكهربة. تبدو من الأعلى كبرج مراقبة في مطار

---

(١) Améreupa

(٢) Little Broz (Little Brother)

أهمل منذ زمن بعيد. بنصاعتها الداخليّة وبياضها، تبدو الغرفة البيضاء كمستشفى شديد النظافة. كلّ شيء فيها يلمع ويعكس كلّ الحركات حتى تلك غير المرئيّة، إلّا جزءها الداخليّ العميق الذي يتماهى فيه النور بالظلّ، حتى يصبح ظلمة لا يُرى فيها شيء إلّا الظلال التي تضيق وتتّسع بحسب حركة الشاشات المعلّقة في كلّ مكان.

في عمق المثلّث الخفيّ، والتقاء الحائطين القديمين، يتكوّم ليتل بروز، الجنرال مالكوم بلير، بحيث يرى الكلّ، ولا أحد يراه. لا أحد يعرف وجهه إلّا الصورة الوحيدة التي سرّبها صحفيٌّ فرنسيٌّ، كلّفته غاليًا، سجنًا وتعويضًا ماليًّا، والتي يظهر فيها ليتل بروز بوجه مدوّر مثل طفل أبله، برأس كبير كأنّه في النزع الأخير من سرطان دماغيّ. ملامحه أقرب إلى ملامح موسوليني في عزّ أيّامه. وعلى الرّغم من سنّه، فقد غابت كلّ التجاعيد من على وجهه وعنقه وصدره، بسبب الانتفاخ المرضيّ، وعمليّات التجميل التي خضع لها.

رنّة ثالثة، استمرّت هذه المرّة طويلاً. أكثر من المعتاد.

تململ ليتل بروز داخل ظلّه. نظر إلى الشاشات التي تحتلّ حيطان مكتبه الواسع، في الطابق السابع. تأمّلها واحدة واحدة ليرى عن قرب الوضعيّات المختلفة التي كان عليها آدم وهو يتقلّب في فراشه.

عندما أخذ السمّاعة، انفرجت الشاشة الكبيرة، مظهرة جانبًا من وجهه، ووجه رجُلين بلباس أسود وأبيض، وشخصين آخرين في الزاوية، في غرفة آدم، يحاولون فتح عينيه وفحصه بدقّة.

ـ هو الآن أفضل يا ماريشال. انتهت النوبة الحادّة التي انتابته بشكل فجائيّ. نوّمناه يا سيّدي. غيّرنا ألبسته، وأشعلنا التدفئة. شرب المحلول الطبيعيّ المساعد على النوم الطويل، وهو الآن كما تراه، في وضع أفضل.

ـ يمكنكم أن ترتاحوا الآن. أنا أيضًا متعب.

ـ نوبات طبيعيَّة يا ماريشال لكائن تعوَّد على الحرِّيَّة، يجد نفسه في مكان يشبه القفص.

ـ أنت تعرف جيِّدًا يا دكتور ملارمي، لو كان عليَّ لالتجأت إلى الحلول الراديكاليَّة، لكنَّ الأمر يتجاوزني. لأوَّل مرَّة، أشعر بالشلل أمام شخص يُفترض أنَّه عدوٌّ، ويجب أن يُقاوَم بكلّ الوسائل. كنت أنوي أن أخلِّصه من ذاكرة شقيَّة، ليصبح منسجمًا مع حاضر يتغيَّر بسرعة. مع أنّه العيِّنة الآرابيَّة الأكثر ذكاء التي كبرت بين حيطان جامعاتنا، البقيَّة اليوم، في آرابيا، يتقاتلون على الماء والكلأ وبقايا النخيل المحروق، لسبب تافه، يسحبون السيوف والسكاكين بعضهم على بعض، ويحرقون الدبَّابات المتبقِّية من الزمن الماضي من حروبهم، ويمحون آثارهم، منتصرين كانوا أو منهزمين. آدم المسكين لا يعرف أنَّ عصرًا انتهى، وحلّ زمن آخر.

ـ ننصرف يا سيِّدي؟

ـ يمكنكم أن تنصرفوا دكتور ملارمي، أنت وفريقك.

ـ شكرًا ماريشال.

لاحظ ليتل بروز كيف خرج الفريق الطبِّيُّ، بهدوء واستقامة. كانوا يلبسون الأسود، مثل كلّ المكلَّفين بالمهمَّات الخاصَّة، الطبيب ملارمي، وحده من كان يلبس الأبيض. اللباس علامة في قلعة أميروبا، دلالة عن طبيعة العمل في هذا المكان. الأبيض للأطبَّاء. الأزرق، [illegible] (١) [illegible] الأسود لرجال الإنقاذ. المرقَّط للمكلَّفين بالمهامّ الخاصَّة. البرتقاليّ للمساجين

---

(١) The Guest هكذا يُسمّى المدنِبُون في القلعة، الضيوف أو الضيف.

أو المقيمين كما يُسمُّون هنا، لأنّ كلمة سجين غير موجودة في قاموس القلعة. بل إنّ ليتل بروز قاوم طويلاً لفرض البدائل، لأنّه لا يريد أن يترك أيّ فرصة للجمعيّات والوكالات العميلة.

الكثير من الناس الطيِّبين في القلعة يصدِّقون أنّ ليتل بروز من سلالة بيغ بروذر، لهما علامات الوجه الدائريّ نفسها، والتصرّفات نفسها، وردود الفعل نفسها، بل إنّ هناك من يبالغ ويقسم أنّ ليتل بروز هو الابن الطبيعي لبيغ بروذر. وينسجون حول ذلك حكايات كثيرة، من بينها هذه القصّة. البعض الآخر، من الذين انتهى أغلبهم في السجون أو أوكلت لهم مهامّ خاصّة في صحراء آرابيا، لم يعودوا منها أبدًا، يقولون إنّها مجرّد خرافات لرجل معتوه ومريض. جنرال فاشل، خاض كلّ الحروب المجنونة وبقي حيًّا، يحلم بأن يُرقّى يومًا إلى رتبة ماريشال. معدَّل ذكائه دون المتوسِّط. لم يستوعب أنّه فقد رجله اليمنى ويده اليسرى في هجوم الرماديّ، في العراق. وانتفخ من شدّة عدم الحركة كأيّ جنرال من جنرالات العالم الثالث. يعيش عزلة مقيتة، محاطًا برائحة الكحول والفورمول، والزيوت الطبّيّة، انتهى فيها إلى كره كلّ من لا يشبهه. حتى حاجاته الطبيعيّة، بالكاد يقضيها، فقد اختلّ كلّ شيء في جسده.

عندما خرج الفريق الطبّيّ، ضغط ليتل بروز من جديد على زرّ أمامه، فانفتحت شاشة أخرى أكثر اتّساعًا، تظهر آدم في حالة سكينة مثل طفل نام على غضب أو بكاء. قرّب وجهه أكثر بواسطة الذراع الصغيرة التي أمامه، حتى ظهرت كلّ ملامحه ودقّات قلبه تحت جلد معصمه الرقيق. سجّلت الشاشة من تحت، تسعين دقّة في الدقيقة، تتجاوز الطبيعي بعشرين دقّة، لكنّ الطبيب لا يرى في ذلك خطرًا. آدم يعيش حالة قلق وخوف وحيرة ممّا يحدث له. رؤوس أصابعه التي

كانت في البداية زرقاء من شدَّة البرد، عاد لها لونها الطبيعيّ. شعره الأبيض ما يزال هو هو، كثيف، لم تسقط منه أيَّة شعرة. لم يمسس بياض الكالكير أصابع رجليه التي عادةً ينخرها مبكرًا. السكانيز ذو التردُّدات المغناطيسيَّة بيَّن أنَّه لا يعاني من أيّ مرض. حتى أسنانه كاملة، لم تسقط منها أيَّة واحدة. استغرب ليتل بروز، أنّه في هذه السنّ، ولم يمسس جسده أيّ عطل. لم يفهم النقطة السوداء، أو الثقب الذي في قلبه، الذي يولد به بعض الأطفال، لكنَّه مع السنّ سرعان ما ينغلق تلقائيًا، من دون أيَّة عمليَّة جراحيَّة. حتى عندما سأله ذات مرَّة الدكتور ملارمي، المكلَّف بعلاجه ومتابعته الصحّيَّة، هل يعاني من قصور في القلب، لأنّ التحاليل في القلعة لم تظهر أيّ شيء! ضحك، وقال باستثناء الغصَّة والخوف لا يوجد شيء يثقل حياتي.

ركَّزت الكاميرا الحراريَّة التي لا تظهر أبدًا كما بقيَّة الكاميرات، على وجهه بشكل أقرب، ثم عينيه، وأخيرًا على شفتيه. كان آدم يبتسم، وأحيانًا يضحك لدرجة اهتزاز جسده، قبل أن يعود إلى سكينته. ثم تقترب أكثر من الورقة التي كانت تنام عند رأسه قبل النوم. ظهرت الخطوط بشكل واضح.

منذ مائة سنة والذئب رماد يركض بلا تعب ولا نهاية، مخترقًا هذه الجبال، وهذه التلال كرياح شتويَّة. أصبح يقرأ عنف الأشياء من حركة الأوراق واهتزاز الشجر ورعشة القمر. كلّما أراد أن يفرغ صدره من التعب، عوى عاليًا، رافعًا رأسه باتّجاهه. وعلى غير ما رواه بعض الأوّلين، فقد أنقذ رماد أكثر من قطيع كان على حافّة الموت بين أنياب الذئاب الأخرى، التي لا تحمل لون عينيه، ولا كثافة شعره الرماديّ. وكاد يموت وهو يخوض معاركه ضدُّها بلا هوادة، لولا أن لعق جراحاته بلسانه طويلاً قبل أن يرتقها بلعابه، ويرفع من جديد نظراته

الحادّة عاليًا، نحو سماء تعلو كلّما غضب، وتنخفض كلّما كان سعيدًا، ثم يركض من جديد بلا توقُّف. حادّ النظر ليلاً نهارًا ومرهف السمع في القرب والبعد. يقف قليلاً على حافّة الفراغات بثقة عالية. يتأكّد من أنّ الصوت الآتي من تحته هو لموجة تكسّرت على الصخور البركانيّة القديمة، والصوت القريب هو لقطرات الندى إذ تذوب على أوراق شجرة البلّوط الخشنة، متحوّلة إلى وشاح ناعم البياض، شديد اللمعان، يتوغّل فيه عميقًا. يلتفت الذئب رماد قليلاً نحو الشجر والغيم الذي يلامس الأوراق العالية، ثم يتّجه نحو مخبئه السرّي الذي لا أحد غيره يعرفه، لأنّه يُدرك جيّدًا أنّهم يوم يكتشفونه تكون قيامته. ينتفي نهائيًا عن الأنظار.

أقسم أنّي رأيته. شممت رائحته. سمعته يعوي من شدّة العزلة. كلّ سلالته ماتت وبقي رماد مثلي في مكانه، لا هو مدينة ولا هو غابة. عندما فتحت الكوّة الصغيرة في الظلمة الباردة، المطلّة على الفراغ والكثبان الرمليّة التي تتخفّى وراءها، بعيدًا، واحة النخيل، نسيت كلّ شيء، وبدأت أنصت حتى أخذني النوم. سمعت عواءه، ثم تقطّع أنفاسه، ثم أنينه، ثم حنينًا يشبه البكاء لم يكن بكاء، قبل أن تلتهمه التلال، بينما غرقت في بحر من الخوف والدم ملأني حتى ركبتيّ قبل أن أقوم مذعورًا من الكابوس. لا أدري أنا العربيّ الأخير، The last Arabic كما يسمّونني هنا، ماذا يفعل بي رماد وهو الذئب الأخير في سلالته. عالم كان ينطفئ أمام عينيّ تحت دمدمة الرعود والخوف، كما أضواء المدينة عندما تخفت بشكل متتابع فجرًا. الزلازل وهزّاتها تملأ دماغي. ماذا أكلت؟ أيّ سمّ وضعوه في ذاكرتي؟ أتأمّل التلال الجافّة التي ينتصب فيها هذا الخوف، فلا أرى شيئًا! أرى فقط فراغًا مهولاً، ثقبًا أسود تغيب فيه كلّ حياة.

- لا أدري من أين جاء بهذا الذئب الذي يسمّيه *رماد*، ويقول عن نفسه إنَّه ينتمي إليه، وإنَّه من سلالته، ويشعر بقربه الغريب. في هذه أيضًا، يختلف عن بقيَّة سكّان آرابيا الذين كانوا يرون في الجمل والحصان نموذجهم.

- من علامات الجنون يا سيّدي الماريشال. سجيننا الذي مات متيبّسًا في غرفته، وقع له الشيء نفسه.

قال سير جون في الجهة الأخرى من الغرفة، وهو يراقب بقيَّة الشاشات التي تملأ الغرفة البيضاء، في الطابق السابع والأخير، في قلعة أميروبا، ويحاول أن لا يخطئ أيّ مشهد له أهمّيَّة. ليتل بروز يراهن عليه كثيرًا. هو من أتى به ورسّمه في هذا المكان الذي تنسج فيه كلّ الأسرار.

- كلّ شيء إلّا الموت. يجب أن يظلّ حيًّا يا سير جون.

- سيظلّ كذلك يا سيّدي، ما دمتَ أعطيت أوامرك للدكتور ملارمي. يعرف كيف يحافظ على الأحياء.

- لا أريد أن أدخل في صراع مع عساكر البحر الأحمر ومضيق هرمز. هم أصحاب القرار الأعلى.

أطفأ سير جون، كما تعوَّد أن يفعل في تلك الساعة، كلّ الأنوار، ولم يترك إلّا نورًا واحدًا يملأ الساحة العامّة، للجهة الجنوبيَّة من القلعة، والعمود المركزيّ الذي يضيء البوّابة الرئيسيَّة. ثم تزحلق في *سَاك دو كوشاج*[1]، الذي يشبه فراشًا عسكريًّا يغلق من كلّ الجهات بسحّاب.

كان آدم يبدو متعبًا، منذ أيّام لم يعرف الراحة. عندما تساءل عن

---

(١) Sac de couchage

وضعه الغريب والشاذّ، قيل له إنّ ما حدث كان فقط تحييدًا لمجموعات مسلّحة، كانت تريد أن تضع قنبلة في القلعة، قام بها بعض المنشقّين عن اتّحاد القبائل العربيَّة أوتا[1] UTA التي تربطها معاهدات سلام بقلعة أميروبا. يُقال، منذ مجيء آدم إلى هذا المكان، الكثير من بقايا قبائل آرابيا، تقايض للحصول عليه. كلّ واحدة تريده لها لغرض وحدها تعرف سرّه. قبل أن يسرّب له بعضهم أنّ القصَّة وما فيها، أنّه لم يُختطف ولكنّه حُمِيَ من اغتيال مؤكّد كان سيرتكبه التنظيم.

فجأة، انفجر ليتل بروز ضاحكًا مثل الرعد، ضحكة كأنّها تطاحن معادن فولاذيَّة فيما بينها.

ـ ههههه. . أرأيت يا سير جون؟ الشاشة رقم سبعة.

ـ غفوت قليلاً يا ماريشال.

ـ انظر جيّدًا.

توقّفت الصورة عند الجرذين اللذين ظهرا فجأة في الساحة الجنوبيَّة للقلعة.

ـ ربَّما جاعا وخرجا يبحثان عمّا يأكلانه.

ـ أنت غبيّ. انظر جيّدًا يا سير جون.

وبدءا يتأمّلانهما بالتصوير البطيء؟ رآهما يقتربان من جديد من بعضهما بعضًا، ثم فجأة أعطى الجرذ الضخم مؤخّرته للثاني، الذي تشمّمها للحظات قبل أن يقفز على ظهره، بخفّة ورشاقة. التصق به بقوّة ثم تشبّث به أكثر لكي لا ينزلق، وبدأ يحرّك جزءه الخلفي بسرعة جعلته يرتجف، كأنّه يحتضر، في غيبوبة تامّة. استمرّا على هذه الوضعيَّة لدقائق طويلة، ثم انتفضا كأنّهما يزيلان غبارًا التصق بهما،

---

(1) UTA (Union des Tribus Arabes)

وعادا إلى جحريهما، منتشيين بما فعلاه.

ـ أنا أكره الجرذان، ولكنّها في حالات كهذه، تبدو جميلة. كان على آدم الانتساب لهذه المخلوقات الحيَّة بدل الانتساب لذئب قاتل وشرس وهارب باستمرار من مطارديه، أو من الذين يريدون فروه. ألم يكن من الممكن أن يفعلا ذلك في الجحر بدل فعله في العراء؟ الجرذ، حتى الجرذ لم يفقد رغباته حتى وهو تحت المطر وبرد الخريف الليليّ، على العكس من الإنسان الذي يضمر كلّ رغباته ويخفيها باسم قياسات أخلاقيَّة، صنعها الأوّلون لأنفسهم لتنظيم حياة بدائيَّة، فقيَّدت اللاحقين وكأنّها حقائق مطلقة.

ـ صحيح يا ماريشال. الإنسان يقتل نفسه بنفسه.

تعوَّد ليتل بروز على أن ينام بنصف عين مثل الديك، حتى لا تداهمه صورة الحادثة التي كادت تودي بحياته في الرماديّ، التي تعاوده كلَّما أغمض عينيه بغبارها ودمها وصراخها، فقد فيها والده العسكريّ، حينما التصقت بشاحنتهما سيّارة صهريج أودت بحياة الكثير من عساكر الشاحنة، ووالده، بينما أُصيب هو بحروق من الدرجة الثالثة في كامل جسده ووجهه، وانتهى الأمر ببتر يده اليسرى ورجله اليمنى. بقي على إثرها في ألمانيا مدَّة زمنيَّة حتى تمّ خلالها تأهيله وتعويض العديد من أجزائه بأعضاء اصطناعيَّة، بما في ذلك عضوه التناسليّ الذي يساعده على التبوّل. طلب بعدها العودة إلى مكانه. بصعوبة، حصل على الموافقة.

عندما رفع عينيه عاليًا، رأى ليتل بروز في إحدى الشاشات أنّ الصورة الأخيرة ما تزال مثبَّتة على الورقة، التي كانت تنام عند رأس آدم.

ـ لا أدري يا سير جون ماذا يريد هذا المخلوق الغريب منّا، تحصُل على

أكثر من حقوقه؟ لم تكفه الأوراق للكتابة، ويطالب الآن بجهاز من الجيل الأخير، يستطيع أن يكتب به سماعيًّا من دون قلم. أحيانًا أتمنّى أن أكون في مكان بعض هؤلاء الغيست، الذين جعلوا من جمعيّات حقوق الإنسان وسيلتهم للراحة المطلقة.

هو ليس سجينًا. قصدي ليس مقيمًا يا ماريشال ليتل بروز.

أيّ واحد في هذه القلعة هو سجين. وعلى الجميع أن يدركوا هذا، ويكونوا متواضعين بالتالي في مطالبهم. ننتظر عدوًّا لا نعرف متى يباغتنا، وهم يستمتعون بكلّ المزايا التي يريدون.

لكنْ آدم حالة خاصّة يا سيّدي، وله اعتبار كبير في الهيئات العليا الدوليَّة، وعند ضبّاط البحر الأحمر ومضيق هرمز. من الأفضل عدم الاصطدام معهم، وأنت على مشارف الارتقاء إلى رتبة ماريشال.

أنت تعرف موقفي جيّدًا. وحتى شعاري الذي أخذته من غيري، لأنَّه يعبّر عن شيء حقيقيّ: العربيُّ لا يصبح جيّدًا إلّا بموته. كائن غريب متعلّق حتى الموت بفضلات التاريخ، ولا أعرف ماذا يجني من وراء ذلك. هو يقتل نفسه بنفسه بحشرها في الموت.

لكنْ آدم أميركيّ يا سيّدي. أخطأنا يوم ألبسناه اللباس البرتقاليُّ مثل سجناء غوانتنامو قبل قرابة قرن. لكنّي أعرف أيضًا أنّه خطأ الذين جاؤوا به إلى هذا المكان. ملفُّه كان شبه فارغ.

أستغرب كيف لأميركيّ أن يصرّ على الكتابة بلغة ماتت من زمان.

طبيعيّ يا سيّدي. انظر إلى الهنود الحمر عندنا. انقرضوا من زمان، لكنَّهم يصرُّون على لغتهم.

الهنود الحمر لم يكن لهم حظّ آدم. يعرف الإنجليزيَّة التي كبر في أحضانها. الفرنسيَّة والإسبانيَّة. الألمانيَّة. تعلَّم بسرعة الأورولينغوا التي أصبحت هي لغة الجميع. معرفته للإنجليزيَّة خفَّفت عليه عناء

تعلُّمها، فهي كما تعرف، مكوَّنة من أكثر من ٨٠٪ من الإنجليزيّة الأميركيّة. عاش في أميركا حياته كلّها كما يقول التقرير الإضافيّ، واشتغل في مخابرها. عندما سألته عن إصراره على الكتابة بلغته، قال وكأنّه كان ينتظر سؤالي: أنا مستمتع لكتابة هذه البراكين برمادها. لم تعد اللغة مشكلة.

ـ تتذكّر يا سيّدي ماذا قال عندما سألته عن إحساسه العميق بعد التخلُّص من اللباس البرتقاليّ؟ قال إنّه يشعر بسعادة وكأنّه وُلد من جديد. قبل أن يضيف: تقولون إنّي غبست ولست مقيمًا، لكن لباس العار كان يضعني في الحالة الثانية. اللباس شتيمة للبلاد التي أنتمي إليها ومنحتها كلّ ما أملك. أنا عالم نوويّ أميركيّ، من آرابيا التي لم تعد موجودة إلّا كتيه رمليّ، ولي قيمتي وإنسانيّتي.

ـ مشكلة العربي أنّك أينما وضعته سيمكث في ظلّه الأوّل. حظّه كبير. كان يفترض أن يُقتل لحظة مغادرته مطار رواسي، لكنّه خرج سالمًا. حتى إنّ هناك من كان يخطّط لاختطافه. فصراع المائة سنة بين أرابيا(١) وأزاريا(٢) جعله الطريدة النموذجيّة.

ـ بعدما عرف حقيقة وضعه، أصبح ينام بسهولة أكثر وسكينة واضحة.

ـ بفضل المحلول الطبيعي. حتى هذا طلبوا منّا إيقافه، مع أنّي لست موافقًا. على الرُّغم من أنّه يبدو لطيفًا، ولا يشبه بقيّة الآرابيين في بؤسه وعناده. فهو يفكّر وعالم كبير، ورجل كان له مخبر كبير في بنسلفانيا، بحسب التقرير الجديد المكمّل الذي وصلنا مؤخّرًا.

ـ أنت سيّد العارفين يا سيّدي، المحلول المنوّم، ليس جيّدًا على الأمد

---

(١) Arabia

(٢) Asaria

الطويل. في السنة الماضية أفقدنا مقيمًا مهمًّا. كنّا في حاجة ماسَّة لمعلوماته. ذاكرته امّحت شيئًا فشيئًا، حتى ضمرت نهائيًّا قبل أن تضعف كلّ مناعته ويموت. مع أنَّه كان محجوزًا، فقط شكوك كانت تحوم حول تعامله مع التنظيم. بينما السجين الأكثر خطرًا الكوربو[١]، إرهابيٌّ معروف وقاتل محترِف، وخرّيج أميركا، هرب. كان يتمتَّع بحرّيَّة أكبر، ممّا تسبّب في عزل مسؤول القلعة نهائيًّا. استغربت كيف استطاع أن يخرج من القلعة في ظلّ كلّ هذه الوسائل التي تراقب أنفاس الشخص المحجوز.

ـ أكبر خدمة أسداها لي فرار الكوربو هي أنّي هنا بسبب تهاون الإدارة السابقة.

ـ الصرامة واجبة.

ـ أسوأ من هذا، علينا أن نسمع له. جماعة البحر الأحمر ومضيق هرمز لا يعرفون شيئًا عن هذه القلعة. يطلبون منّا حماية المنطقة وأسرارها، ويسمحون للجان حقوق الإنسان أن تأتي لتعطينا دروسًا في الحقوق. هل تعرف آخر طلباته؟

ـ لا يا سيّدي.

أخرج ليتل بروز ورقة قرّبها من جهاز سكانير القريب منه، فارتسمت بعض تفاصيل الرسالة، حتى تلك التي بدت ناعمة وغير مقروءة بسهولة.

لا طلب لي إلّا الاعتراف بوضعي كعالم أميركيّ قادم من آرابيا، مثل اللاتينو والأفارقة والأوروبيين الذين يشكّلون المجتمع الأميركيّ. لست سارقًا أو إرهابيًّا أو قاتلاً. أريد أن أعرف حالة زوجتي التي

---

(١) من الفرنسيّة، Le Corbeau التي تعني الغراب.

كانت معي عند مدخل المطار قبل أن تفصل بيننا حافلة الخطوط الفرنسيَّة.

ـ هل رأيت يا سير جون إلى أيَّة درجة وصل به الجنون؟

ـ نعم يا سيِّدي. كنت أريد أن أذكِّرك ببرنامج الغد يا ماريشال[١].

ـ ما عدا زيارة الأفعى السويديَّة إيفا، والمجنونة الفنلنديَّة لحقوق الإنسان دريمز، والمخبولة الألمانيَّة ميريلين أو ميريْ. هل فيه شيء آخر؟ كأنَّ اليد التي جمعتهنّ في مكان واحد، تريد أذيّتنا.

ـ هذا عملهنّ يا ماريشال، لكنْ يحتاج الأمر إلى شيء من الحذر منهنّ.

ـ هذا النوع الذي يأكل في الغلَّة ويسبّ في الملّة، يحتاج إلى أن يعطش ويجوع ويُختطف ويُذاق الآلام لكي لا يعود أبدًا إلى هذه الأرض التي لم تُخلق له. أعرف. وصلتني عريضتهنّ، وعلينا أن نحميهنّ أيضًا في هذا القفر ونرافقهنّ. الكوربو لا ينتظر إلّا مثل هذه الفرص ليبيِّن سلطانه على صحراء الربع الخالي. ارتح قليلاً. أنت تتعب كثيرًا، لا أدري ماذا كنت سأفعل بدونك يا سير جون.

ـ ليلتك خير وفتوحات جديدة يا ماريشال.

ضغط سير جون على الزرّ الأحمر. خفتت الإنارة الداخليَّة قليلاً. وتعمَّقت ظلمة الزاوية التي كان يتخفّى فيها ليتل بروز، الذي لم تسمع إلّا حركة كرسيِّه المتحرِّك، وهو ينسحب نحو غرفة النوم المتقاطعة مع الغرفة البيضاء، بينما ظلَّت كلّ الشاشات مفتوحة ومرئيَّة، مثبَّتة على أماكن بعينها. آدم في وضعيَّة جنينيَّة، لم يتحرَّك. الورقة التي كتب عليها كلماته الأخيرة تبدو واضحة. تظهر الأسلاك الشائكة الخارجيَّة التي تُحيط بالقلعة وأضوائها الحادَّة، بكلّ تفاصيلها الصغيرة. ساحات

---

(١) Maréchal

القلعة الأربع، الشماليَّة والجنوبيَّة، والشرقيَّة والغربيَّة. المداخل الرئيسيَّة. مختلف زوايا القلعة التي تظهر حركة العسس الليليّ، وهم يذهبون ويجيئون بانتظام. والساحة الرئيسيَّة التي تنتهي بطريق ممتدٌ يشبه مضمار الرياضيين المتسابقين التي يسلكها آدم كلّ صباح، المدرج القديم، إلَّا أيَّام الأعياد الوطنيَّة والمناسبات الخاصَّة، حيث تحتلُّها الفرق النحاسيَّة وفيالق الجيش، يقطعها كلّها مشيًا بطولها الذي يقارب الكيلومتر! ولا يرفع رأسه. يفكّر في أشياء مبهمة لا تسعفه دائمًا في انتظار أن يُسمح له بالركض في المدرج تحديدًا، لأنّه يذكّره بمضمار بنسلڤانيا وبأمايا التي ظلّ جائعًا إلى وجهها وعطرها بطعم الفراولة، وأنفاسها، حتى آخر لحظة عندما فصلت بينهما حافلة الخطوط الجوِّيَّة الفرنسيَّة.

ـ ٢ ـ

تمضي الأيَّام كما الريح الفارغة.

لا شيء تغيَّر. الوتيرة نفسها، والوجوه نفسها، والطقس الذي تخلّى عن لباس الخريف بسرعة نَفَسِه.

عندما اخترقت الشمس الباردة الزاوية العليا من النافذة، امّحت بعض ظلال الغرفة البيضاء.

مسح لبنل بروز على وجهه بالمنشفة التي أدخلها في إناء الماء الدافئ.

تأمّل وجهه طويلاً في المرآة الخلفيَّة العاكسة. تحسَّس تفاصيل ملامحه واحدًا واحدًا. ضغط على ذقنه. خدّه، جبهته. جلدة رأسه. لا شيء تغيَّر إلّا بعض الانتفاخات هنا وهناك، المرتبطة بالسنّ أكثر من ارتباطها بالسكَّري الذي يعطي لوجهه ملمحًا طفوليًّا ناصع الحمرة، على الرَّغم من قلّة النوم أو انتظامه.

فرك عينيه، ثم التفت صوب الحائط. غمره البياض الكلّي الذي

يتحوّل من حين لآخر إلى كفن.

«قلّة النوم لا تقتل. على كلٍّ، النوم ليس صديقًا لي، بل تنبت بيننا أحيانًا عداوة ثقيلة، لكنّني ألفت الغفوة البيضاء، أرمّم بها صعوبة النوم العميق، حيث لا حلم ولا كابوس. كلّ شيء أملس مثل الرغوة، كلّما حاولت القبض عليه انفلت من بين أصابعي المرتعشة دومًا. الطبيب الأوّل قال من قلّة النوم، والثاني أكّد بعد فحوصات كثيرة أنّه بداية الرعاش. أصدّق الثاني، لأنّه يمنحني فرصة لمواصلة رسالتي، ثم إنّ رتبة ماريشال لم تعد إلّا على بُعد خطوة، لن أخرج من هنا إلّا بها. لكن هذا العرق يتعبني. ينزل اليأس عليّ. ليس عرق الحروب التي خضتها تحت العلم الأميركيّ، لكنّه عرق اليأس. دائمًا العرق كلّما تعلّق الأمر بالحاجة البيولوجيّة التافهة. مضيعة الوقت. أحيانًا وأنا جالس على قصعة التواليت تنتابني الرغبة في القيام ببعض الحسابات العبثيّة، لو تفطّن لها الناس لانتحروا. كم يخسر المرء من الوقت وهو ينظر في الفراغ، ويعتصر فقط ليتخلّص من فضلاته؟ إذا افترضنا ربع ساعة، في كلّ وقفة بيولوجيّة بمعدّل خمس مرّات في اليوم يصبح لدينا العدد بالدقائق ٥ × ١٥ = ٧٥. كم نضيّع في الشهر؟ ٧,٥ × ٣٠ = ٢٢٥٠. وفي سنة ١٢ × ٢٢٥٠ = ٢٧٠٠٠. هل يعقل ٢٧٠٠٠ دقيقة نضيّعها في السنة في اللامعنى. كم يساوي هذا العدد من الدقائق من ساعة؟ ٤٥٠ ساعة تسرقها منّا الفضلات الثقيلة. كم يوم يذهب هباء من حياتنا؟ ١٨,٧٥، يعني ١٩ يومًا تقريبًا بلياليها تضيع فقط في المرحاض. فوق هذا كلّه، هذه الحسابات لا تنطبق عليّ، لأنّ حالتي خاصّة بسبب حرب العراق اللعينة، والرمادي التي سرقت منّي والدي وبترت جزءًا منّي، في انفجار صهريج تافه. أحتاج إلى أكثر من ذلك. فأنا خارج الحسابات

البيولوجيّة وحدها. تركيب الذكر الاصطناعيّ للتبوُّل وحده يقتضي منّي ساعات من العرق البارد والتعب والخوف من الانسدادات غير المحسوبة. أحارب هذا العبث كلّه بكتابة مذكّراتي: ***يوميّات ماريشال في دوّامة العزلة****، كلّما وجدت لذلك بعض الوقت».*

للمرّة العاشرة، يمسح العرق الذي كساه في كامل جسده، وهو يقوم من على الكرسيّ المتحرّك. بان ظلّه، وبعض ملامحه الهاربة التي انطفأت بسرعة عندما تخطّى المكان المضاء قليلاً بشمس الصباح. تزحلق نحو المرحاض متّكئًا بيده الوحيدة، اليمنى، على الحائط القديم. توقّف قليلاً. تنهّد عميقًا، ثم واصل مشيته المرتبكة حتى المرحاض. عندما ارتاح في القصعة الملتصقة بمكتبه، في الغرفة البيضاء، مسح عرقه البارد، فشعر ببعض الراحة لدرجة أن أغمض عينيه متلذّذًا. كان احتقان البول في مثانته قد آلمه كثيرًا. فقد اضطرّ في الأيّام الأخيرة، بسبب العواصف الرمليّة التي لا يمكن تفادي دخولها من فجوات النوافذ غير المرئيّة، ومن جهاز التبريد والتسخين، إلى نزع عضوه الاصطناعيّ العديد من المرّات، والنفخ فيه بفمه حتى يزيل ما علق به من حصى سدّ المجرى. يأخذ ذلك منه وقتًا كثيرًا، بين لحظة نزع الأنبوب الداخليّ الذي يتوغّل عميقًا في المجرى البوليّ، وتنظيفه ثم إعادته إلى مكانه، مع الآلام الحادّة التي تصحب العمليّة والتي لا شيء يهدّئها إلّا شرب القرص المخدّر. في البداية، كان يصرخ من شدّة الألم، لكنّه مع الوقت تعوّد على ذلك، بأن يتناول القرص، ويضع خرقة من قماش خشن تحت أسنانه، ثم يضغط بكلّ قواه، فيتلاشى الألم ويموت صراخه في أعماقه. في السابق، عمليّات التنظيف والتبديل، كان يقوم بها طبيبه الخاصّ ستيفنسن أو ستيف كما تعوّد أن يناديه، الذي يقوم أوّلاً بحقنه وانتظار بعض الثواني قبل بداية

عمليَّة تنظيف جهازه وتثبيته من جديد. يتذكَّره ليتل بروز بحقد كبير، لأنّه بعد سنوات طويلة في خدمته وحمل سرّه، تركه بعد سنة من تعيينه في القلعة. لم يتحمّل لا نظامها ولا بشرها ولا رياحها الصفراء ولا انتظاراتها المخيفة، ولا حتى صرخات ليتل بروز وهو يشتمه ويشتم أمّه وأهله كلّما شعر بالألم، قبل أن يهدأ ويعتذر منه، ويترجّاه أن لا يغضب منه.

اليوم، عندما يقوم بعمليّة التنظيف الكبيرة، لعضوه الاصطناعيّ، يعلم مقرّبيه بالخصوص سير جون، بأن يخبروا كلّ من يسأل عنه، بأنّ لديه اجتماعًا عسكريًا مهمًّا لا يعرف كم سيدوم، ولا يريد أن يزعجه أحد حتى تصبح العلامة الحمراء، التي عند مدخل الغرفة البيضاء، خضراء.

اتّخذ في الأخير قرارًا نهائيًا بإجراء عمليَّة زرع تعفيه من كلّ هذه الطقوس البائسة، بعد فشل العمليّتين السابقتين، قبل سنوات مضت. إذ إنّ العضو الذي زُرع له في المرَّة الأولى، ظلّ لحمة ميّتة، متدلّية لا تصلح لأيّ شيء. أكثر من هذا، كان يشعر دائمًا بنفور تجاهه لأنَّ لونه كان خمريًا، غير متناسق وشقرته الفاضحة لدرجة الحمرة. أقنع نفسه بأنَّ العمليّات السرّيّة التي تُجرى في *كلينيك*[1] بيغ بروذر، في القلعة، قد نجح الكثير منها، لأنَّ الطاقم الطبّيّ عسكريٌّ وجادٌّ، ويحفظ الأسرار. موتى الحروب يوفّرون كلّ الأعضاء التي يحتاجها جنود القلعة وغيرهم، في العمليّات الجراحيَّة الحسّاسة. في البداية، وجد صعوبة كبيرة في إقناع العساكر بالتضحية بأعضائهم بعد أن منحوا أرواحهم للأرض التي شكّلت قلوبهم وحواسّهم، لكنّهم، مع نجاح

(١) Clinique Big Brother مصحّة الأخ الأكبر.

العديد من عمليّات زرع الأيدي والأرجل والكلى والكبد والطحال والأعضاء التناسليَّة المبتورة جزئيًا، في مستشفى القلعة وكلينيك بيغ بروزر، وافق الكثيرون بكتابة وصايا بهذا الشأن وتركوها في مكتب خاصّ بذلك. حتى إنّ التوابيت المقفلة والمشمَّعة التي تُبعث لذوي المريض لا تتوافر إلّا على قطع ممزَّقة لا يمكن رتقها. أصبح كلّ واحد من الجند يرى نفسه مانحًا ومحتاجًا في الوقت نفسه. لم تكن جثث الموتى في حروب القلعة هي المصدر الوحيد. فقد شكَّل ليتل بروز فرقًا حيَّة، سمّاها *العقارب الصفراء*، وهي خليط من أوروبيين وآرابيين، لتصيد الجثث لحظة سقوطها، بما في ذلك جثث الأعداء التي تُترك في مكانها تنزف. تؤخذ إلى المستشفى المتنقِّل حيث يتمّ فحصها، ويُتخذ القرار بشأنها في اللحظة ذاتها، بدون الاضطرار إلى الرجوع إلى الموافقة العسكريَّة المسبقة.

«تلك مسألة أخرى، أكثر تعقيدًا أحتفظ بها لوقت قادم، عندما تصدر مذكَّراتي الحربيَّة. طبعًا سيقولون بأنّي كنت أهرِّب أعضاء الموتى والمقتولين، سمعت تسريبات من هذا النوع، وسأجد من كان وراءها، لكنّ هذا لن يزيد إلّا في تغذية الأسطورة. الحقيقة الوحيدة أنَّه بفضلي ما يزال الكثير من المسؤولين والضبّاط الكبار والأغنياء، عبر العالم، على قيد الحياة، ولن أتوانى عن ذكر أسمائهم في مذكراتي يوميّات ماريشال في دوّامة العزلة، التي بلغ عدد صفحاتها حتى اللحظة ٣٠٨٤. هذا الرقم الذي يتشاءم منه الكثيرون، يخفِّف من آلامي وشططي!».

اتّكأ ليتل بروز على كرسيّه الذي يُفتح بكلّ طوله، ثم تمدَّد قليلاً. شعر بالراحة الكاملة. تنفّس طويلاً كأنّه خرج من شيء ثقيل يصعب عليه تحمُّله، ثم ضغط على الزرّ، فلمعت العلامة الخضراء.

ـ أنا هنا سير جون. أنا لا أحبّهم، لكنّي أعتقد أنّ موعد ليدرافيك،

رابطة الدفاع عن حقوق الأجناس الآيلة إلى الزوال *LIDRAFIC*(١) قد اقترب.

ـ عندي البرنامج يا سيّدي. خمس دقائق يا ماريشال.

ـ تصرّف معهنّ ما دامت القرارات من عساكر البحر الأحمر ومضيق هرمز.

ـ هو ما سأفعله حالاً.

فجأة رنّ التليفون ثلاث مرّات متتالية. يقول دائمًا في أعماقه كما نصحه والده، إنّ من أراده عليه أن يجرّب العديد من المرّات إذا كان حقًا بحاجة إليه، إلّا في الحالات الاستثنائيّة.. وتلك الحالات لها أرقامها الخاصّة وألوانها. فجأة لمع الضوء الأحمر. التليفون الذي يعقبه صوت مثل رجال المطافئ، هذا يعني أنّ الأمر خطير ولا ينتظر. الضوء البرتقاليُّ دليل على أنّ منْ يجلس وراء التليفون يريد أن يمرِّر سرًا، وعلى مراقب التسجيل أن يطفئ أدواته. الضوء الأصفر يعني أنّ صاحبه يريد أن يستفسر عن شيء مهمّ. الأخضر يمكن أن لا يردُّ عليه إلّا إذا تجاوز الأربع رنّات، ولم يقطع هو من تلقاء نفسه.

ضغط على زرّ الشاشة، ثم حمل السمّاعة وهو يمسح عرقه الذي نضح خفيفًا، من جديد. رأى وجه روميو الذي لا لحم فيه. تظهر فيه عظام الفكّين بشكل بارز. لا يتوقّف عن العطس بسبب الحساسيّة التي سكنته منذ أن وطأ هذا المكان، وكلّما هبّت العواصف الرمليّة، انتابته حالات الاختناق المتواترة. أكّد له الأطبّاء أنّه مُصاب بالربو، لكنّه يرفض أن يصدّق أو يقبل بذلك.

ـ كيف حالك مع الحساسيّة في هذا الصباح يا روميو؟

---

(١) ***La Ligue des Droits des races en fin de cycle***

ـ اليوم، أفضل قليلاً يا ماريشال. البارحة كدت أختنق حتى أخذوني إلى المستشفى.

ـ عرفت. ولهذا يجب أن لا تتهاون مع صحّتك. صحّتك شأننا. عليك أن تداوم على الأدوية. ليس سهلاً أن تخدم أرضًا نذرتَ نفسك لها. هل وصلت لجنة ليدرافيك؟ يا روميو؟

ـ لهذا أتلفن يا سيّدي. ثلاث نساء، إيڤا، دريمز وميريْ، هنّ على موعد معكم يا سيّدي. باقي معلومات الشريحة فيما يخصّهنّ، عندكم. هنّ في قاعة الانتظار ينتظرن إذنك.

ـ أخبر سير جون عنهنّ.

ـ المعلومات كلّها لديه. أنتظر فقط إشارته.

ـ ابعثهنّ إذن.

ـ أمرك معلّمي.

عندما ضغط على زرّ شاشة قاعة الانتظار، رآهنّ. كنّ جالسات مثل أصنام الشمع. لا كلام سوى النظر وتفحُّص المكان بنوع الوجل الذي يخترق العينين. من نظراتهنّ، عرف ليتل بروز أنّهنّ على علم بكلّ نظام قلعة أميروبا. إيڤا زارت القلعة والسدّ العديد من المرّات، والتقت كثيرًا بآدم وحاورته في الكثير من تفاصيل حياته، لدرجة أن احتجّت في مرّة من المرّات، بصوت عال: *أنا لا أفهم؟ هل هذا الرجل غيست*[1] *أم مقيم؟ أو هو من سكّان الرمال الهاربين من الحروب الأهليّة في مقاطعات آرابيا*؟ لكنّ دريمز وميريْ جديدتان.

ـ *جميلات لولا الأظافر الطويلة التي تتحوّل بسرعة إلى عشّ للأوساخ*...

(١) من الكلمة الإنجليزيّة Guest التي تعني الضيف.

تمتم ليتل بروز، وهو يعدِّل من كرسيِّه المتحرِّك.

في مثل هذه الحالات الحسّاسة، لا يتدخّل. يبقى هو عادة في الظل يتابع ما يدور أمام عينيه. إذا وجب التدخُّل، يفعل ذلك بدون أن يظهر، وإلّا يكتفي بالمتابعة الجادَّة ويتمّم الأمور لاحقًا مع نائبه سير جون.

نظر إلى ساعته. كان الوقت يمرّ بثقل إلَّا في تلك اللحظة، شعر به يركض بسرعة. الوقت هنا كصخرة سيزيف، حركته مكرورة وغير مريحة أبدًا. يصعد وينزل وفق مشيئته الدائمة. وكلّ من يقف أمامه ولا يفهمه، يطحنه. كلّ من مرُّوا على هذه القلعة إمّا ماتوا بسكتة قلبيَّة، أو أُصيبوا بالجنون في نهاية أعمارهم، أو انتهوا حزنًا وكمدًا. هو لا يشعر بأيّ شيء من هذا أبدًا. عندما انتُزع من كرسيّ الإعدام بسبب قتله امرأة أهانت رجولته، وجيء به إلى الرماديّ من سجن فلوريدا وتكساس قبلها، كان قلبه قد تحوَّل إلى قطعة حجر باردة. رأى أُناسًا كثيرين يموتون أمام عينيه، مجرمين، قتلة، مهرِّبي مخدِّرات. . ورأى أيضًا أُناسًا يموتون ظلمًا، ولم يكن قادرًا على فعل أيّ شيء بسبب الخوف أو الجبن الداخليّ، تعلّم ما سمّاه *العدميَّة*. منذ اللحظة الأولى، عرف أنَّه وسط آلة تتجاوز إرادته ورغباته، أقوى منه. طاحونة بلا نهايات ولا بدايات، عليه أن يسايسها ولا يقف في طريقها. في السجن تعلَّم كلّ شيء، وفي الحروب تمرَّن على الأجساد الحيَّة. قال له من خبر الأمكنة المظلمة، الذي لم يعد يتذكَّر اسمه لأنّه تماهى فيه إلى أن أصبحه هو: عليك أن تكون براغماتيًّا يا عزيزي مالكوم بلير، وتقبل بما هو موجود. ما هو موجود صنعته القرون المتتالية، ولم يصنعه الأفراد الصغار مثلي ومثلك. إذا أردت أن تكون زيتًا تسهِّل حركة الطاحونة، فذلك ممكن، وإذا أردت أن تكون غير ذلك، فذلك

ممكن أيضًا، ولكنْ عليك أن تختار مهنة أخرى. منذ ذلك الوقت تعلَّم مالكوم كيف يكون زيتًا للآلة فقط. حتى إنّه عندما أحبَّ المرأة التي قتلها في النهاية، شعر بأنّ المسألة لا تغدو أن تكون كيمياء ذهنيَّة لا أكثر. لا يوجد شيء اسمه الحبّ، ظلّ يكرّر على مسمعها كلّما حلمت بالهروب نحو عالمها السرّيّ. الجنس أسبق من الحبّ. الجنس يأخذ ثواني، دقائق على الأكثر. نصف ساعة مع التمديد المملّ؟ بينما الحبّ حالة من الهوس تشغل صاحبها حتى الموت بلا فائدة، إذ يظلّ معلَّقًا على خيط مهدَّد بالتمزُّق في كلّ ثانية. لا حياة للمحبّ أبدًا. ورقة في مهبّ الريح. يظلّ رهن هذا الخيط الذي كلّما اشتدّ في الوسط، نحف وتمزَّق، ولا شيء بعدها إلّا الهاوية. لم يكن نيتشه مخطئًا عندما اعتبر الحبّ مفسدة للإنسان، وتدميرًا لفاعليّته.

نظر إلى الساعة. هو الوقت بالضبط.

- رافقهنّ يا روميو باتّجاه مكتبي. في المكتب الصغير، في القاعة البيضاء. هناك أفضل. سير جون في انتظارهنّ.

- أمرك ماريشال. لا مشكلة، أعرف مسالك الجهة الشماليّة جيّدًا.

لم يكن اللقاء طويلاً. أقصر بكثير ممّا تصوَّره هو نفسه. بالخصوص أنّهنّ على علم بتفاصيل الملفّ الذي وصله بشأن آدم. فقد دخلن وفي أيديهنّ عريضة فيها المطالب البسيطة التي يمكن تطبيقها بدون إشكال. التي تحدّثت أكثر من الجميع هي إيڤا السويديَّة التي ظلّت تشدّد على جملة: *تمنّينا أن يكون ليتل بروز هنا ليسمع منّا ما كنّا نريد أن نوصل له مباشرة طلبات اللجنة!* بينما ظلّ سير جون يردّ برتابة مملّة وبنضوب صبره، على الرّغم من أنّه شخص يخفي أكثر ممّا يظهر، مثل حالة كلّ الإنجليز. ما يزال إلى اليوم يظنّ أنّه من سلالة ملكيّة:

- هذه وظيفتي. سيصل مطلبكن له. أنتنّ مع نائبه، الأمر الذي يعني

مسؤوليَّة كبيرة لا يمكنني أن أتخطَّاها.

ـ نحن لا نريد شيئًا إلَّا أن يظلّ وجه أميركا ناصعًا، وتبقى قلعة الحريَّة والحداثة.

ـ العريضة واضحة ومطالبها دقيقة. *حريَّة آدم والتعامل معه كغيست حقيقيّ حتى يتّضح وضعه أكثر. حقّه في ممارسة الرياضة في المكان الذي يشاءه في القلعة، وأن يمنح فرصة رؤية زوجته ولو عن طريق السكايب، إذ نعرف أنَّ المكان سرّي قليلاً وبعيد أيضًا. وأن يسمح له بتربية حيوان يرافقه، كما طلب هو ذلك.*

ـ هو لا يتحدَّث إلَّا عن ذئب يسمّيه رماد. نسمعه يتكلَّم معه حتى في كوابيسه وأحلامه، فهل نأتيه به من غابات النخيل أو الجبال الجافَّة من أيَّة حياة، وهي كلّها ذئاب جائعة سيكون هو أولى ضحاياها ونتحمَّل نحن مسؤوليَّة لا تغفر لنا. هذا أمر يجب توضيحه.

ـ هو يطلب رفقة فقط يا سيِّدي. نعرف جيِّدًا أنَّه كانت لابنته يونا، سلحفاة كانت تحبّها، وتحادثها. حتى زوجته أمايا ورثت هذا الحبّ عن أمّها وجدّها الذي خرج بحروق كبيرة من انفجار هيروشيما النوويّ. لهذا تخصَّصت هي في حروق الإشعاعات، وقدَّمت كلّ خبرتها في التسرُّبات الإشعاعيَّة التي قتلت الكثيرين في أميركا وفرنسا واليابان والصين وروسيا. العالم ينام على موت هو من صنعه. أمايا، بتجربتها وخبرتها، ترى في السلحفاة حيوانًا مقاومًا لكلّ شيء بما في ذلك النوويّ، ولا يحتلّ حيِّزًا مثل الجمل الذي يملك خاصيَّة المقاومة نفسها. ولا نعتقد أنّ أمرًا مثل هذا يستحقّ جدلاً أو سجالاً. قد نجد له حلًا. أهمّ شيء حريَّته ورغبته في التواصل مع زوجته أمايا، وابنته يونا. وهذا حقّه، وليس مستحيلاً وصعبًا في ظلّ الوسائل الحديثة.

ـ كلّ طلباتكم ستُحوَّل كما هي، مع العريضة، إلى الماريشال ليتل

بروز. لا إشكال في هذا. فهو سيّد القرارات النهائيّة في هذه القلعة، لكنّه يأخذ بجدّيّة مقترحات كلّ مساعديه وتقاريرهم.

كان ليتل بروز يتابع الجلسة بكلّ تفاصيلها، مركّزًا على وجه إيڤا. يقرّب صورتها أكثر فأكثر حتى تتماهى داخل الألوان. يتساءل في أعماقه ما الذي يقود بشرًا مثلها للدفاع عن أشخاص لا يعرفون عنهم إلّا القليل؟ وقد لا يعرفونهم بتاتًا. تدافع باستماتة عنه، وكأنّها من دمه أو قريبة له، أو حتى حبيبته. هي شابّة وهو في عزّ العمر.

ـ *لم يكن نيتشه مخطئًا عندما اعتبر أنّ الحضارات العظيمة لا تُبنى بالخيارات السهلة.*

أبعد صورة إيڤا قليلاً حتى يتمكّن من رؤية وجهها من جديد. لاحظ أنّ في عينيها شهوة مضمرة، وعلامات وجهها الطفوليّة تفضح شبقها الخفيّ. أستغرب مرّة أخرى، ما الذي يدفع بامرأة شديدة الأناقة والجمال، على الرّغم من بساطتها، إلى المغامرة في الصحارى والعقارب والزواحف الخطيرة، والمجيء نحو قلعة معلّقة في فراغ الأرض؟ في أقاصي الربع الخالي، مع أنّ هذا الرجل الذي تهتمّ به إيڤا، كان يمكن أن يُقتل عند باب مطار رواسي[1]، وينتهي الحديث عنه؛ أو حتى يمكن أن يُردم في هذا المكان الذي يكاد يكون له قانونه الخاصّ، أو يسلّم *للتنظيم* أو للكوربو، مقابل فدية ماليّة. الصدفة فقط هي التي مدّدت في حياته. عندما وضع ليتل بروز الصورتين بشكل متقابل على الشاشة التي كان يتابع من خلالها كلّ شيء، لاحظ أمرًا غريبًا لم يفكّر فيه من قبل، شبهًا قويًّا بين إيڤا وآدم، لكنّه لم يستطع تحديده.

---

(١) Roissy

تنبَّه إلى رائحة البول الذي تسرَّب، فعرف أنَّه لم يضبط الحفّاضة جيِّدًا، بالطريقة التي علَّمها له طبيبه الأوَّل الذي تركه. فسحبها قليلاً إلى الأمام، حتى يغطِّي على الرائحة الحادَّة، ثم عطَّر المكان الذي يشبه غرف حفظ الجثث بمزيل للروائح الكريهة. ثم عدّل ظهره، وواصل الاستماع مثل طفل سلَّموه ما أراده.

لحظة الخروج توقَّفت إيڤا منبهرة بالمكان.

ـ مكتب جميل كأنّه استوديو سينمائيّ. هنا يُقيم الماريشال ليتل بروز؟

ضحك سير جون.

ـ ليتل بروز يقيم في القلوب كلّها.

ـ هذا صحيح. الكبار يظلُّون في الظلّ. بفضله تمَّت كلّ هذه الإنجازات التي تفخر بها القلعة، وهذا القفر والسدّ. لولاه لما كان شيء من هذا. غيَّر شكل المكان وعمقه.

بقدر ما كان جواب سير جون جميلاً وصارمًا، لم يعرف هل ليتل بروز، وهو يتابع ما كانت تقوله إيڤا، يحقد عليها، أم يحبّها. كأنّ في مديحها الجميل شيئًا من السخرية انعكست على ملامحها التي أعاد فيها العديد من المرَّات الشريط إلى الوراء ليفتِّش عن تفاصيلها. لاحظ أنَّ انكسار البسمة على شفتها السفلى وحركة عينها اليمنى، أفقدها بعض الجدِّيَّة.

«فقدت هذا النوع من العلاقات منذ زمن بعيد، ممّا ربّى لديَّ حقدًا كبيرًا تجاه المرأة. بل إنّ تجربتي علّمتني أنّ في أعماق كلّ واحدة منهنّ شيطانًا أحمر، يمكنه أن ينزلق بك نحو التيه ويجعلك معلَّقًا فيه بخيط، لا هو موت ولا هو حياة. عندما تكون في عزّك تصبح كلّ شيء، وعندما تنهار، لا واحدة منهنّ تلتفت إليك، بل وتستلذّ أحيانًا بنهايتك. لهذا لا أراهنّ. إذا حدث وتسامحت في

استقبال رجل من الظلّ، فلن تراني امرأة لأتحوّل بعدها إلى حالة عاطفيّة. جيّد أن يكون الإنسان أسطورة، فهو لا يخسر شيئًا، لكنّه إذا تحوّل إلى آدميّ يصبح لا شيء. اليوم كلّ واحد ينسج حكاية ساخرة في الأغلب الأعمّ، تصلني يوميًا بالقناطير، وهذا إذا كان أغلبه لا يسعدني، فهو لا يقلقني لأنّه يغذّي الأسطورة».

قالت إيڤا بعد أن تخطّت العتبة:

- نعرف جيّدًا قلب ليتل بروز، فهو ليس سيّئًا وليس مخيفًا إلى هذه الدرجة، كما يشيع بعض المغرضين. فقط الناس لا يعرفون قلبه. وكلّ من جهل شيئًا عاداه. للأسف ما تزال هذه الحالة هي المتحكّمة في العلاقات البشريّة.

- متأكّد من ذلك، قال سير جون، وهو يصافحها وينسحب نحو عمق الغرفة البيضاء.

تفحّص ليتل بروز وجهها الجميل، وملامحها الرقيقة من خلال سلسلة من الصور التي ارتسمت أمامه على الشاشة. *كأنّها منحوتة بإزميل فنّان إيطاليّ من الحقبة الباروكيّة*. تمتم في أعماقه.

«مجنوووونة لو تعرف ما الذي تقوله وكيف يثير غرائزي الدفينة؟».

عندما شعر بأنّ مزيل الروائح الكريهة لم يعد كافيًا لتخبئة رائحة العفن، تحرّك قليلاً ثم مال بمؤخّرته نحو اليمين. تنفّس قليلاً مسترجعًا أنفاسه، ثم زحلق يده الوحيدة تحت سرواله، وعدّل قليلاً من وضعيّة الحفّاضة الكبيرة التي تنزلق بسرعة نحو اليمين. الرائحة الكريهة التي وصلت إلى أنفه، تسرّبت داخل المكتب أيضًا، قبل أن تتسلّل خيوطها نحو الغرفة البيضاء. أزعجه ذلك كثيرًا، وأشعره بالتضاؤل أمام امرأة جميلة بها سحر غريب وجاذبيّة خاصّة، كم تمنّى أن يكون هو

محاورها، وليس الآخرون الذين يصفهم دائمًا، كيفما كانت رتبهم، بالبلادة والغباء.

تمدّد على الكرسيّ بكلّ طوله.

فجأة، رأى ظلّه الذي أصبح طويلاً على غير العادة. تأمّله جيّدًا. يعرف الخطّ الذي يتوقّف عنده عادة. حدّه الذي لا يتجاوزه. شعر هذه المرَّة بأنّ ظلّه كبر لدرجة أنَّه تجاوز الحدّ بسنتيمتر واحد بالضبط.

أغمض ليتل بروز عينيه قليلاً، ثم حاول أن يستكين براحة.

ـ ٣ ـ

الساعة الآن تقترب من منتصف الليل. 11 h 50 mn 03 s بالضبط.

الشهب تخترق السماء. يراها تتقاطع بكثافة، لكنّه لا يسمع شيئًا. حتى هرب النوم من عينيه. على الرّغم من أنّه تململ طويلاً في الفراش لساعات طويلة بلا فائدة.

تكوّم آدم على نفسه مثل ثوب عتيق. تذكّر قصائده الليليّة التي كتبها في مراهقته. كان يمكن أن يكون المتنبّي، أو إليوت، أو شيلّر أو وايتمان أو ملارمي، أو رامبو الذين شكّلوا وجدانه، لكنّه أخفق في ذلك على طول الخطّ، لأنّه عندما كان صغيرًا تمنّى أن يكون طبيبًا يداوي فقراء الجبل والرمل الذين يسكنون في الخيام، يموتون بالعشرات، بالآلاف، وربّما بالملايين، ولا أحد يسمع نداءاتهم. ثم غيّر فكرته بأنْ حلم بصناعة قنبلة كبيرة لا يستعملها أبدًا، ولكنّه يهدّد بها كلّ من يعتدي على الآخرين! لهذا كان عليه، كما نصحه معلّموه، أن يحافظ على تفوّقه في الرياضيّات والكيمياء والفيزياء، وأن يعمّقها

بكلّ ما يملك من طاقة، وينسى كلّ ما يمت للأدب بصلة. مع الزمن نام الشعر فيه، لكنّه لم يمت.

«ربّما هو ما يمنحني الرغبة في الحياة أكثر. غاب رماد. أشعر بالبرد من نعليّ حتى بياض الرأس. أنظر صوب حياة لم تعد تسعفني وأتحمّل هذا وحدي. من طلبتُ منه أن يسقيني مطرًا في عزّ القيظ فليرمني في البحر الميّت لأموت بسرعة بملح الرحمة. من ظنَّ أنّه سيّدي فلينزع منّي روحي الذي يظنّ أنّه مالكها. كنت أعرف أنَّ زمنًا مظلمًا آت لا محالة، سيعمي البصر والبصيرة، وسيحرق النفوس قبل الأجساد، ويغرّب أهل البلاد ويُسكِن بأرض الأجداد غرباء القلب والروح. لهذا، سأظلّ كما أنا. كما شاءت الحياة أن أكون. أحمل الحرائق كلّها على ظهري بلا ألم ولا ملل ولا خوف، في كفّي قدر يشبهني في كلّ التفاصيل، وأفتّش في الرماد عن جمرة واحدة، تؤكّد لي أخيرًا أنّ شيئًا في الحياة ما يزال مستمرًّا وحيًّا».

عووووو.

فجأة اخترق العواء الظلمة. مرّة واحدة، كان مثل الصرخة الطويلة، قبل أن يغيب في عمق الفراغ، وسط الرياح التي كانت تعصف بالرمال وبأناشيد الموت التي كانت تخترق الحيطان والقلوب وكلّ ما تصادفه قريبًا منها. كان العواء المخنوق يأتي من الهضبة التي تخفي جزءًا من غابة النخيل، من مكان قريب، مصحوبًا بعيارات ناريّة متفرّقة.

سمع آدم الرياح، وعواصف بداية الشتاء ورعوده الموسميّة.

النوم أصبح مستحيلاً.

قام من فراشه، ثم وقف من وراء الكوّة يتابع انزلاق حبّات المطر على الزجاج الثقيل. منذ وجوده في قلعة أميروبا لم يَرَ سيولاً كهذه. رأى الهضاب، وهي تنسحب مشكّلة أشكالاً مختلفة من وراء المطر

الذي تحوّل إلى غلالة بيضاء تُخفي خلفها كلّ شي، أو تكاد. لا بدّ أن يكون شيء ما تغيّر في هذا العالم الأصفر، الذي لا حياة فيه إلّا للعقارب والحيوانات التي منحتها الطبيعة سبل المقاومة، أو في طريقه إلى التغيير. كم من الزمن مرّ يا تُرى على هذا العبث؟ سنة؟ سنتان؟ خمس؟ عشر سنوات؟ في هذا المكان، شكل الوقت هو هو، كما وُلد في بدء الخليقة، لا حدود لسيولته القاسية. كلّ شيء يتشابه، الليل والنهار، وكلّ ما تراه العين، كأنّه صورة مثبّتة في زمن توقّف منذ فترة موغلة في القِدَم.

رأى من وراء الزجاج المندّى *أمايا* بنعومة وجهها اليابانيّ الذي لم تخدشه الأيّام أبدًا، بل منحته كلّ ضونها ونورها. كلّما توغّل في عينيها، سمع سيول تساقط المطر تأتي مندفعة نحوه عندما تحزن، تفعل ذلك بصمت، كأنّها سماء هادئة، مثقلة بالغيم ومسكونة بالبرق والرعد. تأتيه الآن محمّلة بشوق نديّ، كما في فترة لقائهما الأوّل. تقف على حافّة الطريق، تحت مظلّة محطّة الحافلات الرابطة بين الحيّ الطلّابيّ وجامعة بنسلفانيا. تناظره بلا ملل. تبدو من بعيد تحت مظلّتها البيضاء ولباسها الزهريّ، كتمثال تنعكس عليه أشعّة الشمس الهاربة. كان كلّ شيء في بداياته. لم تكن الحياة صعبة. أوّل ما يصل، يفاجئها من وراء ظهرها. يغمض عينيها ثم يهمس في أذنها اليسرى: من *أنا؟ قولي أيّ اسم آخر إلّا آدم*... **ههههه**. تتحسّس يديه. خاتمه الأزرق الذي أهدته له في عيد ميلاده. تتمتم. *طبعًا أنت لست آدم. أنت حبيبي*. تفتح عينيها وذراعيه. يقبّلها. تقبّله. يغطّي المطر شفاههما. يمسح وجهها من المطر، ويضع على عنقها شاله الأحمر، ثم يضمّها إليه، عصفورة من غيم وندى. يخاف أن تتلاشى، في انتظار وصول الحافلة الطلّابيّة الصفراء. تمضي الحافلة الأولى والثانية، ولا

يركبان. يتسلّلان في الشارع وتحت البنايات العالية. تذكّره كما في كلّ مرّة، تحت المطر. *الحياة جميلة مُنحت للجميع، لماذا يسرقونها من الضعفاء*. ترى جدّها تسوتومو ياماغوشي[1]، وهو يركض تحت الحرائق والنار التي أحدثتها قنبلة هيروشيما. تتمنّى لو يحذف هذا التاريخ من البشريّة، لأنّه سرق منها حقّها في الحياة. تلعن *أمبراطور الجنون* كما تسمّيه، هيروهيتو[2]، الذي سكن قلبه غرور نار الحروب ورفض إعلان بوتسدام[3]، وتلعن الرئيس الأميركي هاري ترومان[4]، الذي أعطى أمر إلقاء القنبلة النوويّة، وهو لم يستنفد كلّ الإمكانات السلميّة. لهذا، اتّجهت نحو الطبّ النوويّ وآثار الإشعاعات المعلنة والسرّيّة، بسبب الحروب وبسبب الأخطاء التقنيّة والحسابات الخاطئة، معاكسة جذريًّا مسار أسلحة الدمار الشامل. تجد متعة في استفزاز آدم.

«ليكن العالم هكذا، غلط في غلط، أنتم تحرقون الحياة ونحن نُعيد زرعها إلى أن تملّوا أبدًا. شعاري السلحفاة، تطردونها، تسكن بيتها. تطلقون عليها السموم، تتخفّى إلى أن تعبر، تفجّرون الأماكن، تقاوم. لا تستسلم لأيّ موت».

أمطار الشتاء ما تزال تنقر الزجاج فقط لتوقظ فيه حياة لم تمت، وشهيّة أن يكون قريبًا من أمايا. أن يكتب لها ليستمرّ حيًّا، ولا يستسلم لموت يتمّ تصنيعه له في الخفاء. ليتل بروز لم يُخْفِ دهشته وهو يحادثه: عربيّ ويفكّر؟!

يحاول آدم أن ينسى كلّ شيء حتى أكثر الكلمات قهرًا وتسمُّمًا،

---

(١) Tsutomu Yamaguchi

(٢) Hirohito

(٣) Déclaration de Potsdam. 26 juillet 1945.

(٤) Harry S. Truman

ولا يستحضر إلّا صفاءها ونورها.

«أمايا الحبيبة. لا أعرف أين أنتِ؟ في هذا الفراغ الأصفر لا نفعل شيئاً لكي نستمرّ في الحياة إلّا الكتابة. الليلة رأيت رماد. رأيته من قرب في الحلم، وتأكّدت من أنّه كان هو. هو لا جدّ غيره، بعينيه المائيّتين وشراسة الصفرة، بعينيه اللتين تريان أدقّ التفاصيل المتخفّية وراء السحب والنبتات الدقيقة وأشعّة الشمس، حينما تخترق الظلال الممتدّة في داخلك وبجانبك. هو، يا أمايا، ولا سيّد غيره. تشبهني الأشياء إذ أحبّها. وتقربني إذ تصبحني أو تسكنني. أخاف من الأشياء التي تسرقني في نورها وتجرّدني من جهدي. الدهشة مظلّلة مثل شمس تخترق الجبال أو تنام في الماء أو تتوسّد الغيم وتغيب. أحتاج إلى أن ألبس العقل لأراك قليلاً في ألم عزلتك، أن أتلوّن بك، فقط لأكون أقرب لك من أنفاسك، ولا ألوم نفسي أنّي ضيّعتك في غابة الخوف وبقيت بلا دليل. امنحني يا رماد، يا سيّد السلالة التي أكلتها الأنواء ورمال العطش والحروب وزهو الذين صنعوا مصائرها، بعض سرّك قبل أن أستسلم لسلطان الضغينة، أو تخونني العواصف التي تعوّدت أن تنام في ظلّها، وقبل أن تتعرّى السماء التي تغطّيك. تعوّدت أن تركب البحر بلا سفن وتقذف بنفسك في المهاوي بلا جزع. أنت تعرف، أنّه بلا جنون لا مستقبل للحياة. لم تطلب من أحد أن يرتق جرحك، أن يرفعك في الأعالي، وحدك سكنت المخاوف حتى ذلّلتها. من يشبهك في هذا غيرك؟ وكم أشتهي أن أكونك يا رماد. في عمق التيه، أتحمّل عواء الجبال المسكونة بتاريخ الأجداد. مغمّس في البرد وتحت غطاء الثلوج، تقذف بي الحياة وحدها خارج المهالك. فيّ شيء من نارك، لكنْ لك وحدك أقول: كم أصبح الشطط ثقيلاً. امنحني بعضاً من حبّك السخيّ لكي لا ألتفت ورائي. أدرك أنّه عليّ أوّلاً أن لا أضيّع

مسارات المشي باستقامة على الحافّة الحادّة، كما تعوّدتَ أن تفعل وأنت تلمس المخاطر بقلبك. بقايا الأسلاف أنت، صنعتَ من الغيم فراشك، وتخطّيت كلّ العتبات التي غرستها العواصف والرياح وسيول الخوف، يوم خانتك المعابر والمسالك المتخفّية. أنت دومًا أنتَ، ذئب البراري والأعالي، والهضاب والتلال، ذلّلتَ الخوف وأنت تعرف أنّه لا خيار لقلبك، إمّا أن يكون أو لا تكون. ويدرك أنّه يجب أن تكون وإلاّ سيكون قد خسر الذاكرة وموعدًا كبيرًا مع الحياة. تستحقّ أن تكون حرًّا يا رماد. تستحقّ أن تكون ريحًا ولمسة فجر. تستحقّ أن تكون عطر إله».

لقد قضى الليالي التي مضت، غارقًا في عمله الذي كان قد بدأه في بنسلڤانيا، في مخبر الأبحاث النوويّة. مئات الأوراق المليئة بالأشكال والرموز التي لا أحد غيره يفهمها، حتى ونداءاته نفسها، ليذكّره بأنّ آخر السلالات وأصلها، ما يزال هنا.

إنّ ليتل بروز صوّرها وبعث بها نحو مخابر التحليل في البحر الأحمر ومضيق هرمز، ولم يتلقّ إلّا جوابًا واحدًا: هو تحت الرقابة. سميث عندما سُئِل بعد وقت طويل من هذه الحادثة، عن سرّ حروف هذا الرجل المبهمة، قال بلا تردّد: *أنا أعرف سرّ هذه الأوراق، لأنّي أعرف جيّدًا آدم. لا خطر فيها، بالعكس فهي مفيدة لنا. وأحتاج إلى أن أكلّم ليتل بروز وقيادة البحر الأحمر ومضيق هرمز، عن شيء أعرفه جيّدًا.*

الوقت الليليّ يزحف بسكينة، ولا نوم في الأفق كما في كلّ ليلة، منذ خمس سنوات.

منذ أسبوع كامل، لم يتوقّف الهرج والمرج في قلعة أميروبا. كلّ شيء كان يشبه احتفاليّة ريفيّة سنويّة، تصحب عادة جنْي الكرز أو الحمضيّات وغيرها.

تتصاعد الشهب ولا صوت يُسمع من وراء الزجاج الثقيل.

منذ أن دخل شهر أكتوبر والأعلام الكثيرة ترفرف في أجنحة القلعة الأساسيّة، الشماليّ والجنوبيّ، والشرقيّ والغربيّ، استعدادًا لاحتفال مرور قرن على ميلاد *الأخ الأكبر* بيغ بروذر. اللافتات الكبيرة التي رُسم عليها وجه الأخ الأكبر، الذي بعد مائة سنة لم يمت، ولم يفقد من حدّة نظره ولا من كثافة شنبه الذي ظلّ أسود ولم يلحقه أيّ بياض. لم يشخ. ملامحه هي هي، بل زادت قوّة وشبابًا. أصبحت قسماته أكثر وضوحًا، وابتسامته الضامرة أكثر ظهورًا. الشعارات التي ترفرف بالقرب من العلم، والمختزلة في الثالوث، تمّ تطويرها:

الحرب هي السلام

الحرّيّة هي العبوديّة

الجهل قوّة

كلّ ما هو جديد كُتب بلغة أوروليبنغوا[1] التي هي مزيج من اللغات الأوروبيّة التي بدأت تموت، أو أنّ أجزاء كثيرة منها ماتت. تعتمد اللغة الإنجليزيّة الأميركيّة كأساس، وبعض المفردات اللاتينيّة التي لم يستطع أحد أن يقاوم سلطانها. حتى بعض الفيدراليّات الأوروبيّة التي أظهرت غيرة ما على ما تبقّى من لغاتها القوميّة القديمة، سرعان ما انصاعت لأوروليبنغوا. حاولت جاهدة إصدار القوانين المقاومة وتنظيم القواميس المضادّة، ولكنْ كلّ هذه الجهود كانت بلا جدوى، فتمّ في النهاية تبنّيها كلغة رسميّة على مضض في كلّ الفيدراليّات الأوروبيّة. كانت الفيدراليّة الجرمانيّة الأكثر إصرارًا على هذا الرفض، لكن هي أيضًا لم تقاوم طويلاً هذا الوضع الصعب من

(١) L'Eurolingua.

العزلة. الشعارات تمّ تطويرها بعد أن حُوّرت قليلاً مع احترامها للجوهر نفسه، واعتُبر ذلك تحديثًا ووفاء لما أسّسه الأخ الأكبر من قيم حيّة، تحافظ على استمراريّة رحلته التي بلغت اليوم قرنًا من الزمن، منح فيها الحياة لهذه الأمكنة التي كان يمكن أن تكون خرابًا يبابًا، لولا هذا الرجل العظيم.

كثرة الحروب، تقتل الحرب

الحريّة ضدّ التوحُّش

كلّ من ليس معنا، فهو ضدّنا

ثم أُضيف له على الواجهة، في المدخل الجنوبي للقلعة، شعار آخر، ظلّ ليتل بروز يلحّ على تثبيته حتى كان له ذلك.

العربي الجيّد هو العربي الميّت

بعدها نزع الشعار واعتبره قريبًا من العنصريّة، بعدما كشف جوليان أسّونج الذي قُتل في ظروف غامضة، من خلال ويكي ليكس[1]، كلّ الوثائق والنقاشات التي دارت في القلعة وخارجها حول موضوع الشعار، وبيّن أن المسألة لم تكن مزاجًا فرديًا لليتل بروز فقط، ولكنْ فعلٌ جماعيٌّ لإذلال *المقيمين* من أصول أرابيا المنتمين *للتنظيم*، أو المشكوك فيهم. أسُونج الذي كان مطلوبًا بمذكّرة دوليّة من الإنتربول، اختُطف في ظروف غامضة، ليس بعيدًا عن السفارة السويديّة. لم يغفروا له نشره وثائق كيسنجر السرّيّة، وقصّة ٧٧٩ معتقلاً في غوانتنامو بالصور والوثائق والتقارير الطبيّة، حيث وجد ١٥٠ أفغانيًا وباكستانيًا أنفسهم هناك بلا ذنب واضح، أصغرهم كان عمره أقلّ من ١٤ سنة، وأكبرهم أكثر من ٨٩ سنة.

---

(١) Wikileaks, Julian Assange

من الأعلى، حيث آدم، تبدو قلعة أميروبا بلونها الآجريّ مثل صرٍ صحراويّ متوغّل في الرمال والخوف، أقرب إلى البدائيّة منه إلى الحضارة. كأنّها نزلت هكذا، منذ بدء الخليقة، على هذه الأرض الفارغة التي تشبه صمت الربع الخالي، لولا واحة النخيل التي تظهر من بعيد كمساحة خضراء شاذّة عن المنظر العامّ، يبدو شكلها من الأعالي مثل مضلّع مقعّر كما الكنائس القديمة، التي كلّما تراءت من المرتفعات رسمت صليبًا نائمًا على سطحها الأساسيّ. على بعد قطر واسع، تحيط بها منطقة حفر آبار النفط والتنقيب عن المعادن الثمينة. تصعد في مساحات متباعدة، الأفران العالية والأدخنة وألسنة النار وحرق الغاز. يقول بعض المختصّين في عمليّات التنقيب، إنّ موقع أميروبا استراتيجيٌّ ومهمٌّ، فهي تقع في منطقة وسطى يتمّ من خلالها التحكُّم في حركة جزء مهمّ من النفط العالميّ، أو ما تبقّى منه، لهذا كان احتلال مضيق هرمز بعد حرب بحريّة وجوّيّة، مسألةً حيويّة جدًّا، سمح للفيدراليّات الأوروبيّة وأزاريا وأميركا بالتوحُّد ونشوء حلف أميروبا، بينما أصبح الحلف الثاني روشيناريا الذي انضمّت له روسيا والصين وإيران، حقيقةً موضوعيّة. أوروبا كانت قد تمزّقت، ولملم أطرافها بقوّة حلف أميروبا نهائيًا. بلجيكا كانت قد أصبحت كانتونات متفرّدة ومنفصلة وعدائيّة، وسويسرا وألمانيا القديمة انفجرتا وتغيّرت المساحات والحدود، إذ انضمّت الكثير من الدول السابقة لتكوّن وحدة جرمانيّة. بعض المقاطعات الفرنسيّة وما وراء البحار بدأت تتململ مطالبة بالانفصال، لكنْ قمع واغتيال القيادات المتمرّدة وعمليّات التجويع بحرق المحاصيل الزراعيّة، جعل حماس الانفصال يفتر. إيطاليا لم يعد بين شمالها وجنوبها أيُّ اتّصال، إلّا خيطًا رقيقًا يكاد لا يُرى، ووطنيّات ضيّقة تكاد تتحوّل إلى ضغينة ضدّ تاريخها، مثل إسبانيا

التي انفصل جزؤها الشماليُّ نهائيًّا، كاتالونيا وقوميَّة فلانسيا وجزر الباليار وأراغون وكتالونيا الشماليَّة والروسيون وسيردانيا الفرنسيَّتين اللتين تمّ، بموجب اتّفاق البرينيّ في القرن السابع عشر، تسليمهما لفرنسا. اختارت أوروبا نظامًا فيدراليًّا، وعمّمته بعد انهيار الاتّحاد القديم، وعودة الوطنيّات القديمة، لكنّ ذلك كلّه لم يكن كافيًا للحدّ من المزيد من التفتُّت الداخليّ. في أميركا، الكثير من الولايات أصبحت لها حرِّيَّات أكبر، الحقّ في اختيار نظامها الداخليّ وجيشها، لكنّ هذا لم يمنع الصدامات التي زادت بقوَّة بين القوميّات الثلاث المكوِّنة لها: الأوروبيَّة، الإفريقيَّة واللاتينو. المال المتدفِّق ما يزال يمنح أميركا فرصة تفادي مخاطر الانفجار النهائيّ. الحروب الكلاسيكيَّة بيَّنت أنَّها لم تعد نافعة أو كافية لحماية النفس. فقد مُسحت الكثير من البلدان والأقوام من الخرائط نهائيًّا، لأنَّها فشلت في الدفاع عن نفسها ومالها ومصالحها وشعوبها.

ظلّ آدم معلَّقًا في الكوَّة الصغيرة التي يسمِّيها نافذة، يتأمَّل الكتابات المضاءة، التي رُفعت في الساحة الواسعة، في الجناح الجنوبيّ من القلعة. رأى الشعار الكبير الذي كُتب تحت صورة ليتل بروز، بوجه طفل برأس كبير وهو يبتسم ابتسامة تنكسر في زاويتيْ الشفتين: *الكلّ للواحد، والواحد للكلّ. ليتل بروز لا يَرَاكم*، هو فيكم. الساحات المركزيَّة التي يراها آدم كلّ ليلة أو كلّ صباح من الأعالي، اتَّسعت كثيرًا وتغيَّرت أيضًا. كانت شبه قاحلة، أصبحت الورود التي غُرست فيها تغطّي تربتها الرمليَّة التي خرجت منها، وتتسلَّق الحيطان والنخلة المركزيَّة في وسط الساحة الرئيسيَّة التي لا تتوقَّف فيها الأناشيد العسكريَّة التي تصمّ الآذان، باستثناء لحظة الوقوف الصباحيَّة التي ينتظم فيها عساكر القلعة في ساحاتها الأربع، لرفع العلم الأميركيّ

وعلم فيدراليَّة أوروبا الذي أصبح يشبه العلم الأميركيّ بألوانه الرئيسيَّة، الأحمر والأصفر والأبيض والأخضر، والمساحة الزرقاء التي وضعت فيها نجوم بعدد الدول المنخرطة في الفيدراليَّة الجديدة التي نشأت على أنقاض اتّحاد مغلق. فقد رأى الجميع في الفيدراليَّة الحرَّة، نظامًا مَرِنًا، لا يجبرهم على أيّ التزام إلَّا الدفاع المشترك. عادت الكثير من الدول إلى عملاتها القديمة.

عندما صمَّم آدم على العودة إلى سريره والنوم، لمعت فجأة اللافتة الإلكترونيَّة الكبيرة التي كُتب عليها بالإنجليزيَّة وبالأورولنغوا سلسلة من الشعارات: *كلّنا لك ومنك.* *مرور ١٠٠ سنة على ميلاد بيغ بروذر، الجدّ الأوّل الذي علَّم الجميع ما لم يعلموا. إمّا أن نكون أو نكون. لا خيار...*

إيڤا هي التي أخبرته بالحدث يومها. فقد التقى بها عند مدخل البناية، وهي تحاول أن تكلّم السلحفاة التي كانت تنام بين يديها.

«ـ شفت ما أحلاها. كما قلت أنت، هي من أكثر الحيوانات قدرة على المقاومة والاستقلاليَّة، ولا تحتاج إلى اهتمام كبير. وأمايا، زوجتك، كانت تحبّها. لقد قايضنا كثيرًا للحصول عليها من أجلك. أنت تعرف قوانين ليتل بروز لا تسمح بذلك، ولكنّ القانون موجَّه للعساكر وليس للغيست. هي ذي حبيبتك، ضعها في عينيك قبل قلبك.

قبَّل يدها، ثم وضعها على صدره، وهو يرفع رأسه باتّجاه الشعارات والألوان التي كانت تملأ الحيطان والأشجار ورافعات البناء والآليّات الحربيَّة.

ـ سأكون أسعد إنسان. احتفاليَّة كبيرة على ما يبدو؟

ـ نعم. بمناسبة ذكرى مرور مائة عام على ميلاد بيغ بروذر. تمّ توزيع

عشرين مليون نسخة من رواية ١٩٨٤ لجورج أورويل[1]، عبر العالم، ومسَّت هذه البركة القلعة طبعًا. ولو أنَّ ميلاده الحقيقيّ قبل ذلك، في الأربعينيَّات، عندما أبدعه وهو في عزّ أزمته مع حزب العمّال البريطاني.

- وجدت نسخة من ١٩٨٤ تحت باب غرفتي. يا حظّ هذه الشخصيَّة الافتراضيَّة. كيف يُحتفى بطاغية؟ طاغية حقيقيّ ومجرم، يُفترض أن يخرج من الكتب ويحاكم أمام كلّ ضحاياه الحقيقيين والافتراضيين.

- أسسسست. ليتل بروزر لا يَرَاكم، هو فيكم.

- شكرًا سيِّدة إيفا على كلّ ما تقومين به من أجلي. وضعي تحسَّن جدًّا. معك أشعر حقيقة أنَّ هناك متّسعًا لشيء آخر غير الأحقاد بين البشر، غير الموت المنظَّم بالحروب أو بالظلم.

- شكرًا للطفك يا آدم. واجبنا لا أكثر. صحيح أنّ اسم جمعيَّتنا غير جميل: *الدفاع عن حقوق الأجناس الآيلة إلى الزوال*، ***LIDRAFIC*** ***Ligue des Droits des races en fin de cycle***، لكنَّنا نتحمّله ما دام يمنحنا فرصة قانونيَّة للدفاع عن الناس من الظلم المسلَّط عليهم. لا نريد لتجربة الهنود الحمر أن تتكرَّر.

- جيِّد أن توجد هذه الرابطة. سكّان آرابيا لم يكن لهم حتى حظّ تجميعهم وحمايتهم مثل الهنود الحمر. يتآكلون في عزلة الرمل، ويأكل بعضهم بعضًا، والمنتصر يموت عطشًا وجوعًا في أرض امتُصَّت من كلّ شيء ولم تعد تنجب إلّا الموت. لو تخرجين قليلاً من القلعة! أنا متأكِّد من أنَّك سترين أفواج الهاربين في كلّ مكان، وفي كلّ الاتّجاهات، يبحثون عن مأوى لهم، عن قليل من الماء،

(١) **George Orwell**

عن بعض الأكل. المحظوظون يأكلون اليوم أوراق الأشجار وجذور النباتات والحشائش إذا وجدوها، وكلّ ما تلتقطه عيونهم من زواحف.

ـ أعرف هذا يا آدم. لقد رأيته بعينيّ، ورأيت أيضًا ما هو أسوأ منه. يهمُّنا كثيرًا أن تستردّ بعض حقّك. فأنت لستَ رجلاً عاديًا. حتى ليتل بروز ليس رجلاً سيِّئا، ولكنَّه مريض حقيقة بسبب سنّه المتقدِّم الذي لا يعترف به. يتصرَّف مثلما تمليه ظروف القلعة القاسية، أحيانًا بغباء. قلنا لنائبه سير جون، إنّه لا يمكن أن يُعامَل عالمٌ كبير بصفْك كأنّه من مجرمي غوانتنامو. أنت عالِم ولستَ إرهابيًا.

باستثناء ملامح إيفا المليئة بالحياة، لم ير شيئًا يدفع نحو الحياة. كلّ شيء ينافس الموت، الصحراء، البرد الليليّ، الزواحف، بعض البشر، الشعارات، ليتل بروز. ولا حتى عواء الذئاب التي تجوب ليليًا هذا القفر بحرّيّة كبيرة، هي وجراؤها الكثيرة. كان عددها كبيرًا في البداية، أو هكذا بدا له يوم سيق إلى هذه القلعة، أوَّل مرَّة، قبل خمس سنوات؛ لكن، مع مرور الوقت، بدأ عواؤها يقلّ، وكأنّ عددها قلّ أيضًا. الكثير من هذه الذئاب، يوجد ملتصقًا بالأسلاك الكهربائيّة التي تُحيط بالقلعة. الجوع والعطش، في هذا القفر، هو ما يقودها نحو هذا المكان بحثًا عن الأكل.

صوت واحد ظلَّ مميَّزًا فيها، ويطغى على أصواتها مجتمعة. يعوي، وكأنّه يتكلَّم. في الكثير من الليالي الصافية يسمع نداءاته ويفهمها، من تحت كوّة غرفته العالية التي كأنّها معلّقة في الفراغ. بُحّة رماد نفسها، كما وصفته جدّته، عندما يكون مجروحًا أو يفقد أحد أبنائه، أو يسرق الموت أنثاه ورفيقته. ونداءاته نفسها ليذكّره بأنّ آخر السلالات وأصلها، ما يزال هنا.

لا أدري إذا ما كنتَ هو، ولكنّي أحتاجك أن تكون رماد، لكي أستمرّ في هذا القفر، ولا أستسلم للموت الذي تلوّن بألوان قلعة الموت والعزلة هذه. ربّما كنتَ تقيم هنا أيّام الخريف والشتاء القاسية وليالي الخوف، قبل أن يأتي من يسرق منك دفء المكان. مزّق يا رماد غطاء هذا الليل القاسي كما تعوّدتَ أن تفعل أمام كلّ من يسرق حرّيّتك وضوءك. من عرفك يا جدّي، لا يمكنه أن يجهلك أو ينساك. عندما يمرّ قريباً منك يتنفّسك، تسبقه رائحتك التي هي مزيج من أشجار الصنوبر الحلبيّ في عزّ تفتّحها، وزهر الخزام عندما يعطّر مساحات كبيرة من الأمكنة المحيطة به، ومسك الليل الذي يتسلّق الحيطان العالية، قبل أن يعشّش فوق الأسطح القرميديّة. كلّما أظلمت الدنيا بالغيم الأسود عويت، لتنذر العابرين من مدافن الماء التي تنتظرهم في الوديان والمنحدرات. لا أدري إذا ما كنتَ رماد، لكنّي أريدك أن تكونه فقط لأتمكّن من الاستمرار.

كلّ شيء تغيّر. حتى الوقت الذي يمضي كأنّه يموت، وينسحب نحو قبور هو وحده يعرف أمكنتها.

تمتم آدم وهو ينظر إلى حركة الساعة التي كانت تتحرّك في سكينة بأرقامها المائيّة الحمراء، وكأنّها ثابتة في مكانها، ويغيب في وجه *إيڤا* التي تراءت له خلف ستائر الكوّة الصغيرة التي تفصله عن الخارج. أحسّ كأنّ إيڤا هي الوحيدة التي تفهمه. شيء غريب يقوده نحوها، هو مزيج من أبوّة غائبة وحبّ هارب. آخر مرّة، عندما انتهت من الجلسة الرسميّة الأخيرة، قالت له:

ـ آدم، أنت الآن إنسان بكلّ معاني الكلمة. عدت إلى وضعك الطبيعيّ ولم تعد في حاجة لأيّ شخص يحميك أو يعترف بك. انتهى الظلم الذي سُلّط عليك خطأ. أنت عالِمٌ وموجود هنا للحماية وليس

للإهانة. ولا أحد من العاقلين ينسى أنَّك، بفضل جهودك المخبريَّة، رُشّحت لنوبل.

- أيّ نوبل يا إيڤا؟ في ثانية يمكن أن يتحوَّل الإنسان إلى لا شيء.

- الخطأُ قوِّم، وأنت الآن في مكانك الطبيعي.

- لا أدري ماذا أقول. أشكركَ! لا تكفي. فيكِ شيء من ابنتي يونا، وزوجتي أمايا، لا أستطيع أن أقاومه. شيءٌ غامض لا أعرف سرَّه. لكنَّكِ جمعت بينهما.

- مكانة تشرّفني، مستر آدم. أنا لم أفعل أكثر ممّا يمليه عليَّ واجب وظيفتي وخياراتي.

دقَّق في الساعة مرَّة أخرى.

لا يريد أن تُسرق منه هذه اللحظة. رأى أرقامها الحمراء السائلة تشعّ بوضوح كبير.

فتح عينيه عن آخرهما، ليتأكَّد من أنَّ الزمن الحقيقيَّ هو ما كان يراه، وليس ما استقرَّ في دماغه. تمدَّد على الفراش، ثم بدأ يراقب العمليَّة بدقَّة. كانت الأرقام تصعد أمامه على الشاشة الصغيرة الملتصقة بالحائط القديم، ثم تنزل بالهدوء نفسه في وتيرة انزلاقيَّة منتظمة. رأى يوم *الجمعة* ينزل بنعومة، ويحلّ محلّه بشكل نصفيّ يوم *السبت*، ثم رأى رقم ٣١ ينسحب بهدوء مع شهر ديسمبر، ويحلّ محلّهما بشكل مرتجف، ١ *يناير*. ثم سنة ٢٠٨٣ التي لمعت قليلاً محتضَرة للحظات، قبل أن يرى رقم ٣ ينزلق من عدد ٢٠٨٣، وينزل للمرَّة الأخيرة راسمًا في مكانه العدد ٤، ليكتمل العدد الجديد من السنة الجديدة التي جاءت بثقل، كأنّها ولادة عسيرة: ٢٠٨٤.

ابتسم آدم قليلاً.

لحظتها بالضبط، تذكَّر جورج أورويل وهو يحاول أن يهدِّئ من

روع حيوانات حظيرته، التي انفضت من حوله مرعوبة من السنة الجديدة الحاملة للخوف والغموض. كأنّ المدار الذي كان لازمنيًّا من حوله، أصبح خاضعًا للنظام المعتاد، الذي يحكم البشر جميعًا. سنة مضت وأخرى جاءت. ولا شيء يتغيَّر في نظام الأشياء. الغبار نفسه. الضجيج نفسه. العويل نفسه والموت نفسه.

فجأة، سمع صوتًا شبيهًا بعواء السفن وهي تستعدّ للمغادرة. سمع صرخات مصحوبة بصفير مكتوم، يأتي من كلّ الجهات التي تُحيط بهذه البناية الثقيلة التي تشبه قلعة برتغاليَّة قديمة، مرميَّة في صحراء الربع الخالي، حيث لا شيء إلَّا عواء الذئاب وطنين الذباب. ولأوَّل مرَّة، غابت نداءات الذئب وسط الضوضاء التي بدأت تحتلّ بعض مواقع القلعة.

لم يشعر آدم بأنَّ سنة قديمة مضت، وأخرى جديدة حلّت، لكنَّه تأكَّد من أنَّ شيئًا ما، يخصُّه، قد تغيَّر نهائيًا، لم يكن قادرًا على إدراك إلَّا بعض تفاصيله الهاربة. انكفأ كالعادة يسجِّل الحدث على كومات الأوراق البيضاء، التي وفَّرتها له رابطة *ليدرافيك* في انتظار الحصول على اللوح الذي وعدته به، من الجيل الأخير، الذي يشتغل بالسماع ويخطّ ما يُملى عليه. ممّا يعني أنَّه سيتخلَّص من القلم. التفّاحة المقضومة انقرضت بانقراض شركة إيبل التي توجَّهت نهائيًّا نحو الاستثمار في الإنتاج الحربيّ والأقمار الصناعيَّة، التي أصبحت تراقب العالم والأنفاس كلّها.

«أنا آدم، القليل منكم يعرفني أو سمع بي. اختزلت كلّ شيء في اسمي ومساري. حملت رماد الجنَّة وحُطام امرأة لم أعرفها إلَّا قليلاً، وغادرت المكان بخطى حثيثة، يوم انتصر الشيطان واستولى على العرش كلّه الذي أراده منذ بدء الخليقة. لم أكن في حاجة لأن أُطرد،

فقد طردت نفسي ورميتْني من الأعالي وتركتْني أهوي كورقة جفّفها الزمن وأثقلتها قطرات المطر. وحيد في فراغ كون لم يجد من يديره. لا سلطان لي سوى أن أحلم بلا توقُّف، لأستمرَّ في العيش في قفر لست من خلقه. كم أشتهي الآن أن أصبح ظلًّا يتسرَّب بين الفجوات بلا إذن من أحد. يرى ولا يُرى. يحلم ثم ينام تحت الشمس بعين واحدة، يعبث بشعر حبيبته، بلباسها، ويبعثر قبلة بين نهديها، ويعبر بشرتها ووجهها بلا خوف من قبيلة أو حرس قاتل أو إله أخرس. يسمع الأحاديث السرّيّة، يضحك أو يبكي، لكنَّه لن يضطرّ إلى الاعتذار من أحد، لأنَّ الظلَّ لا يفقد إلَّا الظلّ. سِمَة العصر أن تكون أملس كالعلق، تنزلق بين أصابع الموت، وتمصّ دم من تريد، ثم تمضي، كأنّ شيئًا لم يكن. أشتهي أن أكون ظلًّا، فقط لأنتقم من نفسي ضدّ من يظنّ أنَّه أنشأني من سرّ التربة، ويعرفني جيّدًا».

بدأ النوم يغالبه. في اللحظة التي أغمض فيها عينيه أو كاد، ارتسم على الشاشة وجه ليتل بروز وصوته المعدنيّ القاسي والحادّ الذي يورث برودة في الجسد وخوفًا داخليًّا عميقًا.

- نحن نعرفك الآن يا آدم، ولا يمكن أن نخطئ في حقّك. أعرف أنَّ بك شجنًا كبيرًا لزوجتك أمايا، اليابانيّة الطيّبة التي تكره التجارب النوويّة، ولا هاجس في حياتها إلّا الإشعاعات ومحاربتها.
- أشكرك يا سيّدي على تفهُّمك. يبدو أنَّك أصبحت تعرفني جيّدًا.
- الخطأ في التقارير التي رافقتك التي لم تكن شارحة. حتى الشريحة اليدويّة لم يكن بها شيء مهمّ. عرفت لاحقًا أنَّ الشريحة مفرغة لدواع أمنيّة. لا مشكلة. المهمّ أنا مررت لأقول لك سنة طيّبة وجميلة.
- الهموم تنسينا أحيانًا عبور السنوات.
- تعرف يا آدم، إنَّها سنة استثنائيّة. سنة مرور قرن على ميلاد بيغ بروذر.

العالم كلّه يحتفي بهذه السنة التي يسمّيها سكّان القلعة بسنة الماريشال. سنتي. جدّي بيغ برودر هو قدوتي في الحياة.

ـ لم أكن أعرف يا سيّدي. لكنّه مجرّد شخصيّة افتراضيّة. أنت حقيقة. حقيقة موجودة فينا ومعنا. خليط من الحبّ والحلم واللعب في ساحة الجنون نفسه.

ـ لا يوجد افتراض من العدم يا آدم، ولا يوجد جنون. . توجد حياة.

لجم آدم لسانه، حتى لا يقول ما دار في خاطره بشكل صريح: *بيغ برودر[1]. . . طاغية صغير، لا يختلف عن الذين سبقوه، وأنت لست أفضل منه، تمجّد زمنًا مات. أيّ الحروب خضت لتكون ماريشالاً ما عدا حروب الخوف والرمال والعقارب القاتلة التي قتلت المئات في هذا المكان.*

ـ تفكيرك أسود يا آدم، وهذا قد يؤذيك.

ـ لا، يا سيّدي أنا داخل مبهم لا أفهمه.

ـ ماذا تكتب؟

ـ أنت أعرف منّي بما أكتبه. أجهزتكم تقرأ ما في الأدمغة.

ـ أريد أن أسمع منك. أعرف أنّك كنت مولعًا بإليوت، والمتنبّي، وشيلّر، ووايتمان وملارمي، ورامبو.

ـ أكتب أيّ شيء، فقط لكي لا يمرّ الوقت فارغًا. أكتب مثلاً عن نهاية بداية الأشياء.

ـ كيف؟

ـ نهاية زمن وبداية آخر[2]، l'Homme à puce الذي يمرّ عبر كلّ

---

(١) Big Brother أحد أبطال رواية ١٩٨٤ لجورج أورويل.

(٢) إنسان الشريحة.

المسالك، ولا حاجة له في إظهار أوراقه.

جميلة تسمية l'Homme à puce ألا ترى أنّ هذا حرَّر الإنسان من كثرة الأوراق التي لا معنى لها. شريحة صغيرة تحت الجلد تحمل كلّ شيء عن الإنسان، نزواته وجنونه، وأفكاره. لم تكن في شريحتك أيّة معلومة عنك، لهذا أخطأنا فيك. أرأيت المزايا؟

ـ نعم. كنت أعمل في مكان حسَّاس، وهذا يجبرني أن أعمل بشريحة فقيرة حتى إذا حدث أيّ شيء، لن يعرفوا الكثير عنّي. هل لي أن أسأل سؤالاً غبيًّا ربّما سمعته ملايين المرَّات؟

ـ تفضّل.

ـ لماذا سمُوك ليتل بروز، وأنت بحسب ما فهمت من عائلة بلير؟

ـ لأنّي عاشق للكبار الذين يُدركون قبل غيرهم أنّ العالم لا يتغيَّر إلَّا بالكبار والقوّة.

ـ لكنْ، ما العلاقة مع بيغ برودر؟ لماذا اخترته هو ولم تختر غيره؟

ـ هل تعرف الاسم الحقيقيّ لجورج أورويل؟

ـ للأسف لا.

ـ هو من عائلتي. اسمه الحقيقي إريك آرثر بلير[١]. أرأيت كم أنّ العالم صغير؟

ـ أصغر بكثير ممّا نتصوّر.

ـ هو الذي لاقاني بك، وجعلك تلتقي بإيفا. يبدو أنَّها غرقت فيك.

ـ لها زوج يا سيّدي، في ستوكهولم، وابنان، كيتي وأندرسن، ينتظران عودتها.

ـ تعرف كلّ شيء إذن. لكنَّها في طريقها إلى الطلاق منه. تريد أن

---

(١) Eric Arthur Blair

تخوض تجربة جديدة في القلعة والسدّ.

ـ امرأة كبيرة، وتقوم بواجبها في ليدرافيك.

ـ لا أفهم كيف تزجّ امرأة جميلة بنفسها في مغامرات حقوق الإنسان، التي لا قيمة تجنيها من ورائها إلّا المتاعب والمخاطر الكثيرة على صحّتها وحياتها، وزوجها مرتاح في القصر الملكيّ السويديّ. فهو المشرف الرئيسيّ على إدارة ميزانيّة القصر. خبير ماليّ دقيق. لا أثقل عليك. أتركك تنام الآن. سنعود لهذا الموضوع إن كان يهمّك. إذا كان يهمّك الأمر، غدًا، بمناسبة مرور ١٠٠ سنة على ميلاد بيغ بروذر. سنفتح بعض أبواب القلعة لمشرّدي آرابيا لتغذيتهم. إنّهم يموتون بالملايين في البراري والخلاء.

ـ شكرًا يا سيّدي. هم في حاجة إلى ذلك بعد أن سُرق منهم كلّ شيء، حتى الحقّ في الحياة.

ـ هم من أرادوا ذلك. لم يعرفوا أنّ المال وحده لا يكفي لبناء قوّة.

ـ في هذه، معك كلّ الحقّ. كانوا سُذّجًا حتى العظم.

إنّها المرّة الأوّلى التي يشعر فيها بأن ليتل بروز أصبح يشبه البشر قليلاً، ولم يعد آلة معدنيّة تتطاحن قطعها يوميًا آلاف المرّات، قبل أن تتآكل نهائيًا. حتى كلامه أصبح أكثر وضوحًا.

وضع آدم رأسه على الوسادة. شعر بلذّة ناعمة للنوم.

انطفأت كلّ الأضواء بمجرّد أن أغلق عينيه، ونزلت كلّ الستائر تلقائيًا لتحيط بسريره وتلفّه داخل غيمة كم اشتهاها، بينما ظلّت حبّات المطر الشتويّ، تنقر الزجاج الخشن وتتمزّق على مظلّة أمايا البيضاء، ولباسها الصوفيّ الزهريّ، قبل أن يغلق عينيها بكفّيه، ويقبّلها كما لم يفعل أبدًا، ويضع الشال الصوفي الأحمر على عنقها ويضمّها إليه.

لم يكونا معنيين بالمطر، بل بأكثر. بشيء يشبه جنون المطر.

ـ ٤ ـ

توقّفت الأمطار، لكنّ الرياح المحمَّلة بالرمال ظلَّت بعنف الليلة الماضية نفسها.

نظر آدم من غرفته المطلّة على الساحة والبوّابة الرئيسيَّة للجناح الجنوبي. كان المشهد غريبًا على الرّغم من علمه المسبق به. لم يفهم في البداية، الحشد الواقف بغير نظام كبير، عند البوّابة العسكريَّة للقلعة. تبدو الوجوه من بعيد محروقة ومقشّرة ومنهكة، وقامات الناس منحنية إلى الأمام من شدَّة التعب. بقايا الألبسة تحوَّلت إلى خرق بالية، تكشف جزءًا كبيرًا من أجسامهم التي تحوَّلت بدورها إلى ظلال وهياكل عظميَّة، تقاوم الرياح بصعوبة عندما ترفع بقايا مِزَقهم عاليًا. يظهرون ويختفون؛ ثم يختفون ويظهرون. عندما تهبّ العواصف الرمليَّة ينطفئون في عمقها، ومعهم تنطفئ بوّابة القلعة والأسلاك التي تحيط بها والعسس.

منذ الفجر الأوَّل، وهذه المجموعات البشريَّة، بالمكان نفسه، تتبع الحركة البطيئة في القلعة، وتنتظر إذنًا ما يسمح لها بالدخول، أو

يطردونها بكلّ بساطة، بعيدًا عن مكان حسّاس كالقلعة.

ـ *هل جاؤوا للاحتفال؟ جيء بهم؟ ما دخلهم بمئويَّة بيغ برودر؟*

تساءل آدم، وهو بالكاد يحاول أن يخرج من غفوته بعد أن لبس ثيابه واستعدّ للنزول للمشي المعتاد. دُقَّ على الباب. فُتح. إيڤا.

قالت وهي تجمع كلّ قواها.

ـ انتظرتك تحت، لكنَّك تأخَّرت، توقَّعت أنّك ما زلتَ في فراشك.

ـ كنت أنظر إلى ذلك السيل من الناس الذين يقفون عند البوَّابة العسكريَّة. لم يتحرَّكوا إلَّا ليدرأوا عن وجوههم الرياح الرمليَّة والأوراق الميِّتة والنباتات الجافّة والذباب، قبل أن يعودوا إلى وضعيّاتهم الأولى.

ـ خفت أن تكون مريضًا. كلّ شيء ولا مرضك في هذا القفر!

القانون يا إيڤا لا يمنعك من البقاء مع آدم في الغرفة. لك حقّ البقاء هنا كلّ فترة عملك. تحركي أنّى تشائين. نحن لسنا ضدّ الصداقة، وحتى عندما تكبر وتصبح حبًّا. الرجل للمرأة والمرأة للرجل، هذه مادّة القانون والدستور في أميروبا.

فاجأتهما الشاشة الحائطيَّة التي انفرجت عن آخرها بشكل غير منتظر.

ـ يا ماريشال.. أنت تعرف تقديرنا لجهودك القانونيَّة، وإلى أيَّة درجة نحترم الضوابط المعمول بها في القلعة. الحبّ خادع وممارسة مهينة. أليست هذه مادَّة من موادّ دستور القلعة؟ أنا أحتاج فقط آدم ليكتشف بنفسه حسن صنيعكم وعطفكم على فقراء آرابيا المشرَّدين. ما تقومون به كبير، ولا يمكن وصفه إلَّا بالشيء العظيم. ولو كنت مكان بؤساء نوبل، لرشّحتك لها يا ماريشال، ولو كان سلطان سفن البحر الأحمر ومضيق هرمز يسمح، كنتُ رفعت رتبتك إلى أكثر من

ماريشال. تستحقّ ذلك بامتياز.

دستور أميروبا تغيَّر يا إيڤا، ولم يعد يقف ضدّ الحبّ.

ردّ الوجه الطفولي ذو الرأس المدوَّر والمنتفخ، ليتل بروز.

. هذا مكسب كبير للقلعة، جميل أن تعترف بالحبّ، ولا نبقى رهيني كراهية نيتشه[1] الذي ظلّ يحمل حقدًا للحبّ، لأنّ عشقه الأوحد سرقه منه فاغنر[2]، لكنّني متزوِّجة يا ماريشال، ولي ابنان: كيتي وأندرسن. آدم عزيز، وأنا سعيدة أنّي ساهمت في توضيح صورته لكم، ولمن في البحر الأحمر ومضيق هرمز.

ـ نحاول أن نبني شيئًا عادلاً في هذه الرمال القاسية التي لا تنبت فيها إلّا الأحقاد والضغينة. انظري بشر آرابيا، يوم كان النفط يتدفَّق عند بيوتهم ويشترون ما يشاؤون من أوروبا. كانوا يستعبدون كلّ الناس ويحتقرونهم.. ماذا بقي لهم اليوم سوى التيه والموت البطيء! ومع ذلك، نظلّ رحيمين بهم، لأنّنا جميعًا ننتمي إلى العنصر البشريّ.

ـ الربّ يعطيك القوّة لتواصل مهمَّتك العظيمة. هؤلاء الذين تراهم في تيه الرمال، كانوا بؤساء حتى في عزّ تدفّق النفط والمال والبورصات، التي صنعت أوراقًا وأموالاً، ولم تصنع وطنًا واحدًا جديرًا بأن يُحترم.

انطفأت الشاشة ثم عادت، ولم تكن بها إلّا ابتسامة ليتل بروز وشعاره الكبير: ليتل بروز لا يراكم، هو فيكم. شيء ينبئ كأنّ هذه القلعة تقع خارج الزمن البشريّ، وهي أقرب إلى أسطورة تنحت قوّتها في فراغ مهول اسمه الصمت.

---

(١) Nietzsche

(٢) Wagner

التفتت إيڤا نحو آدم.

ـ أنتظرك تحت.

ـ لا، من الأفضل أن أنزل معك. لا شيء يشدّني إلى الغرفة وإلى الرطوبة وكآبة الظلال.

ـ أردتك أن تحضر معي، لأنَّ هذه فرصة يجب أن لا تضيع منك. سأشرح لك لاحقًا. قد يؤلمك المنظر، لكنْ تحمَّله لتعرف جيِّدًا ماذا يحدث في هذا المكان الذي سمّاه القدماء عشّ القتلة.

عندما نزلا تحت، كانت الحركة العسكريَّة سريعة ونشيطة على غير العادة. مشيا باتّجاه البوكسات الخمسة، التي كان يتمّ تهيئتها، في الجهة الملتصقة بمدخل القلعة لاستقبال الزوّار الذين ارتفعت أعدادهم بغير حساب.

ـ زمان، كانوا يرمون الأكل من الأعلى للجياع الباحثين عن قطرة ماء وقليل من الخبز، اليوم تغيَّر كلّ شيء، وأصبح أكثر نظامًا، بعد أن اجتهدت منظّمتنا في تهذيب الوضع قليلاً وإعطائه دفقًا إنسانيًّا خفيفًا. وهم عمومًا ينفِّذون ما نطلبه منهم، ولو كلّفنا ذلك الكثير من المصاعب والمال.

ـ هل وصلت آرابيا إلى كلّ هذا الوضع البائس والمتخلّف والقاهر في الأعماق؟

ـ جزء منها تحالف مع أزاريا التي احتلَّت كلّ آباره النفطيَّة، ويتعاون معها ومتّكئ على حمايتها. جزء آخر يجد في العودة إلى النظام القبليّ نعمة، وهي عودة إلى الأصول. وهناك دويلات صغيرة غامضة في علاقاتها مع نفسها، لكنّ الكثير منها يتوسَّع فيزيد فقرًا. ينظّم غزوات ضدّ بعضه بعضًا. وكلَّما كبرت دويلة انفجرت في شكل متواتر، إذا لم يصلها من الحاكم ما انتظرته.

ـ كانوا ضدّ أنفسهم.

ـ وما يزالون. سينقرضون، وهم على هذه الحال. أرجوك حبيبي.. في المرّات القادمة لا تناقض ليتل بروز، لا تنس أنّه سيّد المكان بامتياز. قل كلمة خير فيه حتى ولو كذبًا أو اصمت. بدل سيّدي، استعمل ماريشال فهو يحبّها، وكلّ الناس ينادونه بها. أنت تعرفه جيّدًا، وأنا أيضًا. أنا هنا في مهمّة إنقاذك وكتابة تقرير لمنظّمة الأمم المتّحدة التي تكاثرت دونها، حتى أصبحت كلمة دولة لا تعني لها الشيء الكثير.

ـ بدأت أفهم هذا جيّدًا يا إيفا.

ـ إذن، انظر ولا تتكلّم. لأنّك لو تقدّمت خطوة أخرى، ستصبح تحت رحمة الشاشات الحسّاسة جدًّا. انظر جيّدًا. ابكِ في داخلك إذا شئت، لكنّك يجب أن لا تُظهر أيّ ضعف أمام الجميع. لا تتدخّل في أيّ شيء. اتركهم يفعلون ما يشاؤون. نحن هنا لمساعدة الناس لتجاوز محنهم، وليس لإسداء النصائح. هذه هي على الأقلّ وظيفتي. يمكنه أن يطردني في أيّة لحظة بتقرير عسكريٍّ سيّئ عنّي.

ـ تتكلّمين بحرّيّة، ولا تخشين لو تتصيّدك مجسّاته؟

ـ أعرف المكان جيّدًا وأعرف أيضًا أين يمكن أن يسمع ويرى، وأين يتحوّل إلى أطرش وأعمى. لهذا، سحبتك إلى هذا المكان لتفادي مشاكله. سنقف ليس بعيدًا عن البوكس الذي تراه. راقب ولا تسأل كثيرًا.

ثم سحبته من يده، واتّجهت نحو الدائرة التي خطّتها في رأسها. وقفت باستقامة بجانب آدم. كانت تبدو بالقرب منه كأنّها ابنته. شدّت على يده كطفل صغير، مخافة أن تفلت منها. نظرت إلى عينيه للمرّة الأخيرة، كانتا مشدودتين إلى البوكس ولم تنتبها لها أبدًا.

شعر بأنفاسه تضيق. كلّ الوجوه المحروقة كانت كأنّها تتنفّس فيه. رأى عن قرب وجوهها المقشّرة والحزينة والخائفة، وهي تتدافع نحو الأسلاك الشائكة مثل حيوانات مذعورة، بينما كانت نهاية السيل البشريّ تتوغّل عميقًا حتى تختلط ألوانها بلون الصحراء. صفراء في مهبّ الريح، كانت تبدو من بعيد.

آدم يشعر بحرقة، وإيڤا تحاول أن تظلّ جامدة في مكانها. من بعيد، رآهما ضابط كان ينظّم المجموعات العسكريَّة للإشراف على العمليَّة. اقترب منهما، وهو ينادي على عساكره لكي يسرعوا أكثر ويرفعوا من وتيرة العمل. اقترب منها بأدب محاولاً أن يعرف لماذا كانت تقف في ذلك المكان، القريب من البوكس الأوّل، الممنوع على الكلّ!

- مرحبًا مدام. مَنْ حضرتك؟ ماذا تفعلين في هذا المكان الممنوع، صحفيَّة؟

- لا، يا سيّدي. أنا إيڤا. إيڤا كريستوفر. مسؤولة وكالة ليدرافيك الخاصَّة بالأجناس الآيلة إلى الزوال. ومعي العالِم الكبير، لا بدّ أن تكون قد سمعت به، البروفسور آدم غريب، يريد أن يرى عن قرب قوَّة ليتل بروز في مساعدة الغير. هو هنا غيست.

- آدم غريب. أعرفه، طبعًا هو لا يعرفني. سعيد من أجله أنَّ سوء التفاهم قد أُزيل ورجع إلى مكانه. هو غيست، وله الحقّ. وأنت؟ عذرًا على قبحي، ولكنَّها أوامر القلعة، هل لديك وثيقة تسمح لك بالوقوف قريبًا من هنا.

لم تكلّمه، لكنَّها مدَّت يدها إلى جيبها وكأنّها كانت تعرف ما يجب فعله، وأخرجت الوثيقة. سلّمتها له. تفحَّصها وتفحَّص الختم الذي عليها وتوقيع ليتل بروز. ثم شمَّها.

ضحك آدم من المشهد الغريب الذي لاحظه. *يشمّ ورقة؟ تساءل في أعماقه؟ هل لحاسّة الشمّ مزايا بوليسيّة أو أمنيّة لا يعرفها*؟ بدا له الضابط مثل حيوان يبحث بشمّه عن طريق ضاع منه. يتحسّس كلّ شيء. ثم ارتسمت بعض علامات الانفراج على مُحيّاه، وهو ينظر إلى ضحكات آدم التي لم يستطع التحكُّم فيها.

- لا تضحك يا بروفسور آدم. الزمن هنا بارد وثقيل كجثّة ميّت. لا علاقة له بالزمن الطبيعيّ الذي يمضي جميلاً لدرجة أن نتساءل كيف خرج من أعمارنا وحواسّنا وانسحب؟ نحن هنا مثل الحيوانات التي تحيط بنا؛ نشغل كلّ حواسّنا، لنتمكّن من تجاوز ما لا نحسب حسابه. نتشمّم، لأنّ لحبر ليتل بروز رائحة خاصّة لو تعمّقنا فيها. وبها نعرف الوثائق الحقيقيّة من المزوّرة.

تغيّرت لهجته فجأة، وأصبح أكثر تودُّدًا واحترامًا.

- على أيّ حال، عذرًا على إزعاجكم. نعيش وضعًا صعبًا وقاسيًا، ولهذا يجب أن لا تغضبوا من مثل هذه المضايقات. أنتما أكثر الناس تفهُّما لما نقوم به.

- لا مشكلة يا... سيّدي.

أجابت إيڤا بثقة كبيرة.

- القانون لا يزعج مطلقًا.

- أنا الكولونيل صامويل لوكوك، قائد الكتيبة العاشرة في قلعة أميروبا. وأنا أيضًا المكلّف هذا الشهر بإطعام هؤلاء الآرابيين القادمين من بعيد. مساكين حقيقة، تأكلهم الصحارى والبرد والمجاعات. انظري! عظامهم تكاد تنكسر وتخرج من تحت الجلد من شدّة الجوع والتعب والخوف. تكاد خرقهم التي تمزّقت على جلودهم أن تنتفي نهائيًا وتكشف عن بقايا أجسادهم المتهالكة. يتقاتلون على لا شيء.

أستغرب في هذا الظلام وهذا الجوع القاسي كيف لا يأكلون بعضهم بعضًا، ويفضّلون الموت والتحوُّل إلى غبار للمقابر، على القيام بذلك؟ هل هي الأديان التي تخترقهم وتمنعهم من ذلك؟ مع ذلك، الجائع لا يؤتمن. يجب الحذر منهم. الرحمة وحدها كما يقول الماريشال ليتل بروز، وقبله جدُّه بيغ بروذر، هي حالة ضعف مقنَّع، *فالعظمة تُبنى على الخير والقوّة. إذا غاب أحدهما اختلّ الميزان. الضعف يقتل الخير.* الكثير ممَّن ترونهم الآن يلتصقون ببعضهم بعضًا، لكي لا يسقطوا من شدّة العطش والجوع، سيموتون عند البوّابة من شدّة الإنهاك، أو بعدها بقليل. كلّ شهر ندفن وراءهم العشرات بالجرّافات لتفادي استفحال الأمراض. وآخرون سيموتون تحت الرفس للحصول على مكان داخل البوكس، وغيرهم يأكلون ثم يخرجون محمَّلين بأكياس الأكل، لكنْ في النهاية، سيقتلهم الذين لم يُسمح لهم بالدخول، إذا رفضوا تسليم ما يحملونه. أترككم. لكنْ إذا كانت قلوبكم هشَّة، من الأفضل أن تعودوا إلى غرفكم الدافئة، لأنَّ المنظر لن يكون مريحًا أبدًا. طبعًا، لكم حقّ الحضور إذا شئتم.

ـ شكرًا كولونيل صامويل على ثقتك ومحبّتك.

ثم شدّت على يد آدم أكثر، وكأنّها كانت تخاف من مشهد لم تألفه، هي التي جابت العالم دفاعًا عن الناس البسطاء أو كما تسمّيهم وثائق الأمم المتّحدة: *الأجناس أو الكائنات الآيلة إلى الزوال*. شعر آدم كأنّ بها خوفًا مضمرًا. شدّ على يدها أكثر. أغمض عينيه قليلاً. بدأت حبّات المطر تسقط. محت فجأة المشهد الأسود الذي كان أمامه. سمع ضحكة أمايا وهي تقفز في مكانها، والماء يتمزّق تحت كعبيها. جبااااان... *خوّااف من المطر*... خذني... *اجر بي حيث تريد... اجر*... خذني ولا ترجعني *هنا*... يركضان على حواف

المحطّة. تمرّ القطارات مسرعة. ترشّهم السيّارات. يركضان. عاشقان في مهبّ الجنون. ثم يرقصان معًا على موسيقى، وحدهما كانا يسمعانها... تنسحب منه قليلاً في دلع أنثويّ، يعيدها إلى صدره بكلّ رشاقة الغزالة الزهريَّة. يضع على ظهرها معطفه... ثم يحيط عنقها بشاله الأحمر قبل أن تُعيده له عندما تهدأ الأمطار قليلاً... غزالة على هضبة منسيَّة، تمرح بحريَّة، ولا تعرف الغيمة التي تكبر فوق رأسها وتصبح سوداء مثل الخوف. مزيج من السكينة والجنون. أبوها كان أيضًا طبيبًا نفسيًّا مختصًّا في متابعة حوادث الكوارث الكبرى، ومنها النوويّ، وهو من وجَّهها إلى التخصُّص الذي سارت عليه.

- بسرعة أرجوكم. تأخَّرنا عليهم كثيرًا. من الفجر وهم ينتظرون. لا أريد أن نضطرّ إلى استعمال السلاح لطردهم من على مسافة أبعد عن القلعة.

أخرجته صرخات الكولونيل صامويل العنيفة لجنده، الذين كانوا ينظِّمون البوكسات لاستقبال المنتظرين. لا يدري كم دامت غفوته، لكنَّها كانت كافية لأن ترمي به بعيدًا نحو عالم آخر.

رأى العساكر وهم ينظِّمون الحرّاس عند الأبواب، كلّ واحد في موقعه، في يده عصا ستريزر كهربائيّة، وسلاح خفيف. وضعوا أوَّلاً الأكل في البوكسات الخمس على طاولات ممتدَّة في الطول والعرض. ثم ابتعدوا قليلاً. كان من وراء الشبّاك سيل من الناس لفحتهم رياح الحرّ والبرد الليليّ القارص، فتمزَّقت ألبستهم حتى أصبحوا نصف عراة، ولحاهم متدلِّية بالكاد تظهر ملامحهم الأولى. الكثير منهم كان يسقط من شدَّة الاندفاع ليكون في الأمام، يُرفس فيبقى في مكانه، لا أحد ينتبه له. عيونهم ترتعش ممّا كانوا يرونه من أكل على الطاولات الواسعة، وتقدح كعينيْ حيوان قبل الاستماتة في الدفاع عن نفسه من

موت يواجهه. رؤية براميل الماء التي وُضعت بجانب الطاولات، ألهبت عطشهم.

أطلق صامويل عيارًا ناريًا كما في سباق المضمار، تراجع الجياع قليلاً. فتح الجند البوكس الأوّل الذي يمكنه أن يحتوي على حوالى مائتي شخص. وعلى الرَّغم من محاولة تنظيم دخولهم، إلّا أنَّ الفوضى كانت هي السيِّدة. لم يستعمل الكراسي والجلوس حول الطاولة، إلّا القليل منهم، البقيَّة انهالوا على الأكل وقوفًا في منظر مريع لم يستطع آدم تصديقه. *هل هذا هو شعب آرابيا الذي أنا منهم؟ كيف تمّ كلّ هذا التحوُّل في أقلّ من قرن؟ المؤكَّد أنّ الكثير من هؤلاء البؤساء، كان أستاذًا أو طبيبًا أو عاملاً في مؤسَّسة، أو مواطنًا بسيطًا! من كلَّف نفسه السؤال؟ أيَّة صحراء هذه، من مدّ للخير إلى مأوى للموت؟*

شعر آدم بوخز في أعماق قلبه، وهو يرى الجند يغلقون البوكس حتى لا يكثر الازدحام فيه. ثم فتح البوكس الثاني بالطريقة نفسها. فدخله العدد نفسه، وربّما أكثر بقليل. بنظام أقلّ، حتى إنّ الكثيرين رُفسوا، ومنهم امرأة كانت تحمل صبيًّا لدرجة أن صرخت إيڤا: *حاااااااذر أرجووووووك*، سيموتون. *ستقتلونهما*. انتبه الحارس الذي نظر إلى صامويل. هزّ هذا الأخير رأسه، فأطلق الحارس عيارات ناريَّة في الفضاء. تراجع الجميع وقلّلوا من هياجهم. بعد لحظات انضبطوا قليلاً، فقامت المرأة من مكانها وهي تضمّ ابنها إلى صدرها. أخذها أحد الحرَّاس وأدخلها إلى زاوية صغيرة وأعطاها الأكل. تنفَّست إيڤا الصعداء. والبوكسات الثالث والرابع والخامس فُتحت بالطريقة نفسها. حوالى الألف شخص اجتمعوا على الأكل والشرب وتفادي الموت ولو لزمن معيَّن. لكنَّ الذين بقوا في الخارج كان عددهم أكثر بعشر مرَّات،

لأنَّ آدم عندما فتح عينيه وأراد أن يعدّهم ذهنيًّا فقط، لم يستطع أن يصل إلى نهايتهم.

ثم أُغلقت البوكسات الخمسة. وعندما حاول البعض ممَّن بقوا خارجها، أن يتخطّوا المكان بالقوَّة، أُجبروا على التراجع بإطلاق النار في الفراغ للتخويف. تراجعوا بعيدًا وظلُّوا ينتظرون من وراء شبابيك البوّابة، ووراء الأسلاك الشائكة التي تستعمل للوقاية وتحديد مكان الأمان. عندما انتهوا من الأكل والشرب، اصطفُّوا للخروج. حمل معهم ما تبقَّى من خبز وعظام وماء، فتحت البوكسات الواحد بعد الآخر، فغادروها بسرعة، وتبعتهم المرأة المحمَّلة بالأكل والشرب. هجم بقيَّة الجيّاع على كلّ من كان يحمل شيئًا في يده أو بين ذراعيه، وانتزعوه منه بالقوَّة. المرأة التي كانت تحتضن ابنتها وكيس الأكل، بمجرَّد أن تخطَّت باب القلعة العسكريّ، هجمت عليها مجموعة من جيّاع الرمل، وأحاطوها ولم تظهر، بل حتى صراخها الذي كان حادًّا في البداية سكن نهائيًّا.

أغلق آدم عينيه، وشدّت إيڤا على يديه بقوَّة.

وعندما أغلق العساكر بوّابات البوكسات وخرج العابرون جميعًا، أُطلق التيّار الكهربائيّ في الأسلاك الشائكة. عندما حاول بعضهم أن يهجم بكلّ قواه على المدخل، التصق بالأسلاك تحت شرارات كهربائيَّة على أكفّهم ووجوههم وأجسادهم. تراجع الآخرون تلقائيًّا إلى الوراء وهم في حالة ذعر حقيقيّ. بعضهم دخل في عويل يشبه العواء. لم يكن بكاء. في ظرف ثانية، كانت سيّارات الإسعاف تقف بجانب الأسلاك تأخذ المكهربين الجرحى مباشرة إلى مستشفى القلعة تحت حراسة مشدَّدة. في الوقت الذي انسحب الجميع، ولم يبق عند البوّابات إلَّا ناس قلائل، افترض آدم أنَّهم من أهالي الضحايا. لم

يغادروا المكان حتى بدأت الشمس تغيب، فخرجت سيَّارة الإسعاف مرَّة أخرى، وحطَّت التوابيت العشرة عند مدخل القلعة، وعليها صور الضحايا حتى يتعرَّف عليها ذووها. كانوا ينحنون عليها، يدقِّقون النظر في الصورة، ثم يأخذون التابوت الذي يعنيهم. سحبوها في النهاية على أكتافهم إلَّا واحدًا ظلَّ في مكانه، ولم يلمسه أحد. ساروا في شكل خطٍّ مستقيم وتوغَّلوا في عمق الصحراء، بدون أن يلتفت أيّ منهم إلى الوراء.

كانت الشمس قد انكسرت نحو الحمرة.

أُغلقت كلّ البوَّابات والمعابر الصغيرة، وأُزيلت مأدبة الذئاب. انسحب الكولونيل صامويل نحو قاعدته مرفقًا بمجموعة من جنده، وهو يربِّت على أكتافهم وهم فرحون مثل الأطفال. كان الكلّ في حالة انتشاء لنجاح العمليَّة، إذ ساعدوا على إنقاذ العابرين وبعض العائلات من موت محتوم.

توقَّف الكولونيل صامويل قليلاً عند إيڤا.

ـ الفضل يعود لك في إنقاذ الأمّ وابنها.

ـ للأسف تكون قد ماتت تحت الرفس. على كلّ حال، شكرًا لك ولسيِّد هذا المكان الماريشال ليتل بروز.

ـ ألم أقل لك إنّ هناك توحُّشًا كبيرًا، وأنّ خوفي عليكم من الاقتراب كان في محلِّه. رأيت ماذا فعلوا بالمسكينة.

ـ من يستطيع أن يثقب تلك الشبابيك الثقيلة؟

ـ الاحتياط واجب.

كان آدم يريد أن يسأله عن شيء أحرق أعماقه، لكنَّه فضَّل أن يصمت. ابتلع كلّ الكلمات التي كانت في فمه، والتفت نحو إيڤا التي لم تترك يده إلَّا في اللحظة التي صرخت، وهي ترى الأقدام تصعد على

ظهر الأمّ وابنها الذي حوَّطته بكلّ جسدها لتفادي الرفس الأعمى.

تساءل آدم:

- هل تعتقدين أنّها ماتت هي وابنها؟

- أظنّ. كان يجب أن لا تحمل معها شيئًا.

- لماذا بقي التابوت الأخير هناك؟ ومن سيأخذه.

- ربّما سيأتي في الليل من يستلمه، وإذا لم يحضر ستفترسه الذئاب المتوحّشة. لن يثنيها الخشب الرهيف الذي تنام فيه الجثّة. ستجلب رائحته، عندما يبدأ جسده في عمليّة التحلّل، الذئاب التي تسمعها تعوي كلّ ليلة جوعًا، ولن يتركوا شيئًا وراءهم. حتى الذئاب توحّشت أكثر في هذا المكان بسبب صعوبة العيش.

- من أين جاء هؤلاء الآرابيُّون؟ وكيف وجدوا أنفسهم في هذه الوضعيّات؟ حتى لغتهم كانت غريبة جدًّا وغير طبيعيّة وغير معهودة.

- اللغة مثل الكائنات الحيّة. تموت أو تتوحّش بحياة أو توحّش الناطقين بها. هي تحمل الآن الخوف والجوع ورائحة الرمل المحروق. هؤلاء ليسوا سكّان آرابيا كلّها. هم سكّان جنوبها الفقير، مقاطعة أمانيا، التي كانت أصلاً أفقر مناطق أرابيا وأكثرها عطشًا. الكثير من مدنهم نشفت. تارزا مثلاً لم تبق فيها قطرة ماء، فغادروها، من مدينة إلى خراب. لا يملكون شيئًا على الرَّغم من بقايا حضارتهم الإنسانيّة التي منحت الكثير من الخير للبشريّة، وعلّمتها التسيير وبناء السدود واحترام التعدُديّة الثقافيّة والدينيّة. كأنّ في التاريخ دائمًا شيئًا يتكرّر وعدالة طبيعيّة، بحيث يصبح القويّ ضعيفًا ولا يمكنه أن يستمرّ، لأنّ شيئًا من صلبه يأكله في صمت وخوف.

- أكاد لا أصدّق. لم يكن مخطئًا حينما اعتبر سكّان آرابيا النهايات المفجعة.

ـ أنا زرت آمانيا ومسجدها الكبير، مع فِرَق مساعدة تابعة للأمم المتّحدة، وتأكّد لي أنّ القادم سيكون أفظع. قبل أن تجتاحهم الحروب القبليّة الطاحنة التي حوّلتهم إلى ناس مشرّدين في المناطق القاحلة والمخيفة، كانوا شعبًا كبيرًا وطيّبًا. على الرَّغم من تسلُّحهم، قاوموا ما فُرض عليهم من خيارات الحروب. لكنّ الكثيرين منهم في النهاية انهاروا ودخلوا في قتال قبليّ وعرقيّ وعقائديّ، قبل أن ينزلوا نحو عمليّات إفناء طائفيّ. وتقضي عليهم ندرة الماء إذ جفّت كلّ المنابع.

ـ شمال ما يزال لديه ما يعيش به. الكثير من الذين هربوا نحو الشمال، إمّا قُتلوا على بوّابات المدن، أو أُرجعوا إلى أماكنهم، أو أُغرقت سفنهم في أعماق البحار من طرف حرّاس الشواطئ، وقُصفت بالطيران.

ـ هل يُعقل؟

ـ كلّ شيء يُعقل.

رأى آدم صورًا كثيرة عن مقاطعة أمانيا وعن عطشها. رأى على الشاشات العالميّة كيف أنّ جمعيّات إنسانيّة كثيرة كانت تحاول أن تنقذ ما يمكن إنقاذه، لكنّ المشهد الذي عاشه لم يكن قادرًا على استيعابه. أراد أن يسأل إيفا عن مقاطعات أخرى، ووضعها، لكنّه فضّل أن يصمت، ويحاول أن يغمض عينيه قليلاً، ربّما سمع سقوط الأمطار في قلبه المضغوط مثل إسفنجة بالية، فيمنحه فرصة ليستمرّ أكثر في هذا القفر.

في الليل، رأى أمايا تبكي، كما في اليوم الذي غادرته فيه نحو باريس، لتستقبل والده في مستشفى فال دو غراس[1] برفقة ابنته تالا، في باريس، فكانت حادثة المطار التي قذفت به إلى القلعة.

سمع لأوّل مرّة رماد يعوي في داخله.

Hôpital de Val de grace (١)

٢ ـ مَنْ يَفْتَحُ النوافِذَ المغْلَقَة؟

في سباق المضمار عليك أن لا تسمع إلّا لداخلك وأن تقطع أنفاسك وتدفع بها إلى الأقصى. كلّ توقُّف هو نهاية للأنفاس اليتيمة التي تخزّنها في أعماقك. كلّ شيء يتحدَّد في الأمتار الأخيرة.

آدم غريب، سباق بنسلفانيا الطلّابيّ الكبير

ـ ١ ـ

فاجأته بما لم يكن ينتظره.

عندما وضعت إيڤا جهاز التسجيل الصغير في يده، وعيناها تبرقان سعادة، نظرت إلى دهشته الطفوليَّة طويلاً. رفرفت عيناه مثل طفل تحت وقع ما يرى ويلمس. لم يصدِّق أنَّ ذلك أصبح ممكنًا في جوٍّ من الخوف والضغينة والمجهول. همست في أذنه وهي تطيل في الكلمات وهو مستسلم لها.

ـ *الآآآآآآن كلّ شيء سيتغيّر. ألم أقل لك اصبر قليلاً وسترى؟ وها أنت ترى. بهذا الجهاز الساحر الصغير الذي يمكنك أن تضعه في أيّ مكان تشاء، يمكنك أن تتخلّى عن القلم نهائيًا وتفرغه فقط لخربشاتك العلميّة، أو لقصائدك العابرة، التي لا أحد غيرك يفهمها، حتى أجهزة ليتل بروز المعقّدة.*

ـ *وراء كلّ عالم ناجح، شاعر فاشل هههه.. ووراء كلّ شاعر كبير، عالم فاشل. يمكنني أن أكون من الفئة الأولى. لا أعرف كيف*

أشكركِ يا إيڤا. أشعر الآن أنّي داخل عصري، وعادت لي بعض حرّيّتي.

- الآن يمكنك أن تتفرَّغ لجهودك العلميّة فقط. أنت عالم كبير يا آدم ولست لامقيمًا ولا حتى غيست. أنت أكبر من هذا وذاك، ويبدو أنّ ليتل بروز فهم ذلك جيّدًا.

- أنا في دوّامة أبحاثي، شئتُ أم أبيت. الباحث مثل المريض يا قلبي، لا ينسى أبدًا أنّ لديه مرضه الخاصّ، وعليه أن يوليه كلّ الأهمّيّة وإلّا سيموت. أخربش كلّ ليلة لكي لا أنسى ما فعلته من قبل يا إيڤا.

- ربّما نفعت بها البشريّة، وقلّلْتَ من مظالم الغطرسة والقوّة.

- البوكيت / بومب فكرتها كانت نبيلة، وأتمنّى أن تظلّ، لكنّي أعرف أنّ الظلم لن يسعفها. وسيلة للدفاع عن الحقّ في حيّز ضيّق.. هكذا نشأت الفكرة. ماذا لو فكّر ترومان أوّل مرّة بهذه الطريقة قبل أن يلقي ليتل بوي على هيروشيما؟ لكان قلّل عدد الضحايا إلى ٩٥٪، وهذه النسبة غير مبالغ فيها. أتكلّم على حالة اضطرار استعمال هذا السلاح الفتّاك، الذي يحتاج إلى رقابة دوليّة صارمة.

- أنا متأكّدة من أنّك ستعود إلى جهودك التي بدأتها في جامعة ومخابر بنسلڤانيا. ستجد حتمًا من يساعدك ويحبّ مشروعك ويقف في صفّك، لأنّ ما حدث في اليابان مرعب. جريمة أخلاقيّة وضدّ الإنسانيّة، لكنْ، أيضًا ماذا تفعل مع أمبراطور مجنون وبلا مخّ، بين أيدي ضبّاطه وعساكره.

شعر آدم كأنّ إيڤا أعادته إلى لحظته الأولى التي اشتهاها بكلّ جوارحه، إذ لا حياة له خارج المخابر وروائحها الغامضة وأسئلتها اليائسة أحيانًا. على العكس من أمايا التي كانت صارمة في كلّ ما يتعلّق بالنوويّ - *سلاح الجريمة بامتياز*، كما كانت تقول عنه دائمًا.

ربّما لأنّ جرح عائلتها وجدّها تسوتومو ياماغوشي[1] لم يندمل، ولن يندمل بسهولة. ماذا لو لم يخرج من تلك اللحظة السريعة التي كادت أن تنقله، بأكثر المسافات اختصارًا، نحو الموت؟ ماذا لو كان عالِمًا عاديًا أو لم يكنه أصلاً، لا يشتغل في الحقل النوويّ، هل كانوا سيحاولون قتله؟

عندما سأل إيڤا، هل هي مؤمنة بما كانت تقوله! أجابت بلا أدنى تردُّد:

ـ أنت قاومت كلّ شيء، حتى الظلم الذي سُلِّط عليك بلا رحمة، ولك في هذا المكان مساحة لعملك الحرّ في انتظار عودتك إلى مكان عملك. يمكنني أن أقاتل بكلّ ما تبقّى فيَّ من قوَّة، من أجل هذا.

ـ أوقفت كلّ شيء إلّا خربشة تضمن اتّصالي بما فعلت لكي لا أموت. أمايا نفسها غير مقتنعة.

ـ لكنْ أمايا في طوكيو يا قلبي، وأنت هنا أمام مآسي البشر التي تكبر كلّ يوم قليلاً. المشرَّدون العابرون الذين رأيتهم، من سرق حرّيَّتهم وراحتهم؟ مجموعات القتل والجريمة هي التي قادتهم نحو هذه المأساة الحارقة. ماذا لو وجدوا رحمة عند أنصار الموت. الحقّ! لتتمّ حمايته يحتاج إلى قوَّة رادعة وليس ظالمة.

ـ وسيِّد القلعة، بماذا يفكِّر في هذه الحالة؟

ـ ليتل بروز يمكن أن يكون كلّ شيء، إلّا رجلاً غبيًّا. المسألة تتجاوزه. يعرفون قيمتك، وكلّ خربشتك الليليَّة تصلهم. ربَّما لا يفهمونها بسهولة، لكنَّ الشاشات الراصدة توصل كلّ شيء. لا عليك. هذا ليس مهمًّا. ارتح، وفكِّر بقلبك وضميرك. وسيأتي يوم وتعود إلى

---

(١) Tsutomu Yamaguchi

عملك. لقد عانيت كثيرًا، وأنت على الأقلّ تنام الآن براحة.

- لا أدري. أخشى أن لا أبدع أحسن من *ليتل بوي وفات مان* اللتين جعلتا من البشريَّة لا شيء في ظرف ثانية. أتساءل أحيانًا لو جُنّ الروس ودمَّروا قنبلتهم الهيدروجينيَّة القيصر ذات الطابقين لانصهار الهيدروجين، على من يفترضونه عدوًّا لهم. عندما أستعيد صور البشريَّة، ينتابني ذعر لا يمكن تصوُّره. المشكل حتى يخاف الناس يحتاجون أن يروا بأمّ أعينهم. لولا قنبلة هيروشيما وناغازاكي، هل كان هيروهيتو ينصاع للقوَّة؟

- أنت في وضع آخر غير وضع الحرب العالميَّة الثانية. أنت في عمق حاضر يتحلَّل.

فجأة، داهمه صوت أمايا ناعمًا وخفيًّا وهادئًا، وحزينًا أيضًا. كان قد بدأ العمل في المخبر النوويّ في بنسلفانيا، بحماس كبير، وبدأت فكرة بوكيت بومب تتأكَّد شيئًا فشيئًا، ولم تعد مجرَّد لحظة عابرة. صمتت للحظات طويلة، على غير عادتها. نامت متكوِّمة على نفسها مثل وسادة قديمة، بلا حياة ولا روح. كانت مثل ميِّت. أشعل نور الغرفة، وجلس على طرف السرير.

«*أريد أن أعرف ما بكِ يا أمايا!*

- *خياراتك تخيفني.*

- *خياراتك نفسها.*

- *الطبّ النوويُّ. وعلاج الإشعاعات النوويَّة. ماذا أفعل غير إنقاذ بشر تقتلهم أنت.*

- *يا قلبي.. لا أقتل أحدًا. مجرَّد فكرة لمنع أقوياء هذا العالم من تدمير هذه الأرض.*

- *النوويُّ سلاح الجريمة بامتياز. قنبلتك أيضًا عمياء، كما كلّ قنابل*

الدنيا. لن تشذّ عن القاعدة. عندما تنزل من السماء لن تسأل عمَّن هم على الأرض.

- لو كانت عمياء كما تتصوَّرين لما قَبِل بها مخبر مكوَّن من علماء لا يريدون إلَّا الخير للبشريَّة.

- وهل أوبنهايمر كان يريد الشرّ يوم قبِل الإشراف على البرنامج النوويّ مانهاتن؟ يا حبيبي، أنا لا أشكّك لا في الفكرة ولا في نواياك. الفكرة نبيلة في جوهرها، لكنَّ مؤدّاها هو المشكل وليس شيئًا آخر. في هذا أنا قطعيَّة. كلَّما رأيت صورة جدّي الذي قاوم الموت بقوَّة الإرادة والجسد الصلب، أدركت أنَّ النوويَّ أخطر ما وُضع بين أيدي إنسان هشّ وضعيف ومولع بالقوَّة والسيطرة».

ما سمعه من إيڤا أراحه كثيرًا، ومنحه ثقة جديدة في قلعة لا شيء فيها إلَّا التكرار المميت للحركات، والنظام، والحياة أيضًا، والرياح الرمليَّة واليأس وانتظار عدوّ غامض، كلّ الناس يسمُّونه التنظيم، يأتي ولا يأتي، شاخ العديدون وتقاعد آخرون، ولم يأت. لم يروه ولم يسمعوه، ولم يحدث الهجوم الكاسح على القلعة، باستثناء أحداث متفرّقة تنسب له بدون التأكُّد من الفاعل! التنظيم وحده يعرف حتمًا في أيَّة لحظة سيظهر. هو من يحدّد بدقَّة، ميقاته.

بسرعة، غرق من جديد في خربشته وخطوطه وعلاماته.

رماد مزاجيّ، أو أنَّه يتحسّس الأشياء من بعيد مثل أجداده الأوائل. مرَّة أخرى يغيب صوته نهائيًا، وتعوّضه الذئاب المفترسة. ربَّما تكون الحرب الثقيلة، التي تخوضها القلعة يوميًّا في صمت، هي ما نفّره من المكان.

وسَّع آدم من فتحة الكوَّة قليلاً. نزل الليلة بسرعة في القلعة.

انسحبت الشمس الخجولة منذ الصباح، واندفنت، ولم تظهر في الأفق الهارب إلّا بقاياها. دخلت، باندفاع كبير، رائحةُ التربة والرمال والنباتات الميّتة، والحرائق الغامضة إلى الغرفة الصغيرة، فملأتها. لا يظهر إلّا الفراغ الأسود الخارجي بكلّ اتّساعه تحت غلالة الأمطار التي عادت إلى الهطول. منذ زمن بعيد لم ير هذا المشهد. ينتابه شعور طفوليّ غريب لم يشعر به منذ *خمس سنوات وثلاثة أشهر وأربعة أيّام وعشر ساعات وخمسين دقيقة، واثنتي عشرة ثانية*. الرغبة في الخروج ليلاً، والركض تحت المطر بلا توقُّف، والصراخ بأعلى صوته كما كان يفعل في طفولته الأولى:

يا النووووووو. صبّي صبّي

ما تصبّيش عليّ

حتى يجِي خُويا حمُّو

ويغطّيني بالزّرْبيّة.

يا النووووووووووووووو

عووووووووووووووووو

فجأة، وبدون سابق إنذار، وصله نداء داخليّ كان يأتي من بعيد، عواء الذئب رماد الذي لا يعرف إن سكن القفر وحلّ به يوم نزل هو فيه، أم أنّه ينام في داخله منذ أن جاء إلى هذه الدنيا، وأفهمته جدّته أنّ رماد هو جدّهم الأوّل. يقف على رأس السلالة. يموت الجميع ويظلّ هو حارسًا شرسًا على الهضبة العليا. كلّما تذكّر كلمات جدّته ويقينها، ضحك من نظريّة داروين التي اتّفقت معها الجدّة من حيث الأصل الحيوانيّ للإنسان، ولكنّها سحبت وراءها ذئبًا وليس قردًا! وكان كلّما مازحها آدم في لحظات صفائها: *نحن من سلالة الذئاب أم*

القردة يا حنّا؟ تردّ بضحكة ترتسم في عينيها فتزيدهما يقينًا وإشراقًا:
اسمع يا وليدي آدم! واش جاب القرد للذئب؟ القرد بني آدم ممسوخ[1]، والذئب ظلّ أصيلاً وسيّدَ نفسه. هل سمعتَ بذئب أضحك الناس وتحوّل إلى مسخرة؟ القرد هذه وظيفته، أن يقلّد وأن يُضحك الناس عليه من وراء الشبابيك. ثم جدّك رماد يخافه الناس من بعيد، يعرف أيضًا قدره، يدرك بدقّة اللحظة التي عليه أن ينسحب فيها.

استمرّ هسيس المطر يصله صافيًا وحنونًا. يشعر به كأنّه كان يمطر في داخله.

ساعات مرَّت بلا توقُّف، وكأنّ إيمًا زرعت في قلبه كيمياء كان في حاجة ماسَّة لها. في اللحظة التي وضع القلم على كرّاسة الخربشة الأخيرة، التي أخذت منه وقتًا طويلاً في حسابه درجة توظيف حسابات توقيت الانشطار وفاعليّته، وإحداث الانصهار الهيدروجيني، وكيفيَّة تحفيز عمليَّة الاندماج بين نظائر عناصر كيميائيَّة لعنصر الهيدروجين والنظيرين الدقيقين التريتيوم[2] وديوتيريوم[3] لإنتاج الهيليوم[4] الثقيل، فاجأته حوّاء بأن نقرت برأسها حذاءه الخفيف. كانت كعادتها تحتلّ المربَّع الإسمنتيّ البارد، تحت مكتبه، لأنّها تستأنس برجليه. أخذها. أخرجت رأسها قليلاً، ثم رفعته عاليًا. نظرت يمينًا ثم شمالاً كما تفعل السلاحف عادة، ثم ركّزت نظرها فيه كأنّها تلومه على نسيانه لها كلّيًّا.

---

(١) مصدر هذه الفكرة أسطورة شعبيّة، في أقصى الغرب الجزائري، تقول إنّ القرد كان في الأصل آدميًّا طيّبًا وغنيًّا، لكنْ غريب الأطوار. كان مولعًا بتجريب الأشياء حتى يقتنع بجدواها. في يوم من الأيّام، لم يجد ماء يتوضّأ به، فتوضّأ باللبن، فمسخه الله إلى قرد، لأنّه أفسد نعمة الله.

(٢) Tritium

(٣) Deutérium

(٤) Hélium

اطمأنّت. ثم أغمضت عينيها لتنام في يده بلا مقاومة. استأنست به منذ أن وضعتها إيڤا بين يديه، وقالت له وهي تضحك: *هي ذي حبيبتك، ضعها في عينيك قبل قلبك*. مرافقته الوحيدة التي لا تحتاج إلى أيّ شخص أو حيوان يساعدها على تحمُّل قسوة ما يحيط بها، لكنَّها من أكثر الحيوانات تشمُّمًا للخطر. كلّ شيء فيها، حتى سكنها، أرضها، وطنها، تحملهم على ظهرها أبديًا وتموت بهم، ولا تتركهم مهما كانت درجة الخوف المحيطة بها.

أخيرًا، انتهت عاصفة العدّ العكسي والحسابات القلقة، وطلَّت سنة جديدة لا ملمح لها إلَّا ملامح ليتل بروز التي لم تتغيَّر أبدًا. شبيهة بالسنوات التي مضت إلَّا قليلاً.

صمتٌ مثقل برائحة الموت والخوف والبارود. حتى رائحة جسمه تغيَّرت كثيرًا بفعل المكان المليء بالرطوبة، وشيء غامض يشبه النهايات القلقة لموت مبهم. مع أنَّ رائحة آدم مميَّزة كانت دائمًا مميَّزة. كانت أمايا عندما تنتشي به تقول له: أحبّ عرقك، لأنّه من جسدك لحظة تجلّيه. مزيج من عطر التراب والنبات البرّي، وصدف البحر والميرامية والنعناع، وطفولة لم تمت أبدًا فيك حتى في أدقّ حركاتك. قبل أن تثقلها في السنوات الخمس الأخيرة رائحة الحلزون الميّت، والرطوبة المتأتّية من زوايا الحيطان، التي تتشبّث بالأمكنة التي لا ترى الشمس وروائح المخابر التي تشبه الدواء، وهي ليست كذلك، على الرَّغم من نظافة المكان الذي تعقّمه الخادمة أميناتا بعد النوم وقبله بقليل. تأتي صباحًا، ثم تعود قبل أن يدخل سريره محاولاً أن ينسى كلّ ما شمّه من عطر، ولا يحتفظ إلَّا بما اشتهى.

الليل يكبر بسرعة. يزداد توحُّشًا وضراوة.

يتمادى في سواده، كتلة من رصاص ثقيل. كلّ شيء ما يزال في

بمكانه الأوَّل، كما في بدء الخليقة. حتى صوت الكمان الحزين المنبعث من فراغ ما، ربَّما من داخله، لم يتغيَّر إيقاعه منذ خمس سنوات *وثلاثة أشهر وأربعة أيَّام وعشر ساعات وخمس وخمسين دقيقة، وثانية واحدة*.. وربَّما أكثر من قرن! حتى أَلِفَه وأصبح جزءًا من الديكور العامّ، وفوضاه الداخليَّة التي تنتظم فجأة كلَّما انتابها حنين قديم لأشياء، انسحبت كما الغيم بسرعة.

تشمَّم المكان وكأنّه يرتاده لأوَّل مرَّة، كما يفعل عادة كلَّما سمع أو رأى المطر يسقط. شمّ عطره الذي فيه شيء من الذئب. يعرف رائحة رماد جيِّدًا، ويميِّزها بشكل حيوانيّ من بين آلاف الروائح اليوميَّة التي تتداخل مثل الألوان في دماغه المنهك، كلَّما اخترق رماد كثبان الرمل والحجر المحروق وبقايا الواحات وغابات النخيل البعيدة التي لا يظهر شيء منها من خلال الكوَّة التي تشبه ثقبًا في حائط قديم. وحتى عندما تظهر، يتساءل آدم في أعماقه، *هل هي غابة أم مجرَّد سراب يرسم أشكاله في أيَّام القيظ الصعبة، أو عندما يغيب كلّ شيء وراء السيول التي تخلق ستارًا مائيًّا باردًا، وضوئيًّا*، بينه وبين واحة *النخيل أو ما افترضه كذلك بذهنه المتعب؟*

من حدّة حاسَّة الشمّ لديه، أصبح آدم يعرف كلّ شيء، بما في ذلك رائحة الموادّ القاتلة، مثل الأسلحة الكيماويَّة، وتحديد نوعيّتها بدقّة متناهية. هو متأكّد من أنَّ هذه الحاسَّة ليست آدميَّة، فقد ورثها من جدّه الأوَّل *الذئب رماد* كما كانت تقول له جدّته في طفولته. *رماد لا يكبر ولا يموت، قد يكون فينا أيضًا. قبيلتنا التي جاءت منه. انظر إلى عيون نساء القبيلة. ألم تلاحظ أنَّ في بؤبؤها كلّها شيئًا من صفرة ذئب البراري، رماد، المخلوطة بلون الصنوبر الحلبيّ. رماد يعيش خارج الزمن، ولهذا ظلّ مشرقًا وأنيقًا في حركاته وفي صوفه الرماديّ، ولم*

ينتهكه الوقت. كلّما مددتَ بصرك بعيدًا رأيته يركض بلا توقّف، وكلّما جنّ الليل سمعتَ عواءه وهو يخط حدود المكان، وكلّما أغمضتَ عينيك شعرتَ أنّه يسكن فيك.

استرق السمع من جديد.

كأنّ أصواتًا خفيّة كانت تأتي من بعيد، محمّلة بالجنائز والخوف، تشبه في عمقها حركة الرمال وهي تكنس كلّ ما تصادفه في مسالكها، وتحاصر هذا المكان المعزول، والذي نبت في الرمل بشكل غير محسوب كأنّه نبتة شاذّة. قلعة أميروبا داخل خواء الرمل تشبه صحراء التتار[1]، لا هي سناتوريوم للراحة بعد عمليّة دقيقة، لأنّها ضخمة وحيطانها سوداء كأنّها نجت من قصف جوّيّ مدمّر، أو من حريق مهول، أو من بركان هزّها من قواعدها؛ ولا هي مكان للحجيج العابرين نحو الأولياء، الذين مرُّوا منها قبل قرون؛ ولا هو مستشفى عادي خاصّ بمرضى معزولين عن بعضهم بعضًا خوفًا من عدوى الجذام.. كان عليه أن يتعوّد على المكان، وعلى كلّ ما فيه من عزلة وخوف وزواحف ورياح مثقلة بالأصداء. غيابه في عمق الكتابة من حين لآخر، أو تسجيل شجنه، كان يمنحه بعض الراحة والرغبة في الاستمرار، بالخصوص عندما أغلق ليتل بروز كلّ شيء في وجهه. جهازه الصغير الملتصق بصدره أصبح أنيسه وابتلع الورق. أصبح يسجّل فيه الصغيرة والكبيرة. حقّه الاجتماعيّ الثاني الكبير بعد السلحفاة حوّاء، الذي حصل عليه بعد صرامة واحتجاجات كثيرة من إيڤا، التي قالت لآدم وهي تضع آلة التسجيل بين يديه: *هي ذي حبيبتك من الآن، ضعها في عينيك قبل قلبك*. كلّ ما طلبه عندما طرحت عليه *وكالة ليدرافيك ماذا تريد؟*

(١) رواية للكاتب الإيطالي دينو بوزاتي Dino Buzzati نشرت في ١٩٤٠ تحت عنوان: Il deserto dei Tartari وأثارت جدلاً كبيرًا يوم صدورها.

المباتك، مقابل العودة إلى عملك المخبريّ. حاسوب حتى لو كان متخلّفًا. يتذكّر آدم أنّ بعض الحيوانات، الفئران بالخصوص، في المخبر النوويّ الذي اشتغل فيه طويلاً، مختبر بنسلفانيا، التي كانت تجرّب عليها الأدوية والإشعاعات الجديدة، كانت توضع في مكان مشابه تمامًا للبناية التي يوجد بها الآن. تدرس كلّ حركاتها في أمكنة مغلقة، قبل أن يتمّ الإجهاز عليها وحرقها في أماكن معزولة، ودفن رمادها في مقابر خاصّة محصّنة بالخرسانة، من كلّ الجوانب.

«بوووف، قصّة بعيدة، عليّ أن أنساها نهائيًّا إذا أردت لهذا الكائن المفرغ من كلّ شيء أن يستمرّ».

آدم. انس قليلاً لتستمرّ في العيش.

سمع الصوت كأنّه كان يخرج، ليس فقط من شقوق الحائط، ولكن منه، من معصمه الذي وضعت به شريحة الهويّة والمعلومات الخاصّة منذ دخوله إلى المخبر، وتمّت مراقبتها وحشوها بمعلومات جديدة تحدّد مكانه بسهولة أينما تحرّك. شريحته الأولى كانت فقيرة بسبب منصبه الحسّاس. هو لا يرفض الشريحة التي عُمّمت على كلّ الكرة الأرضيّة، لأنّها محت خوف الإنسان من تضييع أوراقه. كان الخطر الأكبر في حياته أن يضيّع وثائقه وكأنّها الحياة كلّها.

كلّ شيء أصبح سهلاً. اليوم أمرُّ عبر المطارات بلا توقُّف. أشقّ المعبر بيقين. أمدّ يدي للحلقة المثبّتة في البوّابة، في ثانية واحدة تقرأ كلّ شيء. لا جواز ولا أوراق ولا ڤيزا. يسافر الإنسان غير مثقل سوى بعصره القاسي وشجنه الداخليّ.

أغمض آدم عينيه قليلاً متتبّعًا بنظراته القلقة وقع المطر الذي ظلّ على وتيرته الناعمة نفسها.

مدخل المكان المبهم مملوء بالبرك الصغيرة التي يتلألأ داخلها

ضوء الساحة الخافت. قضى زمنًا طويلاً يبحث عن تسمية للمكان غير قلعة *أميروبا*[1]، لكنَّه مع الزمن أعفى نفسه من الأسئلة المملَّة وغير المؤذية. الشيء الوحيد الذي يعرفه جيِّدًا هو أنَّه وحيد، وفي مكان مغلق، وفتحاته القليلة لا تقود إلى أيّ شيء، ولا حتى إلى الفراغ. لا فراغ في هذا المكان الثقيل. كلّ شيء ممتلئ بشيء ما، برائحة ما وبخوف ما أيضًا. الفتحات العليا، داخل المقصورات، كما يسمِّيها *ليتل بروز*[2]، لا تظهر إلَّا سماء فارغة، لونها رماديٌّ ورصاصيٌّ، لا يتغيَّر أبدًا. كلَّما تأمَّله آدم، شعر باختصار الحياةوشطط القلب. لكنَّه يقاوم النهايات العبثيَّة. خمَّن ببساطة أنَّهم يريدونه أن يبقى حيًّا، وإلَّا ما الذي يمنعهم من اختصار حياته بالشكل الذي يريدونه؟ فهو ما يزال حيًّا عن طريق الغلط، أو بمحض الصدفة. من الكائنات المنقرضة التي لم تبق منها إلَّا عيِّنات نادرة ضائعة في قفر آرابيا والصحارى، الآيلة إلى الزوال حتمًا. كأنَّ دورتها الطبيعيَّة انتهت، أو هي في طريقها إلى ذلك، كما يقول *ليتل بروز*. *هناك أمم لا تملك قابليَّة الاستمرار في الزمن، فتقضي على نفسها بنفسها. ماذا كان ينقص الهنود الحمر على أراضيهم؟ لماذا راحوا يناصبون الأمم الحضاريَّة العداء الذي أفناهم؟ ماذا كان ينقص سكّان آرابيا؟ الرخاء والنفط والذهب واليورانيوم وخيرات الأرض من حديد وفوسفات وذهب وسواحل بعرض السماء، فراحوا يخوضون كلّ الحروب الخاسرة*. أمّا الفتحات السفليَّة للمقصورات، لم يدخلها، ورفض دائمًا اختبارها، خاف ممّا هو مكتوب على القطعة الحديديَّة التي تغطِّيها بلغة *أوررولينغوا*[3]: *إذا مللت*

(١) Citadelle Améreupa

(٢) Little Brother

(٣) Eurolingua

، *الحياة، افتحها*. لكن، قبل خمس سنوات وثمانية أشهر وسبعة أيّام
، ساعات، و٣٣ دقيقة و٢١ ثانية، عندما أُصيب بالقنوط، جرَّب
حها وهو على يقين أنَّه لا شيء تحتها. حمل في يده بطّاريَّة الضوء
ي وضعتها رابطة *الدفاع عن حقوق الأجناس الآيلة إلى الزوال*،
ت تصرُّفه، في حالة حاجته لها في هذه القلعة المقفرة، أو الخروج
لاً نحو الساحة أو الشعور بأيّ خطر. أزال قطعة الفولاذ الخشنة.
و يستعدّ للنزول عميقًا تحت الأرض، رأى الحائط مكسوًّا بكلّ
واع العقارب والثعابين والحشرات التي عجز عن عدّها وتسميتها،
حرَّك في تناغم كلّيّ وكأنّها تآلفتْ بعضُها مع بعض، حتى إنّها لم تعد
اتل على المكان الضيّق الذي يحتويها أو مداخل الجحور. لكنَّه رأى
، عيونها شرارًا مستطيرًا وهي تنظر إليه كلُّها بعيون مستنفرة. تمتم
كيد *أنَّها مثل الإنسان. تقاتلت حتى شبعت موتًا قبل أن تستقرّ نهائيًّا*
تآلف. لا غلبة في النهاية إلّا للزمن. لا يدري لماذا في لحظة من
لحظات الهاربة، تمنّى أن يكون حشرة تلتصق بحائط قديم حتى
موت، من دون أن تتعرَّض لأيّ أذى، ولا تعتدي على غيرها؟
حك آدم في أعماقه: *ألستُ اليوم تلك الحشرة*؟ لقد بذل جهودًا
بيرة حتى كاد يُصاب بالجنون، قبل أن يتآلف مع المكان، ومدخله
صغير الذي لا يتجاوز المتر الواحد علوًّا، ونصف المتر عرضًا، إذ
ليه كلّما خرج منه لتنفّس هواء آخر والركض قليلاً في الساحة، أو
اد إلى مقصورته، أن ينحني جيّدًا إذا أراد أن يمرّ. عندما سأل *ليتل*
روز الذي ملأ وجهه الشاشة، لماذا الباب بهذا الشكل الغريب
المنحني، أجابه آليًا، وكأنّه كان مهيّأ للإجابة:

«ألم أقل لك لا تشغل بالك يا آدم؟ وضعك سيتغيَّر قريبًا. لا
جد أيّة مؤامرة ضدَّك، أنت المولع بنظريَّة المؤامرات. المسألة أبسط

من ذلك كلّه. فقط ليظلّ جسمك رشيقًا، ينحني ويقوم باستمرار، وكأنّه يؤدّي صلواته في كلّ وقت. يخفّف الآرتروز وداء المفاصل أيضًا. لهذا، نحبّذه في هذا المكان، حتى لا تحاكمنا عليه *رابطة الدفاع عن حقوق الأجناس الآيلة إلى الزوال* التي لا تعترف بما تقدّمه مؤسّستنا من مساعدة لضيوفنا الذين يُؤتى بهم إلى هذا المكان، الذين لا يخرجون عادة من هنا إلّا للذهاب نحو مكان آخر في أعماق هذا القفر. للأسف، لا يعودون لكي نسألهم عن آرائهم حول الفرق بين المكانين».

تعوّد آدم على كلّ شيء إلّا على أن يكون ليس هو ليستمرّ في العيش!

تبدو هذه المسألة معقّدة قليلاً. أن تكون لستَ أنت، عليك أن تموت نهائيًا ويُمحى خبر وجودك، وتعيش ثانية مجرَّدًا من كلّ شيء إلّا من ذاكرة، عليك أن تضعها في الفريغو[1]. وهذا أمر مستحيل طبعًا.

انتابته رغبة جامحة للحديث. تلمَّس جهازه. نطق بعلامته الصوتيَّة التي يبدأ فيها الجهاز الذي جاءته به إيفا، بتسجيل صوته وتحويل كلامه إلى لغة: *اثنان. صفر. ثمانية. أربعة. آدم.* 2. 0. 8. 4 Adam ثم يضع رقمًا سرّيًا، يشرع بعدها في الحكي. هو لا يُداري الرقابة لأنّها متوغّلة فيه كالإبرة، لكنَّه يعذّبها حتى يورثها الملل منه، لأنّه ليس بكلّ تلك الخطورة. أكثر من خمس سنوات وثلاثة أشهر وأربعة أيّام وإحدى عشرة ساعة وثلاثين دقيقة، وأربع ثوان، وهو يلعب معها لعبة القطّ والفأر لدرجة أن يفكّر أحيانًا أنّه لم يعد مراقبًا. لا بدّ أن يكونوا قد ملّوا.

---

(١) البرّاد.

أنا آدم. لمن لا يعرفني. من سلالة شاء لها القدر أن تتوقّف مثل عيّة السلالات المنقرضة أو التي هي في طريقها إلى الزوال. قضى سنوات بين الأسئلة والمخابر والعزلة والخوف، إلى يوم صادفته الكتابة اللسان، بلغة أصبحت اليوم في عداد الموتى، وسلحفاة ضائعة في مساحة مليئة باللاجدوى. وضعتها في يده إيفا، لأنّها عرفت بحاسّة الأنثى الحيّة أنّه كان يحبّها. سمّاها حوّاء قبل أن يدخلها إلى بيته. لم مانع. كان بها عطش وجوع، من يومها امتلك قلبَها وفهمت عزلته وغموضه. من حين لآخر يصبّ ما في قلبه لها. حتى ظنّوه يحادث جهات خطيرة، وراقبوه أيّامًا وليالي متتالية بلا توقّف، لكنّهم عندما عرفوا السرّ، قدّروا جنونه وعلمه أيضًا، وأهملوا جنونه. أن أعيش حاضرًا مجرّدًا من كلّ آت، أو أُقتل وأُستعاد بشكل آخر، هذه فكرة ممكنة، لكنّها تحتاج إلى زمن طويل وصبر كبير، ومخابر عديدة. الاستمرار في الحياة، عفوًا في العيش، لا يوصل إلى شيء مهمّ. بمنحك فرصة أن تفتح عينيك، وإذا كتب لك أن تتنفّس الهواء، سيكون ذلك جميلاً، وأن ترى الشمس وهي تشرق وتغيب سيكون ذلك افضل كليًّا. الحياة ليست فقط ما نراه، ولكن أيضًا ما ينام فينا منذ قرون لا حدّ لها.

في البدايات التي ابتعدت اليوم كثيرًا، عندما سأل *ليتل بروز*، سيّد قلعة أميروبا، عن وضعه الشخصيّ، لأنّه لا يفهم لماذا اقتادوه إلى هذا المكان، وهو خبير وبروفسور اشتغل مع كبار الشخصيّات على الرّغم من اختلافه معها، في العراق وسوريا وإيران وليبيا ومصر والجزائر، لأنّه كان يؤمن أنّ امتلاك النوويّ كليًّا يحتاج إلى خبرة استثنائيّة غير متوافرة اليوم عند أيٍّ من هذه الدول، وأنّ العلماء الذين أشرفوا على إنشاء هذه المخابر الطرديّة الصغيرة، في آرابيا، التي لا

تخفى على أحد، معروفون؛ ثم إنّ المعلومات، التي تصلهم من خلال الأقمار الاصطناعيّة والمخبرين المبثوثين في كلّ مكان، دقيقة جدًّا ولا تحتمل أيّ شكّ. الأحسن انتهاج سياسة الجزرة والعصا بدل التدمير الشامل لهذه البلدان، بالخصوص قتل العلماء الذين تكوّنوا في أميركا وأوروبا وبريطانيا وأستراليا، وعادوا إلى بلدانهم. لكنْ لا أحد سمع لرأيه، ولا حتى لرأي صديقه سميث يومها، على الرَّغم من أنّه كان يعرف أنّ المسألة أكبر. حتى كبير الخبراء وضعه يومًا في الزاوية، وقال له بحدَّة: قل لي يا آدم، ماذا تريد؟ هل مللت من الحياة؟ أمامك مستقبل كبير، فلا تحرقه. لم يجبه، بل لم يترك له فرصة أن يسأله عن السبب. فهمه على الفور. قيل له لاحقًا «*إنّك متعب فقط يا آدم، عليك أن ترتاح قليلاً في سيناتوريوم عسكريٍّ يعفيك من المتاعب ويخفّفها عليك*». وبعد مدّة خمس سنوات وثلاثة أشهر، وثمانية أيّام و١١ ساعة و٥٤ دقيقة و٥٩ ثانية بالضبط، من الحجز، قيل له «*لا تشغل بالك كثيرًا. مرحلة الخوف منك انتهت. ستعود إلى مخبرك كما كنت قبل أن تحلَّ ضيفًا على القلعة. وعليك أن تنهي عملك الذي كان سيقودك إلى نوبل، حديثك عن أشياء انقرضت أو هي في طريقها إلى ذلك، كآرابيا واللغة الآرابيّة والتاريخ والجغرافيا والنفط والغاز الصخريّ والإرهاب، والبلد الأصليّ، شككنا فيك في البداية، لكنّنا أدركنا أحاسيسك وجرحك. فأنت في النهاية عالِم. العالِم لا هويّة له ولا وطن. فهو ملك للبشريّة جمعاء*».

ـ ٢ ـ

تهديدات *الكوربو* أصبحت جزءًا من الديكور العام للقلعة.

كان آدم سعيدًا أن إيڤا تمكّنت من سرقة حقّه في الرياضة من ليتل روز، وأنّه أصبح بإمكانه أخيرًا أن يستعمل المدرج القديم كمضمار يمارس فيه الرياضة. لإيڤا وإصرارها تعود كلّ الفضائل التي أعادت له إنسانيّته المسروقة.

لم يستطع أن يخفي خوفه عنها.

عندما نصحها بعدم الخروج، نظرت إيڤا إلى عينيه بحنان، ثم مرّرت أناملها على وجهه المتعب:

آدم حبيبي، وماذا أفعل هنا إذن، إذا بقيت متخفّية في قلعة ثقيلة؟ الأفضل أن أعود إلى ستوكهولم أشبع على الأقلّ من كيتي وأندرسن، ابنيَّ، ومن المدينة والناس الذين أعرفهم. لا عليك يا قلبي!

استغلّ آدم فرصة خروج إيڤا ودريمز وميريلين مع كتيبة عسكريّة وبعثة طبّيّة لتفقّد قبيلة تسكن على أطراف السدّ الأزرق، تعاني من

الأمراض، وتوفير الأدوية والمساعدات لها. فهي قبيلة معزولة لأنّها من ديانات أخرى. استغلَّ صباحه للركض، كما كان يفعل أيَّام زمان في جامعة بوسطن.

تنفَّس طويلاً على المدرج القديم، الخاصّ بالطائرات الصغيرة، الذي ضُمّ إلى القلعة قبل سنتين، حتى أصبح جزءًا متوغّلاً فيها كالسيف، منذ أن استقرّ الأسطولان الحربيَّان نهائيًّا في البحر الأحمر ومضيق هرمز.. ثم واصل ركضه بلا توقُّف. فهو في مساحة أفرغت من كلّ شيء، حتى لا تشوّش على طائرات السلع وغيرها. يعرف أنَّه عندما تكون العلامة الحمراء، يُفرغ المدرج كلّيًّا من أيَّة حركة ما عدا حركة الطيران، ومع العلامة الخضراء يُضاء كلّيًّا.

على مدار الخمس سنوات حجزًا، لم يعرف الشيء الكثير عن المكان، لكنَّه عرف أنَّ الأمطار الموسميَّة تقود نحو السدّ الكبير الذي بُني على أنقاض سدّ تاريخي *مارابا* الذي بناه السبئيُّون في القرن الثامن قبل الميلاد. وكان يروي قرابة المائة كيلومتر مربّع من الأراضي. بُنِي بالحجارة الجبليَّة المنحوتة التي لا تمرّر المياه، وألصقت بالجبس، واستُخدمت فيه قضبان أسطوانيَّة من النحاس والرصاص طول الواحدة قرابة العشرين مترًا. توضع في ثقوب الحجارة فتتحوّل إلى مسامير واقية من الانهيار. وهي التي حمته من الهزَّات العنيفة التي طالته. ولم يبذل أيّ جهد لترميمه حتى بُني السدُّ الجديد الذي لم يبقِ من القديم إلَّا حائطه الذي دمَّره حلفاء آرابيا فبعثروا تاريخه وحجارته. السدُّ الجديد بناه الوافدون الجدد على القلعة وأسَّسوا فيه حاجاتهم، ومدَّدوا مياهه إلى القلعة وتركوا جزءًا منه، الزائد، يذهب نحو الوادي الرئيسيّ الذي ينزلق بنعومة نحو بيوت الواحات المنتشرة على أطرافه، كما النيل الأبيض.

اعتُبر سدُّ *مارابا*، أو السدّ الأزرق، واحدًا من أكبر إنجازات ليتل بروز، لأنه أخرج المنطقة نهائيًا من الحاجة إلى الماء، ونفع به بعض سكّان أرابيا الذين هم في حاجة ماسّة له. خطابات ليتل بروز لا تتوقّف أبدًا، وتُنير ناس القلعة بكلّ ما تملك ولا تترك شيئًا للصدفة. حتى وهو صامت، تأتي أنفاسه من بعيد، وهو يكرّر كلماته المعتادة: *ناموا قريريّ العيون. عين ليتل بروز ترعاكم جميعًا. تعرف ما يضرّكم وتعرف أيضًا ما لا ينفعكم. وما لا ينفعكم هو الأهمّ بالنسبة لنا، لأنّنا لا نريد الإنسان الناقص. القلعة تكوّن الإنسان التامّ. عين ليتل بروز لا ترى التوافه. تقفز فوقها. تراهن عمّا هو كبير فيكم، لهذا تعطيه ما يستحقّه من الاهتمام. ارتاحوا ولا تقلقوا على ما حدث، وعلى ما يمكن أن يحدث. لا شيء يفلت من رقابتنا في القلعة. أنتم تعرفون أنّ من ليس معنا، فهو ليس ضدّنا فقط، لكنّه عدوٌّ تجب محاربته، يجب أن يُمحى، لأنّه خطر على مسيرة الإنسانيّة الجديدة التي نبنيها اليوم بكلّ ما نملك من نار وعقل. هناك أمم لا تصبح مفيدة إلّا عندما تتحوّل إلى رماد. نحن من يمنحها النار وفرصة التحوّل إلى رماد، قبل الدخول إلى تاريخ ظلّت على حوافّه.*

المضمار طويل ومريح أيضًا لمن يمتلك نَفَسًا قويًا.

ضغط على تعبه ليتحمّل أكثر، ويزيد في سرعته. منذ الحادثة، لم يجرّب المسافات الطويلة.

خمس سنوات و٣ أشهر و١٥ يومًا و١٠ ساعات و٢٧ دقيقة و٣٣ ثانية، من الحجْر والتدمير الدماغيّ، واستهلاك المحلول المنوّم، جعلته يدرك في وقت مبكر أنّ ما كان يحدث له لم يكن أبدًا صدفة، إذ لا يمكن للصدفة أن تكون بكلّ هذه الدقّة والبشاعة أيضًا، ولكنّه كان مسألة مرتّبة ومنظّمة ومهيّأة بشكل من الأشكال.

كان مصرًا على تصحيح الخطأ وتقويم الأشياء. لقد كشف السرّ بسرعة، وعرف بأنّ ليتل بروز لن يقتله، لأنّه لو شاء ذلك لفعل، لكنّه لم يفعل. فهو لو فعل قد يخسر حلم الماريشال. منحه ذلك ثقة أكثر في الآتي. ثم إنّ كلّ شيء أصبح معلنًا، والوكالة أصبحت طرفًا مدافعًا عنه باستماتة.

كلّ شيء مرّ بسرعة لدرجة أنّ الزمن يومها تقلّص في عينيه كورقة وُضعت في الكفّ، وتمّ الضغط عليها حتى أصبحت مثل الكرة. كلّما تذكّره شعر بوخز عميق، قبل أن يمرّ أمام عينيه كما السحابة.

يومه الأوّل، قبل خمس سنوات، في قلعة *أميروبا* أكّد له ذلك. عندما أنزلوه مغمض العينين، أوّل مرّة من المروحيّة، عرفها من شفراتها وهي تمزّق الهواء والرياح بدورانها. وعرف أيضًا أنّه كان على متن سفينة حربيّة كبيرة. ربّما كانت أسطولاً. فقد عرف ذلك بدون جهد كبير من الطائرات الحربيّة التي كانت تصعد وتنزل بتواتر مستمرّ. لا يمكنه أن يخطئ في روائح وقودها الخاصّ. لقد قضى في مختبر أبحاثه، في بنسلفانيا، القريب من مطار حربيّ؛ سنوات كثيرة. ظلّ يكرّر كلمة واحدة: *لا بدّ أن يكون هناك خطأ ما، لست إرهابيًا حتى أُعامل بهذه الطريقة. لست إرهابيًا ولن أكونه أبدًا. أصلاً من كان يريد اختطافي هو التنظيم الذي جعل من الإسلام واجهته لتحليل قتل الأبرياء. ضمّ في صفوفه كلّ القتلة وشذّاذ الآفاق الذين لا هويّة لهم إلّا التباهي بالدورادو الموت. . والآرابيّون الضائعون يأتون وينضمّون إلى التنظيم إلى يوم يأتي دورهم، فيقومون بجريمتهم، وقليلاً ما يخرجون بلا علامات على أجسادهم أو ميّتين. أعرف هذا جيّدًا.*

شعر يومها كم أنّ الإنسان يمكن أن يتحوّل إلى لا شيء في ثانية واحدة. ظلّ يدافع عن نفسه، وهو لا يعلم أنّه كان أمام إنسان أو

طاولة أو فراغ؟ عندما صمت وهدأ، سمع غزغزة كرسيٍّ وشخصًا الكاد يسمع صوته: *اجلس*. فجلس. بدت في الصوت ألفة كبيرة كأنّه عرفها أو سمعها من قبل.

. لا تقل هذا. من قال لك إنَّك إرهابيٌّ يا عزيزي آدم؟ نحن لم نفعل شيئًا سوى حمايتك. الباقي، كما تعرف، هي الضوابط العسكريَّة التي لا تترك شيئًا للصدفة.

نزع الغطاء الأسود من على عينيه. من شدَّة الضغط، بقي آدم امدّة ثوان لا يرى مطلقًا. شيئًا فشيئًا ارتسمت أمامه الأشكال على حقيقتها. رأى أمامه رجلاً يقف باستقامة، شعره أبيض، وفي عينيه بريق من الذكاء.

أنا ستيفنسن، وإذا شئت أن تختصر أميرال ستيف.

احتراماتي أميرال.

. مرحبًا. لا تخف. أعرف أنّك لست متعوِّدًا على هذه الممارسات. أنت ابننا، ولا يمكن أن نعامل عالِمًا ذكيًّا مثلك بطريقة غير محترمة. إجراءات أمنيَّة لصالحك ولصالح الجميع. الخشونة التي تُستعمل كثيرًا ما يكون مبرِّرها الوحيد هو الإصرار على تنفيذ الأوامر والمحافظة على حياة من يوضع تحت مسؤوليّاتنا. الزمن الذي نعيشه يتجاوز خياراتنا وقناعاتنا، وحتى لطفنا وتربيتنا أحيانًا. أنت عالِم. وهذا الوضع لم تسرقه، لكنَّه ثمرة عملك وثقافتك الحيَّة. أميركا تعبت كثيرًا لتكوينك لهذا. من واجبها حمايتك.

. ماذا أقول يا سيِّدي ستيفنسن؟ في لحظة من اللحظات، شعرت بأنّي لا أختلف عن أيّ مجرم حرب. أنا لست مجرمًا ولا قاتلاً، بل ضحيَّة كلّ الجهات. وجدت نفسي على حافّة عالم آرابيا الذي مات كلّيًّا، ولم تبق إلّا علاماته القليلة وتمزُّقاته وحروبه، وعالم غربيّ في عزّ

انهياراته بسبب أزماته البنيويّة، وإسلام فَقَد كلّ مبرّراته الإنسانيّة منذ أن استلمه *التنظيم*؟ كيف يمكنني أن أكون وسط هذه الحوافّ.

ـ كلّنا على هذه الحوافّ يا آدم. لا تنسَ أنّك عالِم نوويّ، وهذا وحده يؤهّلك لأن تُسرق أو تُختطف، وحتى أن تُقتل. أنتَ اشتغلت في المخابر المهمّة في بنسلفانيا، وتعرف جدّيّة هذه الخيارات أكثر من غيرك. هناك أشياء يتمّ فيها التسامح وإغماض العين، وأخرى لا تقبل أيّ خلل. الخلل مثل المرض، يتّسع بسرعة إذا لم يجد يدًا تهتم به وتعطيه ما يستحقّه من جدّيّة.

ـ أفهم هذا، لكنْ. . .

قرّب ستيف كرسيّه منه حتى حاذاه، وأصبح في عمق ظلّه.

ـ ليس هذا هو المهمّ. في النهاية نحن نحتاجك ولا نريدك أن تسقط بين أيدي القتلة، يعبثون بتاريخك وحياتك وعلمك، وربّما يحوّلونك إلى شخصيّة ضدّ نفسها، ومن يدري، حتى إلى قنبلة موقوتة! يملكون اليوم ما نملك من وسائل التوجيه التي تضع حياتك وحياتنا في خطر. لهذا، لا نلعب ولا نترك شيئًا للصدفة في عالم كهذا، شديد الخطورة.

ـ كنت أعتقد أنّ هناك خطأ ما، لأنّه لا يمكن أن يتحوّل الإنسان من عالِم إلى طريدة.

ـ الخطأ قد يكون في التفاصيل، لكن ليس في الجوهر يا آدم. إنقاذك كلّفنا ثلاثة حرّاس. من اخترع أو كاد على الأقلّ، البوكيت بومب، أو القنبلة المضادّة للإرهاب، لا يمكن أن يكون إنسانًا عاديًا، وتُترك حياته عرضة للمخاطر. جهده سينقذ حتمًا الإنسانيّة من الإرهاب ومن قنابل من نوع هيروشيما الثقيلة وناغازاكي، التي أبادت الكثير من الأبرياء بسبب أمبراطور معتوه، هيروهيتو. أنت أيضًا لم تكن حذرًا.

عندما دخلت المخبر، وقّعت على ميثاق شرف يجبرك على الإبلاغ عن كلّ تحرُّكاتك الكبيرة.

- يا سيِّد ستيف كأنّك تتحدَّث إلى آلة. والدي كان بين الموت والحياة في فال دو غراس، في باريس، وكان لا بدّ ألّا ألتفت ورائي. حتى أمايا زوجتي كانت قد سبقتني، لتعفيني من رحلة لم تكن ضروريّة بالنسبة لي.

- لكن إيجابيين. المهمّ أنّك هنا، وبخير.

ربت ستيف على كتف آدم بإعجاب كبير، أشعره بحرارة افتقدها بعد أن وجد نفسه في هذه الأمكنة الغريبة، التي تدحرج بينها طويلاً، مغمض العينين، قبل أن يصل إلى الأسطول الذي أحسسه بأنّ الدنيا لم تغلق بعد عليه كما الكمّاشة، كما تخيَّلها مباشرة في اللحظة التي أعقبت الاختطاف.

خفَّف ستيف من توتُّره برزانته، وشيء يشبه الأبوَّة:

- ترشيحك لنوبل كان مكسبًا مهمًّا لنا ولمخبرك. مهمّ لجهودك الإنسانيَّة.

- مجرَّد مقترحات يا سيِّدي، من أجل عالم أفضل. كلّ وثائقي تركتها هناك.

- من هذه الناحية لا تشغل بالك. سنسعى لإيصالها لك.

- نوبل؟ الأوَّل أن يعرفوا أنّي ما زلت على قيد الحياة، بعد قصّة الاختطاف التي كنت سأتعرَّض لها.

- نحن على علم بأنَّ خبر وجودك في مكان آمن وصل إلى من يهمّه الأمر! كنّا نعرف أنّ عمليَّة اختطاف كانت تركَّب ضدّك، وكنّا في سباق ضدّ الساعة، ووصلنا في اللحظة التي كانت مجموعة تنتمي إلى *التنظيم*، التي يرأسها الكوربو السيِّئ الصيت الذي أُلقي عليه القبض

واقتيد إلى قلعة أميروبا، وعُذّب هناك للأسف، لكنّه تمكّن من الهرب في النهاية ليضيع بين الرمال. الكوربو خرّيج جامعاتنا الأميركيّة. خسرنا ثلاثة من خيرة حرّاسنا، لكنّنا شللنا عناصر التنظيم نهائيًّا، فقتلنا مجموعة، وألقينا القبض على نائب رئيسها، فأمدّنا بتفاصيل خطّة اختطافك، ومقايضة مركز الأبحاث النوويّة في مختبر بنسلفانيا بك.

كنت على موعد مع زوجتي، عندما أنقذتني سيّارتكم بسرعة، لم تكن أمايا بعيدة، رأيتها تقطع الطريق. رأتْ مشهد الاختطاف بكامله. جميل أنَّ حافلة الخطوط الفرنسيَّة فصلت بيننا، وإلّا لقُتلت. كانت تتوقّعه، ونصحتني بعدم التنقُّل، وأنّها ستقوم بكلّ شيء، لكنّي ركبت رأسي، لأنّ والدي كان يموت.

نعرف ذلك. هي من أخبر الصحافة العالميَّة، ومختلف اللجان الدوليَّة، وحرَّكت هيئات كثيرة، بما فيها هيئة نوبل التي لم تلغك من قوائمها.

تصرّفتُ كما يتصرّف أيّ إنسان عاديّ، جاء ليرى والده وهو في فراش الموت، قادمًا من آرابيا الغربيَّة البائسة التي ما تزال بعض مطاراتها تشتغل.

لم تسمع لأمايا. نبّهتك بمخاطر التنظيم وجهازه الخاصّ باختطاف الناس المهمّين. قبلك اختطفوا أكبر فنّان في الآثار في آرابيا وطلبوا فدية. وعندما لم يُستجب لهم، قتلوه بأن علّقوا جثّته على قوس الملك الرومانيّ، في مدخل المدينة القديمة. هي ربَّما أخطأت في تفصيل صغير بتسرُّعها بالإعلان عن الاختطاف. لنا وكالاتنا في آرابيا.

إذن، لماذا اختطافي ونقلي على مدار أكثر من شهرين، بين أمكنة لا

أعرفها، مغمض العينين؟

ـم يكن لدينا أيّ خيار آخر سوى حمايتك حتى من نفسك، وكان على مختلف الأجهزة التي تتجاوزنا أن تعرف أنّك أنت كنت المقصود من الاختطاف. قلت لك إنّ هذه الوضعيّات لا تخضع للصدفة، لأنّها شديدة الخطورة. اعتبر نفسك ضيفًا علينا. سترتاح هنا قليلاً. نملأ معًا بعض الوثائق. تجيبنا عن بعض الأسئلة الشكليَّة، ولكن الضروريَّة، ثم نوكلك لمركز حماية بعيد، وأكيد حتى تخفّ الأمور.

بعد ساعة، أدخل إلى غرفة مسدودة من كلّ الجهات. لا نافذة ـها ولكنَّها مكيَّفة بشكل جيّد. سُئِل فيها أسئلة كثيرة غير منتظمة. قيل ـه للتقرير العامّ فقط. بعض الأسئلة كانت تخصّ عمله وبعضها حياته الخاصَّة، ورأيه في ما يحدث في كلّ مقاطعات آرابيا المشتعلة؛ وبعض ـالث كان يتعلّق بالحميميّات التي لم ير جدوى منها، ولكنَّه أجاب ـنها كما يملي عليه الواجب. عندما انتهوا معه، عاد ستيف ليودّعه.

ـ أتمنّى أنّ المساءلة لم تتعبك. مجرَّد مسألة شكليَّة لا أكثر.

ـ أحسست بذلك، وكأنّه فقط لملء الاستمارة.

هنا ينتهي طريقنا المشترك يا آدم. مهمّتنا، هذا مداها الأقصى. حمايتك من اغتيال محقَّق ووضعك تحت تصرُّف الجهات المعنيَّة التي تواصل معك العمل. أتمنَّى لك كلّ النجاح في مشروعك. وأتمنَّى لك أيضًا أن تجد الطاقة الكافية لمواصلته. أدرك أنّ الأمر ليس هيّنًا.

ـ شكرًا يا سيّد ستيفنسن على حسن استقبالكم لي ومساعدتي في هذه الظرفيَّة القاسية.

يتذكَّر آدم أنَّه يوم غادر السفينة كان قلبه مليئًا بالحيرة والدهشة لدرجة البلادة، لأنَّه لم يفهم ما كان يقع له. من عالِم في مسألة شديدة

الحساسيَّة إلى لا شيء. عادت إليه دفعة واحدة كلُّ قراءاته ء. غوانتنامو. الكثير من الناس وجدوا أنفسهم محشورين في عالم شد. الغرابة، وكأنّهم ليسوا من هذه الأرض، وأمام أسئلة كانت أكبر . عالمهم اليوميّ الصغير.

غادر بالطريقة نفسها التي دخل بها، مغمض العينين. اقتاد، بهدوء نحو المروحيَّة، ثبَّتوه جيِّدًا على كرسيِّه. سمع كلمات ربا، الطائرة: كلّ شيء تمام. سمع انزلاق الباب الحديديّ الخشن وحر، الشفرات القويَّة، ثم الصعود بمَيَلان حدَّده ذهنيًا بثلاثين درجة. ث. غابت المروحيَّة وسط البحر مخترقة جزءًا مهمًّا من مضيق هرمز، متَّجهة نحو صحراء الربع الخالي، التلال ثم الجبال الرملـ، والبركانيَّة. . قبل أن تعبر قفرًا كليًّا استمرّ أكثر من ساعة طيرانًا. كان، الرحلة شديدة الصعوبة بسبب الاضطرابات الجوِّيَّة والعواصف الرملـ، التي لا يخلو منها المكان في مثل هذه الفترة الباردة والمتقلِّبة. سمع بعض حماقات مرافقيه من العسكر. أعجبه تعليق أحدهم، لدرجة أ، ضحك في أعماقه. كان سكران، فرائحة الكحول سدّت أنفه. قال موجِّهًا كلامه لامرأة في رأسه: *في المرَّة القادمة، أريدك أن تصرخي باسمي لا باسم الله لحظة التجلّي الجسديّ. لا علاقة لله في شهقة الذروة.* ثم قهقه وهو يحاول أن يقوم ويتماسك: *لولا خوفي من ضابط قلعة الزبالة، ومن الماريشال، كنت اغتصبت هذا الآرابي الجميل، الذي يبدو مهمًّا، وشبعت منه في كلّ الوضعيات. . جاذبيّته لا تُقاوم، ورائحة عرقه مغرية، واستمتعت بعدها برميه من أعالي المروحيَّة نحو البحر. أتلذَّذ، وأنا أراه يتهاوى كالكيس الثقيل، ألم يقولوا إنّ العربي الجيِّد هو العربيُّ الميِّت؟ أنا إذن من يعطيه فرصة الموت ليصبح جيِّدًا*

عندما حطَّت المروحيَّة في القلعة، كان مستسلمًا لقدر يتجاوزه.

أنزلوه بهدوء ولطف، ثم أدخل إلى الحمّام في الوقت الذي سمع المروحيَّة ترتفع في الأعالي من خلال محرّكاتها الحادَّة، ثم وهي تغيب .تلاشى. أدخل في صالة كبيرة ساخنة. نُزع عنه غطاء العينين، فوجد مسه عاريًا وجهًا لوجه أمام امرأة تغطّي كفّيها بقفّازين بلاستيكيين. انعض قليلاً. تذكَّر المثل الذي ظلَّ والده يكرّره كلَّما تعلَّق الأمر اماصي الظلم: *واش يدير الميّت قدّام غسّاله*؟ اقتربت منه دون أن تلمه، وطلت جسده بمحلول أصفر ثم أحمر يشبه المطهّرات التي سبق العمليّات الجراحيَّة. وحكّت كلّ جسده بما في ذلك شعره. لم يقاوم. أغمض فقط عينيه في مبهم، لم يكن يريد في تلك اللحظة أن برى غيره. ثم غسلت كلّ أجزائه حتى الحميميّ منها، بالماء والصابون. عندما انتهت، جاءته بلباس برتقاليّ. تأمَّله قليلاً قبل أن لبسه، لكنَّه عندما تذكَّر مثال والده، لبسه وانصاع لأوامر السيِّدة التي قادته نحو قاعة بيضاويَّة تشبه العيادة في نظافتها. كانت مليئة بالناس. الصمت في قاعة الانتظار الشبيه بالموت، كان هو القوَّة المهيمنة. الجميع ينتظرون دون أن يعرف أحد دوره. ثلاثة رجال وامرأتان، يأتون، يأخذون الشخص المعنيّ ثم يسحبونه نحو العمق. لا أحد يخرج. ربَّما كانوا يغادرون من أبواب خاصَّة، افترض آدم. كما في المخابر التي اشتغل بها قبل اختطافه. السرِّيَّة تجبر المعنيِّين أحيانًا على الدخول والخروج من أبواب خاصَّة.

عندما جاء دوره أحاطته المرأتان، دون أن تمسّاه. وضعت السيِّدة القصيرة التي لها سمرة هنديَّة، غطاء أسود على وجهه. كانتا مثل تمثالين من الشمع. شمّ في إحداهنّ عطرًا يعرفه جيِّدًا، لكنَّه كان عاجزًا عن معرفة اسمه. يتذكَّر فقط أنَّه مشى في بهو طويل، ثم أُدخل في شيء يشبه مصعدًا، وبقي طويلاً معلَّقًا في الفراغ، قبل أن تفتح بابه

الخشن الذي يحدث صريرًا مثل بوّابات السجون القديمة. عندما نزعت المرأة القصيرة عنه القماش الأسود، أجلس داخل قاعة مظلمة. لا أحد فيها إلّا شاشة تملأ الحائط المقابل له. وُضِعت سمّاعتان في أذنيه. بمجرَّد أن خرج الجميع، ولم يبق إلّا الرجال الثلاثة في نهاية القاعة مثل الحرس، ارتسمت فجأة على الشاشة وجوه متداخلة لحيوانات مفترسة بأصواتها القاسية التي تصمّ الآذان، كأنّها قطع معدنيَّة تتداخل وتتشابك بعنف فيما بينها، من أسد يزأر بأنياب بارزة، إلى نمر في حالة هياج، إلى ذئب حادّ النظر. . ثم بدأت الصورة تتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى أشكال أصغر حجمًا، من النسر المحلّق عاليًا الذي يفرط جناحيه، إلى الغزال الراكض في البراري، إلى البازيّ الذي يمزّق طيرًا في السماء، إلى سكّينة عسكريَّة حادّة تلمع في الظلمة، إلى وجه طفوليّ منتفخ الأوداج وبلا شعر، توقَّفت الصورة فيه، قبل أن يأتيه صوت فولاذيٌّ حادّ. شعر آدم بالبرودة في داخله، وكأنّ دمه توقَّف فجأة عن الحركة. سَرَت في جسده رعشة سرقت منه كلّ طمأنينة.

ـ هل تعرف أين أنت الآن يا آدم؟

ـ لا أعرف يا سيِّدي.

ـ هل تعرف من أتى بك إلى هنا؟ ولماذا؟

ـ لا أعرف يا سيِّدي.

ـ هل أنت آدم حقيقة؟

ـ في حدود ما أعرف، نعم يا سيِّدي.

ـ أنا لست سيِّد أحد. سيِّد نفسي فقط. يمكنك أن تنادي باسمي ليتل بروز، أو معلّمي، أو ماريشال.

ـ أظنّ أنَّ هناك خطأ ما ارتكب في حقِّي، ولم يصحَّح حتى الآن.

- يا آدم. ألم يقولوا لك في الحمّام الأوّل إنّه لا خطأ أبدًا في مثل هذه الأماكن؟
- أين حمّام يا سيّدي؟
- الحمّام الأوّل، قصدي الجلسة الأولى، أنت الآن في الحمّام الثاني. لهذا أكرّر عليك، آلتنا التي تسيّر هذا العالم القلق لا تخطئ أبدًا. هي وُجدت أصلاً لكي لا تخطئ، متجاوزة كلّ الضعف البشريّ الممكن. حياتها واستمرارها مبنيّان أصلاً على عدم ارتكاب الخطأ. اقترافه في ثقافتنا معناه الموت للكلّ. كلّ ما نقوم به هو في النهاية من أجل إنقاذ البشريّة من خطر يتربّص بها.
- لكنّي لم أفهم لماذا قادوني إلى هذا المكان؟
- لأنّ الذين قادوك تلقّوا أمرًا بذلك. لم يأتوا بذلك من أدمغتهم.

في لحظة من اللحظات، لا يدري أيّ جنون انتابه، وأيّ هبل احترق خلاياه الدماغيّة، فكّر أن يسأله لماذا اسم ليتل بروز؟ ولماذا هذه المسرحيّة السخيفة التي لا طعم لها؟ ولماذا هذا التعذيب المجّانيّ؟ فإذا كان مجرمًا خان الثقة التي وُضعت فيه، فليُعدم وإلّا فليُطلق سراحُه. لكنّه في النهاية، تراجع وفضّل الصمت.

- لا نقتل الناس هكذا يا آدم. ما يحدث ليس مسرحيّة سخيفة، كما تتصوّر، لكنّه حقيقة تمسُّك أنت بشكل خاصّ. لم اختر اسمي، لكنّي واحد في مسار هذه السلالة الخاصّة التي ترى الصغيرة والكبيرة. أدرك جيّدًا أنّ حبّة الرمل تعمي الفيل، وتوقف أسنان الطاحونة، ويمكنها حتى أن تجعل طائرة تهوي من الأعالي. أن تكون في عمق فلسفة بيغ بروذر أو ليتل بروز، عليك أن تنتبه لكلّ شيء، حتى التفاصيل الصغيرة الموجودة في بؤبؤ العين الذي بواسطته تتمّ اليوم قراءة تاريخ الفرد، والقوميّات التي صنعت تاريخه العائليّ،

واستعداداته للجريمة والقتل، وقابليّته لأن يصلح من عدمها.

- نعم، معلّم ليتل بروز.

- تتعلّم بسرعة. إذا جاءتك ليتل بروز ثقيلة لأنّها مكوّنة من كلمتين، يمكنك أن تختصرها في ماريشال. إذن أنت هو آدم. الرجل الذي كان يُفترض أن يُقتل، .لكنّه خرج من موته بأعجوبة، وبفضل تضحية ثلاثة من خيرة رجالنا.

- كلّ ما أعرفه يا سيّدي أنّي كنت خارجًا من مطار رواسي شارل دوغول، لألتقي بزوجتي أمايا، التي كان يفترض أن تقودني نحو مستشفى فال دو غراس حيث والدي المريض أو الميّت.

- دعك من هذا الهراء، أعرفه كلّه. لماذا؟ شريحتك عمياء، لا تقول شيئًا تقريبًا؟

- يفترض أنّ الذين جاؤوا بي من السفينة يعرفون كلّ التفاصيل.

- لا شيء عندنا للأسف. لا نعرف لا مهنتك، ولا عملك، ولا أين أنت ذاهب بعد هذا العبور. ما الذي يثبت لنا أنّك لست جاسوسًا يشتغل لمصلحة *التنظيم*.

- أنت تمزح يا معلّم ليتل بروز. هذه بشاعة. كيف أعمل *للتنظيم* وهو أراد قتلي في المطار كما سمعت.

- البشاعة أحيانًا ضروريّة لمحاربة ما هو أبشع منها.

- على كلّ، ليس لديّ أكثر ممّا قلته.

- لن نتعبك اليوم.

- وهل سأظلّ بهذا اللباس البرتقاليّ الذي يهينني؟ يذكّرني بمعتقليّ غوانتنامو قبل أكثر من سبعين سنة، الجنود الأميركيّون لسجنائهم، كما في القرون الوسطى حينما قرّرت محاكم التفتيش المقدّس رسم علامة نجمة داود على صدر كلّ يهوديّ. وكرّرها هتلر حينما فرض

على اليهود حمل نجمة صفراء تجعلهم مميَّزين عن غيرهم من الأقوام الأخرى. يبدو يا سيِّدي الماريشال أنّ البشريَّة لم تتعلّم إلّا قليلاً من تاريخها. لهذا، أنا أسأل عن وضعي الخاصّ. هل أنا سجين لديكم؟

- نحن لا يوجد عندنا سجناء، لكن يوجد لدينا، في مقصورات القلعة، مقيمون. أو غيست، إذا كانوا زوّارًا عابرين في مهمّة محدَّدة. أنت في الوقت الحاليّ بين المقيم والغيست، إلى أن يتَّضح وضعك الذي لا نعرف عنه الشيء الكثير.

بقي الطفل منتفخ الوجه، هو هو، لم تظهر على ملامحه الباردة أيَّة تحوُّلات. النظرة القاهرة نفسها، الفارغة من أيّ شيء. الحركات نفسها، والحيرة نفسها أحيانًا. أينما التفت شعرتَ به يتبعك بخزرته الحادَّة نفسها، وبالشعار نفسه أيضًا: *ليتل بروز لا يراقبكم، لكنَّه فيكم*.

- سمعت بشكل فوضويٍّ قليلاً أنّ لك علاقة بالنوويّ.

- يا سيِّدي، المفروض أنّكم تعرفون كلّ شيء عنِّي، حتى ولو كانت الشريحة فارغة.

ردّ آدم باليقين والهدوء نفسيهما.

- كنت تتحدَّث عن البشاعة. تخيَّل قليلاً لو استمرَّت اليابان في عدوانها على أميركا والعالم الحرّ، كيف سيكون العالم اليوم؟ وكم سيكون عدد الضحايا من ذلك الوقت إلى الآن؟ اليابانيُّون فهموا متأخِّرين. موت مدينتين أنقذ البشريَّة من انهيار حقيقيٍّ للعالم. البشاعة. هذا نسمِّيه في لغتنا الفوضى الخلّاقة[1]. تحتاج البشريَّة أن تخطو خطوة

---

(1) **La régression féconde**

إلى الوراء لتعرف سحر المسالك، ثم تندفع بقوّة إلى الأمام.

- لا، يا سيّدي. تلك جريمة ضدّ الإنسانيّة. ترومان لم يكن غبيًّا عندما أعطى أوامر التقتيل الجماعيّ، ولا الطيّار الذي قيل عنه إنّه جنّ بعد العمليّة، واتّضح لاحقًا أنّه يدرّس تجربته للتلاميذ والمنتديات النوويّة، ويبرّر الجريمة. عندما نبرّر القتل يا سيّدي، نصبح بالضرورة طرفًا فيه.

- لو لم توجد القنبلة النوويّة كيف سيكون العالم اليوم؟ ضحايا بلا حدود ووضع شديد القسوة. أمام هيروهيتو، بعد رفضه لوثيقة بوتسدام، لم يبق أيُّ حلٍّ. إمّا الموت الكلّي للبشريّة، أو استئصال الجذع المريض.

سعل آدم بقوّة. شعر بحلقه يجفّ فجأة. أخرج منديله من جيبه ومسح شيئًا من الغبار الذي علق في حلقه.

- ستتعوّد على المكان وعلى غبار القلعة.

- ليس هذا ما جفّف حلقي وجعلني أسعل يا سيّدي.

ثم صمت بحزن، لا لأنّه لم يجد لغة، لكنّه شعر في لحظة من اللحظات أنّه لم يكن أقلّ مسؤوليّة من ترومان. ومن الأفضل له أن يصمت، لأنّ أيّ حديث قد يأخذ منه صفاء ذهنه، وبعدها لن يعرف ماذا سيقول.

ضحك ليتل بروز حدّ الانفجار.

- تحتاج إلى راحة أكثر يا آدم. ما فعله هاري ترومان أصبح اليوم جزءًا من التاريخ، لكنْ تهمّنا أنت. العالم تقتله الصدف غير المحسوبة، لأنّ هناك صدفًا محسوبة أيضًا. صدفتك أنت مثلاً؟ كان يمكن أن تصبح الآن في عداد الأموات، وفي عالم آخر، لولا قوّاتنا التي أنقذتك. لا شيء يغيب عنّا. حتى الأنفاس نعرفها وندقّق في

ضبيعتها، أنفاس الحبّ، الخوف، الدهشة، وغيرها، ونسجّلها قبل اتخاذ أيّ قرار. نسهر على كلّ شيء، ونفكّر لك. ستصبح جزءًا من المنظومة العامّة. نظامنا وشعارنا *الكلّ مع الواحد*، *لأنّ الواحد هو حامي الكلّ*.

أراد آدم أن يسأل عمَّن هو هذا الواحد؟ فالواحد لن يكون الكلّ إلّا إذا اختزل الكلّ بالحبّ أو بالعنف. فضَّل التغاضي في النهاية، لأنَّ ذلك سيطول أكثر في جلسة أصبحت مملّة.

- التساؤل الكثير ليس جسدًا، لأنّه ينبئ عن عدم ثقة، لكنّ التغاضي مقتلة حقيقيَّة؟

- لم أقل شيئًا يا معلّم ليتل بروز.

- قلت ما في داخلك. وهذا أيضًا يجب أن تنتبه له. نحن هنا نفكّر بصوت عال.

- وأنا لا شيء لديّ لأقوله.

لا شيء يُترك للصدفة. الصدفة ابنة الموت الغبيّ ومعبر الهلاك الأوّل. كرَّرها الطفل ذو الأوداج المنتفخة، أو بوحناك كما سمّاه لاحقًا آدم. ثم غاب فجأة ليتل بروز في عمق بياض الشاشة التي تماهت مع الحائط، وحلّ الصمت من جديد، وكأنّ شيئًا لم يكن أبدًا.

هل انتهى كلّ شيء؟ هل توقَّف الخوف؟

نظر آدم يمينًا ثم شمالاً، رأى المرأتين نفسهما، والثلاثة رجال نفسهم، ينتظرونه لمرافقته إلى حيث لم يكن يدري. الصبايا كنّ لطيفات قليلاً، فيهنّ شيء من البراءة الأولى وبعض الخجل، على الرَّغم من أنّه لم يلحظ ذلك عندما تمَّت تعريته وغسله. أمروه بالقيام قبل أن تقوده المرأتان نحو جهة مجهولة بلا مؤدّى ولا طريق.

ـ ٣ ـ

اركض يا دام. اركض مثل ذئب الهنود الحمر. لا تلتفت وراءك.

عندما تلقّى الخبر أوّل مرّة من إيڤا أنّه أصبح بإمكانه استعمال طريق الحديقة الواسع، أو المدرَّج القديم للرياضة، شعر بسعادة غامرة. فقد ارتمى فيه مباشرة كما اشتهاه، لأنّه فيه ولم يغادره ثانية واحدة.

مدّ ركبتيه على الأرض استعدادًا للانطلاق. أغمض عينيه وهدأ قليلاً، كأنّه ينتظر طلقة المسدَّس المعلِنة عن بداية الجري.

جاءته أصوات الجماهير الطلّابيَّة من أصدقائه في جامعة بنسلڤانيا، فملأت دماغه فجأة.

اركض يا آدم، هكذا كانوا ينادونه... *اركض... لا تتركهم يتجاوزونك. لا تتوقّف يا دام آدم. أنت البطل. أنت البطل.*

كان يجري ويصغي لأعماقه:

ـ في سباق المضمار، عليك أن لا تسمع إلّا لداخلك ولتقطّع أنفاسك،

وأن تدفع بها إلى حدودها القصوى. كلّ توقُّف هو نهاية للأنفاس اليتيمة التي تخزّنها في أعماقك. كلّ شيء يتحدَّد في الأمتار الأخيرة. النجاح والفشل يرتسمان هناك. لكنْ أيضًا كلّ مدار السباق تتحكَّم فيه لحظة البداية.

كان آدم بطلاً هاويًا يركض تحت ألوان جامعة بنسلفانيا، وتحصَّل على أكبر جوائزها الجامعيَّة. حتى عندما أُصيب بوعكة رجله بسبب انزلاق غضروفيّ أقعده طويلاً، اتّضح لاحقًا أنَّه كان خطيرًا، فكَّر وقتها نهائيًا بحلّ أسئلته العالقة. لم يحزن كثيرًا، فقد أعاده ذلك إلى التفرُّغ نهائيًا لعمله المخبريّ للأبحاث النوويَّة. التوقُّف قاده إلى التوقيع على عقد نهائيّ مع المؤسَّسة التي كوَّنته في ظروف مريحة. عندما استقبله مدير المخبر وليام ديك، وكان يعرف قصَّة الانزلاق الغضروفيّ ومخاطرها، إن هو واصل الركض الاحترافي أو حتى الأولمبيّ. ضحك معه وهو يمسرح الحالة ليخفِّف عنه شطط الخيبة:

«الآن سنسجنك عندنا نهائيًا. ولن تقول لي لاحقًا عندي التزام للركض في بالتمور، في نيويورك، في واشنطن... عندي مشاركة في دورة الأبطال في تكساس، عندي التزام مع شيكاغو سبور، سأشارك في سباق بطولات الجامعات الأميركيَّة. رُبَّ ضارَّة لك نافعة لنا جميعًا... ههههه.

كان آدم يعرف أنّ في المزحة لمسة جدِّيَّة وصارمة، كانت قرارًا.

- كنّا نتمنّى لك كلّ النجاح، لكنّ المَخْبر يحتاجك أيضًا بشكل كلّيّ، إذا أردنا أن نسير بسرعة في مشاريعنا المصيريَّة. مشروعك يجب أن تتفرَّغ له نهائيًا، بدون ذلك يستحيل عمل شيء جدّيّ فيه.

- لم يكن الانزلاق إلّا سببًا صغيرًا يا عزيزي وليام. أنا أيضًا، كان عليّ أن أحدِّد خياراتي. أحبُّ الرياضة كثيرًا، لكنْ ليس في نيَّتي

الاحتراف، جهدي بالتالي لا أفق له. البحث العلميُّ هو خياري الأكبر في حياتي. لا مشكلة. أحتاج فقط إلى بعض الأيَّام. أزور والدي المريض جدًّا، وبعدها أوقِّع نهائيًّا، لأنّي أعرف أنَّ المسألة جدِّيَّة.

ـ باب مركز الأبحاث مفتوح أمامك. ننتظرك. لا تتأخَّر كثيرًا».

لا يدري الأسباب الكامنة وراء ذلك الخيار، لكنَّه صمَّم أوَّلاً أن يسافر إلى أرابيا الغربيَّة، التي كانت تتذابح فيها الصراعات الإثنيّة واللغويَّة والجهويَّة، حيث مسقط رأسه، ووالده المريض. في كلّ مرَّة، يظهر مغامر يجرّ وراءه مائة شخص، ويعلن جهته الخالية من كلّ حياة منطقة مستقلَّة. صراع والده الوحيد كان مع الطبيعة واليوميّ والجبل العالي ومخبزته التي كانت تحلّ مشكلة الخبز في كلّ القرى المجاورة. كلَّما فسدت، نزل إلى المدينة بقطعته نحو صديقه الذي يملك محلًّا صغيرًا للحدادة، يطلب منه تصليحها أو إنتاج شبيه لها. ينتظر يومًا أو يومين وأحيانًا أسبوعًا بكامله، قبل أن يحصل على القطعة. وعندما يطول الأمر أكثر، يحوّلها إلى مخبزة حطب هو وابنته تالا لتلبية الحاجة الضروريَّة. في طريق الذهاب أو العودة، كلّ الأطراف المتحاربة تعرفه. عندما يجدونه داخل سيَّارة أجرة، يحيُّونه بانحناءة رأس، ثم يتركونه يمضي هو والسيَّارة التي يكون راكبًا فيها، بدون تفتيش. يضحكون معه. أحيانًا ينكِّتون: *عمِّي دالي أحرس على الخبز. بدونك الجبل كلُّه يموت جوعًا*. يحييهم، ثم يواصل طريقه كأنّه لم يكن معنيًّا بالموت اليوميّ أبدًا.

لم يطلب في أيّ يوم من الأيَّام شيئًا من الدولة، فهي غير موجودة على الإطلاق.

عندما أخبر أمايا بقراره بزيارة والده، تفهَّمت ذلك جيِّدًا لكنَّها طلبت منه بعض التريُّث. خافت. أُصيبت بعدواه، تظلّ معلَّقة على

القنوات العالميَّة التي تحوّل موضوع تمزُّق آرابيا إلى أهمّ موضوعاتها. عندما رأت تصميمه، اكتفت بالقول: أنتظرك حبيبي. سافر مغمض العينين نحو بلاد كلّ شيء فيها كان مبهمًا. اليوم تنشأ دولة، وفي الغد يمحوها الجيش أو ما تبقّى منه. عندما رآه وقد كسره العمر، أصيب بحالة انكسار. فجأة، انتابته فكرة البقاء لمدَّة أطول. عندما وضع في كفّه حزمة نقود، نظر دالي إلى وجه ابنه طويلاً ثم تمتم بالكاد: *ماذا افعل بكلّ هذا على رأس جبل؟ إذا نويت البقاء، اشتر أجهزة حديثة وجدِّد أنت وتالا المخبزة، فهذا أفضل بكثير*. موح يريد أن يبيع أجهزة مخبزته، *وهي جديدة. المدينة، ليست بعيدة عن الجبل*. ذات صباح، نزل مع والده واشتريا المخبزة بكاملها وتمّ نقل عتادها إلى رأس الجبل، وجرى تركيبها في ظرف وجيز. وبدأت تشتغل، واتّسع توزيع الخبز لدرجة أنَّ الدولة كانت تأخذ نصف ما كان ينتجه لثكناتها الجبليَّة الجديدة كلّ صباح، والجزء الآخر يأخذه السكّان والمجموعات المتناحرة. منحت المخبزة الجديدة فرصًا كبيرة لشباب الجبل، الذين أصبحوا يشتغلون بها بتسيير تالا وآدم. قدَّم بعدها كلّ شهاداته وملفًّا ثقيلاً للعمل في أيّ شيء قريب من تخصُّصه، لكنَّه لم يتلقَّ شيئًا. كلّ الإجابات كانت متشابهة: *تخصُّصك لا يفيدنا*. في الأخير، اقتُرح عليه العمل في مكتب مترجم في الميناء. لكنَّه أحسّ بسرعة بأنَّ شيئًا من الغباوة والسكينة والرضى عن النفس بدا يلتصق به. ظلَّ ينتظر الإجابة عن مقترحه الأخير: العمل في المخابر الكيميائيَّة والفيزيائيَّة، وهو شيء يمكن أن يفيد به ويستفيد. لكنْ في النهاية، لم يبق أمامه إلَّا ما كان موقَّتًا أصبح قاعدة صعبة التحمُّل، العمل في المخبزة.

حكى مع أمايا طويلاً لأوَّل مرَّة، كأنّه يفعل ذلك من آخر نقطة في آخر الأرض.

«آدم حبيبي. اتّصلوا بك هذا الصباح أيضًا. مخبزك ينتظرك. مؤمنون بك جدًّا. مساعدة والدك مهمّة، لكنّك شيء آخر يا قلبي. ليس مهمًّا إذا خسرتني، لكنْ أرجوك لا تخسر مستقبلك.

ـ لا تقولي هذا. تعنين لي كلّ شيء جميل في هذه الحياة أمايا.

ـ إذا كنت أعني لك شيئًا، تعال. تعال بلا تردُّد. في البيت، رسائلك التي عليك أن تردّ عليها. ليس عالمك. أنت لست خبّازًا في جبل معزول، ولا موظّفًا صغيرًا في ميناء مهجور.

ـ تائه، ولا أعرف ما يجب فعله.

ـ أساعدك. ما نفع هذه العلاقة إذا لم تتحوَّل إلى مرايا صادقة نرى فيها كلّ شيء!

ـ بدأت، أنا نفسي، أخسر علاقتي مع يقينيّات الأشياء. منذ أن ماتت أمّي، لم تعد الحياة في هذا المكان تعني لي الشيء الكثير. ذهابها ترك فجوة كبيرة. وأبي تعب كثيرًا. وتالا كبرت بسرعة: مخطوبة وترفض الزواج، لأنَّ وضعيَّة والدي تحزنها، وهي سعيدة في المخبزة. أصبحت تُديرها بذكاء، كأنّها خرّيجة مدرسة متخصِّصة. خطيبها يساعدها، ويفكّران في الزواج والإقامة في بيت والدي.. بيت واسع وكبير. حتى المقترح جاء منه.

ـ وأنا وأنت يا قلبي؟ لا قيمة لعلاقتنا إذا فشلت في استرجاعك.

ـ أنتظر شفاء والدي، وأعود.

ـ أنسيت وعدك بأن تمنحني فرح الأمومة بقمر نسمّيه يونا؟

ـ أنتظر اللحظة أكثر منك.

انقطعت المكالمة. في خلوته، شعر بأنَّ كلّ ما قالته أمايا كان صحيحًا ودقيقًا.

ذات صباح، جهّز كلّ شيء، ولم يخبر أحدًا إلّا والده دالين،

«نالا، ومخبره الذي ظلّ متشبّثًا به. قبّل رأس والده الذي عرف من عينيه المتعبتين أنّه لن يراه ثانية. ربت دالي على كتفيه بحزن ارتسم على كلّ ملامحه.

- خذ بالك من صحّتك يا ابني. وإذا عدت يومًا إلى هذه الأرض، ستجد قبري بمحاذاة قبر أمّك، على قمّة الجبل الممتدّ في أراضينا التي تنام وتستيقظ على البحر. ضع قليلاً من التراب عليه، وادعُ لي، فقد كنّا نحبّك. أنت وأختك كلّ ميراثنا الأخير. وصيّتي الأخيرة، ربّما لم تعد مفيدة في هذا الزمن. *إكبر كما يكبر الرجال على هذه الأرض الصلبة بتربتها ونارها وخوفها، والسخيّة ببحرها ورمادها وخيرها، ومتْ أيضًا كما يموت ذئابها، بحرّيّة ورفعة رأس وانتصار للمظلوم. نحن لا نعيش مرّتين للأسف يا آدم.*

لم يجد ما يقوله له إلّا جملته الباردة التي تركب على كلّ المآسي:

«بعيد الشرّ عليك يا أبي. طوّل العمر!»

- منذ أن فقدت والدتك، لم أعد أرغب كثيرًا في الحياة. كلّ شيء هو عبارة عن مدار، له بداية وله نهاية أيضًا. أعتقد أنّ دورتي وصلت إلى منتهاها. اذهب إلى عملك وناسك هناك، أمّا أنا، سأظلّ في هذه المخبزة - أنا وأختك وخطيبها إلى أن يشاء الله. أعرف أنّك بذلت جهودًا كبيرة لتكون معنا، حمّلناك ما لا طاقة لك به. لكنّ عالمنا مغلق وقاس. الجهلة جعلوا من هذه الأرض مرتعًا للضباع والوحوش الضارية، يتقاتلون على تراب ليس لأحد منهم. يتقاسمونه ثم يفتّتونه ثم يحرقونه. وأنت لست وحشًا، مكانك بالتالي غير مضمون هنا».

خرج آدم يومها باكرًا بلا أسئلة. كانت سيّارة الأجرة تنتظره عند الباب. ركبها ولم يلتفت وراءه».

كان يعرف أنّ أقسى ما يعانيه مسافر التيه، هو الالتفات إلى الوراء.

عندما رأى عينيْ أمايا المتعبتين شعر بأنّ شيئًا قد انتهى، وآخر قد بدأ. التصق بها طويلاً في المطار، وهو يستمع إلى كلماتها الهشّة والمتقطّعة: *كدت أموت، لأنّي بدأت أصدّق أنك لن تعود.* لم يقل أيّ شيء سوى أنّ رأسه وعينيه وقلبه، ظلّوا مفرغين من كلّ شيء، إلّا من وجه أمايا التي اجتاحته كموجة محيط في حالة غليان.

أعاد ترتيب كلّ شيء.

كلّما انهمك في عمله المخبريّ، تذكّر كلمات وليام ديك: *الآن سنسجنك عندنا نهائيًا. ولن تقول لي لاحقًا عندي التزام للركض في بنسلفانيا، في بالتمور، في نيويورك، في واشنطن... عندي مشاركة في دورة الأبطال في تكساس، عندي التزام مع شيكاغو سبور، سأشارك في سباق بطولات الجامعات الأميركيّة. رُبَّ ضارَّةٍ لك نافعة لنا جميعًا.*

حوّل سباقات المضمار، التي كانت تسكن دمه وتسعده، إلى مشْي دائم، ممّا سمح له بالمحافظة على استقامة جسده وصحّته. كان أوّل ما يخرج من عمله المخبَريّ، يتّجه مباشرة إلى قاعة تغيير ملابس العمل، بملابس الرياضة، ثم يركض نحو أصدقائه سميث جوردن وزوجته لاورا، اللذين أصبحا مع الوقت شريكين في العمل المخبرِيّ؛ وكاتسومي، الفيزيائيّ الأميركيّ اليابانيّ، الذي كان يشبه اسمه: الجمال المتجلّي؛ وسمير خان الأميركي الهندي الطيّب، المختصّ في أنظمة الحواسيب؛ وابن آرابيا الغربيّة، سيف، الذي كان ناجحًا في الرياضيّات التطبيقيّة، لكنْ معدّله كان دون المطلوب للانتماء لأحد مخابر جامعة بنسلفانيا، فحقد على كلّ شيء، بما في ذلك نفسه.

إلى اللحظة، يعرف آدم وضعه جيّدًا. لم يعد يحلم بالمضمار

..ولِيّ، لكنَّه كلّما ضاق نَفَسُه من محيطه زاد في وتيرة ركضه. المساحة لم تكن طويلة بالشكل الكافي، لكنَّها كانت كافية لأن تمنحه مادة خادمة في ذهابه وإيابه. *حقّ الرياضة مؤمّن لكلّ النزلاء في هذا المكان*. واحد من شعارات ليتل بروز الكبيرة، لكنْ لا أحد يعرف متى سيطبِّقه، بحسب درجة الضغط الممارس عليه. هو، وإن لم يكن جبنًا أو *مقيمًا*، فوضعه قريب من ذلك. حقّ الرياضة استطاع أن ..وعه بفضل وكالة *ليدرافيك*، وجهود إيفا الذكيَّة التي تدمج دائمًا في ..لامها، مع ليتل بروز، الانصياع الكلّيّ مع التهديد المبطَّن.

في قلعة أميروبا، كلُّ شيء ممكن، وكلّ شيء غير ممكن أيضًا. مع الطغاة الصغار، يحتاج المرء إلى قدر كبير من الذكاء الخلَّاق ، الاستثنائيّ، وإلَّا سينتهي في عمق العزلة.

هل هي طبيعة المكان المركَّبة، أم جنون ليتل بروز الذي يرى ما يشتهي، ويغمض عينيه على كلّ ما يهدِّد رتبته العسكريَّة المحتملة، لكي يتخطّى حالة الخوف التي تنتابه.

يحدث معه أن ينتشي. كلّ من زاروا القلعة، اندهشوا في تاريخها وتنظيمها. يرويه ليتل بروز بحماس العارف من وراء الشاشات لضيوفه العابرين، إذ يتحوَّل فجأة إلى دليل سياحيّ يجيب عن كلّ الأسئلة، حتى المعقَّد منها. وعندما يزوره كبار الضبَّاط، يستقبلهم في مكتبه الخاصّ، في الطابق السابع الذي يسمِّيه دار الضيافة. مكتب مغلق بشكل دائم الَّا في حالات استثنائيَّة نادرة وخاصَّة، ويضع بين أيديهم وثيقة بها صور وتاريخ القلعة، ولا يثقل عليهم بالحديث، تاركًا لهم فرصة الاطّلاع على تاريخ لن يجدوه في أيّ مكان آخر[1].

---

(١) لم تكن قلعة أميروبا كما هي اليوم. في البداية، كما تقول بعض الروايات القديمة، =

على الرَّغم من شهرة أميروبا، لم يكن آدم يعرف عنها الكثير،

كانت مأهولة بناس ينتهون إلى بقايا قبائل كنعانيّة، هربوا من حملات التقتيل التي مسّتهم. خرجوا من الحروب منهكين وخاسرين ومسالمين أيضًا. ليسوا هم من بنى قلعة أميروبا، فقد وجدوها فدخلوها، وحموا أنفسهم من الوحوش قبل البشر، بحيطانها وأسوارها. الفكرة جاءت من قائدهم الذي سحبهم إلى هناك، وجعلهم يشتغلون ليلاً نهارًا لتأهيلها ورفع أسوارها أكثر. أشاعوا فكرة أنّها مسكونة بالأرواح الشرِّيرة وكلّ من يقربها تمزّقه. قتلوا الكثير من العابرين، فقط ليثبتوا للأعداء أنّها مسكونة. وظلُّوا هناك يتخفُّون ويتوالدون حتى كوَّنوا مجتمعًا مغلقًا لم يقبلوا بغيره، معهم. كان الحجّاج كلّما وصلوا إلى هناك انتابهم الخوف، فابتعدوا عن المكان، وأضافوا لرحلتهم سبعة أيّام. يُجمع المؤرّخون أنّهم استطاعوا أن يصدُّوا كلّ الهجمات التي حاولت الاستيلاء على القلعة، ومنهم المؤرّخ الفرنسي جيروم كلافييه، الذي أكّد ذلك من خلال أبحاثه وحفريّاته. معظم أبنية القلعة قديمة، هناك إضافات متأخّرة، بالخصوص برج الطوابق السبعة. المكتبة الدينيّة التي امتلكها الكنعانيُّون، كانت بها مخطوطات كثيرة، قبل أن تُحرق عن آخرها عندما هاجمتها فرقة *الراية السوداء*، كما أُطلق عليها لاحقًا، وهي الجذر الأوّل *للتنظيم*. وأعاد بناءها اللاحقون، وحوّلوها إلى مثال للهندسة العسكريّة شديدة التعقيد والنظام. فأصبحت حصنًا منيعًا، ومن أكبر قلاع العالم، وأقدمها. بُنيت فوق جبل صخريّ، يُقال إنّه في الأصل جبلٌ بركانيٌّ حارق يتبيّن ذلك من الصخور السوداء التي بنيت بها القلعة، لترتفع عن مستوى سطح البحر بأكثر من ١٥٠٠ متر. في محيطها كثبان رمليّة عملاقة لدرء الرياح الخريفيّة والشتويّة، والتمكُّن من تعطيل وصول الأعداء إلى أبوابها الواسعة. أحرقت العديد من المرّات، لكنّ الرومان، أعادوا بناءها. يؤكّد المؤرّخ اليونانيّ تيت لايف على أنّ الأمبراطور الرومانيّ يوليان زارها، في فترة حكمه، ما بين ٣٦١م و٣٦٣ م، وقدّم أضحية للربّ في أحد معابدها الجانبيّة. رمّمها البيزنطيُّون لاحقًا، وأضافوا لها قلاعًا أخرى للدفاع. بالخصوص الساحات الأربع: الشماليّة والجنوبيّة، والشرقيّة والغربيّة. وتحوّلت إلى ملجأ للناس المطاردين، كما فعلوا عام ٥٤٠ م، حينما غزا كسرى الأوّل القلعة. لم تُفتح في الفترة الإسلاميّة أبدًا بالقوّة، بل بالحيلة والخداع، في عام ٦٣٦ م بقيادة خالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وغيرهم، بعد أن استطاعوا أن يسيطروا على أحد أبوابها، وأسر قائدها البيزنطيّ الذي حاول أن يهرب وينتحر، ولكنْ أُلقي عليه القبض

استثناء كونها قلعة تعرَّضت للكثير من التحوُّلات.

= حيًا وأُعدم بعد أن أسرَّ لهم بكلِّ تفاصيلها الداخليّة وتنظيماتها وهندستها السداسيّة الأضلاع Hexagonale. هناك قصّة يتداولها أغلب المؤرّخين، تروي أحداث احتلال القلعة. حينما التجأ حاكم القلعة البيزنطيّ يوكينا، مع بعض السكّان إلى القلعة، تطوّع دامس لحمايته، وهو عبد ضخم البنية، وقويٌّ، وله سمعة داخل القلعة، وله أيضًا نصفيات حسابات قديمة، لأنَّ البيزنطيين منعوه من الزواج من دايا، خادمة حاكم القلعة. اتّصل به أناس سرّيُّون، واتّفق معهم على مساعدتهم شرط زواجه من دايا، حبيبته التي حُرم منها. بعد أن تراجع الجيش العربيّ، من وراء التلال، صمَّم دامس على البقاء مع بعض من رفاقه على أبواب القلعة لحراستها. في الليل، وكان حالكًا، تسلّق دامس مع رفاقه منحدر القلعة، وهم مربوطون بعضهم إلى بعض، ومتخفُّون تحت جلود الماعز. وكان دامس يهزّ الحبل ليحذّر رفاقه حينما يقترب منهم الحرّاس. ويقضم الخبز الجافّ بصوت عالٍ، ليعتقد الحرّاس أنَّ الماعز ترعى على منحدر القلعة. وهكذا، تسلّقت المجموعة التلّ وأشعلوا نارًا لإعطاء جيش خالد بن الوليد الإشارة بوصولهم بعد أن فتحوا لهم الأبواب، فدخلوها ظافرين. وحينما وجد الحاكم البيزنطيُّ يوكينا مع من لجأ معه أنفسهم معتقلين، خُيّروا بين اعتناق الإسلام والانضمام إلى الفاتحين، أو الموت. فأسلموا. لكنْ، لا أحد فيما بعد عرف مصير العبد دامس وحبيبته دايا. بعضهم يقول إنَّ خالد بن الوليد نفسه فتح له الطريق، وتركه يهرب بحبيبته حيثما يشاء. البعض الآخر استبعد هذا الاحتمال، وفضّل عليه فكرة أن يكون دامس قد أسلم وعاش مع دايا حتى ماتا.

هناك من المؤرّخين من يخلط بينها وبين قلعة حلب. في القرن ١٠ م، أصبحت مقرّ سكن وحكم سيف الدولة الحمدانيّ. لم تتوقّف أبدًا عن مقاومة البيزنطيين ومن بعدهم الصليبيّين. ظلّت حصن المسلمين القوي في شمال الأرض العربيّة. في العهد السلجوقيّ. زاد اهتمام نور الدين بالقلعة، فرمَّمها، وأضاف لها الكثير من المباني، ومنها قصر ومسجد، لتصبح لاحقًا مقرًّا لحكمه وإقامته. جدّد حصونها، وغطّى سفح التلّ بالحجارة، فبلغت أوج ازدهارها، وأصبح تخطّيها مستحيلاً. في عهد الأيّوبيّين، وبعد اندحار الصليبيّين، أصبح الظاهر غازي بن صلاح الدين الذي حكم بين ١١٩٣ ـ ١٢١٥ م، ملكًا عليها، فاعتنى بها، وابتنى قصرًا فيها، حاول المغول احتلالها، لكنّهم أخفقوا في البداية. حتى حاصرها هولاكو عام ١٢٦٠ م، لمدّة شهرين، فخرّب أسوارها ودمّر أبنيتها وأحرق مآذنها وكنائسها ومعابدها اليهوديّة، قبل أن يتركها. رُمّمت في عهد الأشرف خليل بن قلاوون عام ١٢٩٢ م.

سمع وقرأ بعض التفاصيل، عنها قبل أن يجد نفسه في عمقها.

ثم دُمِّرت ثانية على يد تيمورلنك عام ١٤٠٠ م. وشيَّد السلطان الملك الناصر بن برقوق سورها، وبنى قصرًا فيها عام ١٤١٥ م. كما رُمِّمت أيّام السلطان قانصوه الغوري آخر المماليك. في زمن العثمانيِّين تحوَّلت إلى مكان للعابرين من الحجيج المسافرين أو القاصدين البحر الأحمر للحجّ. كلّما اشتدّ بهم القيظ وظلمة الأسفار، ارتاحوا فيها أيّامًا قبل أن يواصلوا طريقهم. خلال زلزال ١٨٢٨ م القويّ، انهارت الكثير من أبنيتها التي أُضيفت لها، بينما قاومت الحيطان القديمة عنف الزلزال، بالخصوص الرومانيّة. أُعيد ترميمها في سنة ١٨٨٢ م، قبل أن يُصيبها الإهمال مع تطوُّر وسائل النقل البرّي والبحريّ، فاندفن جزء كبير منها في الرمال. في الحرب العالميّة الثانية، استعملها الحلفاء في حرب العلميْن، كنقطة دفاع متأخِّرة ضدّ جيوش هتلر. كانت هي الرابط بين الشمال والجنوب. بعدها، تضاءل دور القلعة نهائيًّا، وفرح الناس بالعالم الجديد. عندما اندلعت حروب آرابيا الداخليّة، التي أكلت الزرع والضرع، قبل أكثر من نصف قرن، احتلّها *ذوو الرايات السوداء* وأعلنوها مقاطعة محرَّرة، وسمُّوا أنفسهم باسم جديد: *التنظيم*. حطَّموا كلّ معالمها المرتفعة وقبورها القديمة وقصورها الواقفة وكنيستها المركزيّة ومعابدها، قبل أن تطردهم جيوش أميروبا المتحالفة، بعد مقتل عالم كبير تمّ اختطافه من قاعدة أميركيّة. وأُلقي القبض على قائد التنظيم، الكوربو، الذي لم يمكث طويلاً فيها قبل هروبه بسبب تواطؤات داخليّة. فتحوَّلت إلى شبه قاعدة لحماية ممرَّات البحر الأحمر، ومضيق هرمز الذي سحب منه الإيرانيُّون ما تبقّى من سفنهم، بعد حرب ضروس مع جيوش أميروبا المتحالفة وجيوش ما تبقَّى واقفًا من أرابيا الجنوبيّة، وينضمُّون نهائيًّا إلى حلف *إيروشينا*.

ما يزال إلى اليوم، على الرَّغم من اتّساعها، يحيط بجزء منها سور حجريٌّ قديم، فيه ٤٤ برجًا دفاعيًّا من أحجام مختلفة، الأساسيّة والفرعيّة، التي نصبت عليها منذ القديم الكثير من المدافع الطويلة المدى. طول السور الحجريّ القديم، غير الشبّاك المكهرب، حوالى ٢٠٠٠ م وارتفاعه حوالى ٢٠ م، ودُعِّم بأعمدة حجريَّة ثُبِّتت بشكل عرضيّ بمسامير حديديّة. حجارة السور الخارجيّ تعود إلى ما قبل الفتح الإسلاميّ، والوسطى من العهد الأيُّوبيّ، أمّا الصغيرة فمن العهد المملوكيّ. ودُعِّمت بالأحجار ليصعب تسلُّقها ولحمايتها من التآكل بسبب مياه الخندق المحيط بها، الذي عرضه ٤٠ م وعمقه ٢٠ م. مياه القلعة كانت تأتيها من نبع تحت أرضيّ، اليوم تأتي من السدّ الذي يعتزّ الماريشال ليتل بروز أنّه منشئه.

يعرف مثلاً أنَّها مكان استراتيجيٌّ في عمق الربع الخالي، لمراقبة

باب القلعة القديم يقود إلى برج متقدّم، مستطيل الشكل، ارتفاعه حوالى ٤٠ م، بُني في عام ١٢١١ م ورُمّم فيما بعد، قبل أن تتغيّر جوانبه كلّها. والباب حديديّ، عليه كتابة تؤرّخ زمن صنعه في عهد الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيُوبي بالقرن ١٢ م. وعلى مدخل البناء كتابة تؤرّخ عهد السلطان قانصوه الغوري ١٥٠٧ م، أيّام الوالي أبرك الأشرفيّ السيفيّ. وتحت الكتابة يوجد نقش الحلية المعماريّة المعروفة بالصنج المزرّرة، وفوقها سقّاطة. في الجدار المقابل من البرج، يوجد باب حديديٌّ آخر يقود إلى الجسر الحجريّ، الذي كان في السابق جسرًا خشبيًّا متحرّكًا، استبدله الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيُوبيّ بالجسر الذي أُقيم فوق قواعد لها ثماني قناطر. الوافدون الجدد دعموه بجسر فولاذيّ آليّ يرتفع ليلاً ويتحوّل إلى دعامة حديديّة للباب. يُدعى هذا الباب باب الحيّات، ولم يتغيّر اسمه إلى اليوم، لوجود نقش ثعبانين متعانقين لهما أربعة رؤوس. يُفتح الباب على بهو برج فيه ثلاث ردهات، والباب السرّي الذي يقود إلى قاعة العرش. لكلّ واحدة من الردهات عدد من مرامي السهام. على الجدار الأيمن للمدخل، كانت توجد كتابة تعلن انتصار الجيوش العربيّة على الأرمن والتتار والصليبيّين، لكنّها مُحيت نهائيًا وكُتبت في مكانها جملةٌ تبيّن الوضع الحاليّ عسكريًّا: *في عقر دارك يا صلاح الدين*. ثم الباب الثاني من القرن ١٣، نُقش فوقه أسدان، بينهما شجرة نخيل، عليه مسامير كبيرة، ثم بهو كان فيه مقام سيّدنا الخضر. يأتي الباب الثالث الذي يقود إلى الممرّات السرّيّة. فالباب الرابع، ويعلوه من الجانبين نقش أسدين أحدهما ضاحك والآخر باك، فوقه كتابة أيُوبيّة من عهد الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين. عند المدخل، قبل الوصول إلى الدرج، فسحة واسعة، هي في النهاية مصيدة للعدوّ، لأنَّ فيها مرامي للسهام، وفتحات بارزة لسكب السوائل المشتعلة كالماء والقطران والزيوت المغليّة. ويستند السقف على دعائم حجريّة ذات قناطر قرميديّة من العهد البيزنطيّ، تقسّمه إلى ثلاثة أقسام. وكان خزّانًا للماء، أو كان مخزنًا للحبوب والمؤن وعلف الحيوانات. أمّا قسمه الداخليُّ، وهو حفرة عميقة، فقد كان سجنًا في عهد البيزنطيّين، وما يزال كما كان بعد أن رمّمه حلفاء أميروبا. أُدخلت عليه تحسينات كثيرة ليستوعب الأجهزة التي تمّ جلبها، وجعل السجين أو المقيم، في ظروف أفضل يستطيع فيها الكلام. زُوّد بسلسلة من القاعات البيضاويّة التي تمّ فيها مجابهة مساءلة *المقيم*، عن فحوى جريمته، وتُمنح له فيها فرصة الدفاع عن نفسه. أميروبا شكل آخر للحياة الجديدة العادلة.

تدفُّق النفط وعبوره نحو أوروبا وأميركا. كانت تبدو له في النهاية، مثل ثكنة عسكريَّة، مرميَّة في الرمال، لا شيء فيها إلَّا رائحة النفط والمحروقات والخوف، وآلات مخفيَّة تحت الأرض، وفي خفايا السماء، لتحسُّس أيِّ شيء غير عاديٍّ في أرض بلا حدود، حيث لا حياة إلَّا للعواصف الرمليَّة والرياح، والحشرات المقزِّزة التي تنبت في المكان كالفطريّات السوداء، كالعقرب مثلاً الذي كاد يقتله، في ليلة من الليالي، في أوَّل أيّامه في القلعة. مدَّ يده عليها، وهو يبحث عن منديله في الظلمة، ليضعه على فمه ويمسح جفاف لسانه الذي عمّقه السعال. من حظِّه، صرخ من اللدغة، فانفتحت تلقائيًّا الشاشة الكبيرة، جاءه الصوت المعدنيُّ: *لا تخف. مجرَّد لدغة عقرب. القلعة ستتكفَّل بكلِّ شيء*. شعر يومها بالأمطار تهطل على وجهه وجسده، وبالبرودة تسكن دمه، قبل أن يدخل في نوبة ارتجاف لم يستطع مقاومتها. حتى حقنه الطبيب ملارمي الذي حضر بسرعة. بعد لحظات نام، وعندما استيقظ، كأنَّ شيئًا لم يكن. يومها، غُيِّرت له الغرفة بواحدة أفضل قليلاً. ووُضعت الواقيات التي تحمي الأبواب والنوافذ من الحشرات والزواحف. وسُمح له بالاطِّلاع على بعض المجلَّات والجرائد الإلكترونيَّة التي يتمّ سحبها ووضعها تحت باب غرفته.

كلّ هذا ينام داخل قلعة تغيَّرت في شكلها الخارجيِّ رأسًا على عقب، وفي ناسها أيضًا.

اتّكأ آدم على الحائط القديم. حائط صلاح الدين(١). يعرف مكانه حتى من دون أن يفتح عينيه. فجأة، اخترقت أنفه الروائح الكريهة التي تشبه عفن الرطوبة ورائحة السلاحف الميِّتة التي تتعفَّن في

---

(١) Saladin Wall

مكانها، عندما تموت، داخل القوقعة وليس خارجها. «*أحسدها. هي أحسن في حياتها وموتها، من أيّ كائن آخر. مستورة. غير منشغلة بما يحيط بها. تسير بحسب إيقاعها. ضدّ آلة الزمن التي لا ترى نفسها إلّا داخل دوّامة شديدة السرعة، نهايتها فجيعة*». لم ينتظر وقتًا طويلاً ليدرك أنَّ العفن كان ملتصقًا بلباسه ولحمه، وحتى بأنفاسه التي أصابتها الرطوبة، وأحلامه التي منذ أن زُجَّ به في هذا المكان، لا يعرف إن ماتت أم ذبلت، أم أنَّها متخفِّية في زاوية ما في مخُه المتعب، كلّ ليلة تجري فيه طويلاً بشيء يشبه اليأس، قبل أن تتهاوى وينتهي ركضها الدائم.

كلَّما خرج إِلَى زاوية الظلّ تلمّس سطح الحائط الأملس والساري القديم. بقايا عمود لم يعد يحمل شيئًا إلَّا الفراغ. بارد وجافّ كما الموت، كما اليد التي حطَّمت أجزاء كبيرة منه.

شعر آدم كأنّ وضعيّته لا تختلف عن محكوم عليه بالإعدام. ينتظر، في تيهه داخل هذا المكان، شيئًا بلا هويَّة.

لا يغادر آدم غرفته الأقلّ بؤسًا من الأولى، إلَّا عندما يسمع نداء داخليًّا عميقًا يسحبه من صمته وغفوته المستديمة نحو الضوء، الذي تخلِّفه فجوة الباب الفولاذيّ الذي ينفتح أوتوماتيكيًّا. كلَّما سمع غزغزته اتّكأ على ظلّه، ثم مشى بخطوات وئيدة نحو خيط النور الذي يرتسم جزء منه داخل الغرفة، ويبقى الجزء الأكبر في الخارج. يغمض عينيه، وهو يستمع إلى خطواته وهي تؤثّث الفراغ، *طاق*. *طاق*. *طاق*. وإلى الأصوات التي كانت تأتيه من بعيد، تغطّي عليها حنفيَّة الماء التي تسيل بشكل دائم في مكان ما. بعض هذه الأصوات يعرفه بدقّة ويحدِّد مكانه ومسافاته، مثل عواء الذئاب. أحيانًا يأتي من بعيد، بالضبط على بعد كيلومترين و٣٥٠ مترًا. أو أقلّ من كيلومتر، أي ٧٨٦ مترًا. وفي

أحيان أخرى، يشعر بها عند حافّة الحائط الدائريّ الذي يلفُّ هذه القلعة الثقيلة، على مسافة عشرة أمتار. يحدث هذا معه عندما يكون في عزّ صفائه. والبعض الآخر من الأصوات كان يستعصي عليه، لأنّها تصله موزَّعة على أمكنة عديدة. يسأل نفسه أحيانًا إذا لم يكن هو الوحيد مَنْ كان يسمع ذلك! أصعب صوت هو غزغزة الباب الفولاذيّة الثقيلة، التي أصبحت تتحكّم في كلّ حواسّه.

نظر آدم إلى حوّاء. رفعت رأسها. تأمّلته قليلاً بعينين لوزيّتين. شعر بها تسخر منه، ثم واصلت زحفها.

بعد سنوات من الظلمة، جاءت لتؤنسه وتقاوم معه صلابة الوضع.

يوم زارته أوّل مرّة لجنة ليدرافيك ***LIDRAFIC La Ligue des Droits des races en fin de cycle*** لجنة الحفاظ على *الأجناس الآيلة إلى الزوال*، سألته دريمز في البداية، قبل أن تُعيد السؤال نفسه عليه إيڤا وميريْ: ماذا ينقصك يا آدم؟ أجاب بلا تردُّد: ليست لديَّ طلبات مستحيلة. أريد تطبيق الحقّ في مزاولة الرياضة والجرْي، وهذا ليس ممنوعًا قانونيًّا في القلعة. ورفيقة عمر، أو ما تبقّى منه. أجابه ليتل بروز على الشاشة التي ارتسمت على الحائط، واتّسعت حتى شملت الحائط المواجه كلّه: الرياضة، ممكن. لكنّ الطلب الثاني صعب جدًّا. نحن نحاول أن نغيِّر هذا القانون، لكنْ حتى الآن، أنت تعرف يا آدم أنّ رفقة النساء ممنوعة في هذا المكان؟ لم يستطع آدم أن يكتم ابتسامته، ثم ضحكته: ومن تحدَّث عن المرأة يا سيِّدي؟ أريد سلحفاة فقط. ضحك أعضاء الفرقة كلُّهم، بينما انطفأت الشاشة محدثة صوتًا جافًّا.

مشى مستقيمًا كتمثال برونزيّ قديم. لاحظ الظلال وهي تمّحي

..ت رجليه بهدوء، وكأنّها ليست معنيَّة لا بالوقت، ولا بالليل ا. صاصيّ، ولا حتى بعلامات الصباح وهي ترسم في مسالكه خيطًا امما من نور أحمر، كان يأتي من وراء الحيطان العالية والجبال ؛ امضة التي لا تظهر من القلعة إلّا بعض قممها. كلّما اقترب الفجر ..ر انسحبت الظلمة مخلّفة وراءها شلّالات من النور الهادر، تُغرق ال شيء في دفئها، في هذا الشتاء القاسي.

كلّ شيء يسير في هذا المكان بشكل روتينيّ، ومتكرِّر لدرجة القرف، بالشكل الذي قُرّر له أن يسير به.

ليل ثقيل بلا طعم ولا رائحة المطر.

جلس آدم قليلاً في ظلّ العمود الرخاميّ القديم، على الحجرة النبيلة التي يُقال إنَّ الأتراك كانوا يقطعون عليها الرؤوس. خيط مستقيم من الضوء المتحرّك يخترق من حين لآخر المكان، كأنّه متأتٍّ من منارة بحريَّة، فيحوّله إلى ساحة صغيرة تظهر فيها كلّ التفاصيل الصغيرة، بما في ذلك الجرذان المتقاتلة أو العاشقة. ثم تنسحب الأضواء باتّجاه السور الذي تغطّيه الأسلاك الشائكة وتخترقه الكهرباء. فتظهر كلّ التفاصيل: حجارة قديمة وتآكل يشكّل خرائط في كلّ الأمكنة.. أجهزة كثيرة، بعضها ظاهر كلّيًا، والبعض الآخر لا يظهر إلّا جزؤه الصغير أو لا يظهر بتاتًا. أجهزة التنصُّت الشديدة الحساسيَّة التي يمكن أن تفضح الإنسان في أيَّة لحظة، منتشرة في كلّ مكان. في كلّ سنة يتمّ تغييرها بأخرى أكثر تطوُّرًا، وأكثر حساسيَّة. الضوء الناصع الذي يأتي من برج المراقبة، يحوّل الليل إلى نهار، ويمكنه أن يظهر إبرة ضائعة في عمق التبن.

اعتدل آدم أكثر في جلسته، في ظلّ العمود الطويل الأملس. رأى قطرات المطر كيف تلمع في التصاقها بالأسلاك الشائكة، وكيف تظلّ

معلّقة حتى تكبر، فتمتلئ وتفيض فتسقط. يجد شبهًا غريبًا بينه وبينها الفرق الوحيد، أنَّه يُقاوم السقوط ويؤجّله إلى أقصى حدّ ممكن. بينما هي تسير على وتيرة مكرَّرة، لم تتغيَّر أبدًا. بعد أن أتمَّ الضوء دورانه المتتالية، وجد آدم نفسه في مجابهة الظلمة والفراغ والبرد. هو يحفظ الأمكنة جيّدًا. اختفت كلّ الأشكال والأجسام الصغيرة والثقيلة أيضًا.

كانت حوّاء، مرافقته في لحظات فراغه، قد أنهت دورتها، ثم جاءت لتنطح حذاءه وتذكّره بنومه.

ضحك، ثم انسحبا من المكان.

ـ ٤ ـ

تنهَّد عميقًا. مسح وجهه في بهو البيت من عرق الماراتون.

بعد سنوات من وصوله إلى قلعة أميروبا، بالضبط بعد خمس ..وات وخمسة أشهر و١٣ يومًا وعشر ساعات و٥٥ دقيقة و٣٤ ثانية. .م يحتسب لتلك اللحظة التي فاجأته بقوَّة، وأعادته مثل طفل صغير .لى حضن أمايا.

قبل أن يعتدل في جلسته بعد الحمَّام البارد، الذي أحسّ بمائه ..اعم ينزل على جسده في صحراء الخوف، جاءه رجل يلبس الأسود، .عيناه مخبَّأتان تحت نظَّارتين سوداوين. قامة فارهة وممتدَّة تخبئ ..سدًا رياضيًّا حيًّا.. يحمل في يديه شيئًا أبيض يشبه الكفن. تذكَّر ..فلام ماتريكس القديمة قبل أكثر من نصف قرن. لم يكن يعرفه. لم ير ..ذا الشكل من البشر، إذ كان في صوته شيءٌ من المعدن أيضًا، وكأنَّه .س كائنًا طبيعيًّا. لكنَّ هندامه وكلامه وتحيَّته تبيِّن أنَّه عسكريّ.

سأله آدم، وهو يمسح شعره من الماء:

ـهل التقينا من قبل؟

ـ أبدًا.

ـ معك حقّ، أنا في مكان أدور فيه وحدي حول نفسي باستمرار، كالنحلة الضائعة، وأنت من سادة المكان.

ـ لا أعرف.

ـ طيّب.. أسمعك.

على الرَّغم من قامته الطويلة، بدا آدم أمام الرجل الغريب قصيرًا.

ـ السيّد آدم، كبير العلماء يحتاجك.

ـ ليتل بروز؟

ـ لا.

ـ أليس ليتل بروز هو كبير العلماء والمفكّرين والمؤرّخين والماريشال، سيّد القلعة؟

ـ لا أعرف.

ـ طيّب.. من يطلبني؟

ـ كبير العلماء يريدك. لو سمحت البس هذا، واتبعني..

وقدَّم له قطعة القماش البيضاء، أو ما بدا له كذلك في بداية الأمر. عندما فتحه الرجل أمامه، عرفه من نعومته وغلافه المضاد للإشعاعات النوويَّة. فهم أنَّه مدعوٌّ للدخول إلى مركز من المراكز، لكنَّ هذه قلعة وليست مخبرًا.. تمتم في أعماقه. قبل الخروج، استأذن منه الشخص، ثم وضع على عينيه قطعة قماش سوداء ناعمة ونظّارتين سوداوين؛ ثم أعطاه لثامًا، وضعه على فمه. تأكَّد من جديد أنَّ هذا الرجل لا يعرف شيئًا، لكنَّه مأمور. الحديث معه مضيعة للوقت!

تبعه باستسلام كلّيّ.

قاده قليلاً، قبل أن يستقلّ سيّارة صغيرة كهربائيّة مثل تلك التي تسع في خدمة المسافرين في المطارات الكبيرة. فجأة، سمع صريرًا انفتاح باب ثقيل. ثم واصلت السيّارة حركتها في بهو يكاد يكون فولاذيًا بسبب الأصداء الخشنة. قبل أن تتوقّف، شعر أنّها تدخل نفقًا فلمّا أدرك أنّه مصعد، كان ينزل تحت الأعماق مثل مصاعد مناجم الفحم القديمة. ومن جديد، خرجت السيّارة من العلبة الحديديّة التي انغلقت بسرعة، وواصلت السيّارة توغُّلها في الأعماق. لم يكن يشمّ شيئًا إلّا رائحة شبيهة برائحة الأدوية أحيانًا، وفي أحيان أخرى رائحة الكلور، وممرّات السوديوم، وكأنّه على حافّة بحر يزخر بالقواقع الميّتة والطحالب والحيوانات الشوكيّة التي رماها الساحل.

أُنزِل من السيّارة الكهربائيّة أخيرًا. استلمه شخص آخر أكثر بشاشة، لأنّ السيّارة سرعان ما عادت على أعقابها. أُدخل في غرف عديدة أحسّ بها من انفتاح وانغلاق أبوابها آليًّا. في الأخير، نزع الرجل الفولاذيُّ الغطاء من على عينيه وفمه، ومن على جسده كلَّ ما كان يثقله. أُجلِس بنعومة.

فتح عينيه. رأى امرأة جميلة ونحيفة. كلّما تكلّمت ارتسمت ابتسامة رائقة على مُحيّاها.

كأنّك سيّدة من سيّدات الموضة.

قال آدم مخفّفًا جوّ الثقل والخوف:

- شكرًا بروفسور. سيزورك المسؤول عن المكان. هل تريد شيئًا؟

- قليلاً من الماء. حلقي نشف. لن أسألك أين نحن؟

- لا أعرف. ستعرف بروفسور بعد قليل.

قالت، مع ابتسامة ارتسمت بين شفتيها الرقيقتين، وهي تناوله قنينة ماء صغيرة:

ـ بروفسور. نريد فقط أن نعتذر منك. إنّها إجراءات وقائيَّة طبّقناها ،ا
رئيس الولايات المتّحدة عندما زار القلعة، وكِبار الضبَّاط الذين م.ا
من هذا المكان. أرجو أن تعذرنا على المضايقات.
ـ أعرف هذه الإجراءات. استغربت كيف نزعتم كلّ وسائل الوقاية م
مكان يمكن أن تكون فيه إشعاعات.
ـ لا تخف بروفسور. نحن داخل غرفة معقَّمة، ونحسب كلّ شيء بدقه
انظر فوق رأسك إلى جهاز كشف الإشعاعات، لا يوجد أيّ أثر ا
في الغرفة. هي احتياطات لا أكثر. نحن فخورون بوجودكم في هـ
المكان يا بروفسور، وسعداء جدًّا بك. حظّ لنا يا سيّدي أن يزو
عالِمٌ مرشَّح لنوبل.
ثم غادرت المكان وهي تردِّد:
ـ إذا احتجت لأيِّ شيء، اضغط على الزرِّ الذي يقع على مستوى يد
اليمنى. كلّ الشكر بروفسور. عذرًا مرَّة أخرى. أتعبناك معنا. هـ
النظام المعمول به في الجهة الشماليَّة من *أميروبا*.
ـ أفهم.. لا مشكلة. هل سأبقى هنا طويلاً؟
ـ سيأتي من يأخذك. المهمّ إذا احتجت لأيِّ شيء، أمامك الزرّ، أنا هنا
لون القاعة الواسعة أبيض ناصع، لا يخترقه أيّ لون آخر. كأنّها
غرفة مستشفى شديد النظافة. سمع موسيقى ناعمة كانت تأتيه من زاوية
ما غير معلومة. في البداية، كانت مبهمة، لكنَّها سرعان ما اتّضحت ا
كلّيًا. *هايدن*. يعرف موسيقاه من بين ملايين الأصوات الأخرى. دف
وخفوت يكاد لا يُسمع.
سألته المضيفة مرَّة أخرى، ما إذا كانت موسيقى هايدن لا
تزعجه؟ فأجاب ضاحكًا:
ـ ذاكرتي بها قويَّة.

ـن تجري بها في المضمار، وهي ما كان يعطيك طاقة عظيمة
السباق . . . هههه. كانت أمايا تحبّها أيضًا.

الظاهر أنّكم تعرفون كلّ شيء. إذن، لا داعي للشرح.

ـس مشكلاً. لا نفرض على زوّارنا موسيقى لا يريدونها. مع أنّ ذوق اليابانيين محصور في موسيقاهم، ولا يتذوّقون غيرها. لا بدّ أنّ أمايا كانت تحبّك لتقبل بهايدن؟

هذا كلام عامّ، يُقال عن الآسيويين، لكنّ الأجيال تغيّرت والثقافات تداخلت. أمايا مأخوذة أكثر بموسيقى العالم الكنسيّة والتيبتيّة والهنديّة القديمة والصينيّة والكلاسيكيّة. كلّ شيء تمسّه الذاكرة تسجنه في أعماقها، تستعبده حتى النهاية. العالم تغيّر يا . . . ؟

عذرًا، نسيت. اسمي كتارينا، اختصارًا كاتيا.

روسيّة.

اميركيّة طبعًا، أمّي روسيّة. اسم زوجتك جميل: أمايا.

يعني في اللغة اليابانيّة *المطر الليلي*.

واووووو. شاعريّة كبيرة.

سرقت المخابر الشعر منّا. أحبّ جدًّا شاعركم بوشكين. حتى موته فيه هشاشة الشاعر.

كان عليهما، هو ونتاليا، أن يفترقا، ما دامت فضّلت عليه البارون جورج شارل دانتيس[1].

لو مات بوشكين بشكل عاديّ لما ترك الأثر العظيم في قلوب الناس. لم تكن المبارزة عادلة، وهذه قوّتها. البارون يعرف إدارة السلاح، بينما الشاعر لم يكن يملك أكثر من قلبه ليقول لنتاليا كم هو مرتبط بها.

(1) Georges-Charles de Heeckeren d'Anthès

ـ بروفسور أنت تدهشني. شكرًا لك. أمامك الزرّ. أنا في الخدمة.

تأمّل الدوائر الصغيرة التي كانت تحدثها حركة اللمبة الزرقاء التي كانت تتحرّك في كلّ الاتّجاهات مثل المنارة البحريّة، مضفية على المكان سحرًا خاصًا ونعومة ساحرة.

شعر بألم في ظهره. تمدَّد قليلاً. أغمض عينيه. تحسَّس جهاز بروؤس أصابعه.

ما زلت إلى اللحظة أرى حيرتها وقلقها. كنّا في جامعة بنسلفانيا في السنة الأولى التي تفضي إلى التخصُّص. وسعداء أنَّ كلَّ واحد منّا عندما ينتهي يعود إلى أرضه. أنا إلى آرابيا بكلّ مآسيها وأحلامها وفقرها، وهي إلى اليابان، طوكيو. لم نكن نعرف أنّ مصائرنا كانت قد خُطَّت نهائيًا لحظة وضعت يدي على كتفها وتأمّلت عينيها طويلاً. كانت في الطبّ الإشعاعيّ، وكنت في الفيزياء قبل التخصُّص في الفيزياء النوويَّة. الصدف لا يصنعها أحد، ولكنَّها تنشئ تفاصيلها بنفسها. الشيء الوحيد الذي لم أخطئ فيه طوال حياتي هو ابتسامتها. لم تكن تشبه إلّا نفسها. تخرج منها صادقة، فيها مقاسات غريبة ودقيقة، وأستطيع أن أصفها بلا أدنى خطأ. لكنّي كنت أشحذها، إذ لم تكن تأتي ببساطة. كانت المرَّة الأولى. لا أدري ما الذي منعني يومها من الإجابة عن سؤال أمايا. هل لأنّي شعرت أنّ في عينيها شعلة كبيرة من الذكاء. مع أنّي كنت أعرف الصوت، وكان يسحرني بقوَّة. أشعر دومًا أنّ بها شيئًا يسكن بمجرَّد سماعها، وبه دوخة غريبة. أعادت السؤال، وقد بدا على وجهها شيء من خيبة الأمل. وقبل أن تقوم من مكانها، تركتني أقول لها ما كنت أعرفه. ضحكت. همست بلطف، وأنا أشدّ على يدها: أمايا. لا تغضبي. اجلسي فقط: طبعًا أعرف هذه المقطوعة، لهايدن. التفتت مجرمٌ أنت. لماذا لم تقل هذا من الأوّل؟ ضحكتُ وأنا أقول لها: لأنّي

احبتك مباشرة لما حدث بيننا ما حدث الآن. ردّتْ وكأنّها لم تقتنع كلامي: هناك بشر يعقّدون الأشياء من تلقاء أنفسهم. ضحكتُ مرّة ..ني: وهناك بشر مسدودون لا تدخل السخرية قلوبهم. ضربتني مها، وهي تتمتم: مجنون. عرفت يومها أنّ بيني وبين أمايا شيئًا من ..اة الطفوليّة كان يرتسم بهدوء. مشينا طويلاً في الحديقة الجميلة .امئة بشيئين غريبين، أينما ولّيت وجهك تراهما. النخيل والصفصاف .بير. مشينا بلا توقُّف، حتى قالت: يمكننا الآن أن نفترق. قبّلت .ها، وتواعدنا أن نلتقي في الحديقة في اليوم الموالي. لكنّها في اليوم .والي، جاءت قبل الوقت. كان وجهها مرتبكًا، بينما كنت سأمنح .مر كلّه فقط لأرى ابتسامتها. قبل أن تقول أيَّ كلمة انفجرت باكية. ..ت حتى قبل أن أسالها: أمّي مريضة في غيبوبة، وستخضع لعمليّة ..احيّة في القلب. أسافر الليلة إلى طوكيو. ضممتها إلى صدري، ولم ..نطع تركها إلّا بصعوبة. قبل أن نفترق نبّهتني مرّة أخرى إلى الملفّ ..ي وضعته بين يديّ. قالت: إذا كان لديك وقت سلّمه لإدارة الطبّ لإشعاعيّ، أو ابعثه بالبريد من داخل الجامعة. أكّدتُ لها أنّها إذا .حتاجت أيَّ شيء أن تخبرني. انسحبت بين أشجار الصفصاف العملاقة، ولم أرها إلّا بعد شهرين و٢٤ يومًا و١٢ ساعة وست ثوان الضبط. أتذكّر ذلك جيّدًا كما اليوم. خرجت أمُّها من محنة الغيبوبة .العمليّة بخسارات قليلة، إعاقات محدودة. مشينا في الحديقة بلا كلام، .م بكت طويلاً على صدري بصمت كعادة الآسيويات، لكنّي كنت أشعر .مزّقها الداخليّ. عندما نظرت إليّ، مسحت دمعها. كان وجهًا ناعمًا .قطعة حرير. قالت:

ـ يمكنني أن أعود إلى غرفتي. أنا بكلّ الخير.

كانت أمطار الخريف قد بدأت. تأمّلتها. رأيت المطريّة تنفتح.

ثم سيول المطر التي غطّتها كليًا عنّي. انتابني فرح غريب. وسمعت هايدن يخرج من قلبي هذه المرّة. لا أدري كيف صرخت أمايا!!!!!! كأنّها كانت تنتظر ذلك. رمت المطريّة وركضنا باتّجاه بعضنا بعضًا. غرقنا يومها في المطر، وتحمّلنا ليلتها حرارة الحمّام المشترك. والحمّى الليليّة.

ـ أووووو. بروفسور، أينك؟ عزيزي آد، كأنّك لم تنم جيّدًا؟

قام آدم من مكانه بارتباك، دون أن يرفع رأسه:

ـ أعتذر كنت غارقًا في زوجتي.

ـ أمايا. سيّدة رائعة؟

تفرّس في وجه الرجل لثوان، وهو لا يصدّق ما كان يراه. هل هو حلم في عالم بدأ يقتنع أنّه سيموت فيه وحيدًا، أم حقيقة؟ تلمّس وجهه ويديه اللتين تعرّقتا قليلاً منذ أن افترقا.

ـ معقول؟ اقرصني. لا.. اقرصني. سميث، وقل بأنّك لستَ أنتَ. أكاد لا أفهم. قل لي بأنّي لا أحلم!

دار دورات عديدة في المكان الذي كان يقف فيه سميث، وهو يشدّ على رأسه بقوّة، ثم أغلق عينيه وصمت قليلاً، ثم فتحهما عن آخرهما، وهو يحاول أن يُقنع نفسه بأنّه مجرّد حلم قطع سيل ذكرياته مع أمايا.

ـ قل لي إنّي أحلم يا سميث! أو في دوار كابوس..

ـ أنت لا تحلم يا آد. أنا سميث، لحمًا ودمًا.

ـ إذن، أنت هو كبير العلماء، سميث؟ عزيزي سميث.

ـ نعم. لا أدري من أين جاؤوني بهذه التسمية! لكنّهم يلقّبونني كذلك. هناك جهة تبتدع الأسماء وترميها بين الناس في القلعة، وعليهم أن

يسيروا على هديها. ما زلتُ كما عرفتني بقلقي وخوفي على الوضع الذي يهزّ العالم بعنف.

لم تتغيَّر كثيرًا يا سميث. بقيت كما أنت، صفصافة عالية، طويلاً ومستقيمًا. سلطان العمر لم يفعل فيك الشيء الكثير. لا بدّ أنّك تستعمل وصفة سرّيَّة لا أحد يعرفها إلّا أنت ولاورا.

لا عمر لنا يا صديقي إلّا ما نصنعه بأنفسنا.

أراد أن يسأله ما الذي جاء به إلى هذا المكان، لكنّه فضّل الصمت.

اعتذر عمّا حصل لك. هذه إجراءات وقائيَّة تأتي أحيانًا بعنف. ينفّذها أحيانًا عسكريُّون بشكل فجّ، لا يحسبون أيّ حساب لحساسيَّة الناس. ثم أنت سيِّد العارفين، نحن في زمن تغيَّر كثيرًا عمّا كنّا نعرفه عنه، وعلينا إمّا أن نتأقلم معه أو نقبل بالموت، لا خيار ثالِثًا.

لكن ما الذي جاء بك إلى هذه القلعة، وأنت الرجل المحبّ للحياة. مكان خال لا علاقة له، لا بنيويورك ولا ببنسلڤانيا؟ أتفهّم طبعًا إذا أردتَ الاحتفاظ بالصمت، لا مشكلة.

ليست معلومات عسكريَّة، ولكنَّها حياة عامَّة. كنت في التقاعد، ولكن كما تعرف، من هو في عملنا لا يحقّ له ذلك أبدًا ما دام عقله سالمًا. خُلقنا لنستمرّ ما دام الجسد يسعف.

- جيِّد يا عزيزي.

- البقاء هنا بلا وقاية، ولو أنَّ كلّ شيء مُراقَب غير محبّب. أنا أعرف مشروعك، مشروعنا جيِّدًا. ولعك بالبحث النوويّ وخياراتك الكبيرة. قمت بالمستحيل لكي يحموك من أيّ أذى. فقدنا ثلاثة حرّاس مقابل إنقاذك، وهذا يبيِّن أنّك لست رجلاً هيِّنًا، وسلامتك تهمّنا جميعًا.

ـ أعرف. قيل لي هذا الكلام. أحمل على ظهري حياة ثلاثة حرّاس.

ـ ربَّما أنت لا تعرف أنَّه في اللحظة التي كان *التنظيم* يريد اختطافك، كانت جهة غامضة أخرى تريد اغتيالك في باريس مباشرة، بعد نزولك من المطار والذهاب لرؤية والدك في *فال دو غراس*. يرجّح أن تكون فرقة شادو[1] من ورائها، وهي نفسها التي اغتالت علماء من آرابيا، آخرين. في اللحظة نفسها، كانت قوّاتنا ترابط في المكان نفسه. قتل الحرّاس الثلاثة الذين ارتموا عليك، لكنّنا قتلنا شخصين من *التنظيم*، وألقينا القبض على الثالث. حاولنا أن نقتفي الجهة المجهولة التي كانت تتصيَّدك في المكان نفسه، لكنْ مُحيت كلُّ آثارها. تملك وسائل التمويه الأكثر تطوُّرًا وشبكة تواطؤ كبيرة. قمنا بما استطعناه. زوجتك كان لها حظّ التخفّي وراء حافلة الخطوط الجوّيّة الفرنسيَّة التي كانت تستعدّ للتوقُّف.

ـ أخبروني عن بعض التفاصيل على متن سفينة الأسطول الحربيّ.

ـ طلبتك لغرض واضح يا آد. إذا أردت أن تواصل جهودك هنا، فالمخبر تحت تصرُّفك، فقد تمّ نقل كلّ ما نحتاج إليه هنا في عملنا المخبريّ لتطوير جهود قنبلة الجيب. ولك أن تبقى، بطبيعة الحال، في مكانك محميًّا حتى ينسحب الخطر الذي يتهدَّدك نهائيًّا.

ـ حتى أكون صادقًا، اشتقت إلى أمايا وإلى ابنتي يونا. افتقدت حياتي البسيطة والطبيعيَّة في بنسلفانيا. فكَّرنا أنا وأمايا وابنتنا يونا أن نذهب لنعيش في نيويورك.

ـ معك حقّ. أنا، أيضًا، لا أبيع حياتي البسيطة بأيّ ثمن. لكنّنا اليوم في حرب ضدّ *التنظيم*. خطر يتهدَّد الجميع الصغير والكبير وكلّ

(١) Shadow من الإنجليزيّة، وتعني الظلّ.

الأمم القويَّة والضعيفة. أنت تعرف جيِّدًا ماذا فعل في البشريَّة وفي ارابيا التي جاء منها والدك وأجدادك، وكيف مزَّقها وأرجعها إلى التخلُّف المدقع!

- افهم من هذا أنَّ القرار قد اتُّخذ؟ هل لي خيار؟

- طبعًا يا عزيزي آد. لا شيء يجبرك. وجودك معي يحميك من الكثير من المشكلات التي تفرضها قوانين القلعة. سنعمل، إذا شئت، معًا، كما كنّا قبل زمن في المخبر الذي غيَّرناه مع وليام الذي ظلَّ مصرًّا عليك حتى النهاية. حتى عندما غبت في آرابيا الغربيَّة، ظلَّ ملحًّا على استردادك، لأنّه يعرف قيمتك. طبعًا لم يكن يعلم، وأنت في آرابيا الغربيَّة، أنّك اشتغلت مترجمًا في الميناء وخبّازًا مع والدك. لو عرف لكان انتحر... هههههه.

- كانت نيَّتي صادقة للبقاء في آرابيا الغربيَّة التي تمزَّقت إلى مقاطعات كثيرة. لكنَّ والدي كان مثل وليام ديك الطيِّب، لا يريدني أن أبقى هناك وأن أعود إلى عملي. على كلّ، أشكرك، لأنك لأوَّل مرَّة أحسستني أنّي موجود، وأنّي لست مجرَّد شخصيَّة افتراضيَّة، في قلعة افتراضيَّة أيضًا.

- أنت عالم كبير يا بروفسور آد. والكثير يحسدونك على ما توصّلت إليه في أبحاثك، وليس عبثًا أن ترشّحك مؤسّستنا ومؤسّسات علميَّة أخرى عبر العالم، من التي تعرف جهودك الكبيرة، لجائزة نوبل. يعرفون أنّك ما زلت حيًّا، ولكنّك لظروف خاصَّة بك اختفيت عن الأنظار.

ثم أخرج سميث كومة من الجرائد من درج الخزانة البيضاء الوحيدة في الزاوية. أراه سلسلة من العناوين الجميلة التي تقدِّر عمله، حتى وهو غائب منذ سنوات: *مؤسَّسة الأبحاث الاستشرافيَّة الأميركيَّة*

تتحدّى القتلة، وترشّح العالم الكبير آدم غريب إلى نوبل للفيزياء. عنوان آخر: *العالِم آدم غريب في مأمن، يزاول أبحاثه وهو المرشّح رقم واحد في الفيزياء، لأبحاثه الإنسانيّة في المجال النوويّ.* ثم صحيفة أخرى متخصّصة في الأبحاث النوويّة أتوميك ريسرش: *الباحث النوويّ الكبير آدم غريب مصرّ على الذهاب في مهمّته لتطوير بوكيت بومب، التي أيّدها آلاف العلماء لردع طغيان التنظيم.* عنوان آخر: *مخترع البوكيت ـ بومب يعود لمزاولة أبحاثه العلميّة في مكان سرّي في أميركا...*

كان آدم وسط دوار غريب، وحده من كان يشعر بقوّة جاذبيّته اندهش من كلّ المعلومات التي سمعها من سميث، لم يكن يتصوّرها أبدًا. كان يظنّ أنّه نُسِي في قفره الرمليّ الذي سيق إليه عنوة، وفي كل توقُّف كان يظنّ بأنّها النهاية، وأنّه سيُقتل هناك داخل الصمت والعزلة وسيُرمى في حفرة أو في بالوعة، أو تأكله القطط والذئاب الجائعة. فقد اشتغل دائمًا وفق حواسّه الأساسيّة التي جاءته من جدّه الأوّل. *رماد.*

ـ أقدّرك كثيرًا يا سميث، وأثق فيك بشكل أعمى، لهذا وضعتني أمام إشكال كبير. أحتاج إلى بعض الوقت. أشكرك بحبٍّ على وفائك وطيبتك الكبيرة، وعلى أنّك أخرجتني من عزلة العدميّة التي قاومتها حتى اللحظة بالرياضة والتقوقع داخل الذاكرة. صحيح أنّنا لا نعيد خلق العالم، لكنّنا نغيّره ويغيّرنا أيضًا وفق معاييره والعصر الذي نعيشه. أنت تعرف ظروفي الخاصّة؟ أنا جيء بي إلى هنا بالقوّة بشكل يشبه الاختطاف. لو خُيِّرت لبقيت في المكان الذي كنت فيه، على الأقلّ أرى والدي قبل أن يسرقه الموت. كيف يمكن أن نشتغل في ظلّ الكراهيّة؟ انظر إلى الشعار البائس عند مدخل القلعة: *العربيّ*

أنقذتَ يا آد ولم تُختطف يا عزيزي. صدّقني. بالنسبة للشعار، هو شديد السخف وقد نُزع. تمنّيت أن لا تراه.. لكنْ، حدث. ومعنا أرابيّون كثيرون في مخابرنا ومخازننا، وهم نعم المنضبطين، كما الهنود والأسيويّون واللاتينو، والإرلنديّون، وغيرهم، هذه التعدُّديَّة هي التي تصنع أميركا اليوم، ولا أحد أفضل من الآخر. ليتل بروز لا يقصدك أنت بالذات، في أعماقه، لكنّه يقصد *التنظيم*.

طبعًا أصدّقك. أنا أتحدَّث فقط عن إحساس داخليّ عميق.

- المشكل أنّك غادرت بنسلفانيا، ولم تتصوَّر المخاطر التي كانت تتهدَّدك. لم تتّخذ أيّ إجراء وقائيّ. أنت لم تعد مُلْكًا لنفسك يا آد. كلّ من في مكانتك هو ليس مُلْكًا لنفسه. أعرف كلّ شيء، ولا أريد أن أثقل عليك. حرّيّتك هي كلّ شيء.

- قلبي مجروح يا سميث. لقد سرق هذا القفر جزءًا من حياتي. أحيانًا وأنا أتأمّل هذا المدّ المخيف، أتذكّر الربع الخالي أو صحراء التتار. حُرمت من أختي الوحيدة، تالا. تنام اليوم في مستشفى الأمراض العقليَّة، منذ فقدان والدي واستيلاء زوجها على المخبزة التي كانت تعيش بها وتعيّش الكثير من أبناء الجبل. وحُرمت من حبيبتي أمايا بغير حقّ، ومن يونا ابنتي، التي لم أنعم بالحديث إليها والفرح بها. أحتاج يا سميث إلى قليل من الوقت لترميم هذا الكسر العميق الذي أفقدني، أو كاد، الثقة في كلّ ما يحيط بي.

- أفهمك. وأتمنّى لك كلّ الخير. أُدرك حجم المعاناة الداخليَّة. أمايا امرأة عالية. صورة جدّها يماغوشي جابت العالم، وعلّمتنا الكثير، وحذّرتنا من الانحدار الدائم نحو جهنّم الأسلحة الذرّيَّة. أتذكّر كلماتها الصادقة: *أنتم ترمون قنابلكم الإشعاعيَّة ونحن نداوي من*

أصيبوا بإشعاعات قنابلكم. أليست هذه جملتها كلّما خرجنا إلى المضمار حتى بعد إصابتك؟ أنت عزيز وأنا أفهمك. الصداقة هي ماء الحياة. أنا من طلب رؤيتك، وأقنعت الكثيرين حتى خارج هذا المكان بأن نواصل أبحاثنا هنا، وكلّ الوسائل متوافرة. أنت تعرف أنّ *التنظيم* وصل إلى درجة من الجريمة والذكاء أصبح فيها يهدّد الأرض برمّتها. ثم أنت تعرف أنّ العالم تغيَّر رأسا على عقب انفجرت خرائطه وتمزَّقت بقوَّة. انظر قليلاً من حولك. أكاد لا أعرف: هل أقف ضدّ هذا العالم أم أحاول أن أفهمه. أفهم ماذا؟ شيء ما، ما أكاد أصل إليه حتى ينطفئ من أمامي كالفقّاعة، كما لو أنّه لم يكن موجودًا. أميركا الجديدة لها أيضًا معاناتها وقلقها الكبير. تخيَّل ثلاث قوميّات كبيرة بدأت تتنافر بعنف، ويكره بعضها بعضًا: الزنوج واللاتينو والأوروبيُّون. لحمة واحدة كوَّنها التاريخ المشترك وحلم الحياة على أرض واحدة، على مدار السنوات المتتالية، فجأة دخلها هي أيضًا ربيع الموت الذي مسَّ كلّ الدول، فأحرقها من داخلها. ربَّما تكون البشريَّة اليوم بصدد صناعة تاريخ جديد لم تعرفه من قبل! لكنَّ الأمر يتجاوزني أنا، من كَبُر في أميركا متعدِّدة ومتسامحة على الرَّغم من مشاكلها؟

- في آرابيا أيضًا، حروب طاحنة مزَّقتها وقتلتها. بدأت بتمزُّق محدود، إثنيّ أو قبليّ أو عرقيّ أو لغويّ، قبل أن يتحوَّل إلى حرب عبثيَّة بلا نهاية. داخل هيكل آرابيا، هناك أرابيات، شيعة وسُنّة، دروز وأرمن، وأكراد وأمازيغ، لم يُعترف لهم بأيّ حقّ، الباقي يقفون على أرض هشَّة. الفرق بين آرابيا والعالم الآخر، هي أنّ الثاني على الرَّغم من العنف هناك إصغاء لحلّ المعضلات، كما في بلجيكا وسويسرا وإيطاليا وكندا والهند وباكستان، وفرنسا وأميركا والصين وروسيا

وغيرها. لكنَّ آرابيا لم تمنح فرصة تأمُّل وضعها بسبب جنون حكّامها وأطماعهم وإخفاقهم. كلّما زادت الحروب كثافة، والفقر توغُّلاً، أصبح التفكُّك سريعًا وكبيرًا، ومن الصعب التحكُّم فيه.

لقد أصبحنا داخل عالم يموت وينشأ من جديد، بسرعة متواترة. آرابيا أصبحت آرابيّات متقاتلة، كما قلت! إلى أين ستذهب؟ إلى أيَّة واحدة وبأيّ جواز؟ البارحة أكثر من ٥٠٠ ضحيَّة على ضفاف سدّ الماريشال، بسبب الأنانيَّة وشحّ الماء. عندما يغيب العقل يحلُّ محلّه الجنون ثم العدميَّة. فيركض الإنسان الذي ماتت دولته، نحو الطائفة. عندما تتفكّك هذه الأخيرة يلتفت نحو القبيلة، وإذا ما انهارت، وجد صفاءه في العائلة الكبيرة، التي عندما تغيب يعود إلى نفسه، فيدخل إمّا في العزلة أو يصبح سجين البؤس والأنانيَّة والنزعة الحيوانيَّة. الإنسان كائن يبحث بلا توقُّف عن الأمان.

- وحده الذئب يبحث عن حرّيَّته. يتأقلم مع كلّ الصعوبات. فيّ شيء يشبه الذئب. يمكنني أن أكتفي باللّامكان. أسكن تحت شجرة أو في عمقها إذا كانت مجوَّفة، وأضع يدي في يد أمايا وننتظر موتنا الآتي. لا يهمّ المكان.

- لا أريد لك هذا العالم يا آد. أنت أكبر من هذه السهولة كلّها. عالِمٌ آخر أكبر وأنبل ينتظرك، وينتظر منك الكثير. ربَّما ما نقوم به اليوم، يمكنه أن يحفظ البشريَّة مُسْتَقْبَلًا من تلف أكيد. لهذا ثقتي فيك أكثر من كبيرة، عمياء. بدونك سيموت المشروع، ولن تُكتب له الحياة أبدًا.

ضغط سميث على الزرّ، ثم احتضن من جديد آدم، وهو يتمتم في أذنه:

- فكِّر جيِّدًا يا آدم. فكِّر. أرجوك أن تفكِّر.

عادت الشابَّة نفسها بابتسامتها الأنيقة. تمتمت، بالكاد سمع صوتها:

ـ اتبعي بروفسور آدم. أتمنّى أن يكون كلّ شيء قد مرّ على ما يرام.

ـ جيّد يا كاتيا. شكرًا لكِ. حضورك مريح جدًّا.

ـ من ذوقك بروفسور.

قادته نحو الغرفة المجاورة. انتظرته حتى ارتدى اللباس المضاد للإشعاعات، ثم تركته بيد الرجل الذي يلبس الأسود، الذي كان قد قاده إلى هذا المكان. هو بهيئته المعدنيَّة نفسها وقامته المديدة.

عندما همَّ آدم بالمغادرة النهائيَّة، التفت نحو سميث، لم يره. كان قد انطفأ، فصلت بينهما بسرعة الكثير من الحيطان والأبواب الثقيلة وشديدة السمك، لكنَّه رأى بقايا ابتساماته الأنيقة والهادئة، وهي ترتسم على وجهه الذي اخترقته خطوط السنوات التي مرَّت. لا يعرف إذا ما كان سيعود لأبحاثه، لكنَّه يعرف جيّدًا أنَّه لا يمكنه أن يعيش في اللّامعنى. العدميَّة مقتله.

أحنى رأسه قليلاً، ثم سلَّم نفسه للرجل الذي كان يلبس الأسود، ويتحرَّك بشكل آليّ، ليغيب به في أعماق دهاليز البناية القديمة، في الجهة الشماليَّة من القلعة.

٣ ــ كوابيس أمايا

المثاليّة عندما تتسلّح تخسر نبلها، وتصبح قاتلة.

أمايا محاورة مع آدم

ـ ١ ـ

جرى سميث قليلاً، ولكنَّه، في النهاية، استسلم لسرعة الإيقاع الذي فرضه آدم.

خفَّف آدم من سرعته. عندما لحق به سميث، كان ريقه قد نشف، وغرق في عرق بارد.

ـ واوووو ارحمني يا آد. قتلتني. من يستطيع أن يجاريك. صحيح أنَّ انكسارَ الكاحل والانزلاق الغضروفيَّ منعاك من أن تكون بطلاً أولمبيًا، أو عالميًا، لكنْ أمامك نحن لا شيء يا عزيزي! انقطعت أنفاسي، وأنا أحاول أن ألحق بك. بعدها شعرت بالفعل بأنَّ العمليَّة عبثيَّة. صدري ليس صدرك، وأنفاسي ليست أنفاسك.

انحنى آدم بظهره قليلاً إلى الأمام وهو يشدُّ على ركبتيه. مشى قليلاً بخطى وئيدة. أخذ نَفَسًا عميقًا، كما يفعل عادة عندما يكون المضمار طويلاً، ثم استقام من جديد، وكأنّ الجري في عرض المدرَّج القديم لم يترك فيه أيّ أثر، وكأنّه لم يجر أبدًا كلّ تلك المسافة التي لا تقلّ عن أربعة كيلومترات. لم تقلّل من نَفَسه، باستثناء بعض خطوط

العرق التي ارتسمت على جبهته. رأى وجوه كلّ أصدقائه بمن فيهم سيف. فقد ظلّ سيف غامضًا، في السنة التي سبقت غيابه النهائيّ من المضمار، ثم من جامعة بنسلفانيا. قيل إنّه ارتحل إلى بيشاور، وانتمى إلى مركز عسكريّ لإنتاج المتفجّرات شديدة المفعول. كان لطيفًا، لكنّه مع إخفاقه في الوصول إلى مخبر الرياضيّات التطبيقيّة، على الرّغم من تفوّقه في العلوم الدقيقة التي كان متميّزًا فيها، شعر بغبن كبير. كأنّه ضُرب بخنجر في الصميم. انتمى إلى شركة محاسبة، وترك الدراسة، لكنّه لم يترك الرياضة أيّام الأربعاء والآحاد صباحًا والإثنين والأربعاء مساء. فجأة، لم يعُدْ يُرى في المضمار التابع للجامعة. غادر فجأة، ولم يترك وراءه أيّة علامة تدلّ على مكانه.

سألت عنه كثيرًا، لكنْ لا شيء يدلّ على أنّه كان في المكان أو قريبًا منه. حتى الأصدقاء المقرّبون لم يترك لهم أيّة علامة تقودهم نحوه، ممّا يعني أنّه اختار أن يغيّر المكان والأصدقاء. لكنّه كان يقف دائمًا بندّيّة معي في السباق، ويوم سقطتُ وانكسر كاحلي مع انزلاق غضروفيّ حادّ، وأبدت التحليلات بأنّ علاقتي مع الرياضة انتهت. زارني في المستشفى وهو يحمل باقة ورد برفقة صديقته الباكستانيّة نسرين، وقال: الحمد لله على سلامتك يا عزيزي آدم. لكنْ عليك أن تقبل بهذا الشيء. لا يمكن أن تكون الأوّل في كلّ شيء. تخرّجك الأوّل في الدفعة سهّل انتماءك إلى المخبر، لكنْ في السباق كنت الأوّل والآن عليك أن تتحمّل أن تكون الأخير. ضحك. ضحكتُ. لكن نسرين خجلت، وتعمّق لون بشرتها الخمريّ، احتجّت: لماذا تقول هذا يا سيف؟ سيعود وسيكون هو الأوّل. ولأنّي أعرف أنّ سيف حادّ المزاج، تدخّلت: عاديّ. المشكلة ليست في الأوّل أو الأخير، ولكنْ في المثابرة فقط. وسأثابر، لأنّ الرياضة، والجري تحديدًا.

مهمّة بالخصوص نحن المعرَّضين لكلّ المخاطر الحديثة. إلى اليوم، لا أعرف مدى مزاحه، لكنّ الجملة بقيت في ذاكرتي كأنّها كانت تنبئ بسفينة مبطّنة. عندما خرجت من المستشفى متكئًا على عصا حديديّة، انتظرته لأبارك له بزواجه من نسرين، أحد الأصدقاء أخبرني بذلك، حين قيل لي لاحقًا بأنّه سافر إلى باكستان، ومن يومها لم أسمع عنه أيّ شيء.

- أنا أقول لك تعبت وأنا أركض وراءك، وأنت غارق في أحلامك.

مازحه سميث وهو يمدّ له يده، ليخرجه من غفوته:

- ههههه.. هل تذكر كم كنّا نقطع في المسافة الواحدة بلا توقُّف؟
- من خمسة إلى سبعة كيلومترات؟ لكنْ يا حبيبي أعطني خمسًا وعشرين سنة، وسأنافسك كما كنّا نفعل.
- هذه ثلاثة كيلومترات فقط. غدًا سنرفع الوتيرة، ربَّما لخمسة.
- معناه أنّك تريد أن تبقى وحدك. أنت بطل، أمّا نحن مجرَّد أُناس بسطاء أمامك.
- تستطيع يا سميث أن تقول عنّي بطلاً فاشلاً. كان يمكن اليوم أن لا تراني إلّا على الملاعب العالميَّة الكبيرة، وتقول لأبنائك المحيطين بك: *ذاك البطل صديقي. درس معي في الجامعة نفسها*، وتخرج كلّ صورك القديمة.. ههههه. سوء حظّك أنّك عبرت العالم لتجد نفسك في قلعة معزولة وجهًا لوجه معه مرَّة أخرى. أينما ولَّيت وجهك فثمَّة وجه آدم صديقك.. ههههه.
- كان يمكن لولا ذلك الكسر الجميل الذي أبقاك معنا نهائيًا، وجعلك تختار الفيزياء بدل الرياضة التي تستطيع أن تمارسها متى بدا لك، لكنّ العلم إذا ضاع منك رأس الخيط، انتهى كلّ شيء، وتضيع منك هذه الدنيا، ولفقدنا آثارك نهائيًا. الحظّ أحيانًا يضبط الأمور بدقّة.

ـ كان يمكن وقتها أن أكون أوّل بطل عالميّ أو أولمبيّ في فريق ألعاب القوى الأميركيّ، وأكون أوّل شخص أبيض يحصل على هذا التشريف، إذ لا أحد ينافس الأميركان السود والأفارقة في هذا.

ـ أجمل شيء أنّهم حطّموا أسطورة هتلر المبنيّة على انتصار العنصر الأبيض. بؤس!

ـ أجمل من يفضح أكذوبة القوّة والعنصريّة هي الرياضة.

ـ اتّصل بي اليوم الميجور توني نيلسون، يريد أن يشترك معنا في الجري والمشي، هل لديك مانع؟ دعيته ليكون معنا في المضمار. هو عضو جديد في مختبرنا. سنده سيكون مهمًّا.

ـ ربّما كان أجمل شيء في المجتمع الأميركيّ هو أنّ قيمة الإنسان تتحدّد بجهوده لا بأصله. في هذا، تختلف أميركا عن أوروبا التي لم تتخلّص من فكرة الأصول. هل يستطيع الميجور توني أن يُقاوم ضيق التنفُّس في هذا المكان المليء بالرمال والغبار الأصفر؟

ـ شابّ، بنيته قويّة. انتمى للجيش في وقت مبكّر وحُوّل نحو تخصُّصه الأساسيّ. كان في مختبر الأبحاث المتخصّص في الطبّ النوويّ العسكريّ، قبل أن تقذف به الأقدار إلى هذه القلعة. فريق العمل أصبح مكتملاً به. الأجهزة التجريبيّة التي طلبناها وصلت كلّها، وتمّ تركيبها. وثائقنا كلُّها هنا، كما تركتها آخر مرّة في بنسلڤانيا. نحن سنبدأ في ترتيبات العمل الأوّليّة، في انتظار قرارك، الذي لن يتأخّر. متأكّد من أنّك ستقبل. تلقّيت اليوم خبرًا سارًّا وهو ما قادني إليك. لقد وافقوا على طلب لقائك بزوجتك. يدرسون فقط الطريقة. لأنّ المنطقة بعيدة وفيها بعض الخطورة، إذ يمكن للإنسان أن يتوه فيها بسهولة، ناهيك عن كونها منطقة شبه سرّيّة. يمكنك أن تقول ما في قلبك في هذا المدرّج القديم، لا حائط ولا مطر ولا غيوم، ولا

آلات تنصُّت، يصعب على أيٍّ أن يلتقط كلامنا.

الماريشال ليتل بروز؟ منذ الذكرى المئويَّة لميلاد جدِّه بيغ برودر، لم يعد يظهر كثيرًا إلَّا من خلال شاشة تبثّ خطابه الأخير وشعاراته المتكرِّرة.

ربّما يكون الجنرال دافيد حيون دوغلاس، اسمه الحقيقيّ، قد مرض. في النهاية هو إنسان كبقيَّة البشر. أعتقد أنَّه في مصحَّة القلعة لإجراء عمليَّة حسَّاسة، في القولون. بعضهم يقول في البروستات. هناك من يؤكِّد أنَّ العمليَّة حسَّاسة، في المسالك البوليَّة، بل هناك من لا يحبّه، يذهب إلى أبعد من ذلك.

- بعني؟

تساءل آدم، وهو يكتم شيئًا في أعماقه:

- أنا لا أعرف، ولكنّي أشفق على حالته كثيرًا. وجد نفسه في زمن غير زمانه. يُقال إنّه أجرى عمليَّة تركيب ذكر حقيقيّ، لأنَّه، كما يقولون، يسيِّر أموره البيولوجيَّة بذكر اصطناعيّ.

لم يتمالك آدم نفسه من الضحك؛ ولكنَّه تدارك الموقف في الثانية نفسها.

- طبعًا، أنا أيضًا أعطف على حالته، لكنّي لا أصدِّق. أظنُّ أنَّها دعايات ألَّفها ضدَّه أعداؤه.

- وأنا أيضًا لا أصدِّق. يقولون إنَّه يوم فقد رجله وذراعه في الرماديّ بسبب انفجار صهريج الشاحنة المحمَّلة بالنفط، فقَدَ أيضًا الذكر والخصيتين. لا أحد يعرف مكانه حتى اللحظة التي أحدِّثك فيها.

- هل يُعقل؟ من المانح؟

- ههههه.. أنت مجنون. لا يوجد مانح. ربَّما أحد الذين توفُّوا وتمكّن

المستشفى من الاستفادة من أعضائه. المستشفى والمصحّة الخاصة يقومان بهذه العمليّات لجنودنا الجرحى. ألم يطلب منك إذن الاستفادة من أعضائك في حالة الموت الإكلينيكي؟ الماريشال قام بهذا مع كلّ الجنود والمقيمين، بمن فيهم هو، ليكون المثال الأوّل.

ـ لم يطلب منّي. لكنّي ذهبت بنفسي نحو العيادة المختصّة في مستشفى القلعة، وقمت بذلك، ووقّعت على الوثيقة الخاصّة. أفضّل أن يصلح جسدي لشيء، على أن يستمتع به الدود في خلاء موحش مثل القلعة.

ضحك سميث، وهو يستمع لكلام آدم بانتباه.

ـ أرأيت؟ للماريشال أفكار مهمّة أحيانًا. على الرَّغم ممّا يبدو عليه من تشدُّد وصرامة، فهو من سلالة مقاومة. أهله أبادتهم النازيّة كلّيًا. شارك بعض أجداده الأوائل في حرب الانفصال، حتى إنّ أحدهم، لحظة إطلاق النار، كان يقف وراء أبراهام لينكولن[1] مباشرة، حين مغادرة هذا الأخير مسرح فورد[2] برفقة زوجته، بعد أن شاهد مسرحيّة: *ابن عمّنا الأميركيّ*[3]. كان أوّل من احتضنه إلى صدره حتى امتلأ لباسه دمًا. وظلّ محتفظًا باللباس، وورّثه للأهل ليعرفوا علاقتهم الوثيقة بكلّ ما يخدم الخير في أميركا. واستلم اللباس والده الذي قُتل في الرماديّ، بينما فقد هو يده اليسرى ورجله اليمنى، كان يمكن أن يموت لولا الإنقاذ السريع وجلوسه في الكراسي الخلفيّة. الماريشال رفض الاحتفاظ بلباس لينكولن الملطّخ بدمه، وسلّمه لمتحف التاريخ الأميركيّ.

---

(1) Lincoln

(2) Ford Theater

(3) Our American Cousin

صمت آدم قليلاً، قبل أن يجيب:

- كلّ هذا وقع لليتل بروز؟ أنا لا أفهم حقيقة! كيف يمكن لشخص عاش هذه القسوة كلّها، أن يكون قاسيًا مع الآخرين وغير رحيم أبدًا، ويراقب أنفاسهم وحركاتهم؟ كيف يتحوّل أحيانًا المجروح والمقتول إلى مجرم محترف، لا يرحم حتى نفسه؟

- يحدث هذا. مشكلة الماريشال، أعتقد أنّها نفسيَّة. فهو يحمّل سكّان آرابيا ما حدث له. يجد أحيانًا مبرِّرات كثيرة للنازيَّة التي اقتادت أهله للمحتشدات، حتى اتُّهم بمعاداة الساميَّة، لكنَّه لا يجدها للآرابيين. ينتقم ضدّ كلّ من لا يشبهه. لكنَّه أيضًا منفِّذ أوامر أعمى. مولع بالقوَّة، ويرى في بيغ بروذر قدوته الدائمة.

- أنا أستغرب أحيانًا ماذا يفعل هذا النوع من البشر في أماكن حسَّاسة مثل هذه!

- طبعًا، الأسباب كثيرة، لكنْ لا تنس أنَّه جنرال، وأنَّ تاريخه ليس بسيطًا. لكنَّه لا يستطيع أن يفعل ما يشاء، وإلَّا لقتل نصف سكّان القلعة المختلطة من أصول لاتينو وهنود وعرب وغيرهم... هههههه. له مقولة في *التنظيم*، سمعت أنَّها مقولة عربيَّة، هو لا يعرف أنَّها كذلك، وإلَّا لكان ألغاها: *أفطرُ به قبل ما يتعشّى بي*. مقاومته المستميتة للإرهاب هي التي جعلته في هذا المكان. الجميع يعرف أنَّه عنصريٌّ، ويريد السلطة، بل يستميت من أجلها، ويحلم أن يموت ماريشالاً. فيه الكثير من جنون موسوليني. لكنَّه أيضًا، جعل من هذه القلعة قاعدة متقدِّمة ضدّ الإرهاب، وحماية المصالح الطاقويَّة لأميركا وفيدراليّات أوروبا. ربَّما يحتاج هذا المكان الخطير والمعزول إلى رجل مثله. لا أحد يراه أو يعرفه إلَّا القيادات العليا التي وضعته في هذا المنصب. وهذه واحدة من نقاط قوَّته. لا يريد

أن يراه الناس مبتورًا. يقول الذين عرفوه عن قرب، إنّه كان دائمًا يظهر كاملاً برجله اليمنى ويده اليسرى، الاصطناعيّتين، في المناسبات الرسميَّة، وبلباسه العسكريّ. يقول إنَّه لا يريد أن يمنح أعداءه فرصة التشفّي فيه.

- تخيَّل وصل به الجنون أنَّه كان يشرِّبني محلولاً قاتلاً على الأمد الطويل، أو على الأقلّ هذا ما فهمته لاحقًا. لم يكن بسيطًا. رقابته تدخل في كلّ تفاصيل العظم. أفهم الرقابة المتشدّدة في مكان حيويّ كهذا، لكنَّها عندما تتخطّى حدًّا معيَّنًا تصبح بلادة. أحيانًا، كنت أشعر كأنّه يريد فقط إظهار قوّته، وفي أخرى ينتابني إحساس غريب برغبته الضامرة في التخلُّص منّي نهائيًّا.

- يجب فهم رغبته المبطَّنة بأن يظلّ مُعْتَرفًا به، ككلّ الأقوياء.

- هل هناك عاقل يسجِّل هذا الشعار البائس: *العربيُّ الجيِّد هو العربيُّ الميِّت!* في صحراء معزولة، ويدَّعي بأنَّه وجده هنا؟ وكلّ الصور القديمة للقلعة تُبيِّن خلوَّ المكان من هذا الشعار الذي يبكينا عن صغار بعض العقول! وأعتقد أنَّه لولا تدخُّلك لكان لعنة لأميركا، وليس له فقط. بلاد هرب نحوها الملايين من البشر بحثًا عن الحرّيَّة، تصبح عنصريَّة بهذا الشكل الصغير؟ أعتقد صراحة أنَّ الماريشال أخطأ عصره.

- أنت قلتها. خارج العصر، لكنَّ القوَّة كلّها ليست بين يديه. كلُّ طلباتي قَبِل بها بلا تردُّد. نبَّهته للشعار من خلال نائبه سير جون، نزعه؛ وعن ضرورة رؤية زوجتك، لم يمانع أيضًا، قال آخذ إذن سفينتي البحر الأحمر ومضيق هرمز، وسيُحَلّ كلّ شيء.

كان سميث يحاول أن يسترجع أنفاسه. بدت مشيته متَّسقة أخيرًا مع مشية آدم.

التحق بهما ميجور توني نيلسون، وهو يركض بخطوات يتقنها ..ذا سود أميركا في الماراتون، بعد أن قام بدورات تسخينيَّة كثيرة. .سده رياضيّ، تبرز عضلاته من التيشورت الذي كان يرتديه. على اسه قبّعة تشبه قبّعات لاعبي البيسبول.

التفت سميث نحو آدم:

اد، أحتاجك. على كلٍّ، عندما تنتهي من الماراتون، أرجو أن تمرَّ عليَّ في المخبر لترى كلّ شيء بنفسك، ولا أضطرّ أن أروي لك دقائق الأمور. سأبعث لك الموظَّفة تأخذك إلى المخبر لتلقي نظرة عليه، بعد أن ترتاح قليلاً وتستحمّ على راحتك.

على كلٍّ، أنت تعرف رأيي في هذا الموضوع. ليس لديَّ طلبات كثيرة.

. أعرفه، لهذا أريدك أن تحضر معنا لترى بعينيك المخبر الذي أصبح جاهزًا كلّيًا للعمل، ونبدأ في النقطة التي توقَّفنا عندها، لأنّ بعدك أشياء كثيرة تغيَّرت. خربشتك كما تسمّيها، قرأتها، وفككت رموزها. ممَّا يعني أنَّك لم تتوقَّف عن العمل والبحث في مشروع *PBPu1* و*PBPp2*..

يُدرك آدم جيِّدًا أنَّه لم يتوقَّف لحظة واحدة. لم يفعل هذا حبًّا في العلم، ولكنْ خوفًا من الموت البليد. خربشته هي كلّ منجزه على مدار الخمس سنوات وأربعة أشهر وعشرة أيّام و٤٣ دقيقة و٢٠ ثانية حتى الآن. حتى ليتل بروز كان يسأله من حين لآخر عن محتوى الأوراق المخربشة. وعندما لا يجد جوابًا شافيًا، يبعثها إلى المخابر المختصَّة، لهذا لم يعترض سبيله. كلَّما سأل عنها البحر الأحمر ومضيق هرمز، قيل له: *هو تحت الرقابة*، لا *مشكلة*. في مرَّة من المرَّات، توغَّل في البحث والسؤال حتى وصل إلى سميث. فأجابه بصراحة بأنَّ هذه

الخربشة قادرة على حمايته، وحماية القلعة من خطر *التنظيم*. ضحا
حتى رسمت خدوده الافتراضيَّة غمَّازتين: *تقصد قنبلة الجيب. لم تع
سرًّا يا عزيزي. الصحافة تحدَّثت عنها كثيرًا*. فأجابه سميث: *مخبر
في بنسلڤانيا سرّي. أتمنَّى فقط أن تكون هذه القنبلة وسيلة سلا
وردع، وليست حربًا، ولن تكون مثل أمِّها الأولى قنبلة هيروشيما*. قال
كمن يدافع عن نفسه: *وهل يُخفى شيء عن الماريشال يا بروفسو
سميث*؟ شعر يومها بأنَّ شيئًا قد تغيَّر في ليتل بروز.

ـ أصبحت تعرفه.

ـ لكنْ، هذا لا يخفي سوءه يا عزيزي سميث.

ـ أتمنَّى أن يحترموا وعودهم. رؤية أمايا، ولو عن طريق الاتِّصا
الصوتيّ والصوريّ ممكن جدًّا، وهذا لا يحتاج إلى إذن عسكريّ
ولا يخضع كلِّيًّا لإرادة ليتل بروز، يتجاوزه. صدِّقني. الذي يحادثك
صديقك الذي يعرفك أفضل من أيّ شخص آخر. زوجتك ستراها
مهما كانت الظروف، أو على الأقلّ تطمئنّ عليها وتحادثها. عندما
نعود إلى بنسلڤانيا يجب أن تنصب لأمايا تمثالاً من رخام في بيتك،
وتنحني أمامه كلّ صباح حتى آخر أيَّامك. هي التي أعادتك إلى
البحث والالتحاق بالمخبر، وهي التي حمتك ونزلت إلى باريس
لإدخال والدك إلى مستشفى فال دو غراس. هي أيضًا من أخبرني
بسفرك، ولولاها لما عرفت أينك، فأنت لم تخبر أحدًا. ممَّا سمح
للشرطة الفرنسيَّة والأميركيَّة بالوصول قبل القتلة السرِّيِّين *والتنظيم*.
التنظيم خطير كان يريد أن يساوم بك. بالخصوص مع قائده الجديد
الكوربو، لأنَّ السابق قتلته طائرة بدون طيَّار، بصاروخ موجَّه بدقَّة.

ـ *الكوربو* آلة خطيرة قادرة على الفتك بكلّ شيء بحسب ما تحكيه
الصحافة.

أدري من أين خرج الكوربو؟ كلّ ظالم مصيره الموت الحتميّ. أصبح *التنظيم* معروفًا بتوقيعاته على أجساد الضحايا بوضع علامة الصليب على صدر المقتول والكتابة تحتها: *التنظيم*. وآية قرآنيّة: *«أعدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رِباطِ الخيلِ تُرْهِبُونَ به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم»*[1].

على أيّ حال، لا تنس أن تمرّ عليّ في المخبر. هل اتّصلت بك فرقة الخبراء الذين كانوا يودّون رؤيتك؟ هم في إقامة غيست العابرين، ليس بعيدًا عن غرفتك، في الجناح الجنوبيّ من القلعة.

اتصلوا بي من الغرفة البيضاء وأُعطيت موافقتي لرؤيتهم، سأراهم غدًا في حديقة القلعة الجنوبيّة. هكذا اتّفقنا. لا أعرف بالضبط ماذا يريدون، ولا سبب مجيئهم.

ربّما يريدون استشارات عن المكان.

معهم شخصيّة دوليّة من أنصار محاربة التلوُّث البيئي.

فهمت. لا بدّ أن يكون تأثير الصحافة حول البوكيت - بومب هو ما جاء بها إلى هنا. الصحافة تكلّمت كثيرًا، بالخصوص الصحافة الإلكترونيّة.

الصحافة مجنونة، تبيع جلد الدب قبل قتله. ما زلت متردّدًا.

لأنّك متردّد، سيحاولون التأثير عليك ودفعك إلى التراجع.

ربّما كانوا على حقّ!

وربّما كانوا أيضًا على غير حقّ. قبل قليل، كنت أتحدّث عن مجرم محترف، كوّن وراءه قطيعًا من الضباع الضالّة. كيف لنا بحماية الناس من بطشه وجرائمه. أعرف أنّ المسألة ستوزن بالميزان

---

(1) سورة الأنفال، آية ٦٠.

الأخلاقيّ. المحافظة على حياة البشر وممتلكاتهم هي أخلاق أبدًا وأخلاق أساسيّة.

- لكن قنبلة بهذا الحجم الصغير، لا أحد يستطيع أن يتخيَّل نتائجها الوخيمة.

- لسنا في تجارب كروسرودز[1] يا عزيزي. قرن مضى. منظومة الرفاه تطوَّرت كثيرًا.

- لكنَّها يا سميث لم تمنع المخاطر من أن تكبر. أمامك تجربة كاسل برافو[2]، بسبب خطأ في حسابات صغيرة، انتشر الغبار المشعّ على مسافة تجاوزت ١٦٠ كلم، ومسَّت جزر مارشال[3]، وتعرَّض الكثير من السكّان إلى إشعاعات خطيرة نتجت عنها تشوُّهات في الولادات والسرطانات المختلفة. ماذا لو أُطلقتْ على مدينة مكتظَّة بالسكّان، في لحظة جنون؟ هل تتخيَّل ماذا كان سيحدث؟

ربت سميث على كتف آدم بطيبته المعهودة.

فضَّل أن يفكِّر في المضمار برفقة ميجر توني نيلسون، وأن يركز كلّ اهتمامه فيه. لا شيء في المضمار، منافسة سخيَّة تُقاس فيها الجهود والأنفاس وقدرة التحمُّل والتعب وسحر الجسد البشريّ الذي ينام فيه خزّان من الطاقة لا يعرفها الكثيرون. مثل الذرة، تحتاج فقط إلى الوسيلة التي تفتقها ليخرج منها ما يمنح الحياة، إذا كان الرهان في الأصل عليها.

كان آدم يعرف سلفًا أنّ نقاشًا حول القنبلة النوويَّة والمسائل

---

(١) Crossroads. USA. 25 juillet 1946.

(٢) Castle Bravo, essais du 1er mars 1954. Le 02 avril 1954 le premier ministre de l'Inde Jawaharlal Nehru demande un accord d'arrêt des essais nucléaires.

(٣) Les Iles Marshall.

الأخلاقيّة لا ينتهي أبدًا، وأنّ البشريّة لا تتعلّم إلّا قليلاً. في الحروب، كلّ القيم تتغيّر وتتبدّل، ويختلّ جزء من جوهرها، وتفقد من معناها الأصليّ أحيانًا. ما معنى أن يحمل إنسان سلاحًا في الحرب؟ طبعًا للقتل! لكن سيقتل من؟ إنسانًا آخر بطبيعة الحال. الآخر يفعل الشيء نفسه وبالوسائل نفسها من حيث الجوهر، لأنّ الرهان الذي يقوده هو القتل ولا شيء غير القتل. من يرتكب من الاثنين أكبر عدد من المجازر، سينتشي سعادة. لن يتمكّن من النوم من فرط الاحتفالات التي لا تنتهي. سيحمله شعبه على ظهره، ويفرح به، ويُنجز له التماثيل والأعراس. يفرح به لأنّه أرهب العدوّ، وقتل عددًا لا يُحصى منه. في اللحظة نفسها، في ظلّ الحياة المنكسرة، تُقام المنابر من الجهة الأخرى، الجنازات يحضرها الذين انهزموا وخسروا المعركة. عندما يوارى القبر يكون قد وُلد، في الثانية نفسها، خمسون عدوًا جديدًا، يحملون السلاح ويبحثون عن لحظات الانتقام والمعارك التي يثبتون فيها بطولاتهم. لحومهم منذورة للنار وجحيم الحروب، ليخلّدوا أسماءهم على شواهد قبور باردة بعطر وملمس الموت، متشابهة في جملها وخطوطها وشكلها، كأنّ الذين ينامون تحت التراب واحد، مكرّر العديد من المرّات: *هنا ينام*... *سقط في ميدان الشرف في يوم*... بعد خمس سنوات، أو عشر، أو حتى عشرين سنة من الجنون والدم، يُدرك المتقاتلون أنّه آن الأوان للصلح. يصرخون، يناورون، يهدّدون، لكنّهم ينتهون إلى الصلح، وينسى كلّ واحد ضحاياه. تفتح الحياة أبوابها من جديد، ويفرح الناس أخيرًا، بما في ذلك ذوو الشهداء الذين يتصدّرون المسيرات حاملين صور أبطالهم؛ وينتفي مفهوم الوطنيّة، ولا يبقى إلّا الإنسان بكلّ جنونه وشهوته للدم، وخرافاته التي ينتهي إلى تصديقها بسرعة أنّها حقائق.

ـ كأنّ عاصفة ترتسم في السماء. لا يبدو أنَّ الجوّ سيكون جيّدًا هذه الليلة وغدًا. آد عزيزي أتركك. مضطرٌّ للعودة إلى المخبر، وإلّا لتنافست معكما في المشي والقدرة على الصبر والتحمُّل. لا تنس موعدنا.

ـ حاضر عزيزي سميث.

ثم غاب باتّجاه الجهة الشماليَّة للقلعة قبل أن يتوغَّل فيها عميقًا. بينما انطلق آدم وميجر توني نيلسون في حركة بدأت بخطوات صغيرة وثقيلة، لكنَّها سرعان ما تحوَّلت إلى شيء يشبه السباق. عندما التفت سميث نحوهما قبل أن يتَّجه صوب المصاعد، كانا قد غابا نهائيًّا في عمق المدرَّج القديم الذي كبرت الأشجار التي تُحيط بجزئه الخلفيّ ابتلعتهما ظلال الحيطان القديمة، وسرقت ملامحهما وجسديهما، قبل أن يغيبا نهائيًّا، تحت سماء كانت قد تحوَّلت صفرتها إلى لون رماديّ عميق.

ـ ٢ ـ

كان آدم غارقًا في بياض غرفته الجديدة، عندما رنّ التليفون بحدّة.

جملة واحدة كانت كافية.

ـ بروفسور آدم، البعثة العلميَّة وصلت، هي تَحْت.

كان جاهزًا، لا ينتظر إلّا تلك الجملة.

أشياء كثيرة تغيَّرت منذ لقائه الأخير مع سميث. الغرفة أصبحت أوسع، بمطبخ صغير وصالون يمكن استقبال صديق فيه براحة. التليفون أصبح أكثر أناقة على العكس من الأوَّل، كأنّه من بداية القرن التاسع عشر. عندما سُئِل عن اللون الذي يشتهي في غرفته، قال بلا تردُّد الأبيض، لأنَّه يعطي الإحساس بالراحة والاتِّساع. لا علاقة لهذا اللون باللون في الطابق السابع، عند الماريشال الذي يشبه كفنًا مخيفًا. تمامًا مما كان بيته في بنسلفانيا. رأى صورتها الكبيرة التي تحتلّ الجزء العلويّ من الحائط، وتحتها في إطار أصغر، في شكل ثلاث صور طوليَّة: الأولى، يوم ولادتها في طوكيو. الثانية، وهي تلعب بالثلج

عند المحطّة التي استقلّ منها جدُّها قطاره المتّجه من هيروشيما إلى
ناغازاكي. الثالثة، وهي بجانب سور الصين. أمايا كانت تلبس الزهري
كثيرًا وتشتهي هذا اللون. تقول دائمًا هذا لون أمّي، بينما الأبيض لو
أبي. عندما تقف في وسط الغرفة ويتماهى الأبيض في الزهريّ، تبدو
كوردة ملكوتيّة شديدة النعومة والهشاشة. حتى إنّه فكّر في هذا اللون
الزهريّ لغرفته في البداية. لكنّه كان يعرف، أوّلاً أنّه لا لون زهريّ في
هذه القلعة التي تشبه ثكنة قديمة، لأنّ كلّ الألوان من مشتقّات الأبيض
والأسود ودرجة اختلاطهما، الذي ينحو من البياض نحو الرماديّ نحو
الأسود. ثم إنّه كان يعرف سلفًا أنّهم لن ينجزوه كما يريده، هناك
زهريّ من زهريّ. حتى يوم كاد أن يُقتل، في تلك المصيدة الخطيرة،
كانت تلبسه، وكانت تبدو كملاك لولا تلك السرعة الغريبة التي حدث
بها كلّ شيء، وحافلة الخطوط الجوّيّة التي وقفت بينهما. لا يعلم أيّ
حظّ رافقه يومها وأيّة نجمة كانت تحرسه! العمر كلّه يعلق أحيانًا على
شعرة. الطائرة وصلت بأكثر من نصف ساعة، متقدّمة عن توقيتها
المعلن. ربّما لأنّ الجوّ كان جيّدًا، والرياح قليلة، وسرعة البوينغ ٧٤٧
كانت أقوى. هذا ما جعل الكلّ يتأخّرون، ما عدا مجموعة إيف بي
آي FBI مع الأمن الفرنسي، لأنّه كان عليهم مسح المكان أوّلاً،
وربّما نصب قنّاصين في المواقع الحسّاسة، وقراءة كلّ الاحتمالات
بدون إحداث أيّ خلل في مطار شارل دو غول ٢. حتى أمايا التي كان
يُفترض أن تستقبله لحظة خروجه بعد إجراءات العبور العاديّة، رآها
قادمة باتّجاهه، وفي عينيها اعتذار عن أنّها تأخّرت مباشرة بعد خروجها
من باركينغ التوقّف السريع. الثانية أو الدقيقة الفاصلة بين الموت
والحياة. ثم القتلة الغامضون الذين لم يرهم، كانوا يصفّون سيّارتهم
السوداء بعيدًا عن أيّ شكوك، وكأنّها سيّارة رسميّة، رجال *التنظيم*

الذين أُلقي القبض على بعضهم أيضًا، كانوا يستعدُّون لاختطافه حيًّا، لأنهم لو أرادوا قتله لفعلوا وهربوا في الثانية نفسها.

رنّ التليفون ثانية.

هذه المرَّة من محموله. عرف الرقم. مرافقه الجديد. سالم، الذي فرّ من وطنه أيَّام الحرب الأهليَّة التي دامت عشر سنوات، قبل أن تمسُّه حالة التفكُّك التي طالت كلّ أرابيا، بما فيها آرابيا الغربيَّة التي كانت بمنأى عن هذه الصراعات، لتتحوَّل بين يوم وليلة إلى أكثر من عشر دويلات لا شيء يربطها إلَّا الأحقاد والكراهية العرقيَّة واللغويَّة والإثنيَّة، وتاريخ لم ينفع كثيرًا لرتق جراحات الماضي. حتى الطائفيَّة، على الرَّغم من أنَّ آرابيا الغربيَّة عُرفت بطائفتها الواحدة، وهي السُّنِّيَّة المالكيَّة، ولم تحتفظ من الفاطميَّة التي نبتت فيها إلَّا ببعض العلامات التاريخيَّة القديمة. . ليجد سالم نفسه في البحريَّة الأميركيَّة بمساعدة أحد أصدقاء الفيسبوك، يقوم بكلِّ الأعمال الشاقَّة. بنيته الصحراويَّة ساعدته على ذلك. لكنَّه كان لطيفًا مع آدم، وسعيدًا أن يكون مرافقه وقريبًا من حاجاته الضروريَّة.

نزل بسرعة، بدون حتى أن يسأل عن مكان لقائه بضيوف القلعة. عندما أخبره سير جون بأنَ جماعة الأنثروبولوجيين تريد رؤيته والتحدُّث إليه، لم يفكِّر طويلاً. هو يعرف أنَّ هذا تقدير جديد له، إذ لم يكن يُستشار في أيِّ شيء، حتى في الأشياء القريبة منه. وافق بدون أن يسأل عن الغرض، لكنَّه خمَّنه. شعر في أعماقه بالحاجة الكبيرة إلى تنفُّس هواء آخر خارج هذه القلعة، حتى ولو كان من خلال ناس آخرين.

التقى بسالم وهو يتسلَّق الأدراج. مشى وراءه، وفي رأسه حيرة كبيرة لم يستطع مقاومتها.

كيف يستطيع هؤلاء الناس حبّ شيء يأتون باتّجاهه بإرادتهم، في

جوّ كلّه معاداة لهم، وقد يودي بحياتهم، كما حصل للكثيرين الذين ضاعوا في صحراء الربع الخالي؟ هناك شيء في عمق الإنسان مثل الأرض التي تخزّن ماء، يبدو شكلها قاحلاً وجافًا، بمجرَّد أن تتعمّق فيها، يندلع الماء بقوّة وبسخاء كبير.

كما عرفت من رابطة الدفاع عن حقوق الأجناس الآيلة إلى الزوال LIDRAFIC، قدَّموا طلبات عديدة قبل أن تتمّ الموافقة لهم للعبور نحو القبائل التي ما تزال في المنطقة، وقد تمَّ التعدّي على وجودها. يصبح الناس شرسين في كلّ مكان، عندما تُسرق أرضهم ويُقتل شعبهم. أيّة قوّة يملكها هؤلاء الناس لتعريض حياتهم لمخاطر جمَّة في وضع لم يعد كما كان؟ الأب شارل دو فوكو[١]، رجل البرنس الأبيض والصليب الأحمر الذي عُزل من العسكريّة، لأنّه أخذ معه حبيبته إلى مدينته العسكريّة، يوم تمّ تعيينه هناك مع فيلقه في فبراير ١٨٨١ وهو خريّج سانسير[٢]، ويعرف الضوابط العسكريّة. جاء نحو أرض عطشى من كلّ شيء، حتى من الحبّ، وأراد أن يفهمها ليدافع عنها باستقامة. تعلَّم اللغة الطوارقيّة، وترجم الأناجيل إليها، وغضب من ممارسات الجيش الفرنسيّ ضدّ السكّان الفقراء. كوَّن علاقة صداقة كبيرة بينه وبين هوبير ليوتي[٣] في ١٩٠٥. حدث هذا قبل زمن بعيد، حتى قبل أن يكوّن الطوارق دولتهم التي تتقاتل اليوم قبائلها العربيّة، التيفيناغيّة، الإفريقيّة فيما بينها، لأنَّها هي أيضًا خاضعة لضوابط أخرى لا يعرف سرَّها إلّا من يحرّكها. التقى بالأمينوكال[٤] موسى آغ أمستان

---

(١) Charles de Foucauld (1858 Strasbourg-1916 Sahara)

(٢) Saint-Cyr

(٣) Hubert Lyautey

(٤) المرجع أو الرئيس.

المقرَّب من الفرنسيين. فاستقرَّ في الهغار، ثم تامنغاست، وأنجز القاموس الطوارقيّ الفرنسيّ. عندما هجم عليه السنوسيُّون، رفض أن يترك الطوارق ويهرب، فقُتل برصاصة طائشة. دُفن في مقبرة مع بقيَّة المسلمين من الطوارق. مقتله جعل الطوارق يحملون السلاح ضدَّ الفرنسيين بمساعدة السنوسيين القادمين من ليبيا. ما الذي جاء بهذا الشيخ إلى أرض سرقت روحه؟ أيَّة ضرورة دفعت به إلى الموت؟ أليس جنونًا مقنَّعًا أو عشقًا هبليًا؟ وفي كلتا الحالتين هو انتحار.

عندما رآهم، عرفهم من بعيد من هندامهم. كانوا جالسين في الحديقة الخضراء، في الزاوية الجنوبيَّة من القلعة. كانوا أربعة غارقين في حديث داخليّ، لم يعرف منهم إلَّا حركات أياديهم ما يبيِّن أنَّ هناك خلافات في التصوُّرات.

عندما حاذاهم، انحنى قليلاً، قبَّل يد سوزان، ثم مدّ يده للبقيَّة. في اللحظة نفسها، شعر بقطرة ماء نزلت على رأسه. كانت السماء قد بدأت تتلوَّن وتتغيَّر. ثم رأى سربًا من الطيور يمرُّ كالسهم، يطير باتّجاه غير معلوم.

- لا يبدو الجوّ جميلاً.

قال أكبر العلماء سنًّا، وهو ينظر إلى السماء أيضًا، ويمدّ يده لآدم:

- مرحبًا بروفسور. لا مشكلة مع الأحوال الجوِّيَّة، زوابع خفيفة، لكنَّها سرعان ما تهدأ ليحلّ محلَّها جوٌّ معقول في هذه الفترة المضطربة من السنة. هذه الطيور، بروفسور، تتجه نحو المنطقة النديَّة حيث يوجد السدّ. فقد وفَّر لها مكانًا آمنًا للراحة بسبب الحرّ الذي لا تتحمَّله طويلاً؛ ولهذا، فقد تحوَّل إلى استراحة لها ولو موقَّتة، لتلتقط أنفاسها. مع السدّ، عادات كثيرة تغيَّرت، وستنشأ عادات أخرى

لحيوانات غير الطيور. هذا المكان يجب أن يظلّ حيًّا وبعيدًا عن كلّ ما يفسده. ربَّما هذا هو الرهان الأكبر. فكرة السدّ نبيلة جدًّا ومهمّة لكنَّ الأنبل هو المحافظة عليه وعلى مائه وعلى التوازنات البيئيّة الجديدة التي خلقها.

ـ أكيد يا أستاذ.

ـ طيب. أنا الدكتور فرانكي دو فوكو، باحث أنثروبولوجي، من جامعة يو سي لي[1] بلوس أنجلس، وقائد هذه البعثة العلميَّة. ألفونسو جيروم رجل دين من التثلثيين، في كنيسة إسبانيَّة، مرافق لنا لرؤية العيش الدينيّ للناس. سوزان كليبر باحثة في علوم الطبيعة وناشطة في جمعيّات المحافظة على البيئة. وميمون، دليلنا في هذا القفر، فهو يعرف المكان جيّدًا، وقد حرثه طولاً وعرضًا، وأوصانا به أصدقاءٌ كثيرون مرُّوا من هنا، أو عاشوا في هذه المناطق عندما كان للقلعة وجه آخر، غير وجهها العسكريّ، كما هي عليه اليوم. وكان المكان آمنًا أيضًا. كانت معبرًا للحجّاج. فيها كانوا يرتاحون قبل مواصلة سيرهم.

قال فرانكي، وهو يقدّم بقيَّة أصدقائه:

ـ أنتم تعرفون الوضع في المنطقة ربَّما أحسن منّي. أنا هنا منذ زمن قليل. كلامك صحيح يا دكتور. وأوافق عليه بلا تردُّد. لكنْ لا تنسوا أنّنا هنا، في هذا المكان بالضبط، نحارب عدوًّا غير مرئيّ. يقتل الناس وكأنّهم بعوض، وربَّما أقلّ. لا حلّ، إمّا مواجهته بردعه على الأقلّ أو تسليم كلّ شيء له. حتى اللحظة، لا قوَّة استطاعت أن تردع *التنظيم*، فقد اختزل كلّ الممارسات القديمة، وكوَّن منها قوَّة

---

(١) UCLA

ضاربة للأذى بالخصوص. فهو خارج الحروب الكلاسيكيَّة، لأنَّه لا يستطيع أن يتحمَّل سطوتها.

قال آدم وهو يبحث عن أجوبة لأسئلة ثقيلة، لم يكن معنيًّا بها لأنّه خارج ما تظنُّه البعثة. ليس أكثر من غيست في هذه القلعة. في لحظة من اللحظات، تمنَّى أن يكون مكانهم بأجهزته التصويريَّة، ولن يطلب مقابلاً نظير هذا الفرح. لكنَّ المنطقة شديدة الخطورة بسبب التنظيم وفراغ المكان المهول. ٦٥٠٠٠٠ كيلومتر مربَّع؟ في شكل مثلث، طوله ألف كيلومتر وعرضه ٥٠٠ كيلومتر. بعض كثبانه تصل إلى ٢٥٠ مترًا. من يستطيع إدارتها؟

اعتقد أنَّكم مع ميمون، دليل يعرف كلَّ المسالك، ولا تحتاجون إلى مساعدة كبيرة.

- وساطة *رابطة حقوق الإنسان الآيل إلى الزوال* كانت مفيدة جدًّا بالنسبة لنا. في الحقيقة لدينا كلّ شيء، الخرائط وأسماء القبائل المتنقّلة هنا وهناك، الأمكنة الخطيرة والآمنة. نريد أن نرى حياة الناس عن قرب وعاداتهم في ظلّ التحوُّلات البيئيَّة العالميَّة الخطيرة وآثار الحروب. الآرابيُّون الذين كانوا يعيشون رخاء كبيرًا أصبحوا اليوم داخل عواصف التيه ورمال النار والموت. الناس يخطئون إذ يظنُّون أنَّ الغنى والقوَّة خالدان. كلّ شيء أكثر هشاشة من جناحيْ فراشة. البشريَّة تحتاج إلى تذكير دائم بضعفها.

- يهمُّنا جدًّا وضع الناس الصحّيّ، ومشكلة التلوُّث البيئي. تعرفون بأنَّ هذه المنطقة على الرَّغم من قسوتها الظاهرة، كان بها توازن بيئيٌّ آخر غير الذي نراه اليوم، وفيها حياة. اسألوا مشايخ الأمكنة، وستكتشفون غير ما ترونه اليوم من رمال وأدخنة في كلّ مكان ورعب البشر من البشر.

تدخَّلت سوزانا كليبر، وهي تحاول أن تشرح كلامها وتفصّله قليلاً، وكأنّها شعرت بالحاجة الملحَّة للتأكيد. العالم الذي تقطعه في كلّ مرَّة، أظهر لها بأنّ الإلحاح هو الوسيلة الوحيدة لإيصال ما تريد تبليغه للناس. كثيرًا ما تقرأ ما يستقرُّ في عيون الناس بعدما تنتهي من حديثها معهم. خليط من الشفقة والاستغباء. مسكينة في *أيّ* عصر تعيش! مع أنَّها مدركة بأنَّ الزمن الذي تعيشه يرتسم في الأفق باللون الرماديّ والأسود، إذا لم يتمّ استدراك الوضع.

ـ تعرف يا آدم أنَّ كلّ شيء مات في هذه المنطقة. شيئان يقاومان، جشع الشركات النفطيَّة، التي مزَّقت التربة المتبقّية ولوَّثتها، والقبائل المتنقِّلة بحثًا عن حياة ممكنة، وهي من يقلِّل من وحشة المكان سنذهب إلى السدّ ونعاينه عن قرب، إذا لم يخلّ ذلك بالتوازن البيئيّ والطبيعيّ. ربَّما سيكون السدُّ سببًا في التعمير، وفي الحالة الأسوأ، سببًا قاتلاً في التهجير.

ـ لكنَّ المنطقة، كما تعرفون، في النهاية عسكريَّة، وهذا يضيِّق من حركتكم.

ـ هذه الأمور تمّ حلُّها نهائيًا مع المسؤولين. ستكون معنا سيّارة عسكريّة للمساعدة. السدُّ مسألة ضروريَّة. هو مفيد ولا شكّ. منح فرصة الماء لقبائل كثيرة جاءت لتنتشر حوله وفي امتداداته. لكنْ هل ماؤه نقيّ؟

ـ معناه كلّ الترتيبات قد اتُّخذت. جيِّد.

فكَّر أن يسألهم عمّا يمكنه أن يفيدهم فيه أكثر، لكنَّ كلامه بدا له عبثيًا. فما يقوم به مجرَّد استجابة لطلب جاء منهم ومن سير جون. بينما لزم بقيَّة أعضاء البعثة العلميَّة، الصمت، قبل أن يتدخَّل فرانكي دو فوكو بشكل أوضح.

في الحقيقة، لا نريد أن نثقل عليك. أردنا فقط أن نسمع رأي خبير مثلك في مسألة التلوُّث. عرفنا من الوسائط الإعلاميَّة، الورقيَّة والإلكترونيَّة وحتى المرئيَّة، أنّك على رأس برنامج نوويٍّ، مخفَّف، لكنَّه جديد في شكله على الأقلّ. وأنَّك عدتَ إلى مشروع قنبلة الجيب البوكت بومب، أو القنبلة الصغيرة، ولا ندري إذا ما كان هذا الكلام صحيحًا أم مجرَّد خبطة إعلاميَّة كالعادة، لاختبار ردود فعل الرأي العامّ. . وإذا حسبتم المضارّ والمنافع بدقَّة، في منطقة لا توجد بها حياة إلَّا القلعة والسدّ والوادي الذي يستقبل فائض السدّ من المياه الجوفيَّة؟

ثم مدّ يده إلى حقيبته المنتفخة، وأخرج ملفًّا كاملاً عمّا قرأه. نذمه لآدم. تناوله بهدوء مخافة أن يبعثر أوراقه. كلُّها مقالات تحليليَّة سبق أن قرأ الكثير منها، حول مشروع المخبر، وما يقوم به سرِّيًّا من الناحية العسكريَّة، في صحراء الربع الخالي. ثم التفت نحو فرانكي دو موكو الذي كان ينتظر إجابته.

- لا أدري ماذا أقول بروفسور فرانكي، بكلّ تأكيد، الصحافة تضخِّم الأشياء.

- حتى المجلَّة النوويَّة المعروفة *أتوميك روسيرش*! وهي معروفة بتخصُّصها وبموضوعيّتها، وسبق أن كتبتَ فيها، العديد من المقالات حول موقفك من النوويّ الذي بدأ ينتشر بشكل واسع، بعضه بشكل معلن وبعضه الآخر بشكل سرِّي، وأجرت معك حوارًا مطوَّلاً يوم ظهر مشروع قنبلة الجيب النوويَّة *PBPu1* و*PBPp2*، عندما كنتَ في مخبر بنسلفانيا. ليست مجلَّة عاديَّة سيِّدي البروفسور.

- نعم. لا أقلِّل من مصداقيَّة مجلَّة يكتب فيها كبار العلماء. المشكل الذي يُطرح اليوم، ليس علميًّا بقدر ما هو أخلاقيّ. نحن لن نقدم

على إنجاز شيء يضرُّ بالبشريَّة حتى الآن على الأقلّ، وهذا الكلام أنا مسؤول عنه، لكنْ أيضًا أمام البشريَّة تحدّيات خطيرة جدًّا. منها، الإرهاب الذي اتّسع وأصبح حقيقة موضوعيَّة، وما يقوم به *التنظيم* في الدول الإسلاميَّة وفي العالم يؤكّد على ما أقوله.

- نعرف سرّيَّة ما تقومون به. هذا لا يخصُّنا. لكنْ، أليس بإمكانكم أن توقفوه، تؤجّلوه على الأقلّ! كلّ المنطقة هنا ستتلوَّث، ولا توجد لا جبال ولا أشجار تحمي المكان أو تمتصّ الأدخنة والرماد، والقليل من الحياة المتبقّي في هذا القفر الموحش، سيتمّ تدميره والقضاء عليه.

- هذه مسبقات. لن ندمّر شيئًا عزيزي فرانكي. وصلنا اليوم حتى إلى التحكُّم في قُطْر الهالة النوويَّة التي يخلّفها الانفجار، ونستطيع أن نحصرها في مكانها الضيّق، عند الضرورات القصوى والحالات الميؤوس منها. ما أستطيع أن أقوله لكم، أوّلاً أنّ المسألة عسكريّة وتخضع لاستراتيجيّات تتجاوزني. لكنْ من الناحية العلميَّة، نحن متأكّدون من أنّنا نستطيع أن نخفّف من مضارّه الإنسانيَّة، ثم إنّ كلّ شيء ما يزال في مراحله النظريَّة حتى الآن. إنجاز مثل هذا يحتاج إلى وقت حقيقيّ.

- هذا عين الخطأ يا بروفسور.

قالت سوزان كليبر، وهي تختطف الكلمة من فرانكي دو فوكو، الذي بدت على وجهه علامات السنّ وتعب الرحلة. عادتها أن لا تترك الأشياء في زاوية المبهم أو البيْن بيْن. كثيرًا ما يلومها أصدقاؤها على جِدَّتها وصراحتها.

- اسمح بروفسور آدم أن أقول لك إنَّ ما ترونه أنتم وفريقكم لا يكفي. الأمر العسكريُّ مبرَّر. نعم، ونتفهّمه. لكنَّ الأمر على الأرض

يختلف جذريًا. القبائل هنا ليست ثابتة، تعيش متنقّلة باحثة عن الماء وما تأكله بهائمها، والهرب من الحروب الطاحنة بين القبائل والقوميّات التي كانت، قبل زمن قصير، تشكّل عالم آرابيا التي لم تعد اليوم إلّا مِزَقًا لا يحكمها أيّ نظام، بالخصوص بعد انهيار المكوّنات الجمعيّة لآرابيا الإثنيّة والثقافيّة واللغويّة والطائفيّة والدينيّة. كلٌّ عاد إلى نظامه القبليّ القديم، ولا يعيش الناس هنا إلّا على التنقُّل والبحث عن الحياة. حتى السدّ الذي أُنجز لمساعدة آبار النفط على الإنتاج وتشغيل الآلات، يشرب منه الناس، بل قبائل بكاملها، يمكن أن يُصاب بالإشعاعات النوويّة والغبار المحمّل والثقيل بالعناصر الإشعاعيّة. ويصبح قاتلاً في اللحظة، وعلى الأمد المتوسّط والبعيد. المسألة ليست بسيطة، ولكنّها شديدة التعقيد.

كلّ ما تذكرينه من مخاوف، سيّدة سوزان، صحيح. بكلّ تأكيد، سيكون السدّ بعيدًا جدًا عن حقل التجارب، هذا في حالة مواصلة العمل المخبريّ والتجارب أيضًا. إلى اللحظة التي أحدّثكم فيها، لا يوجد شيء ملموس. هناك سلسلة مقترحات هي قيد الدراسة. أنا أؤكّد لكم على الأقلّ من الناحية العلميّة، أن كلَّ شيء سيكون مدروسًا، بحيث أنَّ مضارّه على الحيوان والبشر ستكون صفرًا أو محدودة جدًا. يجب أن لا تنسوا أنّنا في عصر قاتل، لا يرحم الضعيف. ما تأكله الحروب الكلاسيكيّة أضعاف مضاعفة ما أكله النوويُّ. سكّان أرابيا كانوا مع بداية الحرب قرابة ٤٠٠ مليون نسمة، كم بقي منهم اليوم؟ لا أحد يعرف. لقد تمزّقوا، وأكثر من نصفهم التهمته الحرب، والباقي يأتي عليه العطش والأمراض. كلّ سنة يموت الملايين، هم ودوابُهم، عطشًا وجوعًا. مياه النيل تكاد تجفّ في الكثير من المناطق في السودان ومصر، امتصّها كلّها سدُّ *النهضة*.

هل يجب منع إثيوبيا من السيطرة على الماء، وهي بفضله أصبح عاشر قوّة عالميَّة في إنتاج الطاقة الكهرمائيَّة؟ كلُّ الاتفاقيّات السابقة سقطت، ومنها اتّفاقيَّة ١٩٠٢ في أديس أبابا التي تمنع إنشاء المشاريع الكبرى على أطراف النيل. خزّان السدّ التهم كلّ ما كان يتدفّق في السودان ومصر. ماذا بقي اليوم من معاهدة النيل أيضًا إلا الحرب المشتعلة ومحاولات متكرّرة لقصف السدّ وتدميره، وتدخل طيران مجهول لمنع ذلك، أغلب الخبراء العسكريين يقولون إنه لأزاريا. النتيجة، الأنانيّات قتلت الزراعة والبشر والحيوانات والحياة.

- نعم. نرى ذلك ونعيشه يوميًّا. نريد فقط أن نُريح السكّان الذين سيسألوننا حتمًا عن سرّ هذه القلعة التي نبتت من زمان، ولكنّها أصبحت قلعة مرئيَّة في السنوات الأخيرة، وعن قنابل السمّ التي يسمعون عنها كثيرًا.

- يمكنكم أن تريحوهم بأنَّ ما سيحدث، إذا حدث، لن يكون مضرًا للصحَّة. ولكنَّنا حتى الآن لم نفعل شيئًا. يجب أن تصدّقوني، وسنرى بأعيننا المكان، ومعي خبراء مختصُّون، هذه التفاصيل المربكة لكم، ودرجة التلوُّث وكلّ الاحتمالات المصاحبة لذلك، ومن خلالها نتّخذ القرارات الواجب اتّخاذها. الربع الخالي ليس قرية، ٦٥٠،٠٠٠ كيلومتر مربّع.

صمت آدم قليلاً. شعر بأنَّ في أعماقه شيئًا غير متوازن أبدًا. فقد وُضع فجأة في حالة لا يُحسد عليها. هل يدافع عن المشروع الذي ما يزال مشروعًا، أم يدافع عن معتقده الذي دفع به إلى التفكير في خيارات قنبلة الجيب النوويَّة؟

عندما توقَّفت سيّارة هامر رباعيَّة الدفع عند أرجلهم، قاموا كلّهم

صاح السائق، دون أن ينزل:
جاهزون.
. طبعًا.
أجاب فرانكي دو فوكو، وهو يأمر جماعته بالركوب.
ركب الجميع بعد تحيَّة سريعة لآدم.
كانت السيّارة محمَّلة ببعض الخيام، وبعض الأطعمة، والحليب الجافّ والمعجَّنات، والأحبال، وغالونات الماء والبنزين، والقنابل المضيئة، في حالة الضياع في الصحراء، وألبسة خشنة لدرء العواصف، لأنَّها في هذه الفترة كثيرة، وعندما تندلع تأتي قويَّة، فتعمي كلّ الأمكنة بغبارها، ويمكنها أن تحدث السيول المائيَّة الخطيرة فتوقظ الوديان النائمة، والانجرافات والفيضانات الكثيرة، ويصبح من الصعب، بل من المستحيل، مقاومتها بالوسائل التقليديَّة، إضافة إلى مجموعة من الخرائط العسكريَّة المفصّلة التي يمكنها أن تساعد البعثة عند الحاجة الماسّة.
. نسافرون بكلّ الخير.
. شكرًا بروفسور على كلّ شيء. سنتحدَّث أكثر في العودة.
قال فرانكي دي فوكو وهو يربط تلقائيًا حزام مقعده.
عندما انسحبت السيّارة في الطريق المستقيم، تتبّعها آدم بعينيه حتى ارتفع الحاجز من أمامها، مخليًا لها الطريق، متبوعة بسيّارة ثانية شبيهة لها، فيها أربعة جنود، لأنَّ المنطقة، على الرَّغم من كونها مؤمّنة، لا أحد يضمن مفاجآت *التنظيم*، الذي يمكن أن يظهر في أيّ مكان، وفي أيَّة زاوية ضيّقة.
غابت السيَّارتان في عمق الرياح الصفراء التي ارتفعت عاليًا.

ـ ٣ ـ

حالة انتشاء وفرح تعمُّ صالة المخبر.

كلُّهم كانوا حاضرين وعلى وجوههم سعادة، لأوَّل مرَّة يراها آدم. لم يستطع ألَّا يتذكّر بنسلفانيا.

تقدَّم سميث الجماعة، وأخذ الكلمة كما كان مبرمجًا:

ـ نستطيع اليوم أن نقول إنّنا أصبحنا قريبين من هدفنا المطلوب. لم تبقَ إلّا مسافة الربع ميل الأخيرة. المشروع الكبير *PBPu1* و*PBPp2* أصبح على مسافة صغيرة من التحقُّق، وسيعرف الجميع أنَّ جهودنا في التحكُّم في الإشعاع النوويّ والطاقة الكبيرة الناتجة عن انشطار ذرَّة اليورانيوم ٢٣٧، بعد تعرُّضها لسيل من النيوترونات، وأنّ الانصهار أيضًا باندماج نويّات بعض العناصر مثل الديتيريوم والتريتيوم، أصبح أكثر من ممكن مخبريًا. أصبح في أيدينا. يهمّنا جدًّا تحديد مساحات الانتشار، لأنّه بدون ذلك، سيظلّ مشروعنا مليئًا بالمخاطر، ونحن نريد أن ننزل الخطر إلى الدرجة الصفر.

قال سميث منتشيًا بالجهد الذي حقّق طوال الفترة الأخيرة:

ا..ر من هذا، أقول لآدم أن يستقبل معنا المفاجأة الكبيرة بقلب قويّ.

اندهش آدم. في لحظة من اللحظات فكَّر في زوجته أمايا، ربَّما ا..ون قد سمحوا لها بالمجيء؟ لكنَّه استبعد الفكرة لكون المنطقة .كريَّة، الرقابة فيها مشدَّدة، وتكاد تكون سرِّيَّة. أغمض عينيه بحثًا .. أيِّ شيء هارب مثل الذرَّة، لكنَّه شعر بفراغ مخِّه من كلّ الاحتمالات. *لا يوجد في هذا القفر من يفاجئه ويأتيه متسلّلاً من وراء، يغمض عينيه ويهمس في أذنه اليسرى: من أنا حبيبي؟ من أنا ا..مر العمر؟ هل عرفتني يا قلبي؟ لا تقل لي فقط أمايا، فلست ..ايا. أنا حبيبتك فقط.*

ـ كلّ الخير يا سميث. بدأت أشعر بالخوف. يكفيني ما أنا فيه.. ههه.

ـ سترى حالاً، لن نتركك تنتظر طويلاً. أعرف أنّ هذا سيسعدك جدًّا.

فجأة، خرج من مكتب سميث رجل فارع الطول، ومستقيم ..صفافة، بنظّارات سوداء. يحمل في يده اليمنى باقة ورد خفيفة من الباسمين الذي كان يحبّه. صرخ آدم.

ـ ويليام ديك؟ حبيبي. لا يُعقل! كدت أن أفقد الأمل في رؤيتك ثانية. أيّة مفاجأة هذه؟

ـ يا آدم. لم تكن وحيدًا أبدًا في آلامك. لم تكن في عزلة الذئب التي فُرضت عليك بقوَّة، وأنت لم تتخيَّلها حتى في أبشع الكوابيس. كنّا جميعًا معك، ونقاتل من أجل أن تسترجع حقّك المسروق. أخطاؤك سنحاسبك عليها لاحقًا بمنعك من الخروج عدَّة أشهر من البيت والبقاء فقط مع يونا وأمايا... ههه. ألم توقّع معنا وثيقة تخبرنا بموجبها عن برنامج سفريّاتك لاتّخاذ الإجراءات اللازمة لحمايتك؟

ـ معك حقّ يا ويليام. كنت أفكّر حقيقة كيف أعتذر منك ومن الفرقة بكاملها. لكنَّها قسوة الظروف التي تمحو من العقل أيَّة إمكانيَّة

للتفكير الطبيعي. تعرف يا عزيزي ويليام الظروف التي سافرت فيها!

- أمايا أخبرتني بكلّ شيء من باريس لمّا تأكّد سفرك. هي من أخبرنا بوقت قصير كان كافيًا لحمايتك. كانت تعرف جيّدًا حالتك، ولهذا بادرت للاتّصال بي شخصيًا.

- ماذا أقول. أشعر بحزن لكلّ ما حدث.

- لا يهمّ. اليوم نهار آخر.

في الجلسة الخاصّة التي أعقبت الشروحات التي قُدّمت لويليام، أمام جميع أعضاء المخبر، عن الخطوات التي قطعها المشروع، اجتمع الثلاثة، ويليام وسميث وآدم، في مكتب سميث. جوهر النقاش كان حول ضرورة الانتهاء من المشروع بسرعة، لأنّه أصبح مطلوبًا أكثر من أيّ وقت مضى، لا من أجل المزيد من الحروب، ولكنْ للحدّ منها كما قال ويليام. بطش *التنظيم* اتّسع ليشمل صحراء الربع الخالي كلّها، وبقايا آرابيا الشرقيّة والغربيّة والجنوبيّة. عبّر عن سعادته بأنّ المشروع وُضع على السكّة نهائيًا، وبدأت مسالكه تتّضح وصعوباته تذلّل. في الأخير، ضمن لآدم رؤية زوجته، أو على الأقلّ التواصل معها، وهي النقطة التي ظلّ آدم يهجس بها حتى النهاية في نقاشه.

- أخجل أن أكرّر هذا. أحتاج أن أسمع صوتها ورأيها. لقد تعوّدنا أن نقول كلّ شيء.

- أنت تعرفني جيّدًا يا آدم. إنّي عندما أضع يدي في شيء، أذهب وراءه حتى النهاية.

- أعرف يا ويليام، وسعادتي لا توصف برؤيتك، كأنّك حملت لي معك كلّ عطر المخبر في بنسلفانيا وجوّه الجميل. القطيعة كانت قاسية وأدخلتني في حالة كبيرة من اللّاجدوى. كيف يتحوّل الإنسان، كيفما كانت رتبته الاجتماعيّة، إلى لا شيء في ثانية واحدة.

الآن، تأكّد أنّ النيّة الأساسيّة كانت هي إنقاذك من موت كان يتربّص بك. كلّ الناس ليسوا آدم أو سميث أو ويليام. للعسكر ردود فعلهم وضوابطهم التي تتجاوزنا أحيانًا. على أيّ حال، أنا هنا للإعلان الرسميّ أنّ مخبرنا استعاد المبادرة، وبدأ يشتغل في مشروع البوكت - بومب. ووضعك سيصبح، بدءًا من الأيّام القادمة، أفضل. هذا حقّك.

على أيّ حال، شكرًا على كلّ شيء.

أنا مضطرٌّ للعودة اليوم إلى البحر الأحمر ومنه إلى واشنطن.

كعادته، لم تفقده السنوات الصعبة ذرّة واحدة من أناقته، مشى ويليام مستقيمًا نحو المروحيّة الصغيرة التي جاءت به إلى القلعة في رحلة تفقُّديّة سريعة، في حقيبته الصغيرة بعض التفاصيل الصغيرة عن المشروع ليعرضها أمام خبراء سفينة البحر الأحمر، قبل أن يواصل رحلته نحو نيويورك. فتح له أحد الجنود باب المروحيّة. صعد. أشّر بيده اليمنى باتّجاه كلّ فريق العمل الذي كان التقى به، بمن في ذلك المهندس العسكريُّ المختصُّ في تكنولوجيّة الصواريخ، الذي جاء برفقته، وبقي مع الفرقة لدفع التفكير نحو التصنيع أيضًا.

فجأة، انتابته رغبة العمل كما كان قبل سنوات، وامّحى المكان. قلعة أميروبا، بكلّ جفافها وجبروتها، ولم يبقَ فيها إلّا الأشجار والساحات الخضراء التي يُرفع فيها علم أميركا وفيدراليّة الدول الأوروبيّة، والمضمار الطويل ومخبر الدراسات والتجارب النظريّة والتجريبيّة.

لا يدري آدم لماذا كان لحضور ويليام كلّ تلك الفاعليّة وذلك التأثير!

عندما غادر المخبر في وقت متأخّر قليلاً، كان منتشيًا بشكل لم

يعهده في نفسه. لأوّل مرّة. يشعر بجاذبيّة كان من الصعب عليه مقاومتها نحو مشروعه. على الرّغم من أنّه في كلّ الليالي التي مضت وقف طويلاً أمام نفسه، وتساءل أمام كلّ المرايا التي تملأ غرفته الجديدة والأنيقة، ليجد تفسيرًا لكلّ الخوف الذي اعتراه، والانتشاء الذي أحسّ به؟ يدرك جيّدًا أنّه أمام معضلتين علميّة وأخلاقيّة. العلميّة مرتبطة بعمله، وسيحلّها بانغماسه كلّيًا في مشروع ينسيه للمرّة الأخيرة أنّه لم يعد في قلعة، حرّيّة الجرذ فيها أفضل من حرّيّة الإنسان. ولا شيء يضاهي حياة الإنسان والكائنات التي تمنحه فرص الاستمرار والراحة. لكنّه يعرف أيضًا أنّ هذه الحياة التي تجب المحافظة عليها، تفترض حربًا ضروسًا ضدّ القتلة الذين خسروا الحدود الدنيا من إنسانيّتهم. غرابة الحياة وصدفها. ماذا لو قُتل في الفخّ الذي نُصب له؟ ماذا لو لم تتقدّم الطائرة بأكثر من نصف ساعة؟ لا يعرف إذا ما انتصر فيه حبّه للخير أم أنانيّة العالم؟

طوال الفترة التي مضت، وضع بين يديْ سميث كلّ خربشته وأبحاثه الذهنيّة واحتمالاته العلميّة الفيزيائيّة، التي ظلّ ليتل بروز يراقبها، ولا يفهم الشيء الكثير فيها، لدرجة أنّه كان يستشير الخبراء لمعرفة السرّ الذي يتخفّى من وراء ذلك، وربّما حتى فرضيّة العمليّة الإرهابيّة التي يخطّط لها، لم تكن خارج الاحتمال. *كلُّ آرابيّ إرهابيٌّ حتى يثبت العكس!* يكرّرها ليتل بروز كلّما وقعت عمليّة إرهابيّة في مكان ما، كأنّه لم يكن يبحث إلّا عن المبرّر الذي يسمح لاندفاعاته الداخليّة بأن تخرج. لكنّ الإجابات التي كانت تصله من بحريّة مضيق هرمز والبحر الأحمر، كانت تحدُّ من خوفه أو أوهامه. *اتركه يعمل ما دام الأمر في حيّز غرفته. فكّكنا الشفرات ولا يوجد بها ما يخيف.* يبلع ذلك على مضض قبل أن يتآلف هو أيضًا مع الوضع العامّ، إذ كان عليه أن يتحمّل وجود آدم واحترامه كعالم أميركيّ مهمّ. لا يريد أن

.. غضب الأشخاص الذين كانوا وراء تعيينه في القلعة، وهم ... جيّدًا ما قدّمه هو وعائلته لأميركا. ولا يريد أيضًا أن يخسر م الماريشال الذي أصبح قريبًا أكثر من أيّ زمن مضى.

عندما انتهى من عمله في مكتبه في المختبر، أخذ مع الجميع ... تذكاريّة ترسم هذه العودة التلقائيّة بعد الوعود التي تلقّاها من كلّ ... بلقاء أمايا وربّما يونا أيضًا. ولو أنّه يريد أن يبعد يونا عن هذا ... ، ويظلّ في حلمها الجميل أنّ الحياة تستحقّ أن تُعاش: وفيها ... بمكن الالتصاق به.

قال سميث، وهو يصطفّ بجانب آدم:

عزيزي آد. لا بدّ أن تسمح لنا بصورة تذكاريّة معك. يوم تحرز على نوبل، سنقول بأنّنا كنّا معه وأنّه كان صديقنا. ونُري هذه الصور لأبنائنا وأحفادنا. طبعًا، أعرف جيّدًا أنّ آدم عندما يسأله أحفاده من يونا، سيتنكّر للجميع.. ههههه! سيُجيب: لا أتذكّر أيّ شخص من هؤلاء البؤساء الذين أكلتهم الأمراض والحروب من زماااااان.

قالها ممطّطًا كلمة زماااان. ارتفعت ضحكات الجميع عاليًا.

الضحكات التي تبادلها آدم مع فريق المخبر، لم تمنعه من حيرته التي كانت تحرقه في داخله. كلّما خرج من المخبر واجهته ملامح أمايا الناعمة والهادئة وصوتها الرقيق، بحدّة وقسوة، مخلّفة وراءها أسئلة قلقة عن مشروع بوكيت ـ بومب، أو قنبلة الجيب النوويّة، المزدوج PBPu1 وPBPp2.

«حبيبي، أعرف جيّدًا قلبك وطموحك العلميّ، لست مرتاحة لهذا المشروع. يخيفني. كأنّ كلّ آلام جدّي تسوتومي ياماغوشي وأعمامي الذين أكلتهم السرطانات المختلفة، لم تصلح لشيء. وكأنّ درس الموت لم يصل لأيّ أحد.

ـ لهذا قلت هو مشروع يجعلنا نتفادى هذا النوع من الـ..
المجّانيّ ضدّ الأبرياء. سيردع القتلة.
ـ أيْ ردع يا قلبي. ترومان كان يقول الشيء نفسه، عصرنا يواجه ...
شبيهين تماماً بالفيروسات التي علّمتها المضادات الحيويّة المنـ...
مناعة خاصّة، ويجب خلق مضادات حيويّة أقوى. وهكذا، داء...
دوّامة لا تنتهي أبداً. هؤلاء في عمق العدميّة، لا يعنيهم أن يموتوا أ...
يعيشوا. إذا ماتوا فهم في عالم كانوا يحلمون به، وجنّة خاصّة، وإذا
عاشوا سيصرّون على محو كلّ ما لا يشبههم. لا أنت ولا أنا نشبههم
ـ لهذا، نحن في حاجة إلى عالم آخر، يضمن حياة الناس أمام كوارث
لا رحمة فيها.
ـ لِنُرَبِّ الناس بشكل آخر. ربّما كان رهاناً صعباً، لكنّه ممكن. . لنعدل
بينهم، بعدها تأتي الأمور الجيّدة تلقائياً. لو رأيت الولادات المشوّهة
التي ما تزال حتى اليوم، والسرطانات بسبب الإشعاعات، والأخطاء
في التجارب التي مسّت ناساً كثيرين إلى اليوم بحروق وإشعاعات
خطيرة، ستنتهي بأصحابها إلى القبور، لغيّرت رأيك. أعرف أنّ
طموحك كبير، وأنّ رغبتك في خدمة الإنسانيّة أكبر، لكنْ، لا نلعب
مع النوويّ. أحياناً، ألعن أوبنهايمر وكلّ آباء هذه الاكتشافات
الخطيرة.
ـ مثاليّة هذه يا أمايا.
ـ المثاليّة أحسن من القتل.
ـ المثاليّة تقابلها العدميّة. تحتاج المثاليّة إلى أن تتسلّح بقليل من الواقع.
ـ المثاليّة عندما تتسلّح، وتخسر نبلها، تصبح قاتلة».

أمايا؟ قالها وكأنّها كانت تقف على العتبة كما تعوّدت أن تفعل، مصحوبة بنَفَسٍ طويل يشبه الحرقة.

حبرة آدم كانت مزيجًا من الفرح والارتباك. سميث ليس رجلاً ...، وإذا طلب منه شيئًا فهو يدرك لماذا. ثم إنّه رجل يعرف الكثير مبايا الأمور، وشبه متأكّد من أنّ تغيُّر وضعه الخاصّ وتغيير ...، وتغيّر الظروف المُعاشة، له يد فيها، إضافة إلى سلطة ويليام. ... رجل الحقّ، يقول بصوت عال ما يفكّر فيه. يوم وقع شجار ..ل توقيع عريضة مضادّة لانتشار الأسلحة النوويّة، لامه بعض ...فائه على ذلك. قالوا له أنت عالِم ولست شيئًا آخر. أجاب ...ث: *نعم عالِم، ولكنّي إنسان قبل كلّ شيء. أنا أيضًا وقّعت، ..اذا التركيز فقط على آدم؟* كان سميث وكاميو الفينيزويلي وغيرهما ...ن أنَّ التوقيع مسألة طبيعيَّة، تخصّ الفرد نفسه. لكن ليفي شميت .أربعة من أصدقائه في المخبر، كان لهم رأي آخر: *لا أدري لماذا ..انة أزاريا وكأنّها هي التي تهدّد العالم وليس الإرهاب الإسلاميّ؟ لم ..عمل شيئًا سوى محاولة ضمان سلامتها وسط عدوانيَّة آرابيا*. علّق آدم يومها وهو يوقّع العريضة الخاصَّة بالحدّ من انتشار الأسلحة النوويَّة، ومراقبة كلّ الدول بلا استثناء. *يا ليفي، أزاريا كما بقيَّة الدول الأخرى، يجب أن تقبل الرقابة النوويَّة أو تُجبَر على ذلك*. وتشكَّل لوبي صغير يومها داخل المخبر، طالب بطرد آدم بتهمة معاداة الساميَّة، لكن أغلبيَّة باحثي المخبر رفضوا ذلك. بالإضافة إلى مدير المخبر وليام ديكنز، بموقفه البراغماتيّ، دافع عن العريضة باستماتة، ورأى أنّه لا يوجد في كلام آدم أيَّة معاداة للساميَّة، ولكنَّه يطرح مشكلة حقيقيَّة تتعلّق بمصداقيَّة ما يتّخذ من قرارات ضدّ كلّ الدول التي تعمل على انتشار السلاح النوويّ. يجب أن نعترف بأنّ هناك كيلاً بمكيالين.

ـ لا أحد اليوم ينفي أنّ أزاريا تملك ما يقارب ٢٠٠ رأس نوويّ. برنامجها معروف من ١٩٥٦. المؤسّسات الفرنسيَّة التي بنت في

ديمونة أوّل مفاعل نوويّ بالماء الثقيل تعترف بذلك، وبعد سنة من ذلك، بنت مصنعًا لفصل البلوتونيوم. فرنسا وقفت بعدها في وجهها عندما أرادت أن تنتج قنبلة نوويّة. لكنّ الرهان الاقتصاديّ الذي كان يحمله بن غوريون في جعبته أمام دو غول، كان كبيرًا. وكانت الوسيلة الإقناعيّة هي منع جمال عبد الناصر من امتلاك الميغ ١٩ المتطوّرة والقادرة على تدمير أزاريا في أقلّ من ربع ساعة. بيير غيّوما[1]*، وزير الشؤون الذريّة الفرنسي، الذي رفض أن يخسر العقود، وجد الحلّ الوسط الذي لا يورّط فرنسا دوليًا. وأنهى الفرنسيّون بناء مفاعل ديمونة السلميّ، وحمّلوا أزاريا وحدها ما يمكن أن يحدث لاحقًا.*

انتفض ليفي، وصرخ بعنف حتى تطاير الزبد من فمه:

ـ هذا أيضًا غير صحيح. وتعدُّ سافر على دولة مهدَّدة في كلّ ثانية بالإفناء. يبدو أنّ الأوروبيين وحتى الكثير من الأميركيين لم يستفيدوا بعد من جرائم الهولوكست، وكأنّهم في حاجة إلى نازيّة أخرى، بقناع جديد ليتفهّموا ما تقوم به أزاريا. كلّ ما تقول يا مستر وليام، لا يثبت أبدًا أنّ أزاريا صنعت قنبلة نوويّة.

تدخّل سميث لتهدئة ليفي، الذي تحوّل بشكل هستيري إلى آلة من الصعب السيطرة عليها.

ـ *أنتم مسؤولون أمام التاريخ.*

ضحك سميث.

ـ *هذا تاريخ يسير باتّجاه واحد يا ليفي. انظر إلى ما قاله مردخاي فانونو*[2]*، الذي كان يعمل في إنتاج العناصر المشعّة التي تُستعمل*

---

(١) Pierre Guillaumat. Ministre des affaires atomiques.

(٢) Mordechai Vanunu

لإنتاج القنبلة النوويّة في السونداي تايمز، التي ليست عدوّة لأزاريا، يؤكّد على امتلاك أزاريا لأكثر من ٢٠٠ قنلبة نوويّة. ماذا قلنا غير الذي قاله؟ كلّ البلدان المجاورة لأزاريا فتحت حدودها للمراقبين الدوليين l'AIEA. إلّا أزاريا هي البلد الوحيد الذي رفض المصادقة على اتّفاقيّة عدم انتشار الأسلحة النوويّة. على أميركا وأوروبا البدء أوّلاً بحلّ هذه الحالة. يجب أن تُعتَبر كأيّة دولة أخرى. يجب أن ننتهي من النفاق، وإجبار أزاريا على المصادقة على اتّفاقيّة عدم انتشار الأسلحة النوويّة. ضرورة إجبارها على قبول زيارة المراقبين الدوليين L'AIEA لمركز ديمونة. أخذ مردخاي صوراً من داخل المصنع القادر على إنتاج حتى القنبلة الهيدروجينيّة الشديدة المفعول. اختُطف من روما، ليقضي في السجن ١٨ سنة. هل هذه تهم يا ليفي؟

- هذا الرجل إذا لم يكن خائنًا فمن يكون؟ هل تتخيّلني أخرج كلّ معلومات المركز من هنا إلى الخارج؟».

كانت يومها لحظة شديدة القسوة.

ما زالت صورة ليفي ماثلة بين عينيه، وهو في حالة غليانه المعتاد لّما تعلّق الأمر بأزاريا. خرج منكسرًا، وكأنّه كان في معركة خسر بها مع منافس يُفترض أن لا يخسر معه مطلقًا. وتبعه اثنان من الأربعة من الذين رفضوا توقيع العريضة. طلب ليفي شهرًا للراحة لأنّه متعب. بعدها، لم يعد أبدًا لمخبر الأبحاث النوويّة في بنسلڤانيا. قال أحد أصدقائه إنّه ذهب لأزاريا وانتمى لمخبر أبحاث هناك، وإنّ كلّ ما حدث لم يكن إلّا مسرحيّة مفبركة لمغادرة المخبر. وجوده في أزاريا أكده أيضًا وليام ديك الذي اضطرّ، برفقة سميث وآدم، إلى تغيير جزء مهمّ من البرنامج الذي كانوا يشتغلون عليه.

ـ ٤ ـ

عندما فتح آدم نافذة المكتب، كان التعب قد أنهكه، وعيناه بالكا
تفتحان.

لم ير شيئًا إلّا الحيطان العالية التي تغطّي كلّ شيء. انتابه وجه ويليام ديك بسماحته ودقّة ملاحظاته. لملم أوراقه الأولى عن نواتج التفاعل، وانشطار نواة اليورانيوم إلى نواتين متوسّطتي الكتلة وإنتاج كمّيّات هائلة من الطاقة نتيجة التفاعل النوويّ، وكيفيّة السيطرة عليها. لقد اشتغل الليل كلّه في نظائر اليورانيوم ٢٣٥، والبلوتونيوم ٢٣٩، وتشغيل القدرة على التحكُّم في الانشطار الطاقويّ الذي يكون قويًا وواسعًا لحظة الانفجار. ثم ضمّ كلّ أوراقه إلى ملفّه الأساسي الذي كتب عليه اسم المشروع *PBPu1* و*PBPp2*.

شعر بالكثير من التعب، وأيضًا ببعض الراحة الداخليّة.

تمدّد أكثر في مكانه. أغمض عينيه لكي لا يرى إلّا ما يشتهي رؤيته.

رأى المدّ الكبير، وأشجار النخيل التي كلّما كان الجوّ صافيًا

..ساخنًا، اختلطت بالسراب وتحوَّلت إلى مجرَّد ألوان مائيَّة. كانت
..و واضحة. حتى إنَّه في لحظة من اللحظات، رأى الذئب رماد
..حث عن مكان له تحت ظلّ إحدى نخلات الواحة. رآه ضائعًا قليلاً،
..ما لم يره من قبل، معلَّقًا في الفراغ، ويتخبَّط لكي لا يسقط في الهوَّة
المتّسعة.

كان يريد أن يسمع صوته. فتح جهازه برؤوس أصابعه. ناداه..
لكنْ صوته لم يصله أبدًا، وبدا كأنّه يموت في الفراغ.

رماااااد، لا تلعب مع الأقدار. هذه اللعبة الخطيرة قد تأخذك مأخذ الجدّ. ليس الآن. ما يزال في هذا العالم الضيّق والرماديّ متّسع لشيء اسمه الأمل. الأجدى بنا التعلّق بالأمل، وحتى عندما نخسره نهائيًا، نعود نُعيد ابتداءه. أنت شجن الريح الكبرى الذي انفصل عن الكلّ، وظلّ يخترق الهضاب الخالية من كلّ حياة، وحيدًا بدون أن يلتفت وراءه نحو الرماد الذي عمى كلّ الأبصار والقلوب. أنت تريد أن تذكّرني. لم أنس يا سيّد الإنس والجنّ والحيوانات. أيَّة يد شكّلتك بتلك الأناقة ورفعة الرأس. قلبي انكسر مثل الحجرة المتجمّدة بفعل البرودة. لم يعد قادرًا على التفكير. ابق حيث أنت أيُّها الجدّ الأبعد. لقد احتلُّوا غاباتك ومساكنك وقلبك السخيّ، وعينيك، وتلالك القصيَّة، فقط لكي يهجُروك، لكنّي أشعر بك هنا. في الأوقات العسيرة، أنت من يمنحني أنس الأمكنة الخالية، وفي الأوقات المريحة أنت من يمنحني القدرة على الاستمرار والحياة. لا يجب أن تموت بهذه الطريقة. قدرك أن تستمرّ فينا، فيّ تحديدًا.

غاص أكثر في كرسيّه الكبير الذي يمنحه راحة الجلوس والتفكير. لم يعد قادرًا على فتح عينيه اللتين ثقلتا، حتى أصبح من العسير التحكُّم فيهما. ترك نفسه يغرق في الغفوة اللذيذة.

ما كان يراه لم يكن وهمًا. رأى رماد، وهو يحاول بكلّ قوّة ا، يلتصق بهضبة الموت بكلّ ما أوتي من قوَّة، باستماتة. شمّ تعبه الكبير، وهو يكاد يستسلم للنهاية التي كانت ترتسم على هضبة الموت التي تحيطها فجوتان جبليّتان جافّتان من كلّ حياة. بدا كأنّ حياة رماد كانت تتدحرج على خيط من خوف. خانته أنفاسه وقواه الجسديَّة التي لم تعد تسعفه من كثرة الركض والسير ليلاً نهارًا بلا توقُّف. في اللحظة، التي ظنَّه قد استسلم للحافّة وللقدر الأسود القاسي خفق قلب آدم بقوّة، صرخ بكلّ ما أوتي من صوت، وربَّما عوى *عوووووووو*. الذئب وحده فكّ الشيفرة. *ارجووووووووك قاومْ. لا تستسلم*. نظر رماد صوب قلعة أميروبا بعينين مهزومتين. بالضبط صوب النافذة التي تبدو من بعيد كحفرة في حائط قديم. صرخ آدم في أعماقه مرَّة أخرى: *رماااد ارجوووك ليس الآن. انظر أمامك، لا يمكنك أن تنتحر بهذه الطريقة التي لا تليق بك*. استعاد رماد فجأة جهده، عندما رأى أنَّ الهضبة التي تفصله عن النخيل ليست إلَّا على مسافة أمتار طويلة، لكنَّها ليست مستحيلة. مدّ قوائمه الأولى بكلّ عنفوان القوَّة، ثم أخرج مخالبه، وتشبَّث لحظات بالنبتات الجافَّة والحجارة السوداء، ثم واصل تسلُّقه وعيناه مثبّتتان على القمّة. حين قارب من اعتلاء الهضبة، دفع بكلّ جسده إلى الأمام. رفع رأسه عاليًا نحو سماء فارغة، بلا لون ولا سلطان، سواد بلا حدود يشبه الثقب الكوني. رفع رأسه عاليًا، وعوى طويلاً في عزلة الذئب عندما تنتابه حالة الخلوة. الموت في الأعالي انتصار حتى على الأقدار المرسومة. شعر بالانتشاء الكبير. ماذا لو ترك نفسه يتهاوى على الحافّة؟ نظر إليه للمرَّة الأخيرة في ذلك اليوم، من الكوَّة الصغيرة بإمعان. كان آدم سعيدًا مثل طفل أنَّ رماد اعتلى سالمًا هضبة الموت، دون أن يتراجع بسبب التعب الذي انتابه وهو

صق بالفراغ الذي وجد نفسه فيه فجأة. صرخ من أعماقه، وهو يراه ني على حوافّ هضبة الموت: *يا سيّد الأعالي والشمس، يا نبوءة مداد. يا جدّي يوم كان العالم ماء وغبارًا. سِرْ ولا تلتفت. في كلّ مانة موت محتمل. وراءك حمم ورماد وعالم ينتفي. من يستطيع يوم أن يمنحك غير ما اكتسبت عبر قرون من التيه الحرّ، خارج ادات الذين بنوا هذا الخوف وشيّدوا بكلّ ما أوتوا من قوّة هذا حراب؟ سِرْ يا سيّد السلالة التي خرجتُ من قلبها، وانتميتُ لصفرة عينيها. سِرْ بلا هوادة يا سيّدي وداخلي.*

وكأنّ رماد سمعه من بعيد. نظر نحوه قليلاً، التفت يمينًا وشمالاً وكأنّه لم يعد يستمع إلّا لداخله ولأصداء تكسُّر الأشياء في أعماقه، ثم انطلق فجأة كالسهم الحارق نحو فراغ، وحده كان يرى بداياته ونهاياته.

كان مخّ آدم أبيض. وقلبه بلا نبض، في حالة صمت كلّيّ.

فهم أخيرًا حالة رماد معلّقًا على الحافّة.

ألم يكن رماد علامته الوحيدة في هذا المكان؟ ألم تكن أمايا داخله الذي لم يمت؟

هل يسعد لأنّ التحكُّم في الإشعاعات ومداها بعد الانشطار، لم بعد ممكنًا فقط، ولكن حقيقة. أم يخاف، لأنّ الآتي لا أحد يضمنه؟ الطريق أصبح واضحًا. المشكلة لم تكن في التفاعل المتسلسل حيث يصطدم نيوترونا مع نواة ذرّة اليورانيوم ٢٣٥، لتنقسم إلى قسمين ويصاحب ذلك عدد من النوترونات من ٢ إلى ٣ التي يمكنها أن تصطدم بدورها بأنويّة أخرى من اليورانيوم ٢٣٥، وتتفاعل معها وتعمل على انشطارها، ولكنّ المشكلة عندما يتزايد معدّل التفاعل زيادة تسلسليّة غير منتظمة، قد تؤدّي إلى انفجار عنيف إذا فشل المخبر في

ترويضه والتحكُّم فيه. التحكُّم الدقيق، بحسابات أدقّ، هو كلّ شيء في مشروع PBPu1 وPBPp2.

وهو في غيمة الدوار التي ملأته حتى خبّأته في أعماقها، داهمه صور هيروشيما وناغازاكي القديمة، وهي تحترق تحت الكتلة النارية الثقيلة! رأى تلك الغيمة الكبيرة التي تشبه نبتة فطر عملاقة، محاطة بحلقات وهالات كثيرة، بيضاء ثم صفراء ثم رماديَّة ثم سوداء. ثم الطفلة التي احترق لباسها على جلدها. ثم رأى جدّ أمايا تسوتومو يماغوشي[1] وهو يُرمى بعيدًا عند محطّة القطار، ككيس من النفايات الصدفة التي أوجدته هناك لحيازة عقود لصالح البحريَّة لشركة ميتسوبيشي[2]، هي نفسها التي أنقذته مرَّتين. الأولى في هيروشيما والثانية في ناغازاكي، لدرجة أن ظنّ أنَّها القنبلة نفسها التي كانت تطارده. يومها أصبح الإباكوشا[3] الوحيد المعترف به دوليًا.

أغمض عينيه لكي لا يرى المشهد الذي سكن مخّه، حتى وهو في مخبر بنسلڤانيا للأبحاث النوويَّة. ولكنّ الريح العاصفة التي خلّفها الانفجار قذفت به في أعالي السماء. فرأى كلّ شيء من الأعالي. كلّ شيء كان يحدث أمام عينيه. يتطاير كما لو أنَّه كان يحدث في اللحظة نفسها. في البداية سمع ضجيج المكاتب التي كانت تُفتح وتُغلق أصوات بعض الإداريين الذين يملأون الممرّات. فجأة اتّضحت صورة هاري ترومان. جويليه ١٩٤٥. رآه يرفع يده كما تعوّد أن يفعل دومًا في عزّ قيظ شهر أوت ١٩٤٥، ويعطي الأمر بالهجوم على اليابان بالقنبلة النوويَّة. بدأت التواريخ تنزل في تعاقب، وكأنَّها أرقام لعبة ضوئيَّة في

(١) Tsutomu Yamaguchi

(٢) Mitsubishi Heavy Motors

(٣) Hibakusha: الناجون من التفجيرين النوويّين في هيروشيما وناغازاكي.

مي لاسفيغاس، حتى استقرَّت على تاريخ ٦ أوت، وتمّ تثبيت ما. ليعقبها أزيز طائرة كانت ظلالها المخيفة، فوق الغيم، تتشكّل وان أسطوريٍّ. فجأة، فتحت أبوابها التحتيَّة فنزلت القنبلة ليتل بويِ على هيروشيما المستكينة. لتنتشر بعدها غيمة كبيرة مكوّنة هالة على المدينة. ويموت في ظلّها، في ثوانٍ محدودة، أكثر من ٢٠٠ ألف إنسان، كلّ واحد كان في همّه اليومي الخاصّ. وكأنّ الشهيَّة صحت أكثر، بعد ثلاثة أيَّام، يوم ٩ أوت، في المشهد نفسه، وهذه المرّة في سماء صافية، نزلت *فات مان*[1] على سكّان ناغازاكي، مخلّفة وراءها أكثر من ٧٠ ألف ضحيَّة. لم يكن الأمر أكثر من مجرَّد انتقام لهزيمة ٧ ديسمبر ١٩٤١ في بيرل هيربور **Pearl Harbor** التي خلّفت وراءها ٢٤٠٣ بحّارًا أميركيًّا، ودمَّرت جزءًا مهمًّا من البحريَّة الأميركيَّة. الذين ماتوا في هيروشيما لم يكونوا يعرفون السلاح، بعضهم كان يكره الحرب. البقيَّة كانوا أطفالاً يظنُّون أنَّ الحروب وُجدت للكبار فقط. رأى في غفوته جماعة الهيباكوشا يركضون وراءه لمحاسبته. لم يعرف حتى لماذا كان غاليليو يتقدّمهم. طلب منه أن يقترب. *اقترب يا ابني اقترب* آكلك. كان خائفًا منه. سمعه يردِّد على مسامع الذين كانوا يلبسون السواد من الهيباكوشا ويدفعون بآدم بقوَّة ليقف أمام غاليلو. سأله:

- ما الذي يخيفك يا ابني؟

- ماذا لو سبقت ألمانيا واليابان في صنع القنبلة الذرّيَّة إذن؟ العالم كان سيتغيَّر.

- لن يتغيَّر العالم. سيكون على ما هو عليه اليوم، فقط بتغيير طفيف في الأدوار. سيكون هناك أموات وجرحى وناجون من الحرب،

---

(١) Fat Man

ومحاكمات طوكيو أو روما بدل برلين وبدل ونورمبورغ. وستمح
شعوب من على وجه الأرض، ولكنَّها سرعان ما تنبت من جديد
عمق الشوك.

- غاليليو! البشر لا يتشابهون. هناك ظالم ومظلوم.

- ما هي مساحات الظالم وحدود المظلوم؟ يتشابهون وأكثر
يتماهون.

- النوويّ أوقف الحرب.

- وقتل أكثر من نصف مليون، إذا أضفت إليه الربع مليون من المعطوب
والمرضى اللّاحقين بالسرطان والتشوُّهات الخلقيَّة، سيصبح العد
مفجعًا.

- ولو طالت الحرب، لكان عدد الأموات أكثر.

- الذي ينساه الناس هو أنَّ القنبلة النوويَّة قتلت هذا العدد المخيف في
الثواني الأولى من سقوطها على رؤوس الناس، ماذا لو ركبت اليابان
رأسها وتعنّتت؟ قائمة المدن المؤهَّلة للإبادة وقتها كانت كثيرة
كادت تباد كيوتو[1] وكوكورا[2] لولا تدخّل هنري ستيمسون[3]،
سكرتير الحربيَّة وقتها، الذي أحبّ كيوتو، لأنَّه يعرفها بحكم أنه
قضى شهر العسل فيها. تخيّل العبث!! شهر العسل ينقذ مدينة وآلاف
البشر. وقف يومها بصرامة ضدّ غباء الجنرال ليسلي كروفز[4] ومنعه
من تدمير كيوتو. الجريمة مثل الموت، لا يشبع صاحبها بعد ارتكابه
للفعل الأوَّل. بقدر ما تتعدّد وتكبر، تصبح عادة. يد باردة بلغة باردة

---

(١) Kyoto

(٢) Kokura

(٣) Henry L. Stimson

(٤) Leslie Groves

رها . انظر إلى هذه الورقة(١)، الإذن ببدء ارتكاب الجريمة .

---

le 25 juillet ١٩٤٥

À l'attention de: Général Carl Spaatz,

Commandant général,

Forces aériennes stratégiques des États-Unis

1. Le 509e Groupe, 20e de l'Air Force larguera sa première bombe spéciale dès que le temps permettra un bombardement visuel,

ceci dès le 3 août 1945 sur une des cibles: Hiroshima, Kokura, Niigata et Nagasaki. Pour transporter le personnel scientifique militaire et civil du département de la Guerre chargé d'observer et enregistrer les effets de l'explosion de la bombe, des appareils supplémentaires accompagneront l'avion transportant la bombe. Les avions d'observation se tiendront à quelques milles du point d'impact de la bombe.

2. D'autres bombes seront larguées sur les cibles citées ci-dessus dès que l'équipe du projet les aura rendues opérationnelles. Des instructions supplémentaires seront données au sujet d'autres cibles que celles listées auparavant.

3. La publication de tout ou partie des informations concernant l'utilisation de l'arme contre le Japon est réservée au Secrétaire de la Guerre et au Président des États-Unis. Aucun communiqué sur le sujet ou diffusion d'informations ne seront faits par les Commandants concernés sans une autorisation spécifique d'une instance supérieure. Toutes les nouvelles seront envoyées au département de la Guerre pour une prise en charge spécifique.

4. La présente directive vous est transmise sous la direction et avec l'approbation du Secrétaire de la Guerre et du Chef d'État-Major US. Il est demandé que vous transmettiez personnellement une copie de cette directive au général MacArthur et une copie à l'amiral Nimitz pour leur information.

THOS. T. HANDY

Général, G.S.C.

Chef d'État-Major

copie pour le Général Groves

هزّ آدم رأسه بعد أن قرأ الأمر، والتفت نحو الفراغ حتى ...
غاليليو إلى الأدخنة:

ـ هل ترى شيئًا من وراء الأدخنة.

ـ لا شيء يا سيّدي.

ـ انظر جيّدًا.

نظر من وراء الأدخنة المؤكسدة، آثار قنبلتي اليورانيوم والبلوتونيوم. فجأة تبدّى له وجه طفلة واضحًا، والنار تشتعل في ... أعضائها، عرف ملامح يونا الناعمة مثل أمّها. صرخ.

ـ لا، ليست يونا. ليست يونا.

ـ لا، هي. هل رأيت يا آدم ماذا فعلت أنت وجماعتك؟

ـ لم أر شيئًا. الموت هو الموت في كلّ مكان.

ـ ما زلت تكابر.

ثم رفع غاليليو يده عاليًا، وسُمِع صدى الصفعة من بعيد. صرخ آدم من شدّة الألم لاااااااااا.

ثم قام مرتعشًا، يده اليمنى على خدّه، يبحث عن أيّ شيء يتشبّث به في الفراغ؟

لم يجد إلّا كتبه أمامه تملأ المكتب الذي نام عليه، وتعطّر بروائح أوراقها.

لا يدري لماذا تذكّر كلمات ليتل بروز يوم طلب منه سميث العودة إلى العمل على مشروع قنبلة الجيب *PBPu1* و*PBPp2* الذي ظل يشغله حتى وهو في فراش الخوف.

«ـ إضرابك لم يوصلك إلى شيء. في كلّ الأحوال هو موت عناديّ لا يفضي إلى شيء. وعنادك يقتلك. أمثالك يفترض أن يموتوا حتى قبل

أن يصلوا إلى هذا المكان. سياستنا: من أراد أن يموت نفتح له الطريق ونسهّل من مهمّته. حافظنا عليك، لأنّنا رأينا أنّك تتعلّم بسرعة. وأنّك شخصيّة كبيرة ومهمّة في مشروعنا الإنساني الكبير. مشروع *PBPu1* و*PBPp2* الذي لن نتنازل عنه لدرء مخاطر القتلة. أنت اشترطت على سميث رؤية أمايا مقابل العودة إلى العمل على قنبلة الجيب. قلتَ له *أفضّل الموت داخل هذا القفر على الانصياع لأيّ أمر. وسأعود إلى الإضراب عن الطعام كما في المرّة الأولى، عندما عاملوني أقلّ من سارق. احتججت وأخبرت رابطة حقوق الإنسان الآيل إلى الزوال. الموت أهون*. هنا كان خطأك الأكبر، لأنّك فكّرت أنّه فوق ليتل بروز يوجد بيغ بروذر! البيغ شاخ يا عزيزي آدم. وهو الآن في فراش الموت. نحن اليوم من يصنع التاريخ الجديد. أعرف أنّك الآن تغيّرتَ كثيرًا، وأصبحتَ ترى الأشياء بموضوعيّة أكثر. قلوبنا ليست مغلقة. في هذه ننتصر لك، لأنّ قلوبنا هشّة تجاه الحالات الإنسانيّة. سترى أمايا. نعرف أنّكما كنتما زوجين جميلين، متّفقين في كلّ شيء، بعدها افترقتما، اخترتما الصداقة، ولا أحد منكما قبل أن يتزوّج بعدها. جمعتكما يونا وأحلام كثيرة لم تجد طريقها، لأنّها كانت رومانسيّة كثيرًا. اخترتَ النار واختارت هي أن تكون في المطافئ. اكتشفتما فجأة أنّكما كنتما داخل الكلمات فقط. ما معنى اليوم ألفاظ رنّانة.. كحقوق. عدالة. مواطن. حرّيّة. حقّ. نبل. وفاء. سخاء. حقد... مجرّد خردة. العالم اليوم للأقوى يا عزيزي. ظلّت وفيّة لك، وظللت متعلّقًا بها. نقدّر هذا، ولكنّنا لا نوليه أيّ اهتمام. تستحقّ حالتكما أنت وأمايا أن تدرج في حوليّات العشّاق المساكين. هذا لا يناسبنا مطلقًا في القلعة يا عزيزي، العلاقات الحرّة مصيدة للفساد والتلاشي. نقدّس

العائلة تقديسًا كبيرًا. تفكُّك العائلة هو تفكُّك البلاد في نقط[ها]
الجوهريَّة. نرفض أن نكون عرضة لهذا التفكُّك الذي يجتاح العال[م]
لأنّنا أكبر عائلة. بيغ بروذر شاخ يا آدم، ولن ينفعك في شيء. [م]
ليس معنا ليس عدوّنا فقط، يجب أن يُمحى. إنسانيُّون إلى أقص[ى]
الحدود، لكنّنا نحارب العواطف الفارغة، فهي مورّطة. قوانيننا [في]
قلعة أميروبا صارمة.

- لكنّي، يا ماريشال، لا أقبل بموت يُفرض عليّ، أو بحياة تُسرق منّي
هتلر أيضًا كان له هذا المشروع الذي تصوَّره، فقتل ناسًا بغير حق.
وجد نفسه في أكبر مجزرة خلّفتها البشريَّة للتاريخ بعنادها وجنونه[ا]
وجشعها الأعمى. فخسره وخسرت البشريَّة أكثر من خمسين مليو[ن]
كائن، لم يكن لهم أيّ ذنب سوى أنَّهم وجدوا أنفسهم على هذ[ه]
الأرض في زمانه، وفي عمق النار.

- قصدك أنّي أشبه النازيين؟

- لم أقل هذا.

- ليكن. قلتَه بخجل. تعرف أين كانت حماقة هتلر؟ ليست في الجرائم
التي ارتكبها، ولا حتى في الهولوكست، فهو في هذه لم يتفرّد. لكلّ
شعب من الشعوب هولوكوسته المتخفّي الخاصّ به. لكلّ سلطة
قسوتها وجرائمها الكثيرة. غلطته الكبيرة أنَّه لم يؤمن بشكل أعمى
بمشروعه، فتلاشى. كان عليه أن يتحوَّل إلى إله، لا إلى نبيّ أو طاغية
صغير فقط، يحرس المشروع البشريَّ بالنار واليد الممدودة، لا أن
يصغِّره بالطريقة التي سلكها بلا أدنى قسط من الذكاء. نحن مؤمنون
بما نقوم به، ونمحو، عند الضرورة، كلّ من يخرج عنه، ونسحب
نحونا، ليس كلّ من يريد ذلك فقط، لكن من نرى فيه ما نريده نحن.
ربَّما الخلاف في الدرجة فقط، لكنَّ الدرجة جوهر الأشياء؛ إذ ما قيم[ة]

الذرّة بلا نواة، وما قيمة النواة بلا نيوترونات وبروتونات؟

ببساطة هذا هو سلطان القوّة العمياء.

- لا حتى القوّة العمياء. كان هتلر سيّد نفسه فقط. عندما انهارت نفسه، سقط معه كلُّ شيء. كان هو النظام. نحن لا شيء. النظام فوق الجميع. لا أحد يراه. هو تداخل الأسنان في العجلات التي تولد الحركة من تلقاء نفسها، مثل الساعة تمامًا. يذهب فلان، ويأتي فلان، لا شيء يتغيّر. نروي هذا النظام بعرقنا ودمنا. من شاء تحطيمه يتحطّم. لأنَّه ليس بشرًا يُمحى أو يُقتل. الماريشال ينتهي، النظام يستمرّ. لا تخطئ يا آدم. لا أشكّ في إنسانيّتك، لكنَّ الانتماء إلى النظام مهمّ، إلى القوميَّة الضيّقة قاتل. يمكنك أن تكون أميركيًا صافيًا، أو آرابيًا صافيًا أيضًا، أو آرابيًا أميركيًا، أو أميركيًا آرابيًا، هذه العلاقة الرباعيَّة لها مئات الاحتمالات التي تدفع إلى الجنون. الذي يهمُّنا في كلّ هذا: ماذا تقدِّم للحفاظ على النظام وتطويره ليستمرّ أكثر، ولا يموت أبدًا في ظلّ تحوّلاتٍ دوليَّةٍ شديدةِ الخطورة. قايضتنا بزوجتك، ونحن استجبنا للمقايضة.

أنا لم أقايض يا ماريشال ليتل بروز، لكنّي لا أعرف حتى إذا ما كانت زوجتي حقيقة حيَّة أم ميّتة. كلّ شيء تمّ بشكل سريع. العمليَّة كانت قاسية، وكانت أمايا قريبة جدًّا منّي، على بعد أمتار، حتى إنّي رأيت ابتسامة دهشتها وهي تعبر الطريق باتّجاهي، وكأنّها كانت تعتذر عن تأخُّرها، قبل أن تتوقَّف الصورة نهائيًا وتنطلق الرصاصة الأولى. ثم رصاص كثيف، ثم يد دفعت بي نحو سيّارة انطلقت بسرعة خارج دائرة الرصاص. رؤية أمايا ليست شيئًا كبيرًا، بالنسبة لكم، لكنَّها كلّ شيء بالنسبة لي يا سيّدي.

طبعًا كلّ شيء، لأنّها أنت. ترى فيها ذاتك. لا تريدها أن تموت،

لأنَّك تريد أن تظلّ. ستراها. وعد من الماريشال. ستراها، وستع[illegible] أنَّ صرامتنا العسكريَّة لا تمنعنا من أن تكون لنا قلوب كما جم[illegible] البشر».

لم يكن آدم خائفًا من أيّ شيء ممّا كان يحيط به، ولا من [illegible] ولا أبحاثه. لكنَّه شعر في لحظة من اللحظات بأنَّه كان يركض بسر[illegible] كبيرة، أكثر ممّا يجب، لكنْ خارج الزمن؛ وبأنَّ وجه أمايا أصبح قر[illegible] أكثر من أيّ زمن مضى، لكنَّه قاهر؛ وبأنَّ حبيبته وابنته يونا هما [illegible] تبقّى له من سلام داخليّ، من رحلة الخوف التي لم تنته.

تأمّل آدم مكتبه المثقل بالوثائق والكتب، ثم التفت نحو النافذ[illegible] التي تسرّب منها شعاع شديد الصفرة.

٤ ـ رَآهَا إذْ تَراءَتْ لَهُ

هبّوا يا أحرار العالم. . لا تتركوا البربريّة تصبح سيّدة.
سنخسر الكون والشمس والسماء، إن نحن صمتنا.

نشيد قلعة أميروبا الوطني. ترجمة تقريبيّة

ـ ١ ـ

اد، عزيزي. أنتظرك في غرفتي. عليك أن تكون رياضيًّا وفي صدرك أوكسجين كافٍ لتستطيع أن تصعد الخمسين درجة الملتوية، وإلّا ستذهب كلُّ أنفاسك التي تدَّخرها لأجمل امرأة تنتظرك في مكان ما.

أيّة امرأة يا سميث في مكان مغلق وجافّ كهذا!

ـ قل هذا الكلام لغيري، وليس لي. . . ههههه اليوم تعود إيڤا من السدّ، هل أنت على علم بذلك؟

قال سميث ضاحكًا. غمزاته مفضوحة من أيَّام علاقتهما الأولى:

ـ لا أعرف، حقيقة. لم تقل لي. آخر مرَّة، قالت إنّها ستبقى مدَّة أطول، حتى بعد عمل فرقتها. كوَّنت علاقات كثيرة مع سكّان المنطقة، ويبدو أنَّ الناس يحبُّون ما تقوم به من أجلهم.

ـ النساء العاشقات مثل القطط، يتعوَّدن بسرعة على المكان والأنفاس واللغة، فيتعلَّقن بذلك.

ـ أيَّ تشبيه عنصريٍّ يا سميث. . . غريب! غاب الماريشال، حلّ محلّه سميث.

قال آدم ضاحكًا، موجِّهًا كلامه لسميث:

- على أيِّ حال، أوَّل ما أرى لاورا سأحكي لها عن جرائمك ضدِّي.

اهتزّ سميث قليلاً لسماع كلمة لاورا، لكنَّه سرعان ما تدارك أمره، فلم يبدِ أيَّ شيء.

- المهمّ، أنتظرك في غرفتي. أحتاجك هذا المساء لشيء آخر.

لا يوجد مصعد في إقامة سميث، للذي يزوره عليه أن يتحمّل صعود خمسة طوابق، أدراجها حلزونيَّة كما كلّ القلاع القديمة، وإذا حسبنا الطابقين تحت الأرض، ستصبح سبعة طوابق. لهذا، عندما دعاه لغرفته نبَّهه. اعتبرها آدم واحدة من خرجات سميث، لكنَّها لم تكن مجرَّد خرجة. حتى حديثه عن إيفا، لم يكن عفويًّا كما العادة. لا بدّ أن يكون قد لاحظ ارتباطًا ما، كما أحسَّه هو في أعماقه. أحسّ براحته بالقرب منها، وشعر مثله أيضًا بطعم حضورها الذي يشبه الفراولة. لا يدري من أين جاءه هذا التشبيه الغريب بفاكهة لا تعني له الشيء الكثير. ربَّما لأنّ عطرها مصدره فراولة، فحمل بعض خصائصها. عندما ضمَّها آخر مرَّة وهي تهمّ بتوديعه، شمّ مرَّة أخرى وعن قرب، الرائحة نفسها، العطر نفسه، بل الطعم نفسه. سألته وقتها *هل أعجبك؟* قال بدون تفكير. *جدًا. لا يعطّرك أنت فقط، ولكنَّه يعطّر المكان كلّه*. أجابت بضحكة جميلة ارتسمت في عينيها قبل شفتيها: *ربَّما لأنَّك تحبّ هذه الفاكهة*. ضحك، وهو يمرِّر يده على كتفيها كما تعوَّد أن يفعل مع كلّ الناس المقرَّبين: *بكلّ تأكيد ليس هذا، لأنَّ هذه الفاكهة لا تعني لي الشيء الكثير. ولو أنّي في إحدى رحلاتي إلى فلسطين أحببتها، لكنْ لأن هذه الفاكهة الهشَّة والجميلة تركب بالضبط على جسدك وقلبك الجميل*. قالت بدون أن تتمالك فرحتها: *واووووو... كلّ هذا الحظّ!*

عندما وصل إلى الطابق الخامس، لم يكن تعبه كبيرًا، ولكنّه ا مسّ بالمسافة. وجد الباب مواربًا قليلاً، على غير عادة سميث الذي .حذ احتياطاته بمواجهة كلّ شيء، حتى التفاصيل الصغيرة التي لا ..اح لها. يقول عن نفسه: *العسكريُّ ثعلب، يعرف كلّ شيء بحاسّة .مّه؛ إذا لم يكن كذلك، من الأحسن أن ينام في حجر زوجته .يمنحها الحبّ والأولاد.*

دقّ آدم بشكل خفيف. سمع صوتًا من الداخل يدعوه للدخول:

ـ أدخل عزيزي آد. أدخل.

ـ شكرًا.

حدّثه من داخل الحمّام:

ـ كيفك مع الأدراج؟

ـ متعبة قليلاً، ليس بسبب الارتفاع، ولكن بسبب النمط الحلزونيّ، مثل كلّ البنايات القديمة؟

ـ لا تنس أنّها قلعة، وليست نزلاً خمس نجوم. أكيد غرفتك الجديدة أفضل. اعذرني على هذه الفوضى.

ـ أوسع قليلاً. واللّون عندي أبيض وعندك رمادي.

ـ خيارك على ما أعتقد؟ المهمّ أن لا يُفرض عليك شيء لا تحبّه.

قال سميث، وهو يمسح شعره بالمنشفة البرتقاليّة، ويتهادى على الكنبة الهوائيّة القديمة:

ـ أنا أحبّ هذا اللون، لأنّه لا يعكس شيئًا: لا فرحًا ولا حزنًا، لا خوفًا ولا شجاعة، لا حياة ولا موتًا، لا وفاء ولا خيانة، لا عشقًا ولا كرهًا. لا شيء. لا تفاؤلاً ولا تشاؤمًا. حياديّ بامتياز.

ـ مع أنّك رجل مقدم بشراهة على الحياة.

ـ الحياة حظّ عظيم. ربَّما كنّا نحن الذين نشتغل في مخابر الموت أ...
إدراكًا لقيمة الحياة. هو ما لا يعرفه الناس. ماذا تشرب؟ بيرة كالع...
أو ويسكي؟ النبيذ للأسف هنا غير موجود.

ـ أفضّل كأس ويسكي.

اتّكأ آدم قليلاً ساحبًا ظهره إلى الوراء، ربَّما من كثرة الجلو... على كرسيٍّ ثقيل. لأنَّه في الأيَّام الأخيرة لم يرتح أبدًا، بالخصو... بعد التقدُّم الكبير الذي أحرزه المشروع. كان عليه أن ينسى كلّ شي... ليستمرّ في عمله. حتى التجارب المخبريَّة في التحكُّم في حالة انتش... الغبار المشعّ كانت جدّ مثمرة، وأصبح التحكُّم فيها ممكنًا. لم يسأ... سميث عن سبب الدعوة. ربَّما تعلّق الأمر ببعض تفاصيل العمليّا... المخبريَّة، كما تعوَّد أن يفعل معه حتى خارج أوقات العمل، أو في... مدرّج المطار الذي أصبح مضمارًا للجري، يرتاده آخرون أيضًا، في... الجناح الجنوبيّ من القلعة.

انتبه آدم فجأة للصور الموضوعة في الزاوية، على طاولة قديم... صغيرة. اقترب منها.

ـ هل تتذكَّر؟

قال سميث ضاحكًا:

ـ طبعًا. لم أصب بعد بالألزهايمر. لاورا. أعرفها بكبرياء أهل شما...
إيطاليا، وحركات يديها التي لا تتوقَّف. خرجت من سلطان والده...
الذي، على الرَّغم من ولادته في نيويورك، ظلَّ إيطاليًّا في عقل...
وطبخه ونمط حياته. وحتى الكثير من تصرُّفاته.

ـ لاورا رائعة وشجاعة. سلكت طريق التعليم، لأنَّها ترى فيه حياته...
وجوهرها. لم تغيِّرها السنوات كثيرًا مثلنا، لقد سرقت منّا حيا...
المخابر والظلمة الكثير من النور. ما تزال لاورا مشرقة. ابتسامته...

ـمسها. نظرتها السخيَّة. طيبتها. ما تزال دائمًا في التدريس؟
ـ توفيت قبل ثلاث سنوات.
قالها سميث بشكل بارد.
ـ ربما الفراغ الذي خلَّفه غيابها فيّ، هو ما جاء بي إلى هذا المكان.
ـ عذرًا يا عزيزي. لم أكن أعرف.
ـ لا عليك. نظام الحياة هكذا، وعلينا أن نتحمَّل قسوته يا عزيزي. الشابّ الذي على اليمين، جونتان، ابني. أنت لا تتذكَّره. ابنه صغيرًا. جونتان اختار حياة أخرى لا تشبه في شيء طريقي. كان مثل أمّه، يكره كلّ ما هو عسكريّ. توجَّه في دراسته نحو التسيير البنكيّ. نجح جيِّدًا في عمله حتى التحق ببورصة نيويورك. عندما يحكي هو وأمُّه عن الأرقام، كنت أضحك طويلاً ثم أذهب للنوم، لأنّي لم أفهم شيئًا أبدًا على الرَّغم من جهوده معي. في النهاية، كان يخبئ ابتسامته بصعوبة. يقبّلني على جبهتي ثم يحضنني مثل طفل صغير، ويقول لي: *بابا، للأسف ميؤوس منك*. يضحك عاليًا قبل أن ينام.
ـ يشبه أمّه كثيرًا. يبدو فيه من طولك وشعرك في شبابك، لكنْ ذكاء لأمِّه. عليك أن تقبل بهذا... هههههه.
ـ توفِّي في انفجار في بناية البورصة في نيويورك، قبل أربع سنوات في العمليَّة التي نفَّذها *التنظيم*.
ـ واووووو يا الله. ما هذا؟
ـ تقبَّلت وفاته مع الوقت بصعوبة. شعرت بظلم قاهر. لكن... تعرف يا عزيزي آد، زمان كان يُقال إذا عمّت هانت. لم يكن جونتان أفضل من الـ ١٥٠ الذين تركوا أرواحهم في بنك البورصة، ولا أنا أفضل من أهاليهم. لكن لاورا لم تكن لها صلابتي. لم تتحمَّل أبدًا. كان

وحيدها، وجعلت منه نسخة طبق الأصل منها. كنت أحيانًا أغضب من هذه التربية التي كانت تبدو لي فيها الكثير من الأنوثة والدلع، لكنّي مع الزمن بدأت أسأل نفسي بجدّيّة: ماذا منحت لهما سوى غياب مستمرّ، وموت محتمل، يتهدّدني في كلّ ثانية. انكسرتْ كثيرًا أصبحتْ تكره كلّ شيء، حتى الكلام.

جلس. تأمّل قليلاً السقف، ثم الفراغ. رفع كأسه:

- في الحياة، يا عزيزي آدم، دومًا متّسع لشيء آخر. كأسك. وكأس هذا المشروع الذي لن يكون إلّا ناجحًا، وحربًا بلا هوادة ضدّ التنظيم الذي سرق من هذه الدنيا شمسها وعفويّتها.

- كأسك. كأسنا جميعًا، بحلوها ومرّها.

- طبعًا، جئت بك إلى هنا لشيئين. أوّلاً، هذا المكان لا يدخله الماريشال، فيما أعتقد على الأقلّ. لقد انتهينا البارحة من الشكل الأوّليّ للبوكيت بومب مع مهندسي الصواريخ، الذين يتابعون معنا العمل عن قرب، فقد أصبحت قابلة للتصنيع، ولكن ليس قبل أن نتمّ أعمالنا المخبريّة بشكل نهائيّ. هذا، سترى تفاصيله غدًا. ثانيًا، وهو ما أريد أن أخبرك به، ربّما يفرحك. في هذا يجب أن تشكر ويليام كثيرًا. فقد تحصل على الموافقة من الكلّ بما في ذلك الـ FBI، وأعتقد أنّ الأمر سيسعدك.

- حيّرتني؟ FBI، وكأنّنا في فيلم بوليسيّ.

- لحظة.. انظر معي هذا الشريط، وقل لي رأيك في النهاية. فيه نصف ساعة تقريبًا وغير مملّ. خمس عشرة لقطة، بعضها مفصّل وبعضها الآخر قصير. المهمّ، هو ما فيها بالضبط من أحداث مكثّفة. هل أنت معي؟

- طبعًا. تابع جيّدًا، ولا تتكلّم معي حتى النهاية.

ثم أخرج من دُرْج الخزانة الصغيرة، مفتاحًا صغيرًا USB، ووضعه في الجانب التحتي من جهاز أسود. ضغط بأصبعه، فارتسمت الشاشة بمساحة الحائط كلِّه. ثم عاد ليجلس بجانب آدم. كانت الصور في حالاتها الأوَّليَّة، مركَّبة بشكل متلاحق، وبدون تقنيَّة كبيرة، ولا جهد فنِّيّ. صور وبياض من حين لآخر، ونقاط سوداء مثل الأفلام القديمة التي تظهر فيها واضحة أماكن التقطيع واللصق.

تابعها لقطة لقطة.

١ ـ تظهر باريس تحت الثلج مدينة شهيَّة ورومانسيَّة جدًّا. تتماهى الصورة مع مطار رواسي شارل دو غول ٢. الكاسحات وهي تنظِّف المطار من الكتل الكبيرة من الثلج. الطائرات جاثمة باستقامة. بعضها ينزل، والقليل منها كان يطير. لا طير في السماء. ثم طائرة *أميركان آيرلانز*. تنزل بهدوء، تتبعها الكاميرا حتى تمسّ الأرضيَّة تحت وابل من الماء. تتوقَّف، في نهاية مدرَّجها الخاصّ، محرِّكاتها النفَّاثة.

وضع آدم يده على فمه، وظلّ يتأمَّل المشاهد التي كانت تمرّ أمام عينيه، كما لو أنَّها أفلام خرجت من مخابر الأخوين لوميير في بداية السينما، أو شارلي شابلن. الفارق الوحيد هي أنَّها كانت بالألوان والصوت.

٢ ـ يظهر الركَّاب وهم ينزلون من الطائرة. من بينهم، تتَّضح هيئة آدم وهو يمتطي السلّم الميكانيكي، بقبّعته السوداء وكوفيَّته الحمراء، وحقيبته الصغيرة التي أهدتها له أمايا التي كانت قد سبقته إلى باريس قبل أسبوع لاستقبال والده مع أخته تالا وإدخاله إلى مستشفى فال دو غراس. عندما انتهى السلّم الميكانيكي، جرّ حقيبته وراءه.

٣ ـ يتوقَّف آدم قليلاً عند معبر شرطة الحدود، يُخرج جوازه الأميركيّ.

يقرأ ما هو مكتوب على اللوح الضوئي. *جهة الأوروبيين والفرنـ...*
وكلّ الجهات الأخرى، المخصَّصة لبقيَّة الجنسيّات. يسأل المـ...
الواقفة تحت اللّوح الضوئيّ، تؤشّر بيدها مع ابتسامة مشرقة، ...
الجهة الأوروبيَّة التي كانت شبه خالية. يقدّم جوازه لشرطيّة الحد...
تنظر إليه قليلاً. وفي ثانية واحدة تُرجع له جوازه.

٤ ـ بياض خفيف يبيّن أنّ الفيلم رُكّب على عجل. آدم وهو يصـ...
الأدراج الميكانيكيَّة. يغيب قليلاً وسط الوجوه الكثيرة قبل أن يظهـ...
من جديد، وهو يقف مع الذين وصلوا معه، لأنَّه لم تكن لديه أ...
أمتعة. يسير. يمرّ عبر حاجز الجمارك. يخرج من جهة الذين ليـ...
لديهم ما يصرّحون به.

٥ ـ بياض. ثم، وهو يجرّ حقيبته في وسط مطار عامر. الصورة مأخوذ...
من فوق. لكنَّه يظهر بقبّعته وكوفيّته الحمراء. يُخرج شيئًا من جيبه...
تليفون. يتلفن. صوته لا يصل. يهزّ رأسه بسعادة، ويرفعه وهو...
يحكي. ينظر إلى اللوح الضوئيّ الخاصّ بالطائرات التي وصلت.

٦ ـ يتّجه آدم نحو الباب الدوَّار الذي يؤدّي إلى الخارج. يظهر بشكل
أكبر. تخرج من فمه جملة بالكاد مفهومة، وهو على التليفون. لا
مشكلة، أنتظرك. الطائرة وصلت متقدّمة. ثم صوت غير مسموع.
يقفل على إثره التليفون. يضعه في جيبه. يخرج وهو يجرّ حقيبته.

٧ ـ في الخارج، الثلج يتساقط. يغطّي ظهور السيّارات والحافلات
ورؤوس الناس. حركة عاديَّة، تشبه حركة كلّ المطارات. المغادرون
يدخلون. والقادمون يخرجون. حافلات الهيلتون الرماديَّة، الصغيرة
والخاصَّة، تتوقّف. تأخذ المسافرين ثم تنطلق لتحلّ محلّها أخرى.
السيّارات الخاصَّة التي فضَّلت عدم التوقُّف في الباركينغ، والاكتفاء
بالموقف الموقّت الذي لا دفع فيه لمدَّة عشر دقائق.

٨ ـ صورة أُخذت من فوق، من طابق علْويّ في المطار أو من سطح قريب. سيّارة حمراء صغيرة تتوقّف في مكان التوقّف السريع والموقّت. عرفها. سيّارة أمايا. نزلت منها. كانت ترتدي معطفًا زهريًا. في جزئه العُلْويّ، المحيط برقبتها، صوف اصطناعيّ. تحته يظهر قليلاً لباس ورديّ خفيف منقّط بالأحمر مثل العَلَم اليابانيّ. على رأسها قبّعة حمراء. أشّرت بيدها وهي ترفعها عاليًا. قرأ بين شفتيها وفي عينيها: حبيبي. يرفع يده نحوها ويهمّ بالتقدُّم، بينما تضع مفتاح السيّارة في جيب حقيبتها الزهريّة الصغيرة.

٩ ـ فجأة، فصلت بينهما حافلة الخطوط الجوّيّة الفرنسيّة المتّجهة عادة إلى الأوبرا، أو إلى مطار أورلي، في دورات عاديّة، على رأس كلّ ساعة.

١٠ ـ فجأة، بياض. كأنّ الزمن توقّف. أصبح المشهد واسعًا. طلقة أولى جافّة. تفرّق الناس في كلّ الاتّجاهات. رجل يسقط على الرصيف. يرفع آدم رأسه قليلاً ويتراجع للدخول إلى المطار. يهجم عليه ثلاثة رجال يرتدون الأسود مثل الحرس الخاصّ. يغطُّونه كلّيًا. ثم يدفعون به في عمق السيّارة المحصّنة. رشقات الرصاص تزداد كثافة.

١١ ـ سيّارة سوداء كانت تقف في الزاوية، في الظلّ. تدور في مكانها دورة مجنونة. ثم تنطلق بسرعة وتخرج نهائيًا من المشهد.

١٢ ـ الرصاص يتكاثر. يسقط شخص كأنّه قُنّص من الأعلى. ثم ثان. جثّتان، واحدة لم تكن بعيدة عن حافلة الخطوط الفرنسيّة. وثلاث جثث لرجال يلبسون السواد. آدم داخل السيّارة بالكاد يظهر. يحوط الأمن سيّارة آدم. الكثير من الناس كانوا عاجزين عن القيام. يصرخون في أمكنتهم، بينما امتلأ مدخل المطار بسيّارات الإسعاف.

١٣ ـ صورة مكبّرة قليلاً. الحافلات لم تتحرَّك من مكانها. جانبه حافلة الخطوط الجوّيّة الفرنسيَّة التي فصلت بينهما، لم تتحرَّك من مكانها أيضًا. فيها الكثير من الثقوب، وزجاجها مكسور كلّيًا.

١٤ ـ سيّارات الإسعاف الكثيرة لا تتوقَّف. أضواؤها الملوَّنة والدوّار تملأ المكان، مع سيّارات الشرطة.

١٥ ـ بياض وصوت خفيّ لشريط كان يتحرَّك. ثم سواد.

ضغط آدم بيده اليمنى على فمه مرَّة أخرى حتى لا يصرخ.

أغمض عينيه بعد أن انسحبت من لسانه لغته. بقي في حالة وجوم كلّيّ. لا يدري ما إذا كان ما يراه حقيقة أو شيئًا تخيَّله. كيف خرج سالمًا من موت كان محتومًا. شبكة وجد نفسه في عمقها بلا سلاح ولا دراية، كأنّه كان يتفرَّج في فيلم بوليسيّ. هزَّه سميث ليخرجه من دهشته التي سحبته نحوه طويلاً. قام سميث من مكانه. نزع مفتاح USB من الجهاز الصغير. ثم ضغط على الحائط فانسحبت الشاشة.

اختلط كلّ شيء في رأس آدم.

ـ آدا! نحن هنا. استيقظ يا عزيزي. العرض انتهى. لا بدّ أن تكون سعيدًا أنَّك رأيت بعينيك أنّ زوجتك بخير، وأنَّ الكابوس كلّه انتهى، ولم يعد هناك ما يخيف.

ـ هل يُعْقَل؟

ـ نعم يُعقل. ألستَ من سلالة الذئاب التي تملك سبعة أرواح؟ الحياة يا عزيزي ليست نظامًا رياضيًا، ولكنَّها سلسلة من الصدف المجنونة.. وإلّا ما الذي ترك جوناتن يذهب في ذلك الصباح لعمله بعد نقاهة دامت أسبوعًا كاملاً بسبب حمّى قويَّة. مديره نفسه عندما سمع أنّ صوته ما يزال مكسورًا، قال له ابق يومين آخرين حتى تُشفى. فأجابه جوناتن: سأجرِّب اليوم. إذا لم أستطع سأخبرك. ما الذي قاده في

ذلك الصباح نحو البرود ستريت[1]، حيث بورصة نيويورك ستوك إكستشنج[2]، ولم يكن مجبرًا على ذلك؟ عطَّر نفسه كعاشق، وضرب موعدًا جميلاً لحبيبته ليأكلا معًا في مطعم قريب من برودوي[3]. الصدفة يا عزيزي التي اغتصبت شباب جوناثن، هي نفسها التي منحتك الحياة، فلا تستغرب.

- نعم الصدفة! لكنَّها بقدر ما هي مدهشة، فهي قاتلة ومدمِّرة.

- على كلِّ حال، هذا أنت في خضمِّ هذه الصدفة المخيفة التي لم تتوقَّعها أبدًا في حياتك. لو فقط سمعت لأمايا يوم قالت لك: *ابق. أنت وضعك صعب. لست إنسانًا عاديًا. سأذهب أنا ويونا لترى جدَّها. ونبقى معه ومع أختك*. لكنَّك ركبت رأسك. قلت *هذا والدي ويجب أن أراه. وضعه صعب. أن أودِّعه أو أفرح بشفائه*. في النهاية هي سبقتك إلى باريس. هو مات قبل وصولك، وأنت كدت أن تُقتل. لو ثانية إضافيَّة، كان يمكن أن تكون أمايا من عداد الأموات، لولا صدفة حافلة الخطوط الجويَّة الفرنسيَّة.

- يا إلهي! أكاد لا أصدِّق ما أراه.

- ها أنت ترى ما حدث مجرَّدًا من خوف اللحظة التي تمرّ ثقيلة. بسبب تنظيم سرق إرادة الله نفسها. بعض الصور نُشرت في الصحافة الفرنسيَّة بالتفصيل والتعليق، وفي الصحافة الأميركيَّة، لكن بدون صور كثيرة.. وبعضها الآخر، نراه لأوَّل مرَّة. الفضل كلّه، كما قلت لك، يعود لويليام. ألحّ قبل عودته على أن ترى الشريط في حالته الأوَّليَّة، حتى تدرك أنَّ الأمر كان مرتَّبًا.

---

(١) **Broad Street**

(٢) **New York Stock Exchange**

(٣) **Brodway**

ـ ماذا أساوي داخل هذا العالم ليموت من أجلي ثلاثة أشخاص بريئين!
ولكن! أمايا . . أين اختفت؟ رأيتها بالفعل، وحيّيتها. كانت ستنوقف
في الباركينغ التحت أرضي، لكنّي هاتفتها وقلت لها إنّي وصلت،
لهذا دارت قليلاً، وجاءت مباشرة باتّجاه التوقُّف السريع. رأيتها
تمامًا كما في الصورة، قبل توقُّف حافلة الخطوط الفرنسيَّة بيني
وبينها. أراها مثلما أراك الآن.

ـ غريزة الحياة والبقاء. المنطقيّ أن تكون قد اختفت من وراء الحافلة
ممّا يجعل سلامتها مؤكَّدة. هي لم تكن في مساحة الموت التي كنت
فيها أنت. ثم إنّ الحافلة على الرَّغم من تكسُّر زجاجها، فقد وفّرت
لها حماية لم تتوافر لغيرها. ثانية واحدة . . وكان كلّ شيء سيتغيّر
حتمًا، وتدخل في المساحة التي كانت ميدانًا للرصاص.

ـ أكاد لا أصدّق ما رأيته!

ـ الذين حموك، تركوا حياتهم في المكان نفسه. لو لم يرتموا عليك،
لكنت قد قُتلت، أو اختُطفت.

ـ والسيّارة السوداء التي هربت بمجرَّد بداية إطلاق النار، استغربتها.
التي وضعها صاحب الشريط داخل دائرة حمراء. ليس الأمر عفويًّا؟

ـ لا نعرف عنها أيّ شيء، لكنَّنا نفترض أنَّها طرف ثالث كان يريد
اختطافك أو قتلك. بعض المقالات تقول إنَّها مجموعة شادو،
المتخصِّصة في قتل نوويّ آرابيا. الجناة المباشرون عُرفوا وهم من
التنظيم. وقالوا إنَّهم كانوا يريدون اختطافك حيًّا، وإلَّا لكان
بإمكانهم قتلك. أحدهم، الشخص الذي سقط قريبًا من بين رجليك،
لولا القنّاص من فوق، لكان قد قتلك.

سالت دمعة من عينيْ آدم محمَّلة بدهشة الارتباك. وضع رأسه بين
يديه، شعر به يكاد ينفجر. ضغط عليه بقوَّة أكثر. قام من مكانه،

وندحرج بصعوبة نحو الحمَّام. غسل وجهه العديد من المرّات. ثم تناول قرصًا مهدِّئًا قدّمه له سميث. عاد ليجلس في مكانه، وهو يشعر بدوار أرهقه، كأنّه كان يحمل على ظهره أثقالاً.

ربت سميث على كتفه، وهزّه قليلاً.

- كلّ شيء انتهى يا آدم. أمايا بكلّ الخير. على الرَّغم من أنّ الفاجعة كانت كبيرة. وأنت خرجت سالمًا من شَرَك حقيقيّ. غريزة البقاء أحيانًا تكون أقوى من عقولنا المتعبة.

- لا أدري ماذا أفعل أمام الذين حموني! تعرف عندما روى لي ماكنور ستيفنسن الحادثة، في السفينة الحربيَّة الضخمة، لم أصدِّق أنَّ الأمر حدث بكلّ هذا العنف وهذه القوَّة. ظننته يواسيني ويضخِّم الأشياء كما يشاء. لا بدّ أن أعتذر يومًا لهؤلاء الذين منحوني حياتهم لإنقاذي من تنظيم أعمى.

- ليس أعمى ما دام يختار ضحاياه بدقّة. يمكنك طبعًا أن تزور قبورهم. الأوَّل هو *مارتن* من البحريَّة الأميركيَّة الذي أسقطك ورمى بنفسه فوقك، وهو من تنيسي. الثاني سيمون بيكر، من كارولينا الجنوبيَّة، شابّ رائع، تزوَّج لسنة قبل الحادث. لم ير ابنته التي وُلدت بعده. الثالث يونس، ضابط شرطة فرنسيّ، في خليَّة مكافحة الإرهاب، من ضواحي باريس، من سارسيل.

- عليهم الرحمة. أُدين لهم بكلّ شيء. بالحياة تحديدًا.

- ماتوا من أجل حمايتك، لأنّ تلك مهمّتهم النبيلة، مؤمنين بما كنت تقوم به للإنسانيَّة.

- لكنْ. . . أين اختفت أمايا؟ حافلة الخطوط الجوِّيَّة التي لعنتها لحظتها، أُدين لها الآن بحياتها.

- هي بخير. ويبدو أنّها هي من قدَّم شكوى رسميَّة باختطافك. ربَّما لا

تعرف المكان لأنَّه سرِّيّ، ولا يمكن الوصول إليه إلّا بإذن معقّد. لكنّك ستراها حتمًا. ألم يعدوك كلّهم.

ـ بلى.. بلى.

ـ خلاص. ارتح الآن.

ـ فعلاً، أريد أن أنام قليلاً. أو ربَّما أجري. منذ أسبوع بين المخبر والنوم ومطعم الغيست.

خرج. رأى المدرَّج فارغًا. والرطوبة جميلة. حتى إنّ هناك بعض القطرات المائيَّة.

ركض نحو غرفته. ارتدى لباسه الرياضيَّ، ثم نزل بسرعة.

في الأدراج التقى بسالم صاعدًا خطوة خطوة.

ـ سيِّدي، امرأة تُدعى إيفا تريد أن تراك. ستصل بعد نصف ساعة من السدّ.

شعر في أعماقه بهزَّة خفيفة تشبه هزَّاته الطفوليَّة القديمة. كان في القرية، على حافّة الجبل الذي أقامت فيه عائلته، كلَّما سمع صوتًا خاصًّا يناديه باسمه، قفز في مكانه، لكنَّه بمجرَّد أن يخرج ويركض باتّجاهه يجده قد انسحب. ظلَّ هذا الصوت برفقته زمنًا طويلاً حتى سفره للدراسة والنظام الداخلي، ثم حصوله على منحة دراسيَّة للمتفوّقين في الخارج، ظلَّ يستيقظ فيه. انتابه، حتى وهو يقف أمام رئيس الجمهوريَّة يوم استقباله للمتفوّقين الممنوحين، الذي همس في أذنه سنوات قبل موته مسمومًا ومقعدًا في مكتبه: *ستستفيد من منحة دراسيَّة علميَّة. اجتهد وعِدْ لنا لبناء شيء في وطنك ولا تفعل مثل الآخرين، يأكل في الغلّة ويسبّ في الملّة. هل تعدني؟* تمتم يومها كما كلّ الناجحين أمام مسؤول كبير: *أعدك يا سيِّدي*. حتى وعمره تجاوز الخمسين، لم يغادره هذا الصوت، إذ يأتيه أحيانًا في الأحلام، يحاول

ان يضع عليه وجهًا، لكنّه لم يفلح أبدًا.

ـ على أيّ حال، أنا اليوم مشغول جدًّا. لكن لا بأس. فور وصول إيفا، قل لها إنّي في المدرَّج القديم، تعرفه جيّدًا. وإذا تأخَّرت أكثر، سأراها في مقهى الحديقة.

ـ أوكي.. سأقول لها يا سيّدي.

بعدها، لم ير شيئًا إلَّا البياض الذي كان يتّسع في كلّ لحظة أكثر، والمدرَّج الذي أصبح منذ مدَّة قصيرة ملتصقًا بالملعب الكبير في القلعة، ممّا يوفّر مساحة أكبر للجري.

ـ ٢ ـ

كان المطر قويًا، سيلاً من السماء.

تنتابه أناشيد الهنود الحمر وهي تتوغَّل فيه بعمق، كأنّها ترافق ميّتًا في كورس جنائزيٍّ طويل. هيًّا.. هيًّا.. هيًّا.. مع رقصات تتعالى وتنزل، فتظهر ألبستهم التي تتداخل فيها عشرات الألوان. يرقصون رقصة الذئب الخلويّ. في عيونهم ترتسم آلام الحنين الأبديَّة. شيء ما ذهب بلا عودة أبدًا، ولو أنَّهم يعتقدون أنَّه لو يبقى واحد من السلالة سيُعيد الحياة إلى الأقوام الميِّتة. من أين تأتي الولادات بعد أن جُفّفت الأرحام؟

شعر بنفسه أنَّه كان يطير. يطير مثل النسر عاليًا، عاليًا حتى ينقر السماء برأسه. كلَّما خطا خطوة إلى الأمام رآها تقف باستقامة، كعمود من نور، تنتظره في المحطَّة، على رأسها مطريَّتها. تمثال من شمع أحمر. ينفذ عطرها من بعيد فيه، مزيج من البنفسج والليمون والتفاح الأخضر والنعناع. كلَّما ركض، ظلَّت على المسافة نفسها. تغطّيها خيوط المطر الناعمة. بدأ يتعب، إذ لم تسعفه الأمطار وجسمه الذي

بدأ يثقل. فجأة، رأى أمامه الذئب رماد الذي كان ينتظره ويسير بثقل. عندما رفع آدم وتيرة ركضه، زاد هو قليلاً في سرعته.

يركض أكثر. يزيد في سرعته عندما يرى رماد وهو يجري بلا توقُّف. يمدّ رجليه الأماميّتين كأنّه مطّاط، ويسحب جسده إلى الأمام. يغمض عينيه حتى ليكاد أن يُدركه، لكنَّ رماد يزيد في قوَّته أكثر. يتحسَّس قلبه.

أنت تجري وأنا أيضًا أركض يا رماد على وتيرتك نفسها التي ترفعها وتخفِّفها كما تشاء. منحك الله والطبيعة جسدًا ليّنًا كالغيوم وبهيًّا كالريح. المهمّ أن نظلّ على الوتيرة نفسها يا رماد. أن لا نستسلم لقدر الموت. أن نسابق الريح، نتحدَّى المطر، ندخل في عمق الزوبعة، ونرمي بأنفسنا في دوَّاماتها. الذي يموت فينا ليس الأجداد، ولكنْ الحاضر الذي لم يشبهنا في أيِّ يوم من الأيّام. كانت جدَّتي تقول إنّ الذئب رماد عندما يجري لا يلتفت وراءه. حفظ عن ظهر قلب كلمة السابقين: يا رماد لا تلتفت وراءك. لا قدر لنا يا رماد إلَّا أن نركض، تتبعنا أناشيد الهنود الحمر الذين أصبحنا اليوم نقترب منهم بخطى حثيثة. لزاميرانديان(1)، الأباش(2). ليشيين(3). السييو(4). أنت رماد ولا تشبه إلَّا نفسك. لست الذئب الأزرق الذي جاءت وراءه سلالة جنكيزخان، ولا ذئب الصينيين واليابانيين الذين يرون فيك حاميهم من سلطان الخوف ومن الحيوانات الأخرى، ولا الذئب الذي يدمِّر العالم ليُعيد بناءه كما عند الأوروبيين الشماليين. لن تكون الذئب فنرير الذي

---

(١) Les Amérindiens

(٢) Les Apaches

(٣) Les Cheyennes

(٤) Les Sioux

يقتل الكثير من الآلهة، ومنهم أوذين في غسق القوى، بينما يلتهم أبناءه الشمس والقمر قبل أن يكبر عالم آخر حقيقيّ وإنسانيّ. ولست حارس الأموات كما عند قبائل السيو. أنت جدّي. طريقي ومسلكي في الزمن الضيّق. حريّتي التي لا أريدها أن تُسرق منّي. بصيص الضوء في عمق الظلمات. أُركض، وسأظلّ أقتفي آثارك حتى ولو كانت دماً أو رائحة أو أنفاسًا. أنت معلّمي في الهضاب. وقدوتي.

أُركض ولا تتوقَّف فلن أكون إلَّا في إثرك.

يزيد في سرعته كأنّه يخترق حجب المطر الذي أصبح مثل الحجاب الرقيق، الذي لا نرى من ورائه إلَّا تماهي الأشياء في بعضها بعضًا، وحركتها التي تختلط بالظلال. يسمع أنفاسه وهي تتقطَّع، تصله دقّات قلبه المتسارعة.

يبدو من بعيد شبحًا متماهيًا مع الماء. يكاد يتحوَّل إلى ظلال وألوان منزلقة.

فجأة، يسمع صوتها من ورائه، لكنَّ خيوط المطر كانت تحجب كلّ شيء عنه. كان يأتي مختلطًا بنقرات الأمطار، سرعان ما اتّضح أكثر. في الأخير عرفه بكلّ نبراته. صوتها الذي لا يغيب عنه، بنعومته الآسيويَّة، ومخارج حروفه الناعمة، يناديه.. حبيبي. نَفَسي انقطع. انتظرني. لم أستطع. يتمتم، وبالكاد يسمع نفسه وهو غارق في موسيقاه: اجر يا أيَّاما. لا خيار أمامك يا قلبي إلَّا الجري. على المتأخّر أن يلحق لا على الأوَّل أن ينتظر. وإلَّا ستظلّين دائمًا في الرتبة الثانية. يأتيه صوتها مخنوقًا من بعيد: إذا لم تتوقَّف سأعود، ولن تراني. يرفع رأسه قليلاً. لا يرى رماد. لأوَّل مرَّة، ينسحب وينطفئ فجأة ليخلي المكان لغيره. يخفّف آدم من سرعته. تبدو من وراء خيوط المطر مجرّد سلسلة من الألوان، يغلب عليها الأزرق والأحمر وهي تتحرَّك باتّجاهه.

ساعة من الجري ولم يشعر بالتعب.

وقف تقريبًا ينتظرها. كانت منهكة. عندما اقتربت منه تلاشت عليه. رمت بنفسها إلى صدره. ضمَّها بقوَّة تحت المطر الذي زادت قوّته ورعوده. أغمض عينيه. انتابته رائحة كلّ النباتات لتستقرّ على الفراولة التي لم يعرفها إلّا من الأشجار المجاورة أو من المرأة القريبة منه. التصقت به أكثر. القبلة التي غطّاها المطر والرعود استمرّت طويلاً. *يااااه كم افتقدتك حبيبي. كنت خائفة أن أموت ولا أراك.* كانت قبلة لذيذة، عفويَّة وملوَّنة، ومسكونة بالبرق الذي كان يحترق في سماء غائبة، فيمزّقها ثم يرتقها في الثانية نفسها. دفنت رأسها طويلاً في صدر آدم، كأنّها تريد أن تنتفي فيه. ولم تأبه بلباسها الرياضيّ الذي كان يقطر ماء، ولا بشعرها، ولا بيديها اللتين سكنتا صدره بعد أن وضعتا وجهه فيهما. المطر لم يتوقَّف. ما تزال القلعة غارقة.

ـ كيف تترك حبيبتك تغرق في المطر، وتريدها أن تلحق ببطل أولمبيّ خدعه جرح تافه.

ـ حبيبتي إيڤا عذرًا. كنت أظنّ...

ـ أسسست. لا تكن عبيطًا. إيڤا التي جاءت من أجلك متَّبعة حواسّها الداخليَّة، ولم تسأل عن أيّ شيء آخر. لحم ودم، ولست آلة. لا ألومك على شيء كنت أريده. في المرَّة القادمة، خفِّف من الركض لألحق بك. من نصف ساعة وأنا وراءك كالمجنونة، حتى كدت أستسلم للأمطار وأتوقَّف.

ـ أنتِ كنتِ ورائي، وأنا كنت وراء رماد. ذئبي. كلانا يركض باتّجاه ظلّه أحيانًا بلا جدوى. جدّي الذي لم يتركني حتى في أصعب ظروف الخلوة.

ـ المهمّ، خلاص.. قل لذئبك يروح يرتاح. قل له حبيبتي معي وستقوم

بي، وستهتمّ بي حتى نهاية العمر. قل لا أحتاجك الآن، وذكّره بأنها قطعت المسالك الخطيرة والصعبة من أجلي. قل له لكي يتركك ترتاح قليلاً.

ـ تعالي. مشتاق لكِ وخفت عليكِ من الصُّدَف المميتة. المنطقة آمنة ولكنّها شديدة الخطورة.

ـ وجدت فرصة، جئت خصّيصًا لأراك فقط، وأرتّب بعض الأمور لصالح سكّان السدّ مع سير جون. رجل طيّب، ويستمع لآلام الآخرين أعطاني موافقته المبدئيّة للسماح للجرّافات بأن تشقّ القنوات الموصلة للمياه لكلّ الناس، بدل أن يستولي عليها شخص واحد، أو قبيلة واحدة، ويفرضوا شروطهم عليها. طلب منّي المسؤول عن السدّ وثيقة موقّعة من الماريشال أو من ينوب عنه، حتى يسهّل لنا مهمّات العمل. وقد وقّع عليها سير جون، وتركها لي في مدخل القلعة. سأعود غدًا إلى السدّ، مع سيّارة عمّال الصيانة، وآخذها معي. أنا متفائلة جدًا. ظروف العمل مريحة، ولم تعد معقّدة كما كانت.

مشيا قليلاً معًا في المضمار الذي بدا له هذه المرّة قصيرًا، حتى دخلا إلى الملعب. سحبها من يدها، وجلسا في مدرّجات ملعب كان فارغًا من كلّ الناس إلّا منهما. كانت تريد أن تسأله عن زوجته هل سُمح له برؤيتها، لكنّها فضّلت أن لا تقول شيئًا، وأن تترك الأشياء على وتيرتها الطبيعيّة. أخرج من حقيبته منشفته. مسح وجهها وشعرها حتى نشفت. شعر بها مستسلمة له كطفلة. مدّت رأسها على صدره، انسدل شعرها الناعم مثل شلّال. غفت قليلاً، بينما امتدّ نظره بعيدًا كان المطر ما يزال يتساقط بقوّة، محدثًا موسيقى كأنّه كان في حالة حلم هارب، يسمع نغماتها للمرّة الأولى. بدا له كلّ شيء كأنّه يولد من جديد في هذه الفراغات القلقة والقاحلة.

تمتمت في أذنيه، وعيناها مرتشقتان في وجهه المتعب..

- مرتاح حبيبي.

- مرتاح يا قلبي. لباسك كلّه ماء لندخل إلى البيت أفضل. أنت متعبة جدًّا.. وصلتِ اليوم؟

- نعم وصلت قبل قليل. جئت نحوك مباشرة. سعيدة أنَّ وضعك تحسَّن أكثر.

- نذهب.. لا يمكن أن تظلّي هكذا. تمرضين.. وأمامك مسؤوليّات كبيرة. أين وضعت أغراضك؟

- حقيبة صغيرة تركتها عند سالم، عندما أعلمني أنَّك في المدرَّج القديم.

- لنذهب.. الأمطار خفّت قليلاً.

سلَّمه سالم حقيبة إيڤا عند مدخل البيت.

فتح الباب، كانت تقطر ماء. ظلَّت واقفة في مكانها، كأنّها لم تكن تحسّ بأيّ برد. ظلَّت عيناها مرشوقتين على الغرفة وصور الحائط. ساعدها. نزع لباسها قطعة قطعة، بنعومة، وهي مستسلمة له كصبيَّة صغيرة. كان جسدها مرتسمًا بكلّ تفاصيله. شعر برعشته بين أصابعه. التفتت نحوه. *وأنت أيضًا غرقت في الماء نفسه*، تمتمت ولم تنتظر إجابته، ثم بدأت تنزع ألبسته قطعة قطعة *وتضحك. ضحك هو أيضًا. قالت وهي تضع وجهه بين كفّيها: وضعك ليس أحسن منّي*. عرَّته عن آخره. تلمَّس ملامحها الرقيقة. شفتيها. نهديها النافرين كأنّهما نهدا مراهقة. انتبه إلى الألبسة. كانت كلّها فوق الكرسيّ الحديديّ، كوَّنت تحتها بركة من الماء. *ضمّني حبيبي. بردانة، غطّيني بذراعيك. قلبك. لمسك. همسك.. لا أريد أن أستيقظ من هذه الغفوة*. دخلا تحت الفراش الدافئ. ضمَّها نحوه أكثر. اندفعت بكلّها. التصقت به. فجأة،

اشتعل الجسد النائم. ضغط على الجهاز الصغير الذي بيده، فاشتعل الشاشة الحائطيَّة. بحث عن البرنامج الموسيقيّ الذي يحبّه. جاء، موسيقى الذئب والهنود الحمر. سألها: *هل تعجبك*. غمغمت بصم وهي ملتصقة به أكثر وبعمق: أحبّك أنت. الباقي كلّه يتساوى اللحظه التفتت عليه وهي تضحك كمجنونة: *ألا تخاف من لدغة الأفعى؟* *أريدها*، أجاب بصوت يكاد لا يُسمع. امتصَّت لسانه، ثم انحدرت على كلّ جسده. تلوّت أكثر. *أما زلتَ تريد الأفعى؟* ثم غابا طويلاً على متن موجة عالية كانت تعلو وتنزل، وتعبث بهما كما تشتهي.

لم يدر كيف مات الوقت بسرعة. لم يكن مهمًّا أن يُعير الوقت أهمّيّة، كلّ شيء يتساوى في قلعة أميروبا.

لم يفتح عينيه إلّا عندما سألته:

ـ حبيبي، كنتَ سعيدًا؟

ـ في رأيك؟

ـ كنتَ ذئبًا كجدّك. كنتُ خائفة أن لا أراك ثانية. في المرَّة الماضية، كدت أقبّلك وأبقى معك، لولا تدخُّلات الماريشال التي جاءت في غير وقتها. لم يكن في حاجة لأن يقول لنا بأنّه غيَّر القانون، وأصبح الحبّ مسموحًا به بشكل خاصّ، ولكن بضابط أساسي أن لا يتحوّل إلى حالة يوميَّة.

ـ أنا أيضًا شعرت بذلك، لكنَّ الماريشال ليتل بروز حاضر حتى في الأماكن التي يُفترض أن يغيب فيها.

ـ ربّما يتفرَّج علينا الآن؟

ـ لا أعتقد. هو في عيادة القلعة الخاصَّة، ووضعه الصحّيّ معقَّد. سعيدة أنّك عدت بخير، ورأيتك. كيف أحوالك ودريمز، وميري، وكيف كان عملكم في السدّ؟

ال شيء على ما يرام. غرفتك جميلة حقًا. المهمّ أنّها تَسَعُنا.

على الأقلّ، يمكنني هنا أن أستقبل حبيبتي وأصدقائي. الفضل يعود
المرابطة.

ام نفعل شيئًا يا عزيزي سوى أنّنا قوّمنا ظلمًا مجحفًا في حقّك.

احكِ لي عن عملكم. كيف كان؟ ألم تتعبي يا قلبي؟ أفكّر فيك كثيرًا.

عادي حبيبي. ما رأيته شيء خرافيّ. كيف يقاوم الناس من أجل عيشهم اليومي القاسي، وكيف أنّ سكّان آرابيا أصبحوا داخل تيه شديد القسوة. خسروا كلّ شيء، حتى النظام الأدنى الذي كوّنوه على مدى قرون.

ينقرضون بهدوء وسكينة. لم يعودوا سادة مصائرهم. كلّ شيء يتمزّق حول السدّ وفي الخلاء. التقينا مع ناس طيّبين وعالي الثقافة والوعد. الكثير منهم كانوا مهندسين ومفكّرين وجامعيين، أصبحوا اليوم هائمين في الصحارى. تفكّك أرابيا دمّر كلّ التوازن المجتمعيّ في المنطقة. كلّ واحد يصنع وضعه كما يستطيع. تقع دائمًا مشادّات وصراعات، دمويّة أحيانًا، على حوافّ السدّ والنهر. التقينا بشخص يعيش معزولاً، كان مهندسًا مائيًا. استطاع بفضل القصب الذي نبت على الحوافّ أن يخلق تمديدًا مائيًا تحت أرضيّ، يذهب حتى خيمته البعيدة والمعزولة. سألته كيف فعل كلّ هذا الوقت ليوصل الماء إلى خيمته؟ قال قضيت نحو سنة، وأنا أخرط الخشب وأفرّغه من الداخل. حتى جمعت قسمًا كبيرًا منه، وبدأت كلّ يوم أحفر من عندي قليلاً، في الليل بالخصوص، أنا وثلاثة من جيراني، في سرّيّة تامّة. لم يفهموني في البداية. قلت لهم تريدون الماء بلا حرب؟ قالوا نعم. إذن، ساعدوني وحافظوا على السرّ. أحطنا مكاننا بالقصب في البداية، لأنّ الذئاب كثيرة في المنطقة. كان العابرون

يمرُّون من حولنا. لا يروننا نفعل شيئًا إلَّا نشر القصب. يشربون ما من عندنا، يرتوون، ثم يمضون في رحلتهم. كلّ ليلة نحفر، حتى وصلنا إلى خلجان الوادي حيث يتدفّق السدّ. وربطناه مع به القصب. فجأة أصبح الماء يسيل في بيوتنا. نملأ ثم نغلق العين شيئًا فشيئًا، بدأنا نغرس السلاطة والطماطم والبطاطا. وكلّ شيء كان يعطي محصولاً سرِّيًا كبيرًا. التربة كنّا نأتي بها بالقرب من الجبل البركانيّ. وعندما سألته لماذا لا يعمّمون التجربة، قال، *إذا عرفوا، بالخصوص القبائل القويّة التي تحتلّ جنبات النهر، سيقتلوننا*. ثم أضاف وكأنّه يحمّلنا المسؤوليَّة: أنتم قوموا بهذا، لديكم القدرة الدفاعيَّة التي لا نملكها نحن. وسأساعدكم أنا وبقيَّة جيراني تحدَّثت مع سميث، وهو مستعدّ لمساعدتي بمدّ المجاري بشكل سرّيّ، لأنَّه يمكن أن يخرّبوها. وسأرى الماريشال، وبشيء من الطيبة سأقنعه. لكنَّه للأسف ليس هنا. قيل لي إنَّه في مهمّة في مضيق هرمز. ويبدو أنَّ مهمّته ستطول.

حاول آدم أن يدفن رأسه في صدرها ليكتم ضحكته التي سبقته تذكّر ما سمعه من احتمالات سميث عن ليتل بروز، وعمليَّة زرع عضو تناسليّ له. انتبهت إيفا. ضحكت هي أيضًا وهي تعضّه على شفتيه:

- مهبووورل حقيقي. أنا مثل الغبيَّة أكرِّر عليك ما سمعته أو بعضه، بينما أنت على علم بكلّ التفاصيل.

- سمعت أشياء كثيرة عن غيابه طبعًا.

- يقولون الكثير عن قصَّته لدرجة المبالغة. تعرفين أنَّ الرجل غير المحبوب يكون دائمًا ضحيَّة الكلام والنميمة. ليتل بروز كما تعرفينه مستسلم لقناعاته حتى الموت. يعمل باستماتة، ولا يرتاح ثانية واحدة.

- لكنَّه مقعد.

هرمز وراءه ذكرًا اصطناعيًا، ينغلق من حين لآخر بسبب الرياح الرمليّة، وعليه أن يتحمّل الآلام لفتحه من جديد. أمّا سميث، سمعت أنا أيضًا أنه ذهب لمضيق هرمز، لأنَّه يريد أن ينتهي بسرعة من *التنظيم*، وأنّه بحاجة إلى المزيد من الطائرات من دون طيّار لأغراض أمنيَّة بحتة، والمروحيَّات، لأنَّها تساعده على وضع حدّ نهائيّ للإرهاب والتنظيم.

سميث رجل مستقيم وجادّ.

جميل أنّكم فعلتم على الأقلّ شيئًا لهؤلاء البؤساء.

لهذا، تجب المحافظة على هذه المنطقة نقيَّة. وأنا سعيدة أنَّ بعثة البروفسور فرانكي دو فوكو وصلت حتى هناك. وسعدنا جدًّا بعملهم البيئيّ. معجب بك كثيرًا، وقال إنَّه يتّكل عليك كثيرًا للحدّ من مضارّ البوكيت بومب، لأنَّ الغبار المنتشر يمكن أن يضرّ بالمكان كلّه.

الوقت يمرّ بسرعة.

غدًا، سأذهب مع مراقبيّ السدّ. أسبوع آخر، قد أعود بعدها إلى ستوكهولم وقد أبقى هناك أكثر، قبل السفر إلى مصبّات النيل التي جفّت، والحديث إلى الإثيوبيين لكي يخفّفوا من ضغطهم على الماء. منسوب النيل الأزرق خفّ كثيرًا منذ بناء سدّ النهضة.

في الصباح، سبقته إلى القيام من النوم. كان وجهها مشرقًا كتفّاحة. بياض عينيها، الذي رآه الليلة الماضية مستسلمًا له ومتّسعًا في لحظات الانتشاء، قد ضاق قليلاً مخليًا المكان لبؤبؤ تماهت فيه كلّ الألوان التي غلّفتها خضرة شبيهة بحوافّ غابات ستوكهولم، والحديقة الملكيَّة الإيكوبارك[1]، الواسعة.

(١) Ecoparc الذي يحتوي على ثلاث حدائق كبيرة: دجورغاردن، هاغابارك، أولريكسدال.

ارتدت لباسها، ثم جاءت لتجلس بالقرب منه على حافَّة السرير

وضعت صينيَّة القهوة على صدره، في فراشه، وطلبت منه أن لا يقوم.

ـ ما دمتَ كسولاً، ابق في مكانك. حبيبتك ستقوم بخدمتك، وتسهر على راحتك.

وضع وجهها بين يديه. تأمَّله طويلاً حتى حفظ كلّ قسماته، وفي اللحظة التي قبَّلها، التقت عيناه بعينيْ أمايا على الحائط المقابل عندما حاول أن يتفاداه، شعرت به. سمع صوتها الخفيّ. *كنت أخاف عليك أن تصبح يومًا صورة على حائط، وتيتِّم يونا مبكرًا، ها أنا أسبقك إلى ذلك*. شعر بوخز في قلبه. كأنّ إيڤا قرأت ما في قلبه.

ـ *أمايا*.. كانت جميلة.

ـ لماذا كانت جميلة فقط؟ هي لم تمت. أنقذتها حافلة الخطوط الفرنسية التي توقَّفت بيني وبينها لحظة الاعتداء.

ـ لا. عذرًا ليس هذا قصدي. العمر فقط يغيِّر الملامح، لكنْ يمكن للداخل أن يبقى مشرقًا حتى النهاية.

أدخلت يدها في عمق جرابها. أخرجت محفظتها الصغيرة، وأرته الصور الثلاث.

ـ هذا ابني البكر أندرسن، وهذه أخته كيتي، وهذا زوجي لارسن، الذي تحمَّلني عشر سنوات، وبعدها سلك كلٌّ منّا طريقه، لكنّنا ما زلنا أصدقاء إلى اليوم. نفرح معًا عندما نشعر بالحاجة إلى ذلك، ونغيب كلَّما كان ذلك في صالح حرِّيَّة كلٌّ منّا. الحياة محدودة للأسف.

نظر إلى عينيْ إيڤا مرَّة أخرى:

ـ أريد أن أقول لك عن شيء.

من أمايا. إنّك ستراها غدًا، أو بالأحرى ستتكلَّم معها من خلال ربط بالسكايب. لا تشغل بالك. لقد سعيت لذلك منذ أن وطأت قدماي هذه القلعة. هي تحبّك، وكادت أن تموت بسبب حماقة وضعتها في رأسك، ونسيت أنَّك لست ملك نفسك. شوفها يا قلبي وافرح بها. أنت تحبّها. أشعر بذلك. استمتعنا بلحظة اشتهيتها معك. أنا أحبّك. لو خُيِّرت بين أن أبقى أو أذهب، كنت تركت كلّ شيء، وبقيت معك في هذا القفر، شرط أن أسمعها من أعماق قلبك. لكنَّك ما زلت معلَّقًا على خيط الذاكرة. لا يمنعني هذا من أن أحبّك، وكلَّما وجدت خلوة سرقتك من أشباحك.

إيفا.. لا أعرف حقيقة ماذا أقول، لكنّي أحبّك. لا أدري كيف تنظرين إلى هذا! أحيانًا، ينتصر خوفي عليك على كلّ شيء. حقيقي، أصبحت أفكّر فيك كثيرًا، وأخاف من كلّ ما يحيط بك من مخاطر. لكنَّه خيارك الواعي والعميق.

- أنا أعود إلى السدّ سعيدة. كنت سأموت لو لم أرك. لا تفرِّط في أمايا كيفما كان الحال بينكما. لا تنس مشروعك، فأنت تعيش به، لكنْ خلّيك سيّدًا عليه، بدل أن يسرقك ويسرق معك أرواحًا بريئة. امنحني فسحة فقط، لأقول لك أحبّك كلَّما اشتقت إليك.

ضمَّها إلى صدره بقوَّة. لكنَّه عندما حاول أن يقوم من مكانه، أرجعته إلى فراشه بنعومة.

- ممكن أرافقكِ نحو السيّارة العسكريَّة؟

- خلّيك حبيبي في مكانك. أُريدكَ مرتاحًا، وصافيًا وجميلاً كغيمة. إذا كنت تحبُّني، لا تقم.

- لكنّي أريد أن أضمَّك بقوَّة أكثر.

نزعتْ صينيَّة القهوة، وضعتْها على الكرسيّ الجانبيّ، ثم تمدَّدت

على صدره ودفنت رأسها فيه. ابتسم. ابتسمت وهي تقبّله.

ـ الفراولة.

ـ كنت متأكّدة من أنّك ستقولها.

ـ اسحبي الغطاء. وادخلي.

سحبت الغطاء ودخلت.

شمّها كما يشمّ فاكهة حقيقيّة. مدّ يده نحو نهديها. شعر بشيء يتدفّق منها. نحو سرّتها. ثم نزع لباسها الداخليّ.

ـ مجنووون. ماذا تفعل؟

ـ أفطر. جوعي إليك كبير.

ـ مجنون. تشعلني. دعني أنبت في صدرك.

صعدت. شدّها من خصرها. شعرت بقوّته وذكورته وكلّ شيء فيها يناديه. تنهّدت عميقًا. احمرّ وجهها أكثر، واتّسع بياض عينيها. علا صوتها وكأنّها كانت في حالة أنين.. صرخت. وضع يده على فمها. عضّتها بنعومة. ثم على نهديها. لا تتوقّف. ماذا فعلت بي يا مجنووون. *أشعلتني. قتلتني*. ذبحتني...

ثم غابا في عمق اللحظة غير المحسوبة. في دهاليزها وظلامها ونورها المؤجّل.

عندما فتحت عينيها، ضحكت بصوت عال.

ـ يا مهبول بماذا أسكرتني؟ انظر صنيعك.

كلّ ألبستها كانت على الكرسيّ والبعض الآخر على الأرض، واللباس الداخلي ضاع وسط السرير.

قامت. لبست بسرعة. عدّلت من هندامها قليلاً. أشرقت من جديد كشمس صغيرة. قبّلته على عينيه وشفتيه، ثم خرجت.

عند الباب، ابتسمت مرَّة أخرى. اتّسع في الظلّ بياض عينيها اللتين تندّى بسرعة. لكنَّها قاومت الدمعة.

ـ اتركني أذهب الآن، حرِّرني بنظرة شوق منك لأعود لك. أريد أن أحمل وجهك فقط، وسعادة أنّي أفرحتك وأنّك أفرحتني. أحملك وهي وأنت مرتاح بعد ليلة وصبح، لن نجدهما حتى في الجنَّة. لا أريد أن أرى وجهًا معذّبًا خسر لغته، وحتى اللغات التي تنام في أعماقه! ماذا سترى لو جئت معي؟ امرأة رشيقة وطويلة، تركب سيّارة عسكريَّة، وتتَّجه نحو السدّ وهي لا تعرف إن كانت ستصل أم لا؟ نم حبيبي، واتركني فيك فقط. يكفيني.

تسلَّلت بهدوء. أغلقت الباب وراءها. أحسّ آدم بكلّ خطواتها. سمع سالم يأخذ منها الحقيبة ويسبقها إلى النزول.

نظر آدم إلى السقف. إلى صورة أمايا. هي، هي، لا شيء تغيَّر فيها. قام من السرير نهائيًا، وهو يستنشق بقايا عرقها وجسدها في الفراش، وعطر الفراولة الذي تحوَّل فجأة إلى مذاق أكثر منه رائحة.

عندما نزلت، للمرَّة الأخيرة، فتح النافذة. رأى السيّارة العسكريَّة تنتظرها تحت. دخلت في عمق الهامر ولم تلتفت وراءها، لا يمينًا ولا شمالاً. حتى في اللحظة التي توقَّفت فيها وأرادت أن ترفع رأسها، لم تفعل. دفعت برأسها إلى عمق السيّارة، ثم بكامل جسدها.

دارت السيّارة بسرعة في مكانها، ثم غابت في الجهة الجنوبيَّة، متّجهة نحو مخرج القلعة.

عندما التفت، شعر ببقايا غيمة تدور في غرفته. لم يكن شيء يغريه مثل الزوايا والنوافذ ودفء السرير.

ـ ٣ ـ

امشِ أو متْ.

كثرة التفكير تضرُّ بالفكر

من ليس معنا، فهو ضدّنا.

أخطر الأحلام، تلك التي لم نسمح بها.

عدوُّنا الأساسيُّ تحالف إيروشينا ***Iruchina***

... ...

ظلَّت هذه الجمل وغيرها تدور على الشاشات الهوائيَّة والمائيَّة والحائطيَّة، في شكل حلقيّ، بألوان مختلفة، مصحوبة بصوت ليتل بروز وهو يكرِّرها. شيء ما تغيَّر في النظام العامّ الذي انفرج قليلاً بغياب ليتل بروز مدَّة طويلة نسبيًّا، قبل أن يرجع أخيرًا إلى موقعه في القاعة البيضاء، في الطابق السابع.

عاد ليتل مصمّمًا على تغييرات كثيرة، كانت كلّها تدور في رأسه. أقال نائبه الوفيّ، والمنضبط أبدًا، الكولونيل سير جون، وعوَّضه

البريطاني بيرل غروسمان، ونائبه الثاني الفرنسيّ فرديناند ليفي، لأنّه .را. أن يعطي للمكان حركيّة جديدة، ويزرع فيه قوّة أخرى، بدم شبابيّ مسبقيّ. البعض في القلعة يقولون إنّ سير جون هو من قدّم استقالته حجّة أنّ العمر لم يعد يسعفه، فالتحق بسفينة البحر الأحمر، ومنها سافر إلى لندن.

استعاد ليتل بروز كلّ الأناشيد الحربيّة القديمة لتجنيد الناس أكثر، لأنّ الحرب ضدّ *التنظيم*، هذه المرّة، ستكون نهائيّة؛ وستكون المبادرة النهائيّة لقلعة أميروبا، وليس *للتنظيم* الذي أدخل الجميع في دائرة انتظار مميت، ظلّ هو المتحكّم فيها. كانت الأناشيد وقرع طبول الحرب ضدّ *التنظيم* شملت أيضًا مثلّث الشرّ كما يسمّيه *إيروشينا*[1]، هي سياسة ليتل بروز الجديدة. لأنّ التحالف الجديد *إيروشينا*، كان مرضيّة واردة، ولكنْ ليس في الوقت المنظور. سبق التصوُّرات الأميركيّة ببعض السنوات. وهو عبارة عن تكتُّل جديد فرضته المصلحة الطاقويّة، لحماية آسيا الكبرى والصغرى ومنابع النفط التي أصبحت مهدَّدة من طرف حلف أميروبا، في بحر قزوين الذي تتقاسمه روسيا وإيران، وبقايا الدول المحيطة التي بدأت تتفتّت، كازاخستان، تركمانيتان، وأذربيجان. وتستفيد منه الصين بشكل كبير. الغياب الأخير لم يغيِّر أبدًا من أفكار ليتل بروز. كلّ الحروب سببها *آرابيا*، حتى وهي *حطب مشتعل وغبار متناثر في الجبال ورمال الربع الخالي*. لم يعد ليتل بروز يخفيها أبدًا. قيل حتى إنّه سيعيد الشعار العنصريّ إلى واجهة القلعة، وهذه المرّة، سيكتبه بالحروف المضاءة التي تُرى من بعيد: *العربيُّ الجيّد هو العربيُّ الميّت*. يُقال أيضًا إنّ مستشاريه

(١) **Iruchina (Iran, Russie et la Chine)**

كانا من المتحمّسين لهذا الفعل، فأيّداه واعتبراه إجراءً ثوريًّا، لكنْ طلا
منه التريُّث حتى يتمَّ التخلُّص من العربيّ الأخير. متأكّد من أنَّها حر
التي ستجعله أخيرًا ماريشالاً حقيقيًّا، قبل تقاعده النهائيّ بدءًا من الس
القادمة، هذا ما أسرَّ به له جنرال الأسطول ماكنور ستيفنسن.

فرض ليتل بروز شعارًا جديدًا على مشهد القلعة اليوميّ، ه
أقرب إلى النازيَّة منه إلى ردَّة فعل طبيعيَّة من شخص لا يحبّ شخصًا
شعاره الجديد الموجود في أيّ مكان بدءًا من مدخل القلعة حتى
أعماقها: *امش أو مت*[1]. الكلّ يعرف أنَّه شعارٌ نازيٌّ ارتبط بمسير
الموت. عندما شعرت النازيَّة ببداية الهزيمة في جانفييه ١٩٤٥،
اخترعت مسيرة *الموت*. أمر وقتها هنريك هيملر مسؤول المحتشدات
النازيَّة بإفراغ السجون، وتأطير السجناء بعساكر الأمن السرّي
والغيستابو، لمحو أيّ أثر للمحتشدات. هذه المسيرات نُظِّمت في ع
الشتاء، تخلَّلها أمر واضح بقتل كلّ من لا يستطيع السير. الكثير من
المعتقلين ماتوا تعبًا، أو جوعًا، أو من شدَّة البرد. ومئات الآلاف تمّ
إعدامهم في أمكنة سقوطهم لأنَّهم أخفقوا في مواصلة السير.

الكثير من الألسن الحادَّة في القلعة سرَّبت شيئًا آخر، خبرًا قديمًا
جديدًا، وهو أنّ الجنرال دافيد حيون دوغلاس الذي اقترح عليه التقاعد
بسبب وضعه الصحّيّ، لكنَّه رفض بحجّة عدم وجود بديل بخبرته هو
مدَّد لسنة. لن يضيِّع فرصته الأخيرة ليصبح ماريشالاً قادمًا من حرب
حقيقيَّة، وليس من صحراء التتار.

حقيقة لا يمكن الشكّ فيها. سفره السرّي إلى أسطول مضيق هرمز
لمناقشة وضعه الخاصّ، ومستجدّات مشروع *PBPu1* و*PBPp2* الذي

(١) Marche ou crève

ح الجيش الأميركيّ - الأوروبيّ في حاجة ماسّة إليه في حربه ضدّ طيم وتحالف *إيروشينا*. لكن هذا كلّه نصف الحقيقة. والنصف الآخر والأهمّ، هو أنّ ليتل بروز اضطرّ إلى إجراء عمليّة جراحيّة بالغة التعقيد في حجره. وعلى الرّغم من الجهود الكبيرة التي بُذلت، في المرّات الماضية، فقد باءت بالفشل النهائيّ. ليتل بروز ليس أبله، كما يبدو لأوّل وهلة. شروطه التي سجّلها قبل بدء العمليّة، نُفّذت كلّها، لكنّها قلّلت من نجاح العمليّة. فقد اشترط أن لا يكون العضو المزروع لشخص آرابيّ أو أسود كيفما كانت ديانته، ليست به أيّة علامة ختان على الطريقة الإسلاميّة تحديدًا. الباقي، كلّه مسموح به. هذا كلّه ضيّق من حظوظ إيجاد عضو مناسب. يُحكى الكثير من الأسرار المرتبطة بليتل بروز، في الجهات العسكريّة التي لا تصلها الشاشات الهوائيّة لأنّها ممنوعة داخل القلعة، والتي تنفتح من تلقاء نفسها في كلّ مكان لتبثّ كلام ليتل بروز أو خطبه أو ردود فعله في اللحظة ذاتها، تحت شعار يكاد يكون ثابتًا: *ليتل بروز لا يراقبكم، لكنّه فيكم*. ويُقال إنّ الطبيب الخاصّ الذي قام بالعمليّة بقي معه يومًا كاملاً ليرفع من معنويّاته، وبأنّه عليه أن يقبل بنفسه كما هو، ومن الأفضل له أن يتوقّف عن التفكير في الزرع، لأنّ جسده يرفض كلّ ما ليس هو وفيه، وأن ينتظر منجزات التكنولوجيا، لأنّ حظّه سيكون كبيرًا مع الأعضاء الاصطناعيّة، لأنّها تركّب على كلّ الأجسام، إذ تمّ تطوير السيلكون لدرجة أن أصبح يضاهي مطاطيّة الأعضاء الإنسانيّة الحقيقيّة. ظلّ الخبراء والمعنيّون بالمصير البشري، والشركات الطبّيّة التجاريّة والحربيّة أيضًا، تراهن على تصنيع الأعضاء من هذه الموادّ التي لا يرفضها الجسم البشريّ، وسيصلون يومًا إلى أن يزرعوا له عضوًا تناسليًّا وفق طلباته، وبالمقاسات التي يريدها أو يحلم بها، من دون

خوف من الانسداد الذي يلازمه كلّما انتابته رغبة في التبوُّل.

رنّ التليفون الثابت. مدّ آدم يده إلى جهازه الواصل الذي موضوعًا على طاولة السرير.

ـ معك الكولونيل بيرل غروسمان والكولونيل فرناندو ليفي.

انفتحت الشاشة بكلّ عرضها الحائطيّ. لأوّل مرّة لم ير ليتل بوجهه الكئيب ورأسه المدوَّر.

ـ هل أنت معنا على الصورة. زوجتك السيّدة أمايا ستحدّثك بعد قليل

شعر بهزَّة عنيفة في داخله. حاول أن يتحكَّم في حنينه وش ورعشته التي انتابته. يريد فقط أن يقول لها شكرًا فقط، وأن يس منها تفاصيل كلّ ما حدث، ويسألها عن يونا.

ـ انتظرتها كلّ الفترة الصباحيَّة.

ـ هي الآن معك. ماذا ترى على الشاشة.

ـ في الوقت الحاليّ، لا أرى إلَّا الخطوط التجريبيَّة وخشخشة م الصوت.

ـ انتظر قليلاً . . يتمّ توجيه الساتل.

بدأت بعض الأصوات تتداخل، وتخترق دماغه، كتلك التي بثها التلفزيون يوم نزل أوّل إنسان على سطح القمر. الصورة تظهر منكسر وتختفي. لم يفهم لماذا هذه الأعطال في مكان التكنولوجيَّة الحسّاسة يخشى أن يُقال له لقد بذلنا كلّ ما استطعنا من جهود، لكن للأسف هناك أعطاب فنيَّة تتجاوز قدراتنا.

ـ عذرًا يا سيِّد آدم. تقنيُّونا يحاولون إصلاح ما يمكن إصلاحه. هناك مشكل تقنيّ خارج عن نطاقنا، يتعلَّق بالساتل. لأنّنا لا نستعمل الساتل العاديّ، ولكن الساتل العسكريّ. لهذا، لا مسؤوليَّة للقلعة

عن رداءة الصوت والصورة. تردنا من المصدر بهذا الشكل. زوجتك عند أهلها. لهذا، الربط من طوكيو يمرُّ عبر محطّات كثيرة.

سمع صوتًا، ثم أصواتًا متداخلة تختلط فيها موجات متعدِّدة.

بدأت الصور تتداخل على الشاشة الكبيرة وتتّضح قليلاً، لكنَّها غير قارَّة.

تذكَّر آدم كلمة ليتل بروز، واعترف له بحقّ الصدق في الوعد: *هاه المرَّة انتصرت. سترى زوجتك. لا لأنّي أريد ذلك في منطقة لا مكان فيها للعواطف البائسة، ولكنْ لأنّ الأوامر العليا تتجاوزني. ولا يمكنني أن أقفز فوق البحر الأحمر ومضيق هرمز.*

شيء ما يقول له بأنّ الصورة ستستقرّ. بدأت الخطوط الكثيرة تتراقص أمام عينيه. لاحظ الكمّ الهائل من المعلومات التي كانت تبثّ على الشاشة، والتي كان يسمع بعضها في شكل موجات متداخلة، تطنّ في مخّه بقوّة، كأنّه ارتكب جريمة أو بصدد ارتكابها. *احذر. لا ليس هكذا. اتّجه يسارًا أفضل. هذا الطريق مسدود؟ اليوم لم تأكل جيّدًا... هذه الفكرة مصدرها شيء عدوانيّ لا يناسبك أنت المحبّ للخير.* لم يكن معنيًا بما كان يسمعه، هي مجرَّد موجات تتقاطع.

لقد استفاد ليتل بروز من كلّ ما يمكن أن تمنحه التكنولوجيا من تسهيلات استند عليها، لتذليل صعاب ومسالك الذين يركبون رؤوسهم. بل وحوّلها إلى وسيلته لتنظيم ما يحيط به من بشر وشكوك في قلعة يراقبها في صغيرها وكبيرها. استغرب آدم كيف يغرق ليتل بروز في فوضى الموجات، وهو الرجل الأوحد الذي يعرف ما يدور حقيقة في هذه القلعة.

آدم، يعرف جيّدًا أنَّه مراقب وأنَّه ليس سيِّد نفسه منذ أن أدخلوا الشريحة تحت جلده، ومنذ أن شحنوها بما أرادوه. لكنَّه صمَّم أن

يُقاوم ذلك كلّه كما الكثيرين، بل الملايين غير المرئيين، ويسير، ا
وفق الساعة الداخليَّة المدمَّجة في الشريحة، ولكن وفق ساء.
البيولوجيَّة التي بقيت حيَّة نسبيًّا ولم تمت أبدًا، على الرَّغم .
محاولات ليتل بروز. كلُّ شيء تغيَّر في عالم يسير بسرعة متناهية الد.
لا دخل للبشر فيها، إذ كلَّما تدخَّلوا أفقدوها نظامها. اليد البشر.
تمسّ كلّ شيء وتهيكله كما تشاء، إلَّا جوهر القلب وعمق التخيل
الذي لا تراقبه الآلة مائة بالمائة. كلّ جهاز مراقبة يفلت منه شي،
صغير مرتبط بالذي لا يمكن توقُّعه. الإنسان في النظام ساعة خارج
النظام.

على العكس ممّا يظنُّه الكثيرون، ليتل بروز ليس غبيًّا إلى الحد
الذي يتصوَّرونه. هو يعرف ذلك ويكرِّره. يجب أن يظلَّ الإنسان هو
سيِّد كلّ شيء. يوم تخلق في جهاز المراقبة ملايير الإمكانات
التخييليَّة، يمكن الحديث عن تعويض الإنسان بالآلة. وقتها فقط،
يمكن تصوُّر عقل بديل يراقِب ويراقَب. خلق الجيل الجديد المراقب
للأحلام وربَّما تحويلها عن مساراتها، لدرجة أنَّه يمكن التفكير في
خلق شرطة الأحلام، لأنَّ هناك بعض العقول تستعصي على المراقبة.
أجهزة متطوِّرة موجودة حاليًا، تمنَّى ليتل بروز أن يحصل عليها في آخر
نماذجها. فهي تخبر عن الأحلام، وتقيس درجات الانفعال وتفسِّرها
بالاعتماد على المعلومات المثبَّتة في الشريحة، في جيلها الذي أنتجته
شركة جاوبون[١] للـ UP2 وUP3 الأميركيّتين التي تعالج كلّ النشاطات
الذهنيَّة، وحتى النظام الغذائيّ الذي يجب اتِّباعه، وترمّم النقائص في
الحُريرات. الإنسان يقضي ما معدَّله في السنة ٢٤٣ يومًا متيقِّظًا و١١٢

(١) Jawbone

..ا نائمًا؛ وهي تتبع حركات الإنسان في كامل يومه بما في ذلك الات نومه. كانت قبل سنوات مخصَّصة للرياضيين ذوي الكفاءات ءالية، لكنَّها مع الوقت أصبحت تنتج عسكريًا. تقدّم النصائح م.وريّة وما يجب اتّباعه، وتُحمّل المعنيّ بالأمر المسؤوليَّة. تراقب ـرح الحلول. تقف على الانفعالات وتحدّد أنواعها، وحركة دقّات قلب، وتخرج بخلاصات في حالة اليقظة والنوم. تساعد على فهم الكوابيس والأحلام، وتحدّد ما يجب فعله حتى لا تتهاوى الروح نحو الأطماع والسقوط في حبائل الخيانة. وباندماج جاوبون مع جهود ركة جاغوار ستصبح الرقابة كلّيَّة. فقد طوَّرت هذه الأخيرة نظامًا مديدًا لقراءة الموجات المخّيَّة[1] التي تنبّه الفرد لكي يظلّ يقظًا أبدًا، حتى لا يغفو. جُرّبت في البداية على سائقي السيّارات لكي لا ناموا، ويستيقظوا قبل الاصطدام. تقرأ المخّ في حالة يقظته وسهوه ونومه. تبرَّعت بها ناسا للاستغلال المدنيّ والعسكريّ. طُوِّرت عسكريًا، إذ كلّما خرج المواطن عمّا رُسِم له، نبَّهه الجهاز من خلال الشريحة الذاتيَّة، إلى العودة إلى الطريق المستقيم.

فجأة بدا الصوت ناعمًا:

- حبيبي آدم. أراك من هنا. نحفت كثيرًا يا قلبي. كأنّ هذا الفراق استمرّ دهرًا.

- لا أراكِ أمايا الحبيبة، ولكنّي أسمع صوتك بنعومته. اشتقت لك موت. أنا بخير وفي صحَّة جيّدة. أنا لم أُختطف، أنا في مكان مريح لأسباب أمنيَّة. أعمل في مشروعي الذين تعرفينه، وقد طوَّرناه باتّجاه ما يسعدك.

---

(١) Les ondes cérébrales

ـ حبيبي كيف تأكل وتشرب؟ أفتقدك جدًّا. كيف كانوا معك؟
ـ بكلّ خير. كانوا طيّبين إلى أقصى الحدود. لم يقصّروا يا فا..
هنا في رتبة غيست، ممّا يعطيني حرّيّة الحركة والاتّصال. ا..
قوّة كيفما كانت، تعوّضك.
ـ أفكّر فيك كثيرًا حبيبي.
ـ لا تفكّري فيّ. فكّري فيكِ وفي يونا حبيبتي. اشتقت لها. أعرف ا..
تحبّ السينما والتلفزيون، وخرجت نهائيًا عن عالمي النوويّ ..
عالمك الإشعاعيّ. يبدو أنّها قرأت عصرها بشكل أفضل منّا
أعد أثق في هذا الزمن الذي كبر واتّسع حتى أصبح مخيفًا.

فجأة، صرخ بسعادة لم يألفها في نفسه من قبل: أراااااك. بدا.. الألوان تتداخل في الشاشة. رأى في البداية عصافير وفراشات .. تتطاير بسرعة هنا وهناك، حول زهور الربيع. فجأة تزحلقت الكام.. تحت، وبدأت تمسح كلّ الأمكنة المحيطة، التي شعر آدم كأنّه يعرفها جيّدًا. بيت والدها في طوكيو. بيت صغير وحديقة مربّعة تتزاحم فيها النباتات والورود وروائحها الكثيرة. ثم رآها داخل قاعة، وعلى أذنيها السمّاعة ومكبّر الصوت. فجأة، برز وجهها واضحًا وسمحًا وضحوكًا، وبشرتها ناعمة كمولود لم يلفحه بعد هواء الخارج.

ـ يااااااه. أمايا... خمس سنوات وثمانية أشهر و٦ أيّام، و١٧ ساعة، و٤ ثوان، وكأنْ لا شيء تغيَّر.

سحبت شعرها وراءها، مع أنّها عادة تقبضه بمطّاط خفيف يسعفها بسهولة. أزاحت قليلاً لباسها من على صدرها، فظهرت الخالة القريبة من وسط نهديها. ثم رفعت قليلاً عن ساقها الذي بدا كشمعة، وكأنّ السنّ لم يمسسه بأذاه، فرأى الجرح الطويل الممتدّ من فوق في خطّ مستقيم. شعر بخجل كبير وبحمرة تعلو وجهه. عرف أنّه جرح انفجار

..اج الحافلة الفرنسيَّة الذي سقط عليها. هي كما رآها آخر مرَّة، لا
..ء فيها تغيَّر. حتى لباسها نفسه، ومعطفها وقبّعتها الحمراء. ليست
...، عنه الآن. هي على مسافة قبلة أو نَفَسٍ من أنفاس الشوق.

ارالِ الآن يا قلبي. الصورة أصبحت واضحة. واوووو ما أجملك!
أشتهي هذا اللباس، هو نفسه الذي كنت ترتدينه يوم الحادث.
سلامتك يا أنبل قلب.

لا تذكِّرني به. كدت أموت لولا حافلة الخطوط الفرنسيَّة التي تخفَّيت وراءها. الآن كلّ شيء تمام. جرح سيِّئ في الساق بسبب كتل الزجاج التي سقطت عليّ، لكنْ لا ضررَ كبيرًا. المهمّ أن تعود لنا بكلِّ الخير. يونا تسلِّم عليك. خرجت في عمل. تشتغل مع قناة أميركيَّة. مراسلة اجتماعيَّة في المناطق الفقيرة.

- بوِّسيها لي كثيرًا. سنجمع قريبًا أسرتنا من جديد. أعرف أنّك لا تحبّين هذا، لكنَّنا شارفنا على الانتهاء من قنبلة الجيب التي لن تُستعمل إلَّا في الحدود الضيِّقة تفاديًا لاستعمال القنابل الكبيرة من نوع ليتل بوي وفات مان وتزار الروسيَّة الهيدروجينيَّة. وضعنا عليها ضوابط وضغوطًا، وهذا كلّه يجعل منها سلاحًا ردعيًّا أكثر منه سلاحًا نوويًّا.

- لا شيء يهمّ يا قلبي، ما دامت المهمّة نبيلة. في النهاية تهمّني عودتك. الباقي أنت أعرف بما تفعل.

- غريب! تغيَّرت كثيرًا يا أمايا. جميل. تشجّعينني على المواصلة؟

- أعرف ارتباطك بمشروعك، وسأكون غبيَّة لو منعتك، لكن فقط احذروا من الأذى لكم ولغيركم.

- سعيد أن يكون هذا رأيك. أينك الآن؟

- عدت إلى ناغازاكي، وفتحنا مستشفى جديدًا عالميًّا لمعالجة حروق الإشعاعات. الأخطاء النوويَّة كثيرة. حتى الأسلحة التقليديَّة أصبح

بها الماء المشبع، وهو أيضًا شديد الخطورة. لكنْ أقلّ خطو... الإشعاعات الذرّيَّة. نستقبل الكثير من الآرابيين المشرَّدين ... العالم.

ـ سعيد من أجلك ومن أجل كلّ ما تقومين به.

ـ المهمّ حبيبي: أخشى أن يتقطَّع الاتِّصال. أنت تستعدّ لحدث مهم ... حياتك، عليك أن تحافظ على حياتك وإمكاناتك الذهنيَّة ولا ... الحواسّ الخادعة تخونك.. أن تنتبه لكلّ التفاصيل.

ـ بوكيت بومب حدث مهمّ؟

ـ قصدي ترشيحك لنوبل. اسمك على رأس القوائم. يونا فخورة بك، وتتمنّى أن ترافقك إلى ستوكهولم.

ـ رأيت ذلك في بعض الجرائد الورقيَّة والإلكترونيَّة، لكنّي لست مرتاحًا لهذا كلّه.

ـ المهمّ، انتهِ من مهمَّتك وعد لنا بخير. جهدك كبير. أنت لم تفعل شيئًا مضرًّا سوى أنّك بحثت عن السلام بخسارة أقلّ.

ـ كأنّي لا أعرفكِ حقًّا. تمنَّيت أن تمنعيني وأن تظلّي على رأيك. لا أدري. وضعي هو وضع نوبل نفسه. تاجر في البارود، وكان من وراء تدمير البشريَّة. ما زلنا إلى اليوم ندفع ثمن حماقاته وحساباته الضيّقة.

ـ لكنَّه حقّك. أنت قضيت عمرك كلّه في البحث. نيَّتك هي الأساس.

ـ شكرًا. لكنْ، لا أدري إذا كان ذلك يفيد في شيء.

ـ يفيدني أنا ويونا والملايين ممَّن رفضوا قنبلتيْ هيروشيما وناغازاكي. نفتخر بك. حبيبي سيتّصلون بك قريبًا. ويجب أن لا ترفض. لا تكن أحمق وترفض تكريمًا، ولو جاء متأخّرًا. أكثر من ٤٠٠ مليون من

ارابيا ينتظرونك، مات منهم في نصف القرن الأخير أكثر من ربعهم. تقاتلوا حتى أبادوا أنفسهم. ازرع الأمل فيهم. اعتبر نفسك العربيَّ الأخيرَ، وعلى ظهرك مسؤوليَّة إعادة بعثهم من جديد.

فجأة، مرَّت بذهنه لعبة كان يمارسها معها ومع ابنتهما يونا لتخفِّف عليها هذا الجوَّ المؤكسد والثقيل. كان هو يقول جملة: نحبّك ونموووت عليك، وتردّ عليه باليابانيَّة. ثم يقولها باليابانيَّة *وتاشي ها اناتا غا سوكي ديسو* Watashi ha anata ga suki desu، المكسورة، فتردّ بعربيَّة مكسَّرة. ***أإبك أو موت ألك***.

- أمايا حبيبتي.

- أسمعك يا قلبي، وممتلئة بك. لن يطول غيابك.

- نحبُّكِ ونموووت عليكِ.

نظر إلى عينيها المليئتين إشراقًا. انتظر أن تجيبه باليابانيَّة كما تعوّدا أن يتدرّبا على بعض الكلمات بالعربيَّة أو باليابانيَّة، لكنْ دوّرت عينيها كثيرًا كأنّها تستنجد؟ دارت برأسها يمينًا وشمالاً مثل لعبة إلكترونيَّة. كرّر الكلمات نفسها.

- أمايا... أمايا حبيبتي. أيْنَكِ؟

- معك يا روحي.

- لم تردّي عليّ. كأنّك لم تسمعيني؟

- أسمعك بكلّ قواي.

- نحبّك ونموووووووت عليك.

عادت إلى حركات التيه نفسها. لم يفهم شيئًا. بدت كأنّها فقدت كلّ حياة في داخلها. دارت برأسها يمينًا ثم شمالاً، مثل الروبو. فجأة، أحسّ كأنّ شعلة الذكاء التي كانت تملأ عينيها، انسحبت منها!

سمع صوتًا حادًا، كأنّ شيئًا توقَّف فجأة.

غابت الصورة.

عادت الشاشة لتمتلئ بالألوان الكثيرة والزاهية، كما بدأت. ... ليتل بروز، بعصاه التي يضعها تحت إبطه اليمين، وهو يمشي، و... الأمكنة داخل القلعة التي بناها لتصبح قوَّةَ دفاعٍ متقدّمة بمطارها الح... الجديد، وسط الأناشيد والموسيقى العسكريَّة. يعطي الجميع بظه... ليبقي وجهه في الظلّ، سرِّيًا، استعدادًا للحروب القادمة. وراءه سـ... من الناس من كلّ الأجناس، وهم يصيحون بحياته. *عاش الماريشال عاش. عاش. عااااااش.*

شيء واحد بقي في ذهنه، على الرَّغم من فرحه برؤية أمايا، ظل صوتها متقطّعًا بسبب الساتل المعوّق الذي لا تتركه الأقمار الأخرى يمرّ بدون رقابة صارمة، بالخصوص في ظلّ التهديدات التي تقف على رأس أميروبا التي لا تترك الهفوة، لأنَّها تعرف مسبقًا أنَّها يمكن أن تكون سقطة العمر. هذا كلّه يتفهَّمه، لكنَّ صوتها لم يرحه أبدًا، أكثر من هذا تغيُّرها الجذريّ الغريب! هل تداريه فقط، ولا تريد أن تثقل عليه بهموم أكثر؟ أحيانًا كان صوتها حادًا ويكاد يكون فولاذيًا، كأنْ الكلمات التي كانت تخرج من فمها تتطاحن بين أسنانها وحركة شفتيها الثقيلة بعض الشيء. هذا أيضًا أفهمه، لأنَّ مشكلات الإرسال كانت صعبة جدًّا. لولا جهود التقنيين والمهندسين لما وصله وجهها ولا صوتها.

شعر آدم بعطش كبير. جفت حلقه. عبثًا حاول أن ينام.

تأمَّل السلحفاة حوّاء طويلاً وهي تدور في مكانها. توقَّفت عن أكل السلاطة، وظلَّت تتابع معه حركات وجه وشفتيْ أمايا، لكنْ بمجرَّد ما جاء النشيد الوطنيُّ بلغة الأوروليننغوا، حتى عادت إلى

مركنها الذائبة، وبالت في الزاوية حيث تعوَّدت، في إناء التربة. اخذها من الأرضيَّة الباردة، وبدأ يحكّ على رأسها الذي لم تدخله أبدًا صلبة السلاحف إلّا لحظة تريد أن تنام. يعرف وقتها، تلقائيًّا أنَّها بدأت تتعب وتريد أن تتخفّى في بيتها. أسمعها النشيد الوطني من جديد.

نحن في النار وساحات الموت

نبني عالمًا جديدًا نعطيه من لحمنا وراحة أبنائنا.

هبُّوا يا أحرار العالم لا تتركوا البربريَّة تصبح سيّدة.

سنخسر الكون والشمس والسماء، إن صمتنا.

فتحت حوّاء قوائمها الخلفيَّة وبالت من جديد.

ثم أخفت رأسها ونامت لأوَّل مرَّة في يديه. غيَّر الغطاء، ونام هو أيضًا.

ـ ٤ ـ

نزلت الظلمة مبكرًا.

كلُّ شيء متواطئ مع السكينة، ما عدا رشقات الرصاص المتأتية من بعيد، وعواء بعض الذئاب الضالَّة الخائفة من الاقتراب من الأسلاك المكهربة للقلعة، أو أزيز بعض الطائرات الحربيَّة الذي كان يأتي من المطار الجديد. كانت تذهب وتجيء بشكل متواتر على امتداد صحراء الربع الخالي.

لا شي يحرّك سكينة هذا الليل.

تعالت الضحكات الانفجاريَّة في الطابق السابع، في القاعة البيضاء، بين ليتل بروز ونائبيه الجديدين، بيرل غروسمان وفرناندو ليفي. تُسمع من بعيد، وكأنّهم في احتفاليَّة ساخرة.

أعاد ليتل بروز تأمَّل الصور واحدة واحدة، وكأنّه يريد أن يحفظها عن ظهر قلب. بدأ يمرِّرها بالتصوير البطيء أمام عينيه المفتوحتين على آخرهما. تبدو واضحة الخطوط الانفصاليَّة الصغيرة بين الصورة والصورة ما يدلّ على العمليّات التركيبيَّة والتقنيَّة التي مرَّت عليها هذه

الصور، لكنَّه استغرب كيف وصل الإنسان إلى أن يخلق أشباهًا بدقّة متناهية، انطلاقًا من صور ومعلومات أوَّليَّة يتمّ تخزينها والعمل عليها.
أيعقل أنّ العلم وصل إلى هذا الحدّ من الدقَّة والجنون؟

قال موجّهًا كلامه إلى المهندسيْن وولكر سام ولوثر سيمسون اللذين جاءا خصّيصًا من أسطول مضيق هرمز، ليشرفا على البرامج العسكريَّة الافتراضيَّة الجديدة. من داخل البوكس الذي كانا ما يزالان في أعماقه. أجاب سام:

- ههههههه. . هل هي الغباوة الكبيرة أم الذكاء المطلق للتكنولوجيا؟!
على أيِّ حال، لو كنت مكان آدم المسكين لصدَّقت كلّ هذا الهراء، فهو من الدقَّة بحيث لا يترك مجالاً للشكّ أبدًا.

- كما تعرفون سيِّدي الماريشال، هذه الطريقة طوَّرت في المؤسّسات العسكريَّة. فهي التي اتّخذت المبادرة وجرَّبتها. كان المقصود من ورائها إفشال الخصم بالصور وتفادي التعذيب، وقد أتت بثمارها. كان يؤتى بالسجين المالك للحقائق ويوضع أمام الشريط الافتراضي الذي يظهر فيه صديقه وهو يعلن عن الأسرار، وكأنّه حقيقة، ويكون هذا الأخير قد مات تحت التعذيب أو قُتل بكلّ بساطة. السجين عندما يرى صديقه قد أقرّ بكلّ شيء، وحتى ينقذ رأسه، يفعل الشيء نفسه.

قبل أن يواصل سيمسون متمِّمًا كلام صديقه.

- هذا البرنامج يُستعمل للمرَّة الأولى في القلعة، لهذا ظهرت في الأخير بعض النقائص، لأنّنا لم نخزّن بعض الأشياء بالعربيَّة، وكان علينا فعل ذلك. لهذا قطعنا الصورة في الأخير، فقد بدت كأنّها مجرَّد صورة من صور المانغا الغبيَّة، وهي تتحرَّك في الفراغ وتبحث عن إجابات لحيرتها غير المبرمجة. على كلّ حال، هذا البرنامج ناجح

مائة بالمائة بالنسبة للأوروليغوا والإنجليزيَّة، أو حتى بالنسبة للغات التي تتمّ برمجتها مسبقًا. الشخصيَّة الافتراضيَّة تملك خزّانًا لغويًا وجملاً احتماليَّة، وتركيبات تُعدّ بالملايين، يشكّلها البرنامج نفسه على ضوء كلام الشخص الحقيقيّ. الوقت الذي قضيناه في خلق وترقُّب أمايا افتراضيَّة تتحدّث بطلاقة وحبّ، لم يكن أمرًا سهلاً بكلّ تأكيد. كان يجب علينا اقتفاء كلّ صورها وأرشيفها العائليّ الخاصّ الذي استطعنا الوصول إليه. لحظة البياض التي خدعتنا هي تلك التي لم نترقّبها ولم نخزّنها، لأنّه جاءنا بخبث من حيث لا أحد ينتظر، عندما قال لها بالعربيَّة نحبّك ونموت عليك، لأنَّ البرنامج لم يفهمها. ثم كرّرها ثانية، لكنَّها كانت تحني رأسها كأنّها لم تفهم شيئًا، قبل أن نبادر ونُدخل قليلاً من التشويش وصوت الموجات، لكي يدرك أنّ الوضع تقنيٌّ لا أكثر.

ـ العمليَّة معقَّدة. وكما قال صديقي سيمسون، رصدنا حتى طريقة كلامها في كلّ التسجيلات وهي محاضرة في معاداة التجارب النوويَّة، لها أرشيف كبير في المؤسَّسات الدوليَّة. أدخلناها في الكمبيوتر وعالجناها صوتيًا بدقّة. لكنْ اكتفينا باللغات المستعملة الأوروليغوا والإنجليزيَّة التي تنطق بها هي، حتى اليابانيَّة أتينا ببعض عناصرها، لكنَّ الجملة التي قالها لم ننتبه لها. سجّلنا كلّ الكلمات والأفعال الممكنة على مدار الوقت، وتركنا الباقي للحاسوب لكي يقوم بتركيب وترميم كلّ شيء، بعد أن زوّدناه بكلٍّ ما نعرف عن حياة آدم.. وانتهى الأمر.

ـ نحن نؤمن يا ماريشال بأنَّ كلّ شيء يمكن أن يُخترق، بما في ذلك الذاكرة والحلم، ويمكن تحويل الأشياء باتّجاه الوجهة التي نريد. يحتاج الأمر فقط إلى متابعة الشخص المعنيّ، والاطّلاع على كلّ ما

أنجزه من حوارات ولقاءات أو التسجيل معه مدّة طويلة، حركاته الخاصّة والمتكرّرة أيضًا، لباسه، عيوبه في الكلام. الفيسبوك يمنحنا مادّة كبيرة واستثنائيّة. هكذا يتمكّن البرنامج من تحديد خاصّيّاته الصوتيّة الدقيقة، لأنّها المرحلة الأكثر دقّة، ويصبح بعدها العمل ممكنًا وبدون معطّلات كبيرة. نفكّر اليوم في شيء أكبر، وقتها لا مشكلة مطلقًا. وقت المقابلة، الدخول في مخّ الإنسان ودفعه إلى طرح الأسئلة التي يشاءها البرنامج. حينها لا مشكلة، ننجز المقابلة وفق ما نريد نحن، مشكلة هذه الطريقة الناجحة مائة بالمائة أنّك لا تعرف نوايا العدوّ العميقة. أنت من يصنعها له. لكنْ هي في طور التجريب، قد تصلح في حالات ولا تصلح في أخرى.

ـ ههههه.. جنون حقيقيّ. برنامج سنحتاج له كثيرًا لمقاومة *التنظيم*. *التكنولوجيا في خدمة الخير*. يجب أن يظهر هذا الشعار في كلّ مكان. برافو. القلعة كلّها فخورة بكما. يمكنكما الآن أن ترتاحا بعد هذا الجهد الكبير الذي أعفانا من جهد مجّانيّ ومستحيل. أعتبر من اليوم أنّكما وضعتما في حوزتنا سلاحًا نوويًّا خطيرًا، ضدّ *التنظيم* أكثر من *البوكيت بومب* التي شارفت على النهاية وبداية التجارب الميدانيّة، لتصبح حقيقة ماثلة أمامنا. تقارير كلّ المستشارين العسكريين تؤكّد على ذلك.

قال ليتل بروز، وهو غير قادر على كتم سعادته، في زاويته المظلمة المعتادة، بين الشاشات التي رأى من خلالها كلّ المقابلة الافتراضيّة بين آدم وأمايا، ليس بعيدًا عن مساحته الحميمة ـ غرفة نومه والتواليت.

بينما كان النائبان بيرل غروسمان وفرناند ليفي، يصغيان ويتابعان الشاشات بنباهة. ما تزال صور المقابلة مثبّتة على كلّ الشاشات في

وضعيّات مختلفة، بالخصوص نهاية المحاورة، حيث تبدو أمايا مثل الضائعة، كلعبة إلكترونيَّة، تبحث عن كلماتها الهاربة. تدير رأسها يمينًا وشمالاً، بدون القدرة لا على الفهم ولا على الإجابة..

ـ كنت خائفًا حقيقة من مخاطر آخر لحظة، لأنّي أعرف أنَّ في التكنولوجيا المتقدّمة أحيانًا زلّات خطيرة.

ـ كلّ شيء سار على ما يرام.. سيّدي الماريشال.

قال بيرل قبل أن يردف ليفي.

ـ معك كلّ الحق يا سيّدي في تخوّفك. في النهاية، كدنا نسقط في الخطأ القاتل. رأيت كيف أنَّ كلمة غير محسوبة، كادت تفقدنا زمام الأمور؟ جيّد أنّنا أوقفنا اللقاء في اللحظة الحاسمة. تخيَّل، لو انتابت أحدنا أو كلانا رغبة التبوُّل في تلك اللحظة الحاسمة، لبقيت الصورة تدور في مكانها بشكل أبله ومثير للشبهة.

كلمة تبوُّل خلَّفت له مغصًا وقلقًا كبيرين. شتَمَهُ في أعماقه. *ابن الكلب، ألم تجد كلمة أخرى غير التبوُّل التي تعيدني إلى بؤس الطبّ الذي نجح مع الآخرين وفشل في حالتي؟* ثم ضحك بينه وبين نفسه حينما تذكَّر الاقتراح الأخير الذي وضعه الأطبَّاء بين يديه في جلسة خاصَّة وحميمة، في الجناح السرّي لمستشفى وعيادة أميروبا. الوسيلة الوحيدة المتبقّية هي أن يقبل بزرع عضو آرابيّ، مسلم أو أسود، لأنَّه الأكثر توافرًا في هذه الصحراء القاسية. فانتفض صارخًا في وجوههم: *لماذا؟ هل نحن ضعاف وحاويين*[1] *إلى هذه الدرجة؟* هدّأ من روعه كبير الأطبّاء المختصّين في زرع الأعضاء، الذي جاء من أكبر مستشفيات نيويورك، خصّيصًا لإجراء هذه العمليّة: لا سيّدي، *نحن هنا*

---

(١) العاجز جنسيًا.

اجلك. البشر متشابهون من حيث الوظائف الأساسيّة. فقط لأنّها
اءصاء الأكثر توافرًا في الحروب التي تخوضها قلعة أميروبا ضدّ
هليم وجياع آرابيا. ويمكنها أن تجرّب بسهولة. وأنا نفسي أجريت
..ابات زرع كثيرة، البعض منها نجح، لأنّ لجسد المستقبل وسنّه دورًا
هما. عندما نطق الطبيب كلمة سنّ، شعر ليتل بروز بخيبة كبيرة في
اعماقه ارتسمت في عينيه. قرأ ذلك قراءة خاصّة، وهي أنّ حظوظ
ماح العمليّة أصبحت صفرًا، أو شيئًا قريبًا من ذلك. لم يفكّر طويلاً،
لها كانت إجابته جاهزة وصارمة: في هذه الحالة نِيَتْ[1] يا بروفسور.
ا.ا. الموت ولا قبول عضو يفرض عليّ نظام المتعة والتبوّل والحياة،
والانتصاب من عدمه. ورفض المقترح. طلب منه البروفسور بعد أن
احفق في إقناعه، أن يوقّع على وثيقة الرفض نهائيًّا، لأنّ ذلك يعفيه
من أيّة مسؤوليّة طبيّة. وخرج ليتل بروز ليعود إلى عمله بعد أن كان قد
أخبره معاوناه المباشران، بيرل غروسمان وفرناند ليفي، عن تساهل
سير جون في الكثير من ممارساته في تسيير شؤون القلعة، وأنّ عليه أن
يعود إلى عمله وصرامته، لأنّه الأوحد القادر على تسيير القلعة. عندما
سمع ذلك، تمنّى لحظتها أن يخرج بكلّ الخيوط والأنابيب المتشابكة
التي كانت تملأ جزءه السفليّ والركض نحو الصالة البيضاء، وتوقيف
سير جون وإعدامه بتهمة التواطؤ والتخابر مع قوّة عدوّة؛ ويقال إنّه لم
يكن بإمكانه فعل أيّ شيء ما عدا إيقافه عن الإدارة وطرده من القاعة
البيضاء، وإرجاعه إلى الميدان. أمره بالتسيير الموقّت إلى غاية
خروجه، إلّا أنّ الحقيقة التي خرجت إلى العلن في القلعة، أنّ سير
جون هو من استقال بعد أن اشتدّ الخلاف بينه وبين معاونيْ ليتل بروز،
فقد كانا يتدخّلان في الصغيرة والكبيرة. طلب تحويله إلى مضيق هرمز

(١) لا. باللغة الروسيّة.

أو البحر الأحمر، والمغادرة من هناك إلى لندن. الشرط الوحيد ا يظلّ في منصبه حتى خروج الماريشال من العيادة العسكريَّة في القاهرة وانتهائه من فترة النقاهة. عندما عاد ليتل بروز إلى مكتبه بعد غياب طويل، وجد رسالة الاستقالة التي ختمها على مكتبه: *كنت سعيدا للعمل بجانب الجنرال دافيد حيون دوغلاس، بإخلاص كلّيّ.* عندما انتهى من قراءتها، لم يتحكَّم في أعصابه لحظتها، فصرخ بأعلى ما أوتي من قوَّة: *كلُّكم كذّابون يا أبناء القحبات، لا تحترمون ما يفتح لكم من فرص الترقية والخير.*

ـ لم نفعل إلَّا ما يرضيكم يا سيِّدي. يبدو أنَّ هناك سوء تفاهم.

قال بيرل غروسمان وهو مندهش ممّا سمعه من كلام مهين، من الماريشال.

تفطّن ليتل بروز إلى حماقته وصرخته التي كتمها طويلاً قبل أن تخرج منه بشكل تجاوز عقله.

ـ كنت مع سير جون الذي نسي كلّ ما قمت به من أجله.

ـ أنت قمت بما يجب القيام به، لأنَّ الصمت على التسيير السيِّئ قد يجعل الأمور تتفاقم ونخسرك.

ـ تمنّيته أن يساعدكم قبل أن ينسحب بغباء.

ـ نحن نعرف المكان جيِّدًا، ولم نكن أصلاً في حاجة إليه. فكرة المقابلة قمنا بها بالرَّغم من مخاطرها، من دون استشارته. وربّما لو كان موجودًا لحَرمنا من متعتها باسم الأخلاقيّات العسكريَّة.

ـ حكاية المقابلة اليوم حكاية! أنا نفسي، لا أعرف ماذا أقول من شدة التقنيَّة ونجاح التجربة.

ـ طبعًا، لن يتفطَّن حتى للخطأ الكبير الذي ارتُكب في النهاية، لأن بعدها رأينا وجهه مورَّمًا من شدّة البكاء والحزن، ممّا يبيِّن أن

المسألة لم تكن عاديَّة، وأنّه بلع الطعم. حتى اللخبطة في الأخير، سيردُّها إلى سوء الإرسال كما تمّ إشعاره بذلك في البداية، وبصعوبة الاتّصال بسبب مشكلات في الأقمار الصناعيَّة.

تمام. هذا صحيح. قال ليتل بروز متمّمًا كلام ليفي. هذا كلّه متطابق مع ما قاله له المهندسان. شرحا له في جلسة خاصَّة سبقت المقابلة بأربع وعشرين ساعة، كيف سيجعلان من المؤثّرات الصوتيَّة وسيلتهما أيضًا لإقناع آدم بأنَّه عليه أن لا يتفاجأ إذا حدث أيُّ تشويش، كأن يرى الصورة ولا يسمع الصوت أو العكس. طرح أسئلة كثيرة مخافة من خطأ تافه، يقذف به مباشرة نحو التقاعد النهائيّ في أريزونا البائسة التي تأكلها الثعابين والعقارب. لكن إجابات المهندسيْن وولكر نسام ولوثر سيمسون كانت دقيقة ولا تترك مجالاً للشكوك. فقد أراحته كثيرًا. لا يريد أن يبدو غبيًّا أمام عالِم نوويٍّ ترتكز الكثير من عناصر المشروع عليه وعلى أعماله.

حاول ليتل بروز أن يخفِّف من الجوّ الذي أحدثته صرخته القاسية في وجه معاونيه.

- الواحد في هذه القلعة يكاد يفقد توازنه. كدت أصدِّق ما كنت أراه، وأبكي أيضًا تعاطفًا مع آدم وهو يلاقي حبيبته أمايا التي لم يرها منذ حادثة المطار. من حماقات سير جون أنَّه منعكما من تسجيل الليلة العشقيَّة بين إيڤا وآدم، وإلّا لكنّا أظهرنا له مقاطع منها. متأكّد أنَّها كانت مذهلة، مارسا فيها كلّ جنونهما الخفيّ. هي لبؤة سويديَّة حيَّة وهو أسد صحراويٌّ في آخر طلقاته. للأسف، باسم حقّ الإنسان في الحميميَّة، مُنع كلّ شيء. ونسي الغبيّ أنَّنا في حرب ضروس ضدّ *التنظيم*، وضدّ كلّ ما يقتلنا من الداخل.

- حاولنا يا سيِّدي معه، وطالبنا بها كوثائق فقط تُستعمل عند الضرورة.

لكن سير جون كان صارمًا، وطالب المهندسيْن بإطفاء كلّ الأجهز، والذهاب للنوم. وبات مرابطًا في المكان. وليس لنا من التسجيلات لتلك الليلة إلّا بدايتها بدقيقة عندما دخلت إلى غرفته وهي تقطر ماء وتفتح حقيبتها لتغيير ملابسها؛ ثم لقطة صغيرة جدًّا من ستّ ثوانٍ وهي تُخرج حقائبها برفقة سالم. صور تكاد تكون دون العاديّ.

ـ غيابك يا ماريشال غيَّر أمورًا كثيرة، قال سام متمِّمًا كلام سيمسون. حتى الجمعيّات التي منعتها في القلعة أو شدَّدت عليها وضايقتها في عملها لكي لا تأخذ أسرار القلعة، تلك التي جاءت باسم حقوق *الإنسان الآيل إلى الزوال*، أو البعثات المختلفة التي لا تحترم حتى المكان الذي يجب أن تقف فيه، وجدت حرِّيَّتها المطلقة في فترته.

ـ لا أدري لماذا فعل ذلك! أعرف إنسانيَّته وأعرف أيضًا ارتباطه القويّ بالعاطفة المسيحيَّة، واحترامه لصلاة يوم الأحد والصليب الذي يملأ بيته الذي يشبه كنيسة صغيرة بروائحها وعطورها. على أيّ حال، بالنسبة للبعثات، لا مشكلة. الكثير منها تتعامل معنا وتضع نتائجها العلميَّة تحت تصرُّفنا، وما تبقَّى تأخذه معها إلى جامعاتها أو مراكز أبحاثها. تلك شروطنا الدائمة للمساعدة.

ـ أقصد إيفا التي تحصَّلت على التصاريح التي حوَّلت المكان إلى مزرعة. تدخل وتخرج متى تشاء، وتبيت مع غيست مثلما تفعل قحبات ريد لايت[١] في أمستردام، أو بيغال[٢] في باريس. لا أحد يمنعها. تتحرَّك كأنّها في بيتها أو بيت أهلها. هذا مهين يا ماريشال وغير مقبول!

ـ على كلٍّ، أنتظر انتهاء مهمَّتها وأطردها مع أوّل رحلة باتّجاه البحر

(١) Red Light District

(٢) Pigalle

الأحمر، ومن هناك إلى جهنّم أو السويد. لها أن تختار. أنا أيضًا لا احبّ هذا النوع من البشر.

اكّد لهما وهو ما يزال في عمق ظلّه، بعد أن تفادى شلّالاً من ... قادمًا من المطار الجديد، أو من طائرة ضخمة كانت تستعدّ ... ، أن تظلّ عيونهم مفتوحة عن آخرها، لأنّ الأعداء الداخليين ...ملر على قلعة أميروبا وعلى البلاد من *التنظيم*. هذا الأخير معروف ...له لم تعد تُخفى على أحد، لكنّ المرض إذا انتشر في الجسم، من الجسم نفسه، فهو قاتل ومدمّر.

تمدّد ليتل بروز قليلاً، منتشيًا بما رآه وما شاهده وما سمعه. ...ن براحة كبيرة أنسته شجن إخفاق عمليّة الزرع وخيبة سير جون. ...مع أزيز الطائرات التي كانت تذهب وتجيء بلا توقّف، مقطوعة من ...ين لآخر، برشقات الرصاص، التي تعدّدت وأصبحت أكثر خشونة، مصحوبة بعواء كان يأتي من بعيد، وصرخات مكتومة لا تصل كاملة، مختلطة بالعواصف الرمليّة الليليّة التي تكنس كلّ شيء؛ وعندما يأتي الصباح، يبدو فجر قلعة أميروبا وصحراء الربع الخالي جميلاً ومستكينًا.

أغمض عينيه قليلاً. سمع الأضواء وهي تنطفئ الواحد بعد الآخر، ولم تبق إلّا النوّاصة التي تمنحه بعض الأمان.

٥ ـ من ليس معنا، فهو ضدّنا

وفي يوم من الأيّام، اصطاد عصفوراً ملوّناً يسمّونه المقنين أو الحسّون، ظنّه أصدقاؤه أنّه سيكبّره في البيت ويشتري له صندوقاً جميلاً أو شباكاً أصفر يربّيه فيه، ويشتري له حبوباً من سوق الطيور، ولكنّهم فوجئوا به يكسر قنّينة كانت في يده، وبقطعة حادّة منها ذبحه بها، وشواه.

الكوربو. سيف،

مكالمة مع آدم

ـ ١ ـ

تنفّسا قويًّا، ثم واصلا الجري.

لم يحكيا ولا كلمة.

آدم ظلّ نظره مصوَّبًا نحو نقطة في فراغ كان وحده من يراها. عاد في أعماقه إلى مدرّبه الألمانيّ، قبل الإصابة، جو بايدن، الذي تأثّر أكثر منه يوم التوعُّك القاسي الذي حرمه نهائيًّا من المنافسة الأولمبيَّة والعالميَّة. كان يكرّر عليه في كلّ لحظة كلّ سباق تجريبيّ: *انظر يا آدم أمامك دومًا. هناك نقطة عليك أن تتخيّلها تسبقك وتجري بمسافتك نفسها، لكنّ لها أفضليّة أنّها قبلك دومًا. تركض نحوها لتدركها. عليها أن تظلّ أمامك. هي مرشدك، وعليك في صراعك أن تؤمن بأنّك يمكن أن تسبقها. لكنّها تظلّ دومًا على المسافة نفسها، بعيدة عنك. لأنّك يوم تدركها، تخسر سباقك.* في البدايات، كان هذا هاجسه. ولكنَّه في يوم من الأيَّام، رأى أمامه ذئبًا كان ينظر إليه بعينين أليفتين، فعرف بسرعة أنَّه رماد. يتسابق معه. كان أرنبه الذي يدفع به إلى مضاعفة السرعة بدون أن يدركه. حتى يوم انكسر الكاحل، وانزلق

الغضروف، كان أوّل شيء رآه هو رماد وهو يئنّ داخل المضمار ... أن ينسحب وهو يجرّ رجله، تاركًا وراءه المتسابقين ينهون ... بدونه.

بينما كان سميث يحاول أن يظلّ في جريه، يسير على ... خطوات آدم، حتى لا يتعب بسرعة ويفقد لذّة مواصلة السباق. عدوًا أساسيًّان في سباق المضمار، حتى ولو كان تدريبيًّا بسيطًا، أن ... إلى من معك أنّهم أقوى منك، وبالتالي ستدخل معهم كتكملة عدد، أن تخشى أن يخدعك جسدك في أيّة لحظة. جسدك لا يخدعك إلّا إذا خدعته مسبقًا.

لم يكن المساء ثقيلاً كما هي العادة في الأيّام الأخيرة.

الرطوبة الليليّة المتأتّية من السدّ والوادي المتفرّع عنه خفّت كثيرًا، وخلّفت وراءها جوًّا ناعمًا مثقلاً بهواء خفيف. الغيوم الثقيلة والأمطار المحمَّلة بالأتربة الصفراء هدأت، ولم تعد تعيقهما عن الركض السماء كانت مثقلةً ما أعطى للجوّ برودة خفيفة، لكنْ ولا نقطة سقطت من المطر. حتى تهديدات الكوربو، بسبب كثرتها المبالغ فيها، لم تعد تخيف أحدًا. فقد احتلّ الكوربو عددًا من المواقع الاجتماعيّة في الفيسبوك، بل اخترق صفحات الكثير من القادة العسكريين في القلعة، وشتم من هناك، مستعملاً الأورولينغوا من بين اللغات الأخرى، كلّ التحالفات الدوليّة متّهمًا إيّاها برغبتها المحمومة لإجهاض مشروع الدولة الإسلاميَّة الحقيقيَّة الذي يدافع عنه *التنظيم*. كلُّ العالم ضدَّه بما في ذلك الحلفان الكبيران، حلف أميروبا بكلّ قواعده في مضيق هرمز والبحر الأحمر، وحلف إيروشينا الذي استولى نهائيًا على كلّ ضفاف بحيرة قزوين وبعض ضفاف المتوسّط. وموقع *التنظيم* الذي لا يتوانى عن تسمية القلعة بـ «*عش القراصنة الذي يجب أن يُحطَّم نهائيًا ويُمسح*

على الأرض، بحيث لن تقوم له قائمة وتحطّم كلّ الأصنام التي ...ها داخله الفاسقون والقتلة، وحرق عظام الأموات وكلّ ما يُعثر ... داخل عشّ القراصنة الذي ليس إلّا قاعدة متقدّمة للكَفَرة الملحدين».

الشخص الوحيد الذي كان يتحمَّل رفقته هو سميث.

مرّات كثيرة كان يلتقي به بعد عودته من المضمار، فقط ليقاسمه لحظات ما يشغله في البرنامج النوويّ، فيمضيان وقتًا آخر في المشي في ساحة القلعة الجنوبيَّة وحتى الشرقيَّة. عاداتهما نفسها عندما كانا المخبر النوويّ نفسه في بنسلفانيا. يكنّان لبعضهما احترامًا كبيرًا. لكنَّه دائما بدأ معه سباقًا، لا ينهيه إلّا معوجُّ الظهر فيشكوه لأمايا: *أمايا، قولي لزوجك، هذا المجنون، أن يخفّف من عناده مع الأطفال الصغار أمثالنا. ليفعل ذلك مع من هم في سنّه... ههههه*.

- أحيِّيك على التزامك بالجري، فقد أصبح وسيلتك لكنس كلّ ما لا يروق لقلبك. لا أعتقد أنّ الرياضة هي وحدها هاجسك. على الأقلّ، هذا ما أصبحت أحسّ به. تذكّرني بجدّي الذي توفّي في مسيرات الموت شهورًا قبل نهاية الحرب العالميَّة الثانية، تخيّل الظلم! كان رياضيًّا. تحمَّل المتاعب كما تقول أمّي، لكنَّه كان عاجزًا عن تحمُّل الجوع والبرد. البرد كان عدوّه الأساسيّ. حتى الصور التي وصلتنا منه، وهو في محتشد أوشويتز، تظهره وهو يرتدي لباسًا خشنًا. الرياضة تؤكّد للإنسان أنَّه ما يزال يعيش.

- لا مشكلة يا عزيزي. أنا أيضًا لم أشبع لا من جدّي القديم ولا من آخر أجدادي، اللذيْن قضيا حياتهما ركضًا مجبريْن. الأوَّل ورثت حكاياته، وشكّلت له وجهًا كما اشتهيته. قضى حياته يركض بين جزيرة أيبيريا وبلاد المغرب حتى جفَّ دمه تحت خرُوبة يابسة من

شدَّة الفقدان والرغبة في العودة. آخر أجدادي حمل السلاح، وعندما حرَّر أرضه من الذين سرقوها منه، عاد إلى جبله ومخبزته القديمة التي لم يغيِّر آلاتها إلّا قليلاً، قبل أن يموت ويرثه والدي في الصمت ليموت هو بدوره في أرض غريبة، ويُعاد إلى تربته أصداء خبر... مشكلة يا عزيزي. في هذه الأرض من الآلام ما يغرقها دهرًا من الصمت ندمًا على الأرواح التي أُزهقت.

ـ كنت أريد أن أسألك سؤالاً بسيطًا لأنِّي انشغلت على وضعك بعد عودة الماريشال بضغينة غير مسبوقة.

ـ على كلِّ حال، حتى الآن لا يوجد ما يدعو إلى الخوف. لم يحرم من أمايا كما اتّفقنا، ولا من خدمات سالم، ولا من الغرفة الجديدة التي مُنحت لي.

ـ جيِّد. وهل أنت راضٍ عن لقائك مع أمايا؟ هل قلت ما كنت تريده؟ كيف وجدتها؟

ـ سعدت بها طبعًا. وفرحت بالخصوص أنّها ما تزال على قيد الحياة. أصدقك القول إنّي كنت أشكّ في أنَّها ما تزال حيَّة، لأنّ ما حدث في ذلك الشتاء مرعبٌ يا صديقي.

ـ ارتحت الآن.

ـ جدًّا. لكنَّ شيئًا ظلَّ معلَّقًا في قلبي. لم نُنْهِ الحديث. بدت في الأخير كأنّها ضائعة عندما قلت لها باللغة العربيَّة: *نحبُّكِ ونموووت عليك* التي تعني أحبك جدًّا. وعادة ما كانت تجيبني باللغة اليابانيَّة *وتاشي ها أناتا غا سوكي ديسو*[1]. بدت لي كأنّها ضائعة مثل صور المانغا اليابانيَّة عندما يصابون بحيرة. بالضبط، هو الإحساس الذي تولّد

(١) Watashi ha anata ga suki desu

ا.تيّ في النهاية، وأنا أرى وجهها وقد فرغ من كلّ شيء وعينيها أصيبتا ببلادة غريبة.. وهذا لا يشبه أمايا أبدًا. وعندما حاولت أن ا.رى إذا ما سُجِّل اللقاء، لأنّي سبق وأن ضغطت على زرّ جهاز التسجيل، لم أجد ولا صورة.

صمت سميث للحظات لاحظها آدم. بدت على وجهه سحابة ...لة غطّت على كلّ ملامحه الحيَّة. سميث لا يعرف كيف يُداري لا ا..رح ولا الحزن ولا الخوف.

يحدث هذا عندما يكون الإرسال سيِّئًا. لكنَّ المهمّ التقيتما. طبعًا، لا يمكن التسجيل في القلعة إلّا إذا سمح لك. بعض المسائل الأمنيَّة يبالغ فيها الماريشال، لكنّ الأمر يسير هكذا، للأسف!

على أيِّ حال، كنت أريد أن أسمعها وأراها وأتكلَّم معها وأطمئنّ عليها، وذلك ما حدث بالفعل. هي بخير والحمد لله. كانت عند والدها في طوكيو. لم أر يونا لأنَّها كانت في عملها، في إحدى القنوات الأميركيَّة.

- أنا سعيد من أجلك. المهمّ أنَّك بخير وأنا بخير أيضًا. كنت أريد أن أقول لك إنّي سأضطرّ للتغيُّب مدّة غير معلومة من يوم إلى شهر، وربَّما أكثر. سعيد أنَّ مشروعنا *PBPu1* و*PBPp2* انتهت جوانبه الأكثر تعقيدًا، ولم تبق إلّا الرتوشات الأخيرة، والبدء في التجارب. ابعث لي، كما العادة، عن طريق الرقم السرِّيّ كلَّ ما تريده فهو لا يُخترق، لأكون معكم حتى في عملكم في المخبر. نحن نعيش وضعًا أمنيًّا خطيرًا. وتهديدات الكوربو أصبحت حقيقيَّة ولا يمكن الاستهانة بها. *التنظيم* أصبح قوَّة خطيرة. الكثير ينظر إلى ذلك نظرة بسيطة وأنّه لا توازيَ في القوَّة، ولكنّك تعرف قضيَّة الصيف الساخن التي تكبَّدنا فيها أكثر من ٢٠٠ مارينز، وخيرة الخبراء والأطبَّاء والغيست

والمقيمين. سبب ذلك الاستهانة ولا شيء آخر. صنعنا قائدًا من جنس... مصريَّة، وأعطيناه تسمية لاعب كرة قدم معروف يحبّه الشباب كثيرًا... الأمير ميدو. وزرعناه بينهم، لكنْ نسينا أنّ الإنسان ليس آلة. في إحدى المرَّات أهانه أحد المارينز بأن سمّاه الشرموطة التي تنام مع م... يدفع أكثر. وانتقم شرَّ انتقام بأن باعنا للتنظيم في عمليّة سكوربيون[1] المعرفة. قُتل قبل مدَّة قصيرة في استهداف من طائرة بدون طيّار.

- اليأس يولِّد كلّ التطرُّفات. يولِّد الخوف الكبير من كلّ شيء. ماذا أقول يا عزيزي سميث، الأمر يتجاوزنا أحيانًا. يدخل في أكث... الاحتمالات تعقيدًا.

صمت آدم قليلاً. غرق للحظات في داخله. كم يشتهي أن يقول لسميث عن كلّ ما يشغله بعمق.. عن الإرهاب الذي لم ينزل من السماء. مَن خلقه؟ مَن موَّله؟ مَن درَّبه؟ مَن وجَّهه لقتل أكبر العلماء وتحطيم أجمل ما شيَّدته الحضارة الإنسانيَّة على أرضه. مَن استفاد منه في النهاية؟

الإرهاب ليس قدرًا. تصنيع أيضًا، ولا ينشأ من الفراغ. أينما كان الظلم أصبح الإرهاب أكثر الوسائل اختصارًا. الإرهاب مرض حقيقيٌّ، ولكنْ كلّ واحد يمارسه عل طريقته، بعضه يحارب وبعضه الآخر يصعب أن يُحارب، لأنّه لا يملك القوَّة فقط ولكنّه يملك سلطان الإبادة بطائراته وإمكاناته. وهو ما يزيد التطرُّفات عمقًا. القصف الذي بدأ منذ المعركة الطويلة منذ بدء الإرهاب! كم مات فيه من إرهابيّ، وكم مات من مواطن عاديٍّ لا يطلب إلَّا العيش. إنّها الحرب العمياء.

---

(١) Opération Scorpion

اشعر بك منشغلاً يا آدم.

افكّر.. وأفكّر، ثم أفكّر.

انت تعرف أنَّهم لو عثروا عليك، فلن يرحموك أبدًا. سيحرقونك كما فعلوا مع كلّ من ناصبهم العداء. يجب أن لا يُستهان بخطر *التنظيم*. لولا تدخُّل وسائلنا في الوقت المناسب لانتهى الحديث عنك اليوم. عمرك طويل يا عزيزي. يجب أن تقول للرحلة التي تقدَّمت بنصف ساعة، ولأمايا ألف شكر. وبعدها يأتي دور قوّاتنا الحيَّة.

كلّ هذا أعرفه ومُدان ومدين له. نفسي فقط أعرف الجهة الأخرى التي فرَّت من المطار. صورة السيّارة موجودة، وأعتقد أنَّ الأمن يكون قد ألقى القبض عليها، ما دام يعرف التفاصيل سلفًا.

. أفترض هذا أيضًا. قد تكون مخابرات *أزاريا*. هي التي درجت على اغتيال علماء آرابيا، وإن لم تعترف. لا تريد أن تتكرَّر عمليَّة الهند وباكستان. فهي تشعر في كلّ دولة مسلمة بخطر يتهدَّدها.

.. اتّضح لاحقًا أنَّها كانت تملك سلاح التدمير الشامل الذي منعته عن الآخرين؟ تعرف أكبر خطر يهدّد أزاريا ليس آرابيا، آرابيا انتهت كقوَّة موازية لها. لكن إحساسها بالتضخُّم سيجعلها ترتكب حماقة تقضي عليها. لهذا، فالإرهاب شيء آخر يا سميث، لا علاقة له بالتهوُّر. هو مثل الحيَّة التي، إذا لم تجد ما تأكله، خرجت من غارها لتصبح عرضة للكواسر والحيوانات المفترسة الجائعة. وجدت في هزائم وإخفاقات آرابيا ضالّتها الكبرى.

الجسد الآرابيّ كلُّه أصبح حطبًا لحروب لا علاقة له بها، لكنَّه يدفع ثمنها بمزيد من الغرق والتخلُّف. شعارات الحركات المتطرّفة من الموت وبالموت وفي الموت وإلى الموت. لا حياة من ورائها. في أقلّ من نصف قرن مات أكثر من مليون من سكّان آرابيا بالقتل

الإرهابيّ على مستوى واسع، أو بسلاح الغرب الجديد الذي كثيرًا ما يحرق مدنًا بكاملها في مطاردة إرهابيّ واحد، يتّضح في النهاية أنّه لم يكن هو المقصود. والباقي تقتله اليوم الصراعات القبليّة والعرقيّة. والعطش الذي حلّ بالأرض كلّها. حتى الأشواق التي كبر عليها في الزمن الأوّل، انقرضت أو في طريقها إلى ذلك. شيء ما تدمّر في هذا العالم الذي يموت في عزلة شبيهة بعزلة الذئب قبل موته. هل البشرية انتقدت نفسها حول ما فعلته. العبوديّة التي كانت جريمة العصر، ابتذلت وأصبحت لا شيء. لا أدري من ذكّرني بأوبريان وهو يتخفّى من وراء جلد أفعى. قال ضاحكًا. لا تخف. نتساوى في الخوف أنا نفسي لا أعرف وضعي في هذا المكان. مثلك. لكنّي أقرب إلى سميت وينسطن منّي إلى أوبريان. يبيع ويشتري في الأرواح والممتلكات ويريد لهذا الظلم أن يستمرّ.

ـ أشعر كأنّك لست معي يا عزيزي. قلت لك لست أوبريان[1]. فهل وصلك صوتي؟

ـ أعرف يا عزيزي. كنت أفكّر إذا كان هناك سبب واحد يبرّر قتل عالِم.

ـ الخوف من الآخر.

ـ هناك حلول أخرى يمكن انتهاجها. تتذكّر عندما كنت، أنا وأنت، في بعثة للأمم المتّحدة، وكُلّفنا بفتح حوار مع الدول النوويّة في أفق إعداد حلٍّ ما. عندما رفضت أزاريا بحجّة عدم حياديّتنا في الموضوع، وكنّا مخوّلين من أميركا والأمم المتّحدة، لأنّنا يومها اقترحنا، مع مجموعة من الخبراء النوويّين، وضعَ منطقة آرابيا كلّها تحت رقابة دوليّة، وتوفير الحماية للكلّ، وهذا يطرد الخوف، ويدفع

---

(١) O'Brien أحد شخصيّات رواية جورج أورويل: ١٩٨٤.

بالناس في التفكير في عالم أجمل. الآخر الخائف منك، عندما يراك قد امتلكت سلاحًا نوويًا، سيفعل الشيء نفسه في أوّل فرصة. وسيلعب على التناقضات في المصالح التي تأكل العالم، ويشتري سلاحًا مدمّرًا. ما المانع اليوم أن تشتري ٢٠٠ رأس نوويّ وتوجّههم للدولة التي تريد تدميرها؟ أنت تعرف أنَّ أمرًا مثل هذا لم يعد مستحيلاً.

- من حقّ الضعيف أن يخاف.

- ومن حقّ المهزوم أيضًا أن يخاف، يا عزيزي سميث.

حكّ سميث على رأسه وهو يجلس أخيرًا، ويمدّد رجله على مدرّج الملعب.

- على كلّ القلعة نفسها لم تعد مؤمنة بجدواها، وهو تفكير جدّيّ لإخلائها قريبًا. لقد أصبحنا نعيش مثل المسكين الكوماندنت القائد جيوڤاني دروغو[(١)] في قلعة باستياني[(٢)] العسكريَّة، على حافّتي المملكة ودولة الشمال والصحراء اللغز التي تفصل بينهما، صحراء التتار التي لا تعرف إلّا فصلين، الثلوج الشتويَّة وتمطر خريفًا، الباقي حرائق. كان جيوڤاني دروغو ينتظر انتصاره الكبير، لكنّ المرض حرمه من هذه المتعة. ويوم بدأ هجوم الشمال الذي تمّ انتظاره لدرجة الإنهاك، اكتشف فجأة أنَّ عدوَّه الأساسي ليس عسكر الشمال، ولكنْ الموت. وكلُّ التحضيرات لم تكن في نهاية المطاف إلّا تلهية تسمح بنسيان العدوّ الأساسيّ الذي هو الخوف. ويوم أخبره سيميونيّ[(٣)] بنشاط الشمال، وبأنَّهم انتهوا من بناء الطريق الموصل

---

(١) Giovanni Drogo

(٢) Bastiani

(٣) Simeonni

إليهم، بعد خمس عشرة سنة من الجهود والعمل، كان هو ينتظر الموت، وذهب نحو موته حتى النهاية متواطئًا مع الطبيب على تخبئة مرضه. وعندما بدأت المعركة، كان يؤخذ للمدينة الخلفيَّة للشفاء، بينما العساكر يعدُّون لدعم المعركة. كان مجبرًا على أن يواجه وحيدًا عدوًّا أبديًّا، الموت الذي كبر معه في الفراش، وفي الساحة التي ظلّ فيها عسكريًّا، عينه على أفق الآتي.

ـ أنت أكبر من ذلك يا سيِّدي! أكبر من دروغو الذي لم يقتله الموت، ولكنَّه كان يحارب عدوًّا غير مرئيّ يشبه كثيرًا هذا العدوّ الجهنّميّ الذي اسمه اليوم *الإرهاب*. انتهى عصر الإخوان والقاعدة وداعش وكلُّ الحركات الدينيَّة، وقام في مكانها امتدادها الطبيعي *التنظيم*. هو يتجدَّد من خليَّة واحدة تظلّ حيَّة فيه، وكلَّما تفتّت ماتت.

ـ حتمًا، سنخلي المكان قريبًا، لأنَّ مبرّرات وجودنا لم تعد متوافرة اليوم. ويعود كلّ منّا إلى عمله الأصلي وبلده.

ـ أخشى بعد كلِّ هذا الغياب أن لا نجد أوطانًا تركناها وراءنا قائمة. الاتِّحاد الأوروبي تمزَّق إلى فيدراليّات داخليَّة محكومة بالأنانيّات الوطنيَّة والعرقيَّة أكثر منها الإنسانيَّة. ألمانيا تحوَّلت إلى كيان جرمانيّ يشمل ألمانيا وكلّ البلدان المحيطة بها. جزء من إيطاليا تمدّد نحو سويسرا. كندا انقسمت ديموقراطيًّا كما شاءت دائمًا. أوروبا الشماليَّة عادت إلى عهد الفيكينغ. روسيا استعادت كلّ أراضي القياصرة ومنطقة الكريمي وجزءًا من أوكرانيا وتسيِّر منطقة البحر القزويني. وبين كلّ بلد وبلد حائط. وبين كلّ سياج وسياج حائط غير مرئيّ. كلُّ شيء تفكَّك. تخيَّل في آرابيا أو ما تبقَّى منها، محا *التنظيم* كلُّ الماضي الإنسانيّ نهائيًّا، فحُطِّمت ألواح جلجامش أو ما تبقَّى منها، ومُحِيَت المدن البابليَّة والرومانيَّة وحتى الإسلاميَّة، على

مرأى من المجتمع الحرّ! نحن اليوم بقايا بشر بلا تاريخ ولا هويَّة. والأشدّ خطورة، بلا ذاكرة إلَّا ذاكرة الطائفة القبيلة والحارة التي لا نقاوم الزمن أبدًا ورياحه. اعذرني يا سميث، ثرثرت كثيرًا. ربَّما لأنِّي وجدت فيك مستمعًا جيِّدًا، وقد لا أراك إلَّا بعد مدّة طويلة.

لا، يا عزيزي آد.. أنت سيِّد المضمار والملعب. أستمتع بكلّ ما تقوله وما تفعله.

نزل آدم إلى الملعب.

مشى قليلاً خطوات محسوبة، ثم رفع الوتيرة على الرَّغم من الأمطار التي كانت قوَّتها تزداد، وكأنّها انتظمت مع سرعته. ظلَّ سميث يتأمَّله، وفي الوقت نفسه يسترجع صورًا قديمة هجمت دفعة واحدة لدرجة أن ملأت عينيه وقلبه. فبدأ كلّ المحيط يتلاشى من أمام نظره: الملعب، الأشجار، الطرقات، العسكر، السماء والرمال.. ولا يبقى إلَّا مضمار جامعة بنسلڤانيا، وصراخ الطلبة وهو يرتفع عاليًا: لا تتوقَّف يا آآآآآد. إجرِ. إجرِ.

كم تغيَّر الزمن!

تمتم سميث، بينما ظلَّت عيناه شاخصتين في المدّ اللَّامتناهي، تبحثان من وراء الضباب الذي نزل فجأة، وسيول الأمطار التي غطَّت كلَّ شيء، عن آدم الذي لم يكن يظهر في أرضيَّة الملعب إلَّا في شكل ظلال ملوَّنة تتراقص تحت الماء.

ـ ٢ ـ

رنّ التليفون. شعر برغبة في الاستمرار في الفراش.

كلّما حضرتْ أربكته.

هل كانت هنا، أم مجرَّد ظلّها انتابه على حين غرّة. منذ اللقاء الأخير حتى ولو كان افتراضيًّا ولم يلمسها، وهي تدور فيه ولا تخرج منه إلّا لتعود له ثانية. أمايا كانت امرأة أخرى في حياته. حتى حين لا يتّفق مع تحليلاتها وتصوُّراتها، تظلُّ المقياس الذي يحدِّد من خلاله صواب الأشياء أو خطأها. اختارت أن تسلك طريقًا آخر، ليس جميلاً لخطورته، لكنّها تعتبره دائمًا ترميمًا لحماقات البشر المولعين بالقوّة القصوى. كلّما تذكّرت قضيّة جدّها، شعرت بأنَّ البشريَّة تسير نحو حتفها على الأمدين القصير أو المتوسّط، لأنَّ الأمد الطويل لن يكون. الخراب الذاتيّ أصبح حتميَّةً حقيقيَّةً مرتبطة بثقة الإنسان بقوَّته المطلقة. فقد صنع لنفسه ما يكفي من أدوات الخراب، لينهي ذاته على وجه هذه الأرض.

كلّما تحمَّس لمشروعه الذي شغله منذ أن انتمى للمخبر، أرجعته

إلى الواقع المرّ الذي لا يقبله، لكنّه في لحظات صفائه، يفهم جيّدًا مقصدها، ولماذا تصرّفت بتلك الطريقة الرافضة لكلّ شيء يقتل حشرة واحدة على هذه الأرض. ليس لأنّها حفيدة تسوتومو ياماغوشي، الشخص الوحيد الذي حصل على شرف الاعتراف بكونه ضحيّة قنبلتيْ هيروشيما وناغازاكي، ولكنْ لأنّها تؤمن بأنّ خراب البشريّة لن يأتي، بقصد أو بخطأ، إلّا عن طريق هذا الخزّان من النار والإفناء.

هل تفهم حبيبي الحرقة التي فيّ؟ لا أنطق عن الهوى. لم تكفِ حرائقهم وخياراتهم التي قصدوا من ورائها القتل العدديّ الكبير. سيّئ الحظّ والطالع من وَجَد نفسه على الساعة الثامنة والربع في المكان الصفر. عندما أغمض عينيّ وأحاول أن لا أرى حقيقة البشر. القنبلة الأولى أجد لها مبرّرًا. أميركا كانت مهزومة عسكريًّا، والرئيس ترومان في أزمة خانقة، والثانية؟ هل كانت قنبلة ناغازاكي ضروريّة؟ لماذا كانت الأولى من اليورانيوم والثانية من البلوتونيوم؟ الكبار يبدأون دائمًا بجريمة بحجمهم حتى يفرضوا سلطانهم. الكارثة أنّهم في تجربتهم الحيّة كانوا يريدون أن يعرفوا مفعول اليورانيوم والبلوتونيوم. يختلف التأثير وعنف الانفجار أيضًا. الأخطر من هذا، بعد الانفجارين بمدّة قصيرة، فتحوا مركز ABCC،[1] كان مكوّنًا من جيش تجاوز الألف من العمّال، أغلبهم كانوا عمّالاً يابانيين، ولكنْ مؤطرين من خبراء طبّيّين أميركيين. أجبروا ساكنة هيروشيما على الاستشفاء والمعالجة. اتّضح من خلال اعتراف بعض أطبّائه أنّه لم يكن هدفه إنسانيًّا، ولكنّه كان في مهمّة استخباريّة في جوهرها لدراسة الحالات العياديّة وانعكاسات الإشعاعات على الأمد المتوسّط والطويل. في واقع

---

(١) Atomic Bomb Casuality Commission

الأمر، لم يكونوا يعالجون الجرحى بأكثر من أحمر الميروكروم. تابعوا نشوء حالات السرطان، بالخصوص سرطان الدم، وعلاقة ذلك بالجانب الإشعاعيّ. حتى التنسيق مع الأطباء اليابانيين لم يكن موجودًا أبدًا. وكان الكثير من المرضى يُبعثون إلى أميركا، وهناك يتحوّلون إلى مادّة للبحث المخبريّ، ولا يبرَّر لاحقًا اختفاؤهم. الدكتور شونتارو هيدا[1] الذي كان عمره وقت الانفجار ٢٧ سنة، اكتشف بسرعة السبب الرئيسيّ للأمراض التي كان يعاني منها الضحايا، فطالب بالتعويضات للضحايا. ولكن لا أميركا اعترفت ولا منظّمة الأمم المتّحدة. ولا حتى التعويضات. أُغلق المركز ABCC في ١٩٧٥. كيف تريدني أن أنظر لهذه المخاطر، وكأنّ شيئًا لم يحدث. أعتبر نفسي من أحفاد الدكتور شونتارو للتعويضات ولو كانت رمزيّة، لكن لا تطلب منّي أن أقبل بالتقتيل الجماعيّ مهما كانت مبرّراته. إمّا أن يكون الإنسان إنسانًا، أو لا يكون..

رأى وجهها، وقد علته حمرته فجأة. تململ في فراشه كأنّه كان يفتح عينيه مثقلاً في يوم سبت أو أحد.

- العمل المخبريّ لا ينتظر. قم حبيبي. قم يا أكبر كسول في الدنيا.

- سأقوم يا قلبي.. خمس دقائق.

- سأسمّيك خمس دقائق. عادتك البائسة. أنت تعرف أنّي ضدّ اشتغالك على مشروع القنبلة الناعمة.

- ليست الناعمة، لكن قنبلة الجيب.

- المهمّ. قم ويكفيك كسلاً. مخبرك ينتظرك.

جاءه صوتها ناعمًا ودافئًا من بعيد كموجة متوسّطيّة ربيعيّة، لفحته

---

(١) Dr. Shuntaro Hida

...، ثم واصلت طريقها.

في الرنّة الثالثة للمنبّه، قام من فراشه.

كلّ شيء في قلعة أميروبا يبدو هادئًا ومستكينًا في هذا الصباح الجميل. الأفكار التي رُوّج لها ليلة البارحة عن احتمال هجوم ليليّ محتمل من *التنظيم*، جعلت الطيران الحربيّ يقوم بطلعات كثيرة، لم تكن إلّا تدريبًا ذهنيًّا لسكّان القلعة، أو على الأقلّ هكذا بدا الأمر. باستثناء حركة المطار العسكريّ الجديد، وعواء الذئاب الجائعة، لا شيء حرّك حياة القلعة التي استقرّت على النظام الذي فرضه كلّ من مرّوا هذا المكان، بالخصوص ليتل بروز.

المؤكّد، أنّ الهجوم الصاعق على القلعة من طرف *التنظيم* موجود في أذهان جميع عساكر القلعة وعمّالها، لكنْ لا أحد يعرف لا السنة ولا الشهر ولا اليوم ولا الساعة ولا الدقيقة ولا الثانية، التي تشتعل فيها النار الأخيرة. الكثير من العساكر والغيست الذين يعرفون المكان، يعتبرون ذلك واحدة من خزعبلات الكوربو الذي وجد في الماريشال أحسن من يصدّقه ويقوم له بالدعاية المجّانيّة. ليتل بروز ينتظر هذه الفرصة بفارغ الصبر، لينتقل نحو الرتبة العسكريّة الأعلى التي يحلم بها، قبل أن يتقاعد. هي المرّة العاشرة التي يحدث فيها هذا الأمر في غضون شهور قليلة، ولم يهدأ المكان إلّا في فترة التسيير الموقّت للقلعة من طرف سير جون، قبل توقيفه وسفره النهائيّ.

قام آدم من فراشه على خشخشة سالم، وهو يضع نسخًا من الجرائد الإلكترونيّة المسحوبة ورقيًّا، تحت باب غرفته.

الليلة بكاملها وهو يفكّر في أمايا.. لم يعرف لماذا كان الحديث جميلاً! وفجأة تحوّلت إلى مجرّد صورة بلا روح. قبل أن تغيب في فوضى تزاحم صور أخرى دخلت على الخطّ، كأنّها لم تكن معه نهائيًّا.

لكنَّه في النهاية أقنع نفسه أنَّها مرتاحة، وأنَّ والدها أو عائلتها تساعدها كثيرًا على تجاوز كلّ الصعوبات الكبيرة وغيابه. صوتها الفولاذيُّ الذي كانت تزداد حدّته من حين لآخر، لم يعجبه، لكنَّه على الأقلّ سمعها على الرَّغم من صعوبة التواصل مع الساتل العسكريّ القديم. الذي شغله أكثر هو أنّ أمايا تغيَّرت كثيرًا. فقد تحوَّلت في ظرف خمس سنوات، أو أكثر بقليل، من امرأة مضادّة كلّيًا للتجارب النوويَّة، إلى امرأة مستسلمة لمشروعه! استعاد تلك الليلة بكلّ تفاصيلها العديد من المرَّات، فزاد من يقينه أنّ أمايا تغيَّرت رأسًا على عقب، وبـ ١٨٠ درجة. لدرجة أن بدا له كأنّ شيئًا حاسمًا حدث في مخّ أمايا.

ـ *لو رأيت حبيبي، الولادات المشوَّهة التي ما تزال حتى اليوم، والسرطانات بسبب الإشعاعات، والأخطاء في التجارب التي مسَّت ناسًا كثيرين بحروق وإشعاعات خطيرة، ستنتهي بأصحابها إلى القبور، لغيَّرت رأيك. أعرف أنّ طموحك كبير، وأنّ رغبتك في خدمة الإنسانيَّة أكبر، لكن لا تلعب مع النوويّ. أحيانًا ألعن أوبنهايمر وكلّ آباء هذه الاكتشافات الخطيرة.*

ـ *مثاليَّةٌ هذه يا أمايا.*

ـ *المثاليَّةُ أحسن من القتل.*

ـ *المثاليَّةُ تقابلها العدميَّة. تحتاج المثاليَّةُ إلى أن تتسلَّح بقليل من الواقع.*

ـ *المثاليَّة عندما تتسلَّح تنتحر وتصبح قاتِلَة أيضًا.*

هل يُعقل؟ تمتم وهو ينحني لسحب الجرائد الإلكترونيَّة المصوَّرة التي توضع كلّ صباح تحت تصرُّفه، منذ حصوله على بعض حقوقه المدنيَّة كغيست. فاجأته صورته مكبَّرة على صفحة أساسيَّة لجريدتيْ *أميركا* و*نيويوركر*، يخترقهما عنوان مثير بالبنط العريض، وكأنّهما نسَّقتا مع بعض:

مرشّح نوبل يعود إلى أبحاثه النوويّة. أنسنة الجهود النوويّة.

من مصادر مؤكّدة. إنّ الباحث الأميركيّ آدم غريب، ما يزال منكبًّا على جهوده وأعماله ومشروعه الذي تبنّته المؤسّسةُ العسكريّة الأميركيّة، وهو مشروع سلميٌّ في جوهره لا يقف ضدّ البحث النوويّ الذي يعود بالخير على الإنسانيّة ويستطيع أن يرجعها إلى جادّة الصواب بخسائر أقلّ. كلمة نوويّ وحدها كافية بأن تردع القتلة. لهذا، فهو اليوم من أكبر المرشّحين لنوبل للفيزياء النوويّة، في أبحاثه للتخفيف من المؤثّرات الخطيرة للاتّساع الإشعاعيّ، فقد استطاع هو ومجموعة خبراء وعسكريين أن يجدوا حلًّا لهذه المعضلة الصعبة التي تشغل خبراء النوويّ. أصبح من السهل تفجير النواة واستخراج الطاقة، لكنْ من الصعب السيطرة عليها.

ما الذي غيَّر أمايا؟

كان يريد رأيها ليستأنس به. في الحقيقة، كان يريد رفضها الذي تعوَّد عليه.

على الرَّغم من أنّ مشروعه *PBPu1* و*PBPp2* كان يشغله كرهان علميّ، إلّا أنّه كان يخيفه. قضى الليالي كلّها التي أعقبت المحاورة مع أمايا، يعمل بلا توقّف، لأنّه كان يشعر دائمًا أنّه في الكيلومترات الأخيرة، حيث يجب أن يدّخر طاقته للوصول منتصرًا، وإلّا سيخسر كلّ شيء. ارتباكه الوحيد كلمة أمايا: *هل يمكن تقسيط الموت.. حبيبي!* وردُّه السريع عليها يومها: *هل يمكن الصمت أمام قتلة التنظيم الذين أينما حلّوا، رافقهم الخراب الكلّيّ؟* ثم إجابتها الحادّة والواضحة: *هل من الضروريّ قنبلة ذرّيّة مصغّرة ومخفّفة ومحدودة الحلقة والقطر، لكنّها في النهاية قاتلة بشكل بشع.* يشغله موت الناس، لكنْ يشغله أيضًا حريق الظلم الذي نبت في كلّ مكان. في خلوته،

ينتبه بشكل غريب، السؤال نفسه الذي طرحه آينشتاين على نفسه: *هل للبشريّة حدّ في الخير والشرّ؟* لا حدّ. كلّما ظننّا أن تجربة الإنسان كانت قاسية ولن تتكرّر مع رفع الشعارات: *أبدًا لن يتكرّر هذا*. يأتي دائمًا ما يفنّد ذلك بالدليل القاطع فيصبح أكثر إجرامًا من سابقه. *ذاكرة البشريّة*. تمتم آدم مرّة أخرى، *حفنة رماد فقط تبعثرها الريح الأولى*.

حاول آدم أن يخرج قليلاً من قلقه. أغمض عينيه وهو يستمع لأناشيد الذئب التي تنام في داخله، وترك نفسه يغرق فيها. تدلّه وتوجّهه داخليًّا نحو الطريق الأسلم، لكي لا يخسر الحياة. لكن ما يقوم به *التنظيم* من جرائم لا يترك له أيّ خيار. كان يظنّ بأنّ غضب أمايا سيساعده على اتّخاذ القرار الأخير في الانتهاء أو الانسحاب من مشروع لا يريد تحمُّل نتائجه لوحده، لكنّها يبدو أنّها هي أيضًا لم تعد قادرة على ما تسمعه من جرائم *التنظيم* الذي أصبح يستعمل في بعض المناطق الأسلحة الكيماويّة.

ارتدى لباسه الرياضيّ. قام بحركات تسخين وهو في مكانه. لم ير سميث منذ اللقاء الأخير الذي لم ينته بشكل جميل. على أيّ حال، حتى لو أراد أن يعتذر منه، فلن يستطيع. فهو في جناح الجنوب، وسميث في جناح الشمال الذي يمنع المرور نحوه، أو التجوُّل في حديقته الأساسيّة، أو الدخول إلّا برفقة أحد الضبّاط أو المضيفين المخصَّصين لذلك. لا يريد ليتل بروز أن يترك أيّ شيء للصدفة القاتلة.

من النافذة المفتوحة على مصراعيها لاستقبال شمس خجولة، رأى سيّارة الهامر الممتلئة عساكر مدجَّجين بالسلاح، تقوم بنصف دائرة، ثم تتوقّف على حافّة الأسلاك الشائكة. يفتح باب الهامر وينزل منها عسكريّان يتسلّمان من شخص ملثّم كأنّه طارقيّ، أربع حاويات بيضاء

صغيرة، شعَّ لونها بقوَّة، تحت أشعَّة الشمس الصباحيَّة، واستلم الملثَّم أيضًا العدد نفسه من الحاويات الصغيرة، وقفل راجعًا نحو سيّارته ذات الدفع الرباعيّ، بينما رجعت الهامر العسكريَّة نحو البوَّابة الشماليَّة للقلعة. غابت سيّارة الطوارق وراء الأسلاك الشائكة، بعد أن دارت العديد من المرَّات داخل السياج الفاصل بين القلعة في عمق مساحة الأمان التي كان يشغلها بدو رُحَّل، دفعتْ بهم حروب الرمال وعواصف الربع الخالي إلى هذه الحوافّ، بحثًا عن الأمان، بعد أن مات قائدهم أمستان مسمومًا في ظروف غامضة، بينما تحوَّل نائبه أمينوكال داديهو وسيلة الاتِّصال بين ضبّاط القلعة وبقيَّة أفراد القبيلة، الذين اقترح عليهم إخلاء المكان كلّيًّا مقابل تعويضات مادّيَّة مقبولة ستحميهم من الموت في صحارى بلا قلب ولا روح. مع الزمن، أقنع القبيلة بفعل ذلك، ولكنَّها تشتَّت في عمق الصحارى، لأنَّ الحرب الدائرة في كلّ مكان لم تستثنها أبدًا، على الرَّغم من كونها قبائل مسالمة. بل واشترت سلمها أيضًا بما ربحته من بيع أراضيها التي أنشئ عليها مطار القلعة الجديد.

هذه الحركة الغريبة، لاحظها العديد من المرَّات، عندما كان في الغرفة التي تطلّ على المدّ الصحراويّ مباشرة. رأى كيف أنَّ الرجل الملثَّم يقدِّم شيئًا ويستلم شيئًا آخر، ثم يمضي على متن سيّارته رباعيَّة الدفع. حتى عندما سأل سميث في مرَّة من المرَّات، لم يولِ ذلك أيَّة أهمّيَّة، ولم يجبه، إذ دخل في موضوع آخر وغاص فيه لينسيه الموضوع الأوَّل نهائيًا. عادة سميث عندما يريد أن يتفادى شيئًا. يعرفه جيِّدًا، لهذا لم يلحّ. ربَّما كان شيئًا عسكريًا يتعلَّق بأمن القلعة، لهذا لا يريد الخوض في تفاصيل يرى أنَّها تهمّ العساكر ولا تخصّ الغيست.

الخوف من *التنظيم* حقيقيٌّ. فقد سلَّطت عليه وسائل الإعلام العالميَّة كلّ اهتمامها، بالخصوص استعماله لكلِّ فنون الجريمة والتفنُّن في القتل، التي لا يمكن أن يتخيَّلها إنسان عنده ذرّة من العقل. الخنق، الشنق، الحرق. التخوُّف من الهجوم له ما يبرّره في النهاية. ولكنَّ التنظيم يضرب في اللحظة الأقلّ انتظارًا. مثلما حدث قبل سنوات طويلة ما تزال ماثلة في الذاكرة. عندما كانت القلعة في طور الترميم، قبل إدارة ليتل بروز بسنوات أيضًا، إذ انتهى الأمر بمجزرة ذهب ضحيَّتها أكثر من مائتي مارينز. لم يُعلن رسميًّا إلَّا عن خمسين، لكنَّ الصحافة الإلكترونيَّة القويَّة، هي مَنْ كشف عن تفاصيل العمليَّة وعدد الضحايا. لقد تمّ تمزيقهم وطحن الكثير منهم أحياء في جهاز غريب، تسرَّبت بعض صوره عبر المواقع التي يديرونها. يسمُّونها الفرَّامة التي تقوم بالطحن الهادئ للضحيَّة. يوضع على لوح وهو مربوط بشكل صليبيّ. تبدأ اللوحة تتحرَّك وتنزل شيئًا فشيئًا باتّجاه الرجلين، فتقوم بطحنهما ثم الساقين ثم الحِجْر ثم البطن ثم الصدر والذراعين ثم طحن الدماغ. هناك من الضحايا من ينتهي مع بداية الطحن، ويقسم البعض أنَّهم رأوا الرأس وهو يصرخ بكلِّ ما أوتي من قوَّة، من شدَّة الألم. لم يرحموا حتى السجناء الذين اختطفوهم من القلعة في ذلك الهجوم الكاسح، الذي كان وراءه خيانة الأمير ميدو، الذي حينما شُتم انقلب على صانعيه. إضافة إلى خمسين موظَّفًا من كلّ الجنسيّات الأميركيَّة، ومن الفيدراليّات الأوروبيَّة، ومن آرابيا وآسيا وحتى من حلف *إيروشينا*[١]، كانوا يستعدُّون لتسيير شؤون القلعة. وتمّت مقايضة عشرة خبراء على مدار أكثر من سنتين بأكثر من ٢٠٠ مليون دولار. وكان يجب أخذ الأمر بجدِّيَّة، لأنَّ أيّ تماطل أو

---

(١) **Irushina**

ـحايل، يضع حياة الخبراء العسكريين، بزيٍّ مدنيّ، في خطر حقيقيّ. ـضغط العائلات لم يترك أيّة فرصة لذلك.

أُضيف للقلعة الكثير من مراكز المراقبة العالية التي ترى كلّ شيء، وأنشئ البرج الأعلى الذي رُفع حتى الطابق السابع وثلاثة طوابق تحت أرضيّة. ووسّعت مساحة الأمان التي تمتدّ بشكل كبير وحُوّطت بشبّاك مزدوج، بمجسّات عديدة تبعث موجات في شكل إنذارات، كلّما مُسَّت الأسلاك. المشكلة أنَّ المجسّات كثيرًا ما تُنذر بسبب حيوان مرّ من هناك. وكثيرًا ما ينتهي الأمر بمجازر يكون الحيوان ضحيّتها الأولى. في الصباح، عندما تمرّ سيّارات المراقبة، تجد غزلانًا مسندة على الأسلاك بعد أن اخترقتها الرصاصات الكثيرة. مرَّة نمرًا، أخرى غزالاً أو جملاً، أو ذئبة هرب أحد جرائها الصغيرة نحو الأسلاك، بسبب الجوع.

تحسَّس جهازه الصغير الذي لا يبرحه. كلَّما شغَّله، تذكَّر كم أنَّ نباهة إيڤا كانت كبيرة واستثنائيَّة. يحبّ القلم ورائحة الورق، وحبر الطباعة أو الكتابة، لكنْ في الوضع الذي هو فيه، لا قوَّة تضاهي هذا الجهاز الصغير والفعّال الذي ملأه بانشغالاته. ربَّما كتب يومًا ما عن هذه التجربة القاسية!

كلُّ الحياة ونظامها تغيَّر في هذا المكان القفر. أعرف اليوم بلا تردُّد، بل بيقين يشبه قلبي، أنَّ الجريمة بالنسبة لهم لا شيء، بل لحظة اختبار للتقرُّب من الله. بقدر الآلام والصراخ يكون القرب كبيرًا، لأنَّه زرع الرعب في قلب أعداء الله. ليست حالة مرضيَّة ولكنَّه يقين. وهذا خطأ الغرب. المرض له علاج كيفما كان ويتطوَّر عبر الزمن، اليقين لا شيء يواجهه إلَّا يقين بديل، بكسره يكسره أبدًا. فقد جعلوا من الموت رهانهم. لا ينفذ منهم لا الأجنبيّ ولا ابنُ البلد، وحتى العائلة. عندما

يتزوّج المال والجهل والتصلّب الدينيّ الأعمى الذي يتحوّل إلى سلاح للقتل، يحدث هذا. سلسلة من القتلة الذين تناموا مع الزمن، ووجدوا ليس فقط من يدعمهم، ولكن من يحوّلهم إلى قنابل موقوتة ضدّ أراضيهم. كنت دائمًا أتساءل، ماذا تجد الدول المالكة للمال في آرابيا، في هذه المجموعة، لتساعدها على القتل؟ في الأخير فهمت المعادلة التي كانت تبدو لي صعبة. المال والجهل والدين المجزأ يسيرون، في المسالك نفسها وفي صفت واحد. يبدأون في الظاهر متفرّقين، لكنّهم في النهاية يلتقون.

ثم أغلق آدم الجهاز الصغير بالرمز الذي اختاره له: ***إثنان. صفر. ثمانية. أربعة. آدم.*** 2.0.8.4 Adam حتى لا يتمّ العبث به في حالة ضياعه. فهو ذاكرته الحيَّة. سيضعه بين يديْ أمايا ويونا حين عودته، لتعرفا فقط كم كانتا فيه.

حمل حقيبة الظهرية الصغيرة التي بها الضروريّات دائمًا؛ قنديل ببطّاريّات. قنّينة ماء، ومنشفة، وعصير برتقال، أو برتقالة، أو ليمونة، أو موزة. حاجات الاستمرار في الأوقات العصيبة. عندما همَّ بالخروج باتّجاه المدرَّج والملعب، جاءه سالم مرفقًا بممرّض من ممرّضي القلعة. سأله إذا ما كانت السلحفاة حوّاء تحتاج إلى طبيب. لأنَّ البيطريَّ سيقوم بفحص كلّ الحيوانات المربّاة داخل الغرف، لمحاربة الجرذان التي أصبحت تهدّد أمن القلعة بتكاثرها وزيادة عددها المهول، ونشرها للأمراض الخطيرة، فقد أصبحت سيّدة الأمكنة في القلعة.

ضحك آدم وهو ينظر إلى حوّاء التي حملها في يده، وهي تنظر إليه وتدقّق في ملامحه. تمعَّن في وجهها بدون توقّف عن محاولاتها لأن تخرج رأسها كليًّا. نظرت إليه بعينين دافئتين. سألها:

ـ حوّاء.. أعرف أنّك لا تحبّين الأطبّاء مثلي تمامًا، ولا تشكين من أيّ

مرض عضال، لكنّها الضرورات حبيبتي. هناك حملة استشفائيّة، لا بدّ أن تهمّك. ثم إنَّ هذا يعفيك من الأمراض التي تنشرها الجرذان.

عندما وضعها على الأرض. هزّت رأسها ثم مشت بخطى سريعة، على غير عادتها وعادة السلاحف، باتّجاه قدمه وبدأت تنطحها، وكأنّها كانت ترفض الطبيب.

ضحك مرّة أخرى.

ـ حوّاء حبيبتي. اليوم لا خيار لك. لن تخسري شيئًا. استفيدي من الطبيب على الأقلّ، فهو ينتظرك بفارغ الصبر. الهواء هنا ليس على ما يرام، والأدخنة كثيرة، والغبار الأصفر لا يحدّ، ومليء بالرمال القاسية والخانقة. من الأفضل أن تذهبي وتكوني عاقلة ولطيفة مع البيطريّ، ونلتقي مساء ونتحدّث قليلاً. وسأخبرك بيومي البائس، وتخبرينني بمعاناتك. . أوكي. اتّفقنا.

وكأنّها لم تسمعه، ظلّت تنطّ وتحرّك رأسها وأرجلها. وضعها سالم داخل شباك صغير أحضره معه، ثم خرج الجميع. عند الباب الموارب، سأله سالم:

ـ بروفسور آدم، هل كانت حوّاء تعرف ما كنتَ تقوله لها؟

ـ لا أعرف حقيقة، لا أملك سرَّ قلبها، لأنَّ اللغة ليست كلامًا فقط، ولكن حركات وأحاسيس وأنفاس وملامس، كانت تراها وتحسّها بكلّ تأكيد. الحنان، مثل العنف، يصلها، وتفرّق بينهما. أعتقد أنّها مثلنا جميعًا، تسمع بأذن للآخرين، وبالأذن الأخرى تسمع لقلبها فقط. وفي النهاية هي من يقرّر.

ـ ٣ ـ

الساعة السابعة مساء. لم تبق من الشمس إلّا علامات حمراء صغيرة، كأنّها بقايا حرائق سماويّة.

ساعتان فوق الوقت المقرَّر. غادر فريق العمل المخبر بعد يوم أطول من المعتاد.

مع ذلك، لم يشعر آدم بأيّ تعب. لقد انتهى تقريبًا كلّ شيء في مخبرهم. المساحات الإشعاعيَّة تمَّ التحكُّم فيها مخبريًّا. لم تبق إلّا التجارب الميدانيَّة ليصبح كلّ شيء جاهزًا. على الرَّغم من أنَّ قلبه ظلّ مشدودًا، إلّا أنَّ سعادته كانت كبيرة، لأنَّ جهود سنوات كثيرة لم تذهب سدًى أبدًا.

ودَّع كلّ أصدقائه الذين بدت سعادتهم كبيرة. سيبدأون بتصنيع نموذجين أساسيين، تجريبيين: الأوَّل باليورانيوم والثاني بالبلوتونيوم. وبعدها، تتَّضح أمور التصنيع النهائيّ، لأنَّ الميدان هو الذي يكشف ضعف الأشياء وحدود النظريَّة. يدرك آدم جيّدًا أنَّ نسبة من الإشعاع النوويّ لا يمكن تفاديها ولا إنزالها إلى الدرجة الصفر، لكنّ النسبة

الفائضة عن المساحة المحدَّدة، غير مضرَّة للإنسان، على الأقلّ الذي يملك القدرة على امتصاص حدّ معين من الجرعات الإشعاعيَّة التي لا تخلِّف إعاقات وتشوُّهات تصعب معالجتها. لكنَّها عندما تتجاوز حدًّا معيّنًا، تؤثّر مباشرة على مكوّنات الخلايا الحيَّة. الإنسان أفضل من الكثير من الحيوانات والكائنات الحيَّة. هناك بعض الحشرات تموت عندما تمتصّ ما مقدراه ٢٠ غراي[1]، وأخرى لا تموت إلَّا بـ ٣٠٠٠ غراي. بعض الثدييات تموت بـ ٢ غراي بينما بعض الفيروسات لا تموت حتى بـ ٢٠٠ غراي. تركيبة الكائن غريبة جدًّا ومعقَّدة إلى أقصى الحدود.

لملم آدم لباسه المخبريّ الواقي من الإشعاعات المتسرِّبة خطأ، والكمّامة التي ظلَّت تغطّي وجهه طوال الثماني ساعات عملاً بلا توقُّف. تحمَّل العبء الأكبر وحده، بعد غياب سميث، الذي خرج في مهمَّة عسكريَّة لم يُعلن عنها. ثم اتّجه نحو سلّة قمامة خاصَّة بذلك، ووضع الكلّ فيها. انتقل إلى مكتبه. غسل يديه ثانية بالمحلول المزيل لكلّ ما علق بهما. ارتدى لباسه الرياضيَّ المعلَّق في إحدى الزوايا، وضع السمّاعتين في أذنيه. مرّ نحو مكتبه. بعث بالتقرير النهائيّ عن سير الأعمال إلى سميث متمنّيًا له النجاح في المهمّة العسكريَّة التي لم يكن يعرفها، ولكنَّه خمَّنها، وهي الانتقال إلى سفينة هرمز أو البحر الأحمر برفقة المهندس الحربيّ، لمناقشة شكل القنبلة كما تمّ اقتراحها والحديث عن التفصيلات المرتبطة بالمشروع. لأنَّ العدَّ العكسيَّ كان قد بدأ.

---

(١) Gray et Sievert غراي هو الوحدة أو الجرعة الإشعاعيّة، وتختلف عن وحدة سيفرت في كون غراي تحدّد الكمّيّة الإشعاعيّة التي امتصّها الجسم، بينما سيفرت تحدّد تأثير الأشعة على الكائنات أو المادّة الحيّة.

وهو يستعدُّ للخروج للركض في مضمار مدرَّج المطار القديم الذي أصبح ملعبه المفضَّل، دقّ ميجور توني على الباب، على غير العادة، فهو قليلاً ما يحكي مع الناس. حتى آدم لا يلتقي به إلَّا في المضمار بالكاد يتحدَّثان في العموميّات. ثم دخل إلى المكتب. كانت على وجهه علامات السعادة، مصحوبة بحيرة كبيرة لم يكن قادرًا على تحمُّلها وحده. حتى عندما يجريان في المضمار، قليلاً ما يتكلَّمان. على طريقة أهل *نيواورليانز نولا*[1]، في لويزيانا، الذين يأكلون الكلام كثيرًا. لكنَّه منافس حقيقيّ في المضمار بالخصوص في *الفينيش*. وكلَّما ركض برفقته، شعر بأنَّ عليه أن يكون جدِّيًا، وأن يضع نصب عينيه النقطة الافتراضيَّة التي يجب أن يدركها أو يتخيَّل رماد أمامه. له قدرة كبيرة على التحمُّل لأنَّه، بعد المضمار، كثيرًا ما يواصل الدوران داخل الملعب ولا يتوقَّف إلَّا بعد دورات عديدة.

هو أيضًا كان مزهوًّا بما تمّ تحقيقه من تقدُّم.

ـ بروفسور آدم، هل أخبرت سميث بالتفاصيل النهائيَّة؟

ـ طبعًا يا عزيزي. سميث من الأساسيين في المشروع، فهو أكثر من كونه صديقًا كبيرًا، واشتغلنا في المخبر نفسه، فهو شخصيَّة إنسانيَّة كبيرة. نحمل القناعة نفسها التي تتخوَّف من الاستعمالات السيِّئة لهذه القنبلة، لكنَّنا انتصرنا في النهاية لما رأيناه خيرًا، ويقلِّل من التهديدات النوويَّة المدمِّرة. نعم يا ميجور، أخبرته عن كلّ التفاصيل ليكون على علم، كما يفعل هو عادة مع كلّ أعضاء المخبر. أستطيع أن أقول إنّ فكرة امتلاك قنبلة صغيرة أصبح أمرًا ممكنًا، بعد أن كان مسألة معقَّدة. استطعنا أن نتحكَّم في الغيمة الإشعاعيَّة الخطيرة،

New Orleans NOLA (١)

وبعثر الغبار كيفما اتّفق، كما حدث في هيروشيما وناغازاكي وقبلها في التجارب الأميركيّة والروسيّة الأولى.

وكأنّه تحرَّج قليلاً لوجوده في مكان لم يتعوَّد عليه. بشرته السوداء المويّة ساعدته على إخفاء نوع من القلق والخجل الذي انتابه فجأة. بحث عن كلماته، ولكنَّه سرعان ما أفضى بالموضوع الذي جاء به نحو ادم.

عذرًا بروفسور.. جئت فقط لأخبرك بأنّ سميث ترك عندي أمانة لك، سأقول لك عنها في المضمار.

- لا مشكلة. سميث أخي وحبيبي. بيننا أشياء كثيرة، وعائلتان هما أهمّ ما ربحنا في هذه الدنيا القاسية.

- لكنْ بروفسور، رأيت حيرتكم أثناء فترة التجارب المخبريَّة الأخيرة، كأنّكم لستم سعداء بالانتهاء من مشروع[1] PBP1 قنبلة الجيب الذي سيخفِّف من مساحات الموت عند الاضطرار إلى استعمال القنبلة الذرِّيَّة؟

انتبه آدم إلى أنّ ميجور توني ظلَّ واقفًا ولم يسمح لنفسه بالجلوس، باحترام وانضباط عسكريين واضحين. اقترح عليه الجلوس، لأنَّه شعر في لحظة من اللحظات أنَّ وجوده لم يكن عابرًا أبدًا.

- عذرًا يا ميجور. تفضّل. ملاحظتك لا تخلو من الصحّة. أنا في حالة شبيهة بحالة البَيْنَ بَيْن. نوبل كان سعيدًا بالديناميت لأنَّها تصلح لتحطيم الجبال وشقّ الأنفاق والجسور والطرقات ومسالك القطارات وغيرها، ولكنَّه يوم رأى الديناميت أصبحت تُستعمل لأغراض أخرى، لتدمير الناس وقتلهم بالآلاف، وأصبحت تُرسل من فوهة

(١) Poket Bomb Project. مشروع قنبلة الجيب.

مدفع نحو الأماكن الأكثر بُعدًا، أو تنزل على رؤوس الناس م الطائرات، شعر بوخزٍ في الضمير لا تستطيع الجائزة أن تغيِّر من مسار الأشياء. كان كبيرًا، وقدَّم للإنسانيَّة الكثير، لكنَّه ترك لها ما تحرق به نفسها. مع فارق المقارنة، هذه حالتي بالضبط، وربّما حالتنا جميعًا.

صمت ميجر توني نيلسون قليلاً، وهو يرتدي معطفه، لأنَّه شعر فجأة ببرودة ما في داخله. عدَّل هندامه جيِّدًا. قبل أن يسأله، أضاف آدم وكأنَّه كان قد قرأ ما كان يشتعل في داخل توني:

- انظر يا ميجر، أنتم عسكر ولكم خياراتكم وحساباتكم. طبعًا لا يمكنني إلَّا تقديرها. وجودكم في هذه القلعة له ما يبرِّره بكلِّ تأكيد. ولكم مؤسّسة تحميكم من كلّ التجاوزات، أنا ليس لديَّ هذا للأسف. مجرَّد إلكترون ضيَّع مساره، وعليه أن يبحث عن طريقه الأسلم ويعود باتّجاهه. لهذا لا تستغرب إذا قلت لك، لقد كنت سعيدًا بالعمل معكم، لكنْ كلّ حلمي أن أخرج من هذا المكان الذي أُعْتَبر فيه غيست لوقت موقَّت، محميّ صحيح، لكنّني لست مرتاحًا. لأنّ الذي يحميني هنا في القلعة، لا يفعل ذلك بقناعة، ولكنَّه ضغط الحاجة. . لكنَّه يمكن أن يعيدني إلى وضع المقيم، الذي هو أسوأ من سجناء غوانتانامو.

- أفهمك جيِّدًا يا بروفسور. خوفي خوفك، وأنا سعيد بذلك. نحن نتحكَّم في مساحات الإشعاعات باستعمال عناصر جديدة مثقلة، تنزل القيمة النوويَّة بسرعة قبل انتشارها، ولكنْ ألا تتصوَّر أنَّهم سيوسّعون لاحقًا قطرها الذي حصرته في مساحة معيَّنة ببساطة بالتخفيف من عناصر الإثقال؟

- طبعًا. في هذه الحالة لن تختلف عن القنبلة النوويَّة العاديَّة. ما

حاجتهم إذن لبوكيت بومب؟ على كلٍّ، سيحتاجون حتمًا إلى تقنيَّة وحسابات علميَّة دقيقة جدًّا، غير متوافرة عند الجميع. لكن على كلِّ حال، لا شيء مستحيل. كلُّ قنبلة هي في النهاية خطر على الإنسانيَّة. لا توجد قنبلة نظيفة وأخرى عفنة. كلّ ما يقتل الإنسان أو الكائنات الحيَّة، عفن في النهاية، لكن يجب فقط تحجيم الظالم. من يدريك بهجوم قاتل *للتنظيم*، ويحاصرك بوسائل أنت لا تملكها؟ فأنت ستضطر لضرب المهاجمين فقط. ولو أنّي أعرف أيضًا أنّنا لم نخرج عن منطق ترومان. كان يريد تحجيم الأمبراطور هيروهيتو، فقتل نصف مليون شخص في أيَّام معدودات. لكن انظر إلى ما يقوم به *التنظيم* من حولنا، ستفهم أنَّه يجب ردّه وتخويفه قبل تحطيمه نهائيًّا، وإنقاذ القلعة والبشريَّة منه. اردع أحيانًا أهمّ من الضربة.

- لكنّ القلعة مثلاً مؤمَّنة. وهذا ليس سرًّا عسكريًّا، هي مُحاطة بأكثر من ٢٠٠ صاروخ تقليديّ شديد الانفجار، يمكننا أن نبعثها في المكان الذي نريد، بدون اللجوء إلى النوويّ. ونتحكّم بدقّة في المكان الذي نريد أن نصل إليه.

- لا توجد دقّة مطلقة في الحروب. هناك دائمًا حالات غير محسوبة. كم من الضربات الصديقة في الحروب التي مضت لا تُعدّ ولا تُحصى؟ هناك البشريّ، ولكن هناك الطبيعيّ أيضًا، المتعلّق بسرعة الرياح والأمطار والعواصف والفيضانات التي يمكنها أن تغيّر كلّ حساباتنا. انظر، ماذا حدث في فوكوشيما[١] في ١١ مارس ٢٠١١؟ وهي مثال بعيد عنّا، كانوا على يقين مائة في المائة من الأمان. اليابان متقدّمة في الوقاية من النوويّ بسبب تجربتها المريرة، وتعلّم

(١) **Fukushima**

اليابانيُّون من ذلك كثيرًا. لكن لا أحد توقَّع تسونامي الذي فاجأهم وهزّ كلّ يقينهم. الطبيعة سلطان آخر، كلَّما اختلّت، استعادت نظامها بوسائلها وقوَّتها، بغضّ النظر عمّا يمكن أن يفكّر فيه الإنسان، وما يرضيه وما لا يرضيه.

ثم فجأة، غيَّر ميجور توني موضوع النقاش الذي وضعه في موقع الصحفيّ المحترف، الذي يريد أن يعرف كلّ شيء. مع أنَّه لا يتكلم كثيرًا، ومتحفِّظ دائمًا في لقاءاته، هذا ما أحسَّه دائمًا آدم وتفهَّمه. توني شابّ وأمامه مستقبل عسكريّ كبير، ولا يريد أن توضع أمام اسمه علامة حمراء قد تقصيه من أيّة ترقية. يحترم القاعدة العسكريَّة: *تكلّم قليلاً ترتكب أخطاء أقلّ.*

ـ تبدو مرهقًا، ربَّما من كثرة العمل وتحتاج إلى راحة كبيرة. المفروض أنَّك أفضل بعد لقائك بأمايا. ولا أريد أن أثقل عليك أكثر.

ـ فرصة نعم. نفَّذوا لي كلّ ما طلبته. لكنَّ الأمر انتهى بذيل سمكة كما يُقال.

ـ انقطع التواصل.

اهتزّ آدم من ردَّة الفعل. ضحك.

ـ تتحدَّث وكأنّك تعرف كلّ شيء.

ـ ليس هذا القصد يا عزيزي. لكنّ وسائل الاتّصال هم من يتحكَّم فيها، عندما يريدونها أن تكون تامَّة، طبعًا تكون. وعندما يريدونها أن تكون عكس ذلك، يفعلون أيضًا. جميل أنَّهم تركوكم تتحدَّثون حتى النهاية. أحيانًا حتى المكالمات التليفونيَّة يقطعونها في النصف. مدى التليفونات المحمولة لا يتجاوز المائة كيلومتر مربَّع، للحاجات فقط، ومراقب طبعًا. توقَّعت أن يقطعوا اللقاء في منتصفه.

ـ أهمّ شيء في المحاورة ليست المحاورة بقدر ما هي المصالحة مع

..ات. بصراحة، وهذا ما قلته لسميث، لكنّه استبعده، كان عندي
..لك أنّها توفّيت في الحادث. حتى عمليّات المتابعة لوضعي، كانت
..راءها ابنتي يونا فقط. على الأقلّ هذا ما وصلني. أنا أعرف أمايا
لا تعرف للاستسلام طريقًا وعنيدة، بالخصوص عندما ترى الحقّ
يُداس بعنف وبلا قانون. هي من أخبر ويليام بسفري إلى باريس،
بينما كنت معنيًا قانونًا بإخباره، لكنّي لم أفعل. برؤيتها ومحاورتها،
ارتحت. اللقاء معها حتى لو افتراضيًا، أمدّني بثقة أكبر وقوّة لم
أتخيّلها متوافرة فيّ، بعد كلّ الذي حدث.

أنتم عائلة حقيقيّة. *الكلّ للواحد والواحد للكلّ*. . هههه.

قالها ميجور توني ضاحكًا. لم يستطع آدم أن يكتم ضحكته.

ـ مرحبًا بالماريشال توني.

عندما غادرا المكتب، كان الجوّ ممطرًا.

انهمك ميجور توني مع أحد أصدقائه، بينما واصل آدم سيره. سمعه يناديه من ورائه:

ـ انتظرني. . . لا تهرب يا آدم، ما زلت أحتاجك.

توقّف آدم.

مدّ يديه نحو الأمطار التي بدأت تتساقط بعنف. ملأهما ثم شرب.

ثم مدّ وجهه نحو السماء، وتركها تغطّيه. أغمض عينيه.

في هذا المطر البارد سحرٌ غريب في داخله. يذكّره دومًا بأمطار بنسلفانيا. من بعيد، تبدو له خيوط الماء وكأنّها ستار ناعم من البياض، يتلوّن بلون الأضواء المنبعثة من اللمبات التي تمّ إصلاحها قبل أيّام قلائل، قبل عودة ليتل بروز من غيابه بأسبوع تقريبًا. فجأة

سمع صوتها يأتيه من أنفاق بعيدة: آدم حبيبي، جسدك هشّ وحسّاس منذ أن انتميت إلى مخبر الموت هذا. حافظ على نفسك أرجوك. أريدك في صحّة جيّدة.. نكبر معًا، ونفرح معًا، ونموت معًا. لا حياة لي بعدك يا فرحي. لكنّه لم يأبه لها، واستمرّ يشرب مياه الأمطار ويغرق بجنون العاشق، في عمق ستائر الماء الملوّنة والمشعّة بالنور، حتى نبّهته على صحّته:

ـ آدم. لا تكن مجنونًا، ليس هذا وقته. حساسيّتك مفرطة وقد تُصاب بدوار المطر. لا توصل نفسك إلى التهلكة. حتى الأدوية لم تعد نافعة فيك إلّا بكمّيّات كبيرة. مناعتك قلَّتْ كثيرًا. إذا سقطت هذه المرّة، لن تجد من يحملك إلى الغرفة ويغيّر ثيابك ويسخّن جسدك. أنت تدفع بنفسك إلى الهلاك.

ـ مهبووول عليك يا أمايا. تخيّلي ميّتًا يموت ثانية على حبيبته، يتكلّم ويرى ويشمّ ولا يعرف بالضبط ماذا يفعل في هذا المكان؟ ربّما لأنّ به عطرها وقلبها.

ـ أنت عاشق فقط، لكنّني أريدك في صحّة جيّدة. حقيقي يا قلبي، مناعتك قلَّتْ من ساعة التحاقك بالمخبر.

التحق به ميجر توني نيلسون، قبل أن يصل إلى المضمار ويبدأ في تسخين عضلاته.

بدا واضحًا أنَّ ميجر توني كان يريد أن يعرف أشياء كثيرة، أو يريد أن يقول شيئًا لم يجد له الفرصة المناسبة. رفيقه في الرياضة والوحيد الذي يستطيع منافسته في المضمار. في الطريق، سأله أسئلة غريبة تحفّظ آدم في الإجابة عنها، في البداية. ولكنّه سرعان ما انطلق لسانه، لأنّه لم يجد مبرّرًا لإخفاء حقيقة معروفة.

ـ هل كان والدك مؤمنًا؟

كان مسلمًا بسيطًا، ومات طيّبًا وبسيطًا، حياته منحصرة بين جبل وواد، وأُناس يسعدهم كلّ صباح بخبزه.

وجدّك الأوّل؟

طبعًا، لا أعرفه. لكنّ المرويّات تقول إنّه كان نتاج عائلة أندلسيّة مسيحيّة ـ مسلمة، مُسحت عبر التاريخ.

جدّي أيضًا كان رجل دين مؤمن. من عائلة بروتستانتيّة أُبيدت عن آخرها في وقت الحروب الدينيّة، واضطرّ تحت عقدة الأغلبيّة القاتلة إلى اعتناق كاثوليكيّة لم يكن مؤمنًا بها.

ـ ذكّرتني بعائلة كالا[1] التي تحدَّث عنها ڤولتير؟

ـ بالضبط. ثقافتها. يقال إنّنا انحدرنا منها. واحد من أجدادي قُتل ورُمي في النهر، ولم يعرف أحد شيئًا عنه إلّا عندما طفا على الماء. البشريّة لا تتعلّم من شيء.

ـ أنا أيضًا، عائلتي أجبرها الملوك الكاثوليك في إسبانيا على التمسُّح. فتمسّحت ظاهريًا، لكنّهم ظلّوا على معتقدهم الديني، متخفّين حتى الموت. ولو أنّ الذرّيّة اللاحقة سهّلت على نفسها الخيارات باعتناق المسيحيّة في النهاية. بعض الأشياء نبدأها خوفًا، لكنّنا سرعان ما ننتهي فيها. لهذا استاءت علاقتي بكلّ الأديان، لأنّها كلّها بُنيت على الدم. أعطني دينًا واحدًا من الأديان السماويّة لم يسلّحوه، ولم يُبْنَ على الخوف والدم. البشر قساة.

ـ وأمايا؟

ـ بوذيّة. هي مرتاحة. لأنّ دينها لا يؤمن لا بالفتوحات والامتداد نحو الأراضي الأخرى، لأنّه فرديّ لا أكثر. مؤمن بانتصار الخير فقط

---

(١) Callas

وحماية الإنسان من الموت الحضاريّ الذي يُفرض عليه.

ـ نسيت أن أخبرك بنوع الأمانة التي تركها لك سميث. رسالة صغيرة، وطلب منّي أن أُخبرك بها، ولكن ألّا أسلّمها لك إلّا عندما يأمرني.

أصبح غير مرتاح لعودة الماريشال بهذه الطريقة وعزله للوسيط الطيّب الوحيد بينه وبين الناس في القلعة، سير جون، وعوّضه بنائبين لا أحد يتحمّلهما أبدًا، ولا أعتقد أنّه يوجد واحد في القلعة يحبّهما: بيرل غروسمان وفرناند ليفي.

ـ أسعد بذلك. أنتظرها متى ما أردت أن تسلّمها لي.

ـ لا مشكلة. عندما يصلني أمر سميث سأسلّمها لك. طيّب، ابدأ أنت، وسألحق بك قبل أن تصل إلى الملعب.

ـ أوكي. أنا في حاجة إلى التخلّص من سموم المخبر.

جرى آدم قليلاً، وعندما التفت خلفه، لم ير شيئًا باستثناء غلالة المطر البيضاء التي زادت نصاعة. لا يعرف لماذا شعر بأنّه كان يتماهى فيها، وأنّ كلّ ما فعله حتى الآن لم يكن شيئًا حقيقيًا، ولكن مجرّد أصداء داخليّة شبيهة بأصداء أمايا التي تخاف عليه من دوار الحساسيّة.

ضحك. زادت قوّة الأمطار. واصل الدوران تحت الغلالة البيضاء التي اخترقها نور معمٍ للأبصار، فأُصيب بالدوار فجأة ولم يستطع أن يتماسك. لا يدري إن كان يجري أم يطير. ترك نفسه يتهادى داخل الغيمة الساحرة واللدنة. عندما فتح عينيه لم ير شيئًا ولا حتى ليتل بروز، ولا نانبيه، ولا حتى أمايا وسميث، ولا حوّاء التي عادت من عند الطبيب في كامل انتشانها. لم يلمح إلّا الأمطار الباردة التي كانت تتساقط على وجهه مثل حبّات اللؤلؤ. فتح يديه على آخرهما، ثم أغمض عينيه، فرأى السماء التي انفجرت العديد من المرّات، ورأى الشهب التي ارتسمت على حوافّها حتى غفا أو نام

.. . أصيب بالدوار اللذيذ وهو في المضمار.

مسح الماء المتدفّق على وجهه.

خفّف آدم من سرعته قليلاً. تنفّس طويلاً.

لأوّل مرّة، يشعر بالإنهاك وبطول المسافة بين الجناح الجنوبيّ من قاعة *أميروبا*، حيث غرفته، ونهاية الممرّ الذي يخترق الحديقة بشكل طوليّ مستقيم، محاطًا من كلّ جوانبه بشبابيك فولاذيّة صلبة وأشجار كثيفة. لا أحد هذه المرّة يرافقه وهو يركض بخطوات متساوية. غاب سميث. كان دائمًا يتبادل معه أطراف الحديث حول وضعهما، كما كانا. ويتذكّران زمنًا لم يبق منه الكثير اليوم. كلّ شيء يقوده نحوه. الفضاء. العصافير التي تأتي أصواتها مكتومة. الشمس الحادّة التي تضرب الدماغ بقوّة. تمتماته الخفيّة في الفترات الأخيرة. لا يتكلّم إلّا في المضمار الذي لا يوجد به أيّ جهاز يجعله يحذر. حركات يديه اللتين لا تستقرّان على وضع. التفاتاته المتكرّرة صوب اللّامكان. حتى عندما رفع رأسه عاليًا وهو يلمح الكواسر التي تحلّق عاليًا. لم ير الشعار الضوئيّ الذي تعوّد أن يصطدم به يوم جيء به إلى هذه القلعة: ***العربيُّ الجيّدُ الوحيدُ. . . هو العربيُّ الميّت***. نُزع ولم يبق منه إلّا بياض مكانه الذي لم تمسسه الشمس إلّا قليلاً. عندما تنبّه له سميث أوّل مرّة، شعر بقلق تجلّى واضحًا على وجهه وفي عينيه الزرقاوين اللتين فقدتا فجأة لونهما الطبيعيّ. ارتسمت على جبهته نقاط من العرق الكثيف التي برقت تحت شمس حادّة: *لا أفهم. ألهذا الحدّ أصبح الإنسان غبيًّا ومعتوهًا ومجنونًا، يقتل نفسه بنفسه*؟ بعدها بفترة قصيرة، نُزع الشعار القديم وعُوّضَ بغيره، فوقه بقليل: *من ليس معنا، فهو ضدّنا*. عرف بأنّ ذلك كلّه تمّ بتدخّل من سميث. سميث وحده القادر على فعل ذلك.

ضغط على عضلاته أكثر لكي يزيد من سرعته.

شيئًا فشيئًا، بدأ التعب ينسحب ويحلُّ محلَّه وجهُ أمايا وهي تركض في ساحة جامعة بنسلڤانيا، وهو يركض وراءها بعد مقابلة الباسكيتبول مع فريق الأحلام، عندما زار بنسلڤانيا ولعب مع طلبة الجامعة بشكل استعراضيّ. تركها تبتعد قليلاً قبل أن يركض بسرعته المعتادة. عندما أدركها، حملها بين ذراعيه وجرى بها قليلاً حتى خرج من المضمار وهرب بها نحو البحيرة. هناك جلسا. كان وجهها مشرقًا بالنور، وسعيدة كزهرة صباحيَّة.

_ أمايا، لم ننهِ حديث البارحة.

_ خايفة على والدتي. أصبحتْ هشَّة جدًّا. كادت غيبوبة أولى أن توصلها للقبر. ونخاف أن تتكرَّر. حريصين جدًّا عليها. والدي نفسه بدأ يتعب لكنَّه ما يزال قويًّا، جدِّي يماغوشي، الذي تعرَّض للإشعاع النوويّ تعب كثيرًا قبل وفاته. على الرَّغم من بنيته القويَّة، انهار في أيَّامه الأخيرة بالسرطان الذي أمهله طويلاً قبل أن ينقضَّ عليه. والدي يخاف أن يكون قد أخذ من والده مورثات الموت الإشعاعيّ، وسلَّمها لنا بدوره؟ في عمر تجاوز التسعين سنة، كان يماغوشي يخرج في مسيرات جماعيَّة ضدّ النوويّ. هو مع السلميّ المراقَب من الجميع وليس من الأقوياء فقط، لأنَّ حيوات البشر تتساوى في النهاية. لا توجد حياة أهمّ من أخرى.

_ من يسمع يا قلبي لهذا؟

_ المصالح العسكريَّة والاقتصاديَّة كبيرة، لكن لا شيء يساوي الإنسان، مهما كانت الأسباب. جدِّي كان يعرف أنّ الجنون لا يُقابل إلاّ بجنون أكبر. الدوّامة عندما تندلع لا أحد يوقفها إلَّا الإبادة المتبادلة. يتخيَّل أحيانًا لو كانت اليابان وقتها تملك النوويَّ ماذا كان سيحدث؟

_ لهذا، الحلُّ لا يمكنه أن يكون إلَّا جماعيًّا وإنسانيًّا، وإلَّا سيظلُّ القويّ

الأقلّ تعرُّضًا للتهديد، هو من يفرض سلطانه الكبير. العالمُ بُنِيَ دومًا على هذه المعادلة.

يُفترض أنّ الإنسان تطوَّر قليلاً.

لم يتطوَّر في الجوهر، ولكنَّه طوّر معه كلّ سبل القوّة والمحو.

زاد في السرعة أكثر.

كانت بعض الأشجار قد أورقت. وبدت ألوانها تحت أشعّة الشمس التي خرجت فجأة من دكنة الغيم مغسولة. اشتهى أن يتوقَّف مليلاً، وينزع منها بعض النوّار ويستنشقه، لكنَّه لا يستطيع العبور نحو عالم وجهته تكاد تكون ممنوعة عليه حتى اليوم، وربَّما على غيره أيضًا. للأشجار عطرٌ خاصٌ حينما يعانقها العاشق ويترك نفسه يتهادى عليها، ويستمع لهدير داخلها الناعم والتحرّكات الصامتة، كأنّها جنين في بطن أمّه.

بعد كلّ الزمن الذي أمضاه في القلعة، ما يزال، على الرَّغم من التحسينات، لا يعرف وضعه بدقَّة. هل هو أسير جيء به من بعيد بعد رحلات متعدِّدة قبل أن يجد نفسه في هذا المكان، في قلعة أميروبا؟ كما كان يفعل البحّارة والقراصنة عندما يلقون القبض على إنسان، ويضعونه في المخازن التحتيَّة من سفنهم الخشبيَّة الثقيلة، مع خليط بشريّ وحيوانيّ، ولا يعرف شيئًا عن وضعه إلّا عندما يتمّ إنزاله منها في الساحل الخالي، على حافّة ميناء قديم، ليعيش كلّ شيء لحظة بلحظة؟ هل هو آدم الذي شاءت سلسلة من الصدف والأقدار المتكاثفة أن تجعل منه خبيرًا آرابيًا نوويًا، يملك معلومات دقيقة، وفي رأسه كلّ قواعد العمل النوويّ وأرقامه، وكانت أبحاثه من وراء فتوحات علميَّة كثيرة، يخافون أن تتسرّب ويستعملها الإرهاب الذي تغيَّر وجهه اليوم كثيرًا، إذ زاد جفافًا، وأصبح يملك الأدوات والعقول لصناعة قنبلة

متوحّشة قادرة على الإفناء والتدمير في مقهى، في مطعم، في مد...
لم يعد في حاجة إلى منصّات إطلاق تلتقطها الأقمار الصناعيّة الم...
على كلّ الرؤوس، فتدمّرها في مكانها. الأخطر من هذا كلّه، يتعا...
اليوم الإرهابيّ المحتمَل في الجسد المسالِم نفسِه.

تنفّس محافظًا على وتيرة سرعته نفسها.

في المضمار، التحكّم في السرعة مهمٌّ أيضًا. لا سرعة تح... النفس وتحرقه، ولا تراخ يجعل الخسارة حتميَّة في الفينش. هذا هو نظام السباق الذي يعرفه، وظلّ يطبّقه منذ أن خسر كلَّ إمكانيّةٍ في التحوُّل إلى بطل أولمبيّ أو عالميّ. أحيانًا، ينتابه السؤال كلّما تذك... أمايا إذا لم تكن خياراته أصلاً خاطئة؟ لكنَّه بسرعة يتذكَّر أنَّه كان في النهاية طالبًا، وأنّ المخبر اختاره من بين المئات، وموَّل دراسته، لا ليكون رياضيًّا حِرَفيًّا يترك عمله ويتفرَّغ للرياضة، ولكن ليكون عضوًا في مخبر مهمّ، ويكاد يكون سرّيًّا لأنّ علاقاته مع المؤسّسة العسكريّة كانت كبيرة مثل كلّ المخابر النوويّة، حتى السلميّ منها. وإلّا عليه أن يعوّض كلّ سنوات الدراسة. لم يصل إلى تلك المرحلة من الضيق والخيبة، ولكنَّه كان يمكن أن ينتهي إليها.

أنا لا هذا ولا ذاك. مدّ يده إلى جيبه حيث جهازه الصغير.

أنا غيست، كما قيل لي منذ الثانية الأولى في هذا المكان. مجرّد ضيف، وسيأتي اليوم الذي يترك فيه هذا المكان ويخرج نحو مشاغله. ونحو شمسه. وجودي هنا للحماية من الذين يريدون رأسي. القتلة. إرهابيّو التنظيم كما تُجمِع عليهم كلّ وسائل الإعلام. كائنات هلاميّة بلا وجه وهويّة متحوّلة مع الزمن. لماذا يريدون رأسي بعدما انتهى كلّ شيء، وتمّ ضبط عقارب الساعة كما شاؤوا لها أن تكون. كلّ الخلايا الإرهابيّة أُبيدت؟ هذا ما أقرأه منذ أكثر من ثلاثين سنة، حتى وأنا

.. ج القلعة، ولكن ألست أنا من قال لسميث يومًا وهو يسألني عن ماهية الإرهاب المنظَّم، والذي أصبح جيشًا دوليًا احتلَّ مناطق واسعة .. أرابيا: الإرهاب لا رأس له، على الرَّغم ممّا يبدو ظاهريًا. كلّ من اباهم من رؤوس أُبيدوا بعمليّات خاصّة وبضربات طائرات من دون طيار، فهو مثل جرثومة المياه العذبة، أينما نزلت نقطة منها تجدَّدت وتضاعفت بنظامها الذي لم توقِّفه أيّة تكنولوجيا. اثنتان. أربعة. ثمانية. ستّة عشرة. اثنتان وثلاثون. أربعة وستُّون. .. أجاب سميث يومها، هذا لا يملك جوابه يا آدم إلّا الذين جاؤوا بك إلى هذا المكان، وطلبوا منّا أن نوفّر لك كلَّ الرعاية التي تحتاج إليها. هكذا قالوا لي وكرّروها عبر السنوات. ثلاثون سنة وأنا أطرح السؤال نفسه. وذات يوم اتّخذت قرارًا أن أوقفه، لأنّه بلا جدوى، وأوقفته نهائيًا لأتمكّن من العيش في عالم عمقه غير الصورة التي يظهر بها.

- انتبه لنفسك ولا تتركها تقودك نحو الغواية. الغواية شرّ أسود.

تناهى إلى أعماقه صوت ليتل بروز. شعر بالبرد الحادّ يسكن عظامه. عرفه من نبراته الفولاذيّة التي تتطاحن فيها الكلمات، وكأنّها صوت من مصنع قديم تتقاطع أسنان آلاته، أو من فم رجل آليّ. عندما تحتكّ بعض الحروف ببعضها تحت لسانه، يشعر الإنسان كأنّ قطعتيْ فولاذ التقتا ثم تحرّكتا بشكل معاكس، ممّا يورث فيه برودة داخليّة كلّيّة شبيهة بتلك التي كان يشعر بها في طفولته، عندما يسحب أحدهم قطعة حديديّة على البلاط أو على جسم صلب. هذه الحالة صاحبته منذ الطفولة، لهذا يهرب دومًا من أيَّة غزغزة، لكنْ بالنسبة لاحتكاك الكلمات في صوت آدمي، إنّها المرَّة الأولى.

رفض أن يمنح لليتل بروز فسحته الوحيدة قبل سقوط الليل. واصل جريه.

ـ ٤ ـ

ـ الكومندان سيرجيو.

قالها الشابّ الذي ما تزال ملامحه طفوليَّة:

ـ سيِّدي، كلّ شيء جاهز، ينتظرونكم في قاعة الاجتماعات.

كان آدم ينتظره بعد أن هيَّأ نفسه. سلَّمه البذلة البيضاء، فارتداها بسرعة، ثم سار خلفه باستقامة.

سيرجيو عسكريٌّ شابّ، وجهه مدوَّر، أحمر الخدَّين، كأنّه صبيٌّ، بالكاد تجاوز عمره السنة الواحدة. كان أنيقًا بلباسه الأبيض الذي ارتسمت عليه، على مستوى الصدر والكتفين، رتبته العسكريَّة المعمول بها عادة عند جنود المارينز. ماذا يفعل شابٌّ بهذه النعومة في مكان مثل هذا؟ تساءل آدم في أعماقه، حيث العساكر في هذا القفر المخيف يواجهون الزواحف والعقارب وسطوة الرمال وعواصفها وأسرارها الخفيَّة، وموجات الإرهاب التي تتكوَّن في غفلة من الجميع كما في البحر. والكلّ هنا يحمل خوفه في أعماقه، ويستعدّ كلّ ليلة لهجومها المباغت، بحيث لا أحد يعرف من أين يخرجون، مثلما حدث قبل

ءات في عمليّة سكوربيون كما سمّاها *التنظيم* بعد وشاية مؤكّدة من الأمير ميدو، والتي ارتكزت أساسًا على فعل المباغتة.

سيرجيو لا يتحدّث كثيرًا. ظلّ صامتًا، مستقيمًا في حركته، استثناء جملته الوحيدة: سيّدي. . كلّ شيء جاهز. ينتظرونكم في قاعة الاجتماعات. الاستدعاء الذي وصله قبل أيّام وتأكيدات سميث، قبل أن يغيب في المهمّة التي أوكلت له، كانت كافية لأن تجعله يأخذ المسألة بجدّيّة كبيرة. *نرجو أن تكونوا على الساعة التاسعة، في المكتب العاشر في القلعة الشرقيّة لأمر يهمّكم*. يعرف جيّدًا طبيعة هذا الأمر. عليه أن يقدّم تقريره في خمس دقائق عن الوضعيّة العلميّة لمشروع *PBPu1* و*PBPp2* وعن استعمالات قنبلة الجيب. ليتل بروز الذي عاد بقوّة، لم يظهر بخربشاته عن طريق الشاشات التي ترتسم في كلّ مكان، عدا شعاراته التي تملأ المساحات العامّة التي أصبحت تُلحّ كلّها على التنبّه والحذر من العدوّ الداخليّ والخارجيّ الذي يستهدف اللحمةَ الوطنيّة. *والتزام الحذر والحيطة من عدوٍّ خطيرٍ لا شكل له ولا وجه*. التضامن وتطبيق شعار ليتل بروز في الحالات الحرجة والصعبة: *الكلُّ للواحد والواحد للكلّ*.

حالة الاستنفار المعلنة في القلعة، أظهرت بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ الوضع لم يكن مريحًا، وأنّ شيئًا ما سيحدث، وأنّ المعلومات المرصودة تؤكّد أنّ التنظيم يُعدّ عدّته للهجوم الأخير لطرد عساكر القلعة من صحراء الربع الخالي، لأنّه يرى فيها مكانه الطبيعيّ، وأنّ وجود قوّات *أميروبا* ليس طبيعيًا. حتى إنّ بعض الألسن الطويلة تقول إنّ مفاوضات سرّيّة يشترك فيها ضبّاط من أميروبا وأمراء من *التنظيم* لإيجاد أفضل الحلول البراغماتيّة التي تعود بالنفع على الجميع، الهدف الأساسيّ من ورائها هو إخلاء القلعة لصالح *التنظيم*، لكنّ ذلك لا يبدو صحيحًا، بل مستحيلاً. سبب وجود قلعة أميروبا وإعادة

ترميمها، كان بهدف اقتصاديّ وعسكريّ أيضًا. فهي تقع في عمق صحراء أرابيا، ما يمنحها قدرة على حماية كلّ ممرّات النفط والغاز واليورانيوم الذي قليلاً ما يُذكر، ومراقبة حركة السفن في مضيق هرمز والبحر الأحمر، ومحاربة *التنظيم* في عقر داره وتحجيم دوره. التدريبات زادت بكثافة لدرجة أنّه يمكن أن يتحوّل المدرّج القديم إلى مكان للتدريب العسكريّ، بحيث تلحق منطقة *الغيست* في القلعة، التي كانت تتّصف نسبيًّا بجانب مدنيّ خاصّ بالضيوف وبحرّيّة حركة واضحة، إلى الرقابة العسكريّة، وبالتالي تضيق هذه المساحة بما فيها المدرَّج القديم، فلا يدخلها الغيست، ولا حتى بعض المقيمين الذين كان يُسمح بالجري فيها، تحت حراسة مشدَّدة.

الشيء المؤكّد هو أنّ الجوّ لا يبدو مريحًا في القلعة أبدًا!

قَطَعا البهو الطويل مشيًا. وعلى الوتيرة نفسها التي تكاد تكون فيها الخطوات مقاسة بدقّة، امتطيا المصعد الشمالي الذي كُتب عليه كلمة مخصَّص. ثم نزلا إلى تحت. في البهو واجهتهما سلسلة من القاعات، ومنها القاعة التي تحمل رقم ١٠. وقف سيرجيو عند الباب. انحنى بجسمه قليلاً إلى الأمام، فاتحًا أمام آدم الباب للدخول. ثم أغلق الباب ليجد نفسه برفقة شابٍّ آخر، حيَّاه مع ابتسامة ثم طلب منه أن يتبعه. لم يكن البهو قليل النور الذي يشبه أبهيَّة المسارح طويلاً، لأنّه أفضى بهما في النهاية إلى قاعة مدرَّج كلّ حيطانه مغلّفة بمادّة شبيهة بالفلّين. دلّه على كرسيّه الذي كُتب عليه اسمه، وكأنّه كان في مؤتمر. لم يعرف من الضبَّاط الكثيرين إلّا سميث الذي كان في الخلفيَّة، ببدلته العسكريَّة التي تحمل رتبته، عندما رأى آدم، اكتفى بتحيَّته برأسه.

جلس في مواجهة المنصَّة. كان الوحيد في الصفّ الأوّل. فجأة، ساد صمت طويل ثقيل كالرصاص. حاول أن ينساه بتأمُّل كلّ جنبات

المدرّج الجبليَّة. في خلفيَّة المنصَّة، لوحة بيضاء تمتدُّ على طول الحائط الخلفيّ، لم يكن هناك أيّ شيء، ولا حتى أناشيد أو شعارات ل بروز العسكريَّة.

صمت مطبق. وشوشات صغيرة تأتي من هنا وهناك.

بعد لحظات قليلة مرَّت ثقيلة قليلاً، دخل ضابط برتبة جنرال. جنرالُ بحريَّةٍ كما يبدو من لباسه، كالذين كانوا يتفقَّدون جهوده في بنسلفانيا. كان مصحوبًا بامرأة أنيقة وعسكريٍّ آخر. عَبَروا مباشرة نحو المنصَّة. جلسوا.

نظر جنرال البحريَّة إلى الجميع متفرّسًا كلّ الوجوه.

قامت السيِّدة من مكانها واتَّجهت نحو *الميكروفون*، الذي لم يكن بعيدًا عنها.

- أنا غريزيلدا صبادو، من البحريَّة. أنوب في هذا التقديم عن الجنرال كلارك أندرسون في القضايا الأمنيَّة الحسَّاسة. نحن نعيش وضعًا استثنائيًّا أصبحت فيه قوَّة إجراميَّة تتحدَّى حضارتنا، كما فعلت قبل سنوات طويلة مع البرجين التوأمين. . ومنذ ذلك الوقت انفتحت شهيَّة الإجرام، فحاولوا الاعتداء على المركز النوويّ في بنسلفانيا، وفجَّروا الكثير من قواعدنا في كلّ آرابيا، وكان يجب إعادة ترتيب الأشياء وفق خطَّة أمنيَّة جديدة. هجوميَّة، لكن دفاعيَّة أيضًا. سمحت لنا قلعة أميروبا بأن نكون في عمق الإرهاب ومنعه من الوصول إلينا. أشكركم، وأُحيل الكلمة إلى الجنرال كلارك أندرسون. سيتحدَّث قبل أن يعود إلى مهامّه في البحر الأحمر ومضيق هرمز. وهو هنا طبعًا لسماع ملخَّص عن الجهود التي يقوم بها البروفسور آدم، مع فريق عمله.

قام الجنرال من مكانه واتَّجه نحو المنصَّة الصغيرة. استلم المايك من غريزيلدا. الكثير من الحاضرين كانوا يعرفونه جيِّدًا، فهزُّوا

رؤوسهم عندما حيَّاهم بانحناءة خفيفة وابتسامة ارتسمت بوضوح على وجهه وخفَّفت من حالة الصمت. فتح حاسوبه، فارتسم مخطَّط العمل وتفاصيل القنبلة التي وصلت إلى مرحلة التصنيع.

ـ أردت أن أحيِّي فريق العمل الكبير. نحن نشتغل حاليًا على البروتوتيب التجريبيّ في مكان سرّيّ، وسيكون جاهزًا في زمن قريب جدًّا. وهذا شكله شبه النهائيّ وفق تصميمات التصنيع التي وصلتنا من مخبر الهندسة العسكريَّة. كما ترون! اسم على مسمّى. قنبلة صغيرة لا علاقة لها بقنبلتيْ هيروشما وناغازاكي، ولا الجيل الذي جاء بعدها مثل القنبلة الهيدروجينيَّة الفتَّاكة. هذا أصغر نموذج على وجه الكرة الأرضيَّة. لهذا، فهو بقدر قوَّته وفاعليَّته لا يلوِّث إلَّا مساحات قليلة جدًّا في الأرض.. من هنا أهمِّيَّته.

لم يكن شكل القنبلة كبيرًا، يكاد يتجاوز بيضة النعامة بقليل. واستعار شكلها نفسه، لكنَّ رأسه طويل بعض الشيء. كبّر الصورة أكثر، فبدت القنبلة بكلِّ تفاصيلها، بما في ذلك رأسها النوويّ.

ـ هذا هو الشكل التقريبي النهائيّ، باستثناء تصليحات تقنيَّة صغيرة اقترحها مهندسونا بمبرِّرات علميَّة مقنعة خاصَّة بتفجير اليورانيوم والبلوتونيوم داخل القنبلة. وكما عرفت من تقارير مخبر الأبحاث وفريق علماء المشروع، أنَّه كانت هناك صعوبات كبيرة مردُّها شيئان تعطّل المشروع لأسباب موضوعيَّة، بالخصوص القدرة على التحكُّم في القطر الإشعاعيّ، واستطاع الفريق العلميُّ أن يحلّه نهائيًا بإثقال الغيمة النوويَّة ومنعها من الانتشار أكثر من المساحة الدنيا التي حُدِّدت لها. الباقي تفاصيل لا مشكلة فيها، وأنتم أعرف بها منّي. المحصَّلة: أصبح التحكُّم في القطر الإشعاعيّ للبوكيت بومب بروجكت PBP1 أمرًا ممكنًا، بل ونتحكَّم فيه بدقّة، نوسّعه ونضيّقه

كيفما نشاء في الحدود المعقولة طبعًا، دون التأثير على القوَّة الانفجاريَّة في الأرض التي لن تعاني طويلاً من آثار الإشعاع. صحيح أنَّ كلمة نوويَّ مخيفة، بعد ما حدث على هذه الأرض التي هدِّدت بالانفجار النهائيّ العديد من المرّات بين *تحالف أميروبا وتحالف إيروشينا*، والأخطاء النوويَّة التي ارتكبت تسبَّبت في قتل أكثر من عشرة ملايين. لا نريد أن نكرِّر ذلك. أردت فقط أن أخبركم أنّه سيتمّ، بالاتِّفاق مع الفريق العلميّ، تحديد اليوم والوقت الصفر لتجربة *PBPu1* و*PBPp2* الأولى، في صحراء آرابيا. أعطيناها اسم *العقرب الأسود*. لا تعليق لي سوى أن يفيد هذا الجهد الكبير الإنسانيَّة في ردع المخاطر النوويَّة الكبرى ودرئها، ويحدَّ من سطوة *التنظيم*. العالم اليوم يتعرَّض لقسوة كبيرة وتدمير ذاتيّ غير مسبوق، هل لنا أن نحمي أنفسنا ونحمي البشريَّة؟ أعتقد أنَّ هذا هو رهاننا اليوم. عملٌ مثلُ هذا يتوجَّب سرِّيَّة كبيرة ورقابة صارمة، وأن لا يتسرَّب هذا الجهد إلى الخارج، لأنَّه يمكن أن يكون هالكًا أيضًا. التفاصيل كلّها عندكم في البرنامج الذي سُلِّم لكم. الرجاء، اطَّلعوا عليه واتركوه هنا، في أماكنكم، مع التعليقات الممكنة. أشكركم جميعًا على جهودكم.

قامت غريزيلدا ثانية من مكانها.

ـ شكرًا، جنرال كلارك أندرسون، على هذه الخلاصة الواضحة والدقيقة. أطلب من البروفسور ويليام ديكنز، صاحب المخبر، في كلمة مختصرة يقولها قبل أن يخرج برفقة الجنرال. سيكونان معنا طبعًا في يوم التجربة الأولى التي تحمل اسم بلاك سكوربيون[١]،

---

(١) Black Scorpion العقرب الأسود.

التي نتمنّى أن يكون النجاح حليفها.

قام البروفسور ويليام من مكانه..

على الرَّغم من سنّه، كان يبدو في عزّ نشاطه. ظهره كان مستقيمًا كقصبة بامبو، وقامته مديدة، لا انحناء فيها إلّا على مستوى الكتفين قليلاً. لم يستطع آدم أن يكتم ضحكته الباطنيَّة. تذكَّر كيف رأى على الشاشات الوطنيَّة في آرابيا الغربيَّة جنرالات أصبحوا بعدد الجرذان، أشكالهم مثل الهيبوبوتام[1]، لا يتحرَّكون إلّا بصعوبة، أو على متن عربات خاصَّة لتفادي الإنهاك. حتى في المناورات العسكريَّة التي يحضرونها، يقومون بتحيَّة الجيش والعلم الوطني، وهم داخل عرباتهم. يشبهون سومو[2] اليابانيّ الذي لا عمل لرياضيِّيه إلّا الأكل والحفاظ على السمنة والاستعداد للمعارك والمنازلات في الحلبات، التي تقتضي استعمال كلّ ثقل الجسم لإخراج الخصم خارج الدائرة، أو جعله يلمس الأرض بجسمه أو يديْه.

أنا لا أفهم أبدًا. *هل يُعقل؟ جنرال ميدان، يزن أكثر من قنطارين، بصدر خشن مثقل بميداليَّات الانتصارات حتى انحنى ظهره، لا يدري من أين حصل عليها في بلاد، لم تخض أيّ حرب منذ أكثر من نصف قرن، إلّا حروبها ضدَّ إرهاب تربَّى في أحضان الفساد والنهب واللّاعقاب*. ضحك في أعماقه، لكنَّه لزم الصمت والجدِّيَّة، وخاف من ليتل بروز الذي يبدو غائبًا عن المكان حتى بصوته الفولاذيّ.

قرَّب البروفسور ويليام الميكروفون من فمه أكثر.

ـ ليس لديَّ ما أقوله في هذه الجلسة إلّا ما قرأته، وما سمعته من

---

(١) Hippopotame

(٢) Sumo

البروفسور آدم وسميث وفريق العمل. سعيد أنّ مشروعًا علميًا بقيمة بوكيت ـ بومب المزدوج *PBPu1* و*PBPp2* وصل إلى نهايته ودخل مرحلة التنفيذ والتصنيع العسكريّين. هذا مهمّ جدًّا في مرحلة حرجة. بلادنا تتعرّض لاعتداءات *التنظيم* الذي لا يتهدّدنا فقط، ولكنّه يتهدّد البشريّة جمعاء. وهذا يجبرنا على حماية أنفسنا وحماية مصالحنا. أعتذر منكم. حضرت فقط لأقول لكم إنَّ العالم الحرّ كلّه معكم في مهمَّتكم، وأنّه ينتظر منّا إجابات وليس كلامًا. في الأخير، أنا مع أطروحة البروفسور آدم التي تقول إنّ أصل الإنسان حيوانان وليس حيوانًا واحدًا، قرد وذئب. قرد يظلّ في دائرته يُعيد إنتاج نفسه وينتظر موته، وذئب، وولف، يبدع كلّ يوم حيلة ليتفادى قاتله أو من يهدّد حياته. يقاتل باستماتة من أجل حقّه وحرّيّته. أترك لكم تحديد أصول كلّ واحد منكم، من أختار القرد فله ذلك، ومن أراد الذئب فهو حرّ... هههههه.

ضجّ المدرَّج كلُّه بالضحك. رسم آدم أيضًا ابتسامة انزلقت على مُحيّاه، فمنحته بعض الراحة.

عادت غريزيلدا إلى المنصّة الصغيرة لتقدّم الآخرين.

ـ نحن في الوقت بدقّة. الكلمة للعقيد سميث. نسمع كلمته التي كلّفه بها المشرفون على المشروع الكبير.

قام سميث بدون أيّ بروتوكول. كان وجهه رقيقًا يشبه وجه الكاتب صامويل بكيت.

ـ أدعو إلى المنصّة البروفسور آدم.

قام آدم مع تصفيق القاعة كلّها. شعر بسعادة غامرة تسري فيه بقوّة. لا يدري بالضبط لماذا تذكّر والده في تلك اللحظة، وتذكّر المخبزة التي كان يسريها بالحطب المازوت، قبل أن يشتري آلات

مخبزة شخص آخر أكثر تطوُّرًا.

ثم واصل الكولونيل سميث، بينما ظلَّ البروفسور آدم بجانبه:

- ليس لديَّ ما أضيفه، الجنرال كلارك أندرسون لخَّص كلّ شيء. لقد أسدلنا الستار، وسجَّلنا براءة الاختراع رسميًّا ضمن الوكالات الدولية المتخصِّصة في الاكتشافات النوويَّة السلميَّة، وأكَّدنا ترشيح آدم لجائزة نوبل للفيزياء لأنَّه يستحقُّها بامتياز. قد يبدو في الأمر مفارقة، كيف نجمع بين السلام وقنبلة صغيرة؟! لكنَّها فتَّاكة بالعدوّ وليس بالطبيعة. السلام يحتاج للأسف إلى قوَّة للجم سلطان *التنظيم*. الإنسان لم يخرج من مرحلته الحيوانيَّة سواء جاء من قردة أو ذئاب لكنَّ سلامنا يرتكز على اختزال الضرر إلى أقصاه. بحيث يصبح صفرًا، لكنَّه في الوقت نفسه يعطي درسًا للمعتدي قبل إقدامه على أيَّة مغامرة. البروفسور آدم فكَّر طويلاً قبل أن يوافق على العودة إلى مشروعه الذي توقَّف لسنوات لأسباب.. البعض من اشتغل معنا في المخبر يعرفها جيِّدًا. نريده أن يفوز بنوبل، لأنَّه هو من ابتدع الفكرة وطوَّرها وأحاطها بسلسلة من الضوابط الحامية للإنسان. نتمنَّى أن نراه، وقد تجسَّد ووفَّر حماية كبيرة لمجتمعنا وللإنسانيَّة جمعاء. شكرًا لكم. شكرًا بروفسور آدم.

ثم عانقه مع تصفيق حارٍّ من القاعة وتحيَّة غريزيلدا التي قدَّمته للجنرال كلارك أندرسون، وبقيَّة الضبَّاط السامين في البحريَّة الذين رافقوا الجنرال في مهمَّته، إضافة إلى أصدقائه في فرقة البحث، الذين حضروا الجلسة الخاصَّة للإعلان عن انتهاء المشروع وانتقاله إلى التصنيع.

حيَّا الجميع آدم، الذي كان ما يزال في حيرته مثل طفل تحت وقع دهشة لم يتوقَّعها بكلِّ هذه القيمة. فقد ظلَّ مرتبكًا جدًّا، وهو لا يعرف

هل حسنًا فعل، وهل قدَّم خدمة للبشريَّة أم قدَّم لها ما يُبيدها بشكل سريع. حروب اليوم كلُّها تُدين لنوبل بتزويدها بأكبر سلاح قاتل ومدمِّر: المتفجِّرات. كان حلم الإنسان أن يستولي على سلطان الطاقة والنار ليتحكَّم في الطبيعة؛ وعندما كان له ذلك، توجَّه نحو خوض حروب ضدّ كلّ ما يمشي على الأرض. تمتم آدم في أعماقه. ولكنَّه ترك نفسه يستلذّ ويستمتع داخل الموجة البشريَّة التي كانت تهنِّئه على جهوده.

بعدها.. خرج الجميع.

خرج أيضًا سميث برفقة الجنرال كلارك أندرسون ويليام ديك، بعد أن أكَّد لآدم اقتراب لقائهما في اللحظة الصفر لاختبار جدوى *البنت المدلَّلة* كما سمّاها الجنرال كلارك ***PBPu1* و*PBPp2***.

عندما جاءه الضابط الشابّ سيرجيو، كما في لحظة المجيء، كان قد غرق في أعماقه.

ليلتها لم ينم جيِّدًا، مع أنَّ ما حدث يُفترض أن يُعليه نحو السماء السابعة. في البداية، سمع نداءات رماد. كانت قريبة. تغيَّرت نبراتها كثيرًا وأصبحت غير صافية، كمن بلع دخانًا كثيفًا أو كُمِّمَ فمه بعنف. رماد عندما يكون عواؤه مخنوقًا، فهو إمَّا مريض أو محاصر، أو يريد أن يغيب ويهرب بعيدًا عن عالم لم يعد أليفًا معه.

رماد علامة في هذا القفر المخيف، لأنَّه بدأ يفقد كلّ ما يربطه بالحياة.

عندما صمت رماد، وبدا صوت الطائرات الحربيَّة هو كلّ ما يملأ المكان، شعر آدم بأنَّه استكان أخيرًا للنوم بعد بُحَّته القاسية، وبعد الجهود المضنية في الشهور الأخيرة.

في اللحظة التي بدأت غفوة الاستكانة تأخذه بعيدًا، رنَّ هاتفه النقَّال على غير العادة في هذا الوقت. رسم على شاشة التليفون

مجهول. عادة لا يردّ على من لا يعرفهم، هذه هي القاعدة التي اتّبعها في حياته. لكنَّه في هذا الوقت؟ وفي فراغ لا يدري من أين يأتي هذا الصوت، لا بدّ أن يردّ. من يدري؟ ربَّما من أمايا أو يونا؟ مع ذلك استغرب ممَّن يتلفن له في هذه الساعة من الليل في وضع غير طبيعيّ، إضافة إلى أنَّ هاتفه المحدود المجال، تحت رقابة ليتل بروز وأمن القلعة.

ارتسمت على شاشة التليفون الصغيرة كتابة باللغة العربيَّة التي أصبحت لغة أقلّيات، لا تكاد تُستعمل بعد أن أُزيلت من الكثير من المؤسَّسات الدوليَّة. *عزيزي آدم، أريد أن أكلّمك. أحتاج إلى ذلك.* بدت له الجملة طيِّبة وقريبة إليه، لكنَّ كتابتها بالعربيَّة حيَّرته. من يبعث اليوم رسالة بلغة وضعت في مكانها الضيّق؟ بعدها بدقيقة، رنّ التليفون الثابت. فتح.

ـ هل أنت آدم؟

ـ نعم. وحضرتك؟

ـ لا تتعجَّل. ستعرفني بعد دقيقة بالضبط.

فجأة، ارتسمت على الشاشة الحائطيَّة، في اللحظة ذاتها، جملة *تكلَّم ولا تتوقَّف. نريد تحديد إحداثيّات مكان المكالمة المجهولة، نحن نتعقّبها من زمان.*

ـ لماذا صمتَّ يا بروفسور، أم تستأذن أسيادك من الإفرنج ليحدّدوا مصدر المكالمة؟

تكلَّم. تكلَّم لا تتردَّد. ارتسمت الجملة كبيرة على الشاشة التي أصبحت بيضاء والخطّ أسود، حتى يظهر أكثر.

ـ بي حيرة. أفكّر فقط في أيِّ صديق قديم يريدني في آخر الليل وفي آخر الدنيا... ههههه.

كان يتحدَّث بلغة لا توجد بها أيَّة لكنة على الإطلاق. إنجليزيَّة امبركيَّة بكلِّ طريقتها التي تلتهم فيها الكلمة. بدا له الصوت غير عاديٍّ، ونبراته قريبة جدًّا. بل ويعرفها. لهذا شعر في البداية ببعض الأمان. مع أنَّه كان يريد أن يطفئه في وجهه، وينتهي من مشقَّة التساؤلات الفارغة وغير المفضية لأيِّ شيء مفيد. لكنَّ الكتابة التي ارتسمت أمامه من جديد، منعته من ذلك. *واااااصل ولا تتوقَّف. المسألة شديدة الخطورة، بدأنا نحدِّد المكان.*

ـ لحظات صمتك مريبة. أعرف.. أنت تتكلَّم وهم يسجِّلون الآن إحداثيّات مكان وجودي. وليس بعيدًا أنّ طائرة تنطلق الآن باتِّجاهي. لا يهمّك سيضربون الفراغ.

في اللحظة نفسها، سمع أزيزًا خفيفًا لطائرة من دون طيّار. عاد الصوت.

ـ طيَّارتكم انطلقت. أسمعها جيِّدًا. شوف يا قحبة الماريكان. أنت صاحب أهمّ اكتشاف القرن: قنبلة الجيب. أخطأناك في المرَّة الماضية في مطار رواسي لنحمي الأمَّة من جريمتك، بسبب غباوة المكلَّفين بالعمليَّة وتسرُّعهم وقلَّة نباهتهم، المرَّة القادمة ستكون العمليَّة أدقّ وبلا أخطاء. وستكون آخرتك.

توقَّف التليفون فجأة. كأنّ صاحبه تركه ولم يسكته بإشارة من الشاشة. *اترك تليفونك مفتوحًا. احكِ معه.*

ـ ألو. ألو. من أنت؟

لكنَّ الخشخشة ظلَّت مستمرَّة إلى أن سُمع دويٌّ مزدوج. ثم حالة صمت سكن فيها التليفون نهائيًّا. فجأة، وكأنّه خرج من غبار الموت، في لعبة الموت التي لا تنتهي، عاد الصوت من جديد.

ـ أنا عدت لك، في انتظار أن يجهِّزوا طائرة أخرى من دون طيَّار.

تعرف أين سقطت القذيفة؟ أخبرك أيُّها العربيُ الأخيرُ والمهذَّبُ الذي سرق من سيف، حقّه، ووشى به لكي لا يصبح عضوًا في مخبره العربيُ ضدَّ العربيّ. حالةٌ من البؤس. قنبلتك الإنسانيَّة سقطت، في الجهة الجنوبيَّة الأكثر بؤسًا من السدِّ الأزرق، في مجمَّع من الخيام لآلاف الآرابيين البؤساء الذين شرَّدتهم الحروب. ستكون في قبضتنا، وسنعرف ما سنفعله بك.

ـ أوّلاً من أنت؟ لم تعرف الصوت الأجشّ، الأبحّ، المقهور.

ـ واااااووووو لا يُعقل. صاحبك سيف؟ حرام عليك.. أرعبتني. كدت أصدّق أنَّك إرهابيّ.

ـ إرهابيٌّ.. هههه. مَنْ يوزِّع النعوت على مَنْ؟

ـ سيف! هذا لعب خطير.

ـ ستعرف جدِّيَّتي عندما نحرق قاعدة اليهود والمسيحيِّين والمسلمين الكفرة. ستُحرقون فيها كالجرذان. نعرف كلّ شيء عنك. كم قبضت على قنبلتك الوسخة؟ تقتل أبناء جلدتك خدمة لأسيادك؟

ـ كلُّه كذب.

ـ أسمع الآن طائرة أخرى تُقلع من قاعدة الشؤم. هذه المرَّة أكبر. لا بدّ أن تكون طائرة فرتيف. الشبح. المتطوّرة. أتركك بخير مع نفسك أيّها اللاست أرابيك[1] العظيم.

ثم خفت الصوت نهائيًّا، وكأنّه كان يسترقّ السمع. اندهش لحاسَّة السمع القويَّة، لأنَّ الطائرة التي أقلعت من القاعدة كانت لها المواصفات نفسها التي ذكرها، وكأنّ شخصًا كان بعين المكان، يبعث له بالمعلومات التي يحتاج إليها.

---

(١) العربيّ الأخير.

ـ سأريحك. أنا هو الكوربو، إذا همَّك الأمر أن تعرف. صديقك في جامعة بنسلڤانيا الذي حُورب، لأنَّه كان مسلمًا فقط على الرَّغم من تفوُّقه في الرياضيّات. الكوربو. *صديقك الذي فضَّل أن يبيع حياته للتنظيم، كما تتصوَّر أنت وجماعتك. كان في صغره يقتل العصافير. ثم ذات يوم جلس بالقرب من مزبلة. دخل في عمق بيت مهجور وجاء بصغار قطَّة لم يمض على ولادتهم أكثر من يومين. ثم جلس وبدأ يلوي عنق الصغار واحدًا واحدًا، ويرميهم في المزبلة، ويخلطهم مع الفضلات المرميَّة حتى لا يظهروا. وكان ينتشي بذلك الفعل. وفي يوم من الأيَّام اصطاد عصفورًا ملوَّنًا، يسمُّونه المقنين أو الحسُّون، ظنَّه أصدقاؤه أنَّه سيكبِّره في البيت ويشتري له صندوقًا جميلاً أو شبّاكًا أصفر يربِّيه فيه، ويشتري له حبوبًا من سوق الطيور، ولكنَّهم فوجئوا به يكسر قنينة كانت في يده، وبقطعة حادَّة منها ذبحه بها وشواه.*

ـ أنت بعت نفسك للوحش الذي فيك وليس شيئًا آخر. لم تنفعك لا الدراسة ولا الرياضة للتخلُّص منه.

ـ وأنا أحرِّر أرضًا مقدَّسة من خبائث البشر، وهم من وسخها. اسأل نفسك فقط سؤالاً واحدًا: من أين جاؤوا؟ ماذا يفعلون عندنا؟ هل تعلم كم قتلوا في آرابيا منذ أن دخلوا إلى العراق؟ لم تكن تهمّني الحركات المتطرِّفة. زوجتي نسرين تعرفها؟ قتلوها في قصف جوّيٍّ وهي في عيادة طبِّيَّة في كراتشي، أثناء الولادة؟ شفت كيف كنت أعمل للطيور التي كنت أمزِّقها وهي صغيرة، أو أذبحها بقطعة زجاج، سيكون مصيرك مثلها. لم أُسمِّ الكوربو في الفراغ، يا قحبة الماريكان ومن جرى في فلكهم. ستسمع عنّي.

مرَّة أخرى، يرتسم على الشاشة. تمّ تحديد كلّ الإحداثيّات

والهدف أصبح في المرمى هذه المرّة.

- أنت لم تحارَب، لأنَّك كنت مسلمًا، وأنت تعرف ذلك جيِّدًا. نسرين كانت مسلمة وباكستانيَّة واستطاعت أن تنتمي إلى أحد مراكز الأبحاث الصيدلانيَّة. معدَّلك يا عزيزي كان مهمًّا، لكنَّه لم يكن كافيًا. القانون مجحف، لكن هذا هو. تخصُّص البحث النوويّ صعبٌ وشبه مستحيل، يحتاج إلى تفوُّق كلّيّ في الفيزياء والكيمياء والرياضيّات.

- لم يعد هذا مهمًّا اليوم. كلّ شيء أسامحك فيه، إلّا أن تخدمهم بقنبلة، أو تقتل بني جلدتك.. أتركك. طائرة الفرتيف شارفت على الوصول. هم يصنعون التكنولوجيا ونحن نصنع مضادّاتها... ههههه.

بقي صامتًا للحظة، ثم فجأة كأنّ التليفون رُمي في بركة مثلما تُرمى الحجرة. أدرك آدم من حاسّته البسيطة أنّ التليفون يكون قد رُمِي في عمق الماء لإبعاد مكان القصف أو للتمويه. سيف وهو يركض ويركض بكلّ قواه العضليَّة التي كانت تظهر من تحت التيشورت الأبيض والخفيف جرّاء العرق، لأنَّه كان ماهرًا في الجري. رآه ينبّه الناس للتخفّي لتفادي مخاطر قصف حلفاء *أميروبا*. تمنَّى فقط أن يقول له إنَّ قنبلة الجيب موجَّهة ضدّ الذين محقوا بلدانهم وسلخوا شعوبهم، والذين لا يرتدعون إلّا بالقوَّة ككلّ الفاشيّات.. لكنَّه انسحب ورمى تليفونه في عمق السدّ، ربَّما..

عندما ضغط على الشاشة من مكانه، يبحث عن كبار الإرهابيين وعن الكوربو تحديدًا، وجد كلَّ ما احتاجه من تفاصيل. كبَّر وجهه حتى بدت كلّ ملامحه نافرة وظاهرة. لم يكن في حاجة للتكبير أكثر ليكتشف ما خزَّنه في دماغه عن *الكوربو*، والتحقُّق أنَّه هو وليس غيره.

رأى ملامحه وزغب وجهه، لأنَّ لحيته لم تكن كثَّة؛ ثم رأى بشكل واضح الجرح القديم في جبهته. بقي حيًّا. جُرح لا ينساه، لأنَّه أصبح جزءًا من هويَّته بسبب المنافسة هو وصديقه على الوادي - من يذبح العصفور الوحيد! فجرحه بقطعة الزجاج لقنِّينة مكسورة كان أعدّها لذبح العصفور، لأنَّه دوره في الذبح الذي حاول صديقه أن يسرقه منه.

حاول عبثًا أن يغمض عينيه، لكنَّ كلمات الكوربو ظلَّت تطنّ في رأسه كالمطرقة: لاست *أرابيك*؟ تمنَّى لو يخرج لحظتها، ويركض بلا توقُّف في المدرَّج القديم الذي سيتمّ إغلاقه لإعادة تأهيله.

٦ ــ غيمة العقرب الأسود

البروتوكولات مثل المرأة الغيورة، تفرض سلطانها بغباء، ولا تتفهَّم أيَّة وضعيَّة خاصَّة.

سميث غوردن، في موقع العقرب الأسود للتجارب النوويَّة

ـ ١ ـ

ـ يوم مشهود. تمنَّينا لو سافرنا بالمروحيّات، لكنْ يبدو أنَّ جوّ البارحة العاصف ما تزال رماله في الفضاء.

قال سميث، بعد أن رجع بجسمه قليلاً إلى الوراء وشدَّ جيّدًا حزام السيّارة. أجاب آدم:

ـ ههههه... أكثر من عشرين سنة في الأعمال المخبريّة والظلمة، يجب أن تسفر عن شيء. نحن معًا، والسفر برفقتك مهمّ، ثم إنّنا طوال هذه المدّة لم نَرَك. المكان ليس بعيدًا جدًّا على ما يبدو. خلّينا نشوف آرابيا التي أصبحت اليوم خرابًا، وكانت ناسًا وبلدانًا وأقوامًا وشعوبًا. مكان لم يعد فيه إلّا العابرون والغربان وضباع *التنظيم*.

انطلقت سيّارات الهامر العسكريّة بسرعة مغادرة القلعة. عندما دخلت الطريق الرمليّ، صعد غبارها عاليًا، وغطّى عن وجوههم أيّ مسلك. كلّ الطريق والمساحات التي أصبحت غبارًا أصفر، تتّسع وتكبر، ممّا اضطرّهم في الكثير من الأحيان إلى التخفيف من السرعة، والحفاظ على المسافة الفاصلة، من دون أن يتركوا السيّارات التي

قبلهم تغيب عن بصرهم.

اختيار هذا اليوم تحديدًا لإجراء التجارب الميدانيَّة، لم يكن عبثيًا. فقد كان الجوّ معقولاً. الأرصاد الجوّيَّة أجمعت كلّها على تحسُّن الوضع الجوّيّ، مع تصاعد طفيف لوتيرة الرياح، وهو ما يناسب تجاربهم لمعرفة فاعليَّة الرياح على الغيمة النوويَّة. فهي تستطيع أن تظهر حركة الغمامة الثقيلة ودرجة تحوُّلها، وميلانها باتّجاه غير محسوب. أثناء التجربتين النوويَّتين المحدودتين *PBPu1* و*PBPp2*، يُفترض أن لا تتجاوز حركة ميلانها وانزياحها عن خطّها حدًّا مفترضًا معيَّنًا.

الأرضيَّة صلبة. تكون أحيانًا الحجارة المسنَّنة بارزة على سطح الأرض، ممَّا يهدّد عجلات الهامر رباعيَّة الدفع.

كانت تتمايل بين الصخور البركانيَّة الكثيرة التي حوَّل الزمن حممها إلى أشكال ميّتة. لم يكن في السيّارة إلَّا هو وسميث وميجر توني، في خلفيَّة السيّارة.

عندما التفت آدم، بدت له القلعة بعيدة مثل نقطة خوف معلَّقة في فراغ، حتى غابت نهائيًا.

السيّارة تصعد وتنزل. لا لغة. صمت مطبق. تأمّل الطبيعة الجافَّة التي كانت تلفّ المكان. تبدو في ظاهرها كأنْ لا حياة فيها. السائق عيناه شاخصتان مثبَّتتان على السيّارات العسكريَّة التي كانت تشقّ طريقها أمامه، في خلاء مقفر، بشكل واضح.

بعد أكثر من ساعتين، من السياقة الصعبة، بدأت تظهر قوافل الجمال المحمّلة بشيء تظهر عليها علامات الفقر، وخيط لا ينتهي من الناس يسيرون في إثرها، كأنّهم يقتفون خطواتها التي ستقودهم حتمًا إلى درب الماء والحياة.

تساءل آدم بحيرة.

أكيد سكّان آرابيا.

- هؤلاء أكيد سكّان *أمانيا* التي هي جزء من آرابيا الجنوبيَّة التي أكلتها الحروب وشرَّدت ناسها، وجاء الجفاف فحوَّل بقايا المدن إلى فراغ بلانهاية، حتى أصبحت المدن مسكنًا للثعابين والعقارب والحيَّات. لا أعتقد أنَّهم سيعودون. أينما ولَّيت وجهك واجهك سيل من سكّان جهة من جهات آرابيا. الأراضي كلُّها تمزَّقت، والبشر أيضًا. حتى *التنظيم* مع الزمن أصبح مثل الضبع الذي شبع من الموتى، يمرُّ أمامهم، ولا يأكلهم، من شدَّة أنَّهم تحوَّلوا إلى هياكل عظميَّة. حتى النساء اللواتي كان يسبيهنّ ويسرقهنّ، لم يعدنَ مغريات. مجرَّد هياكل عظميَّة، عليه إعالتها أوَّلاً حتى يصبحنَ مشرقات وسمينات قليلاً، وتتمكَّنَّ من الوقوف على أرجلهنّ حتى يصبحن صالحات للبيع والشراء والمقايضة!

- إلى أين يتَّجهون اليوم؟

- نحو نقاط الماء. أصبحت هجرتهم المفضَّلة هي طريق السدّ والوادي المتفرّع عنه. هذه المنطقة خزَّان مياه جوفيَّة، لكن من يسحبها؟ يحتاج الأمر إلى دولة قائمة بذاتها. بدون ذلك مستحيل!

عندما دخلت ظلال الجبل المقسوم إلى اثنين بسبب انجرافات وزلازل قديمة، عرف آدم أنَّ السيّارة تقطع طريقًا ضيِّقًا، موجودًا داخل تجويف بلا نور، اسمه *تجويف الموت*. كان مكانًا خطيرًا قبل تأمينه نهائيًّا. كثيرًا ما كان *التنظيم*، بالاستعانة بالقبائل المحلِّيَّة، يحاصر العابرين والقوافل العسكريَّة بغلق مدخل ومخرج التجويف، ويُبيدها عن آخرها، ويُسبي كلّ من تقع عليه أياديه. لكنْ بعد جهود كبيرة وتضحيات لا تُعدّ، أصبحت المنطقة كلُّها تحت سيطرة قوَّات التحالف، ولا أحد يقربها، إذ عُدَّت مناطق عسكريَّة شديدة الحساسيَّة والخطورة.

يبدو من بعيد رتل السيّارات العسكريّة كأنّه عرس. كلّ السيّارات متشابهة، لونها يتماهى مع صفرة الرمل. ركبٌ كان من ضمنه الكثير من أعضاء المخبر، وعسكريُّون من الأسطول البحريّ الرابض في البحر الأحمر ومضيق هرمز. يتّجهون نحو المكان المسمّى *العقرب الأسود*، وهو اسم التجربة النوويّة الأولى لقنبلة الجيب PBPu1 وPBPp2 الذي بُنيت فيه قرية تجريبيّة تتّسع للآلاف من السكّان، وأُثّثت بالأسِرّة الجديدة والأفرشة، التي وُضعت عليها كائنات بلاستيكيّة تشبه الآدميين، ولها قدر من المقاومة الجلديّة الشبيهة لمقاومة الإنسان. رُكّبت لها ثلاث طبقات من الجلود الرهيفة، التي تتحدّد من خلالها حروق الدرجة الأولى والثانية والثالثة.

هذه المرّة، سيكون الأمر مختلفًا، بسيطًا جدًّا، ولا يحتاج إلى تحضيرات كبيرة بالنسبة للسلاح النوويّ. لن تنقله الطائرات الضخمة التي عليها أن تقطع المسافات الطويلة قبل أن تُفرغ شحنةَ الموت على المركز المحدَّد، وقد تنحرف القنبلة عن مركز التنفيذ بأمتار كثيرة، وأحيانًا كيلومترات، لا يعني فيها الإنسان الشيء الكثير. ولا يهمّ إذا كان من وراء هذه الانحرافات، الآلاف من ضحايا الصدفة. سيتمّ نقل القنبلتين على متن طائرات بدون طيّار، ممّا يجعل مراقبتها شديدة الدقّة، ويمكن إنزالها في أيّ مكان بدون أضرار إذا اتّضح أيُّ خلل فيها. المساحات الإشعاعيّة محدودة، على الرّغم من أنَّ مفعولها سيكون قويًّا ومدمّرًا، ولا يترك أيّ حظّ للهدف المقصود. الطاقة الحراريّة نفسها، والشكل الفطريّ نفسه الذي يصعد عموديًّا قبل أن يتفرَّع في المساحة المحدَّدة له لينزل على المكان ويغطّيه ويمحوه نهائيًّا. القرية التجريبيّة ستبيّن بقوّة المدى الذي ستحدثه القنبلة في المكان.

كلّ شيء كان مجهّزًا، فقد قامت فرق العمل العسكريّة بما يتوجّب عليها فعله.

سُلِّمت للجميع ألبسة مضادَّة للإشعاع النوويّ. ثم تمّ ترتيبهم بحسب الرتب العسكريَّة، يتصدَّرها أميرال البحريَّة الماريشال أغوستينو ميير، مرفقًا بماريشال آخر من الفيدراليَّة الأوروبيَّة فرانتز غونتر، والجنرال كلارك أندرسن، وشخصيَّات عسكريَّة كثيرة. وفي خلفيَّة المنصَّة العلماء الذين اشتركوا في تجسيد المشروع مخبريًا وتصنيعيًا، وعلى رأسهم ويليام ديك وغيره.

انفصل سميث عن آدم وهو يضحك:

- هههه.. البروتوكولات مثل المرأة الغيورة، تفرض سلطانها، ولا تتفهَّم أيَّة وضعيَّة خاصَّة.

- لا تفكِّر في هذا. أقدِّر هذه الوضعيّات. أنت تغريني بأن أنتمي إلى النيفي[1] ولو في آخر العمر.. ههههه.

- لا أنصحك، ما زلتَ شابًا.. هههه، بالعودة سنتحدَّث قليلاً عمّا رأيناه، لأنّي بعدها سألتحق بالعمل الذي وُكِّلت بتنفيذه. إذا غبتُ طويلاً، فقد تركت لك شيئًا يخصُّك، سيُسلَّم لك في الوقت المناسب.

- أخبرني توني. لا مشكلة عزيزي. الآن سنسجِّل كلّ الملاحظات لنحسِّن من القنبلة، بحيث لا تصيب إلَّا الهدف المقصود. نريدها أن لا تخرج عمّا أردناها، ونُسكت بذلك أصحاب الحملات المغرضة.

الأهمّ أن نزور المكان بعد تجربتيْ *PBPu1* و*PBPp2* اليورانيوم والبلوتونيوم، وستشتغل مخابرنا على كلّ العيِّنات التي ينتجها القصف النوويّ المحدود. وسنرى الانحرافات الممكنة، عن النقطة الصفر - درجاته لتصحيحها.

فجأة، استعاد آدم شعارات ليتل بروز التي انفتحت الشاشة عليها

---

(١) Navy البحريّة الأميركيّة.

أيضًا صاحب فكرة استغلال الطائرة من دون طيّار لهذا الغرض. لأنَّ الطائرات الكبيرة لا تصلح لهذه القنابل الصغيرة. ويبدو أنّه سيصغّر القنبلة النوويّة حتى تتلاشى نهائيًا، هكذا يقول.

ـ ولِمَ لا، أجاب الأميرال. من حقِّ البشريَّة القادمة أن تعيش في عالم بلا حروب. عندما تزول كلّ أسبابها.

ثم تموقع الجميع، كلٌّ في مكانه المخصَّص له في انتظار بداية التجارب. عيونهم على المكبّرات وعلى الشاشات التي كانت تُظهر القرية الاصطناعيَّة التي ستتمّ التجارب عليها.

المخطَّط كان كالتالي، كما رُسم على الشاشة الكبيرة التي تمكّن الجميع في المنصَّة الشرفيَّة بمتابعة الحدث: تمرُّ الطائرة الأولى، من دون طيّار. حمراء. وهي طائرة الاستكشاف والإنذار، ترمي أوراق إنذار، ثم قنبلة حراريَّة خفيفة التأثير، ولكنَّها تعطي فكرة عمّا يمكن أن يحدث إذا لم يستسلموا. قنبلة الإنذار. صوتها يثير رعبًا في نفوس المحاصرين بسبب قوّة الانفجار. لكنَّ آثارها سرعان ما تزول، وهذا يمنح فرصة للأهداف بأن تُظهر حسن نيَّتها بالاستسلام، أمامها نصف ساعة بحيث يوضع الهدف تحت الرقابة. إذا ظهر أنّ الهدف لم يقدِّر الضرر الذي يمكن أن يلحقه بعد نصف ساعة، يُعطى الأمر للطائرة المحمّلة بـ قنبلة اليورانيوم PBPu1 البيضاء بلون الحديد، ثم للطائرة الصفراء ذات الخطوط الصفراء حتى لا تتماهى مع الرمال، والتي تحمل قنبلة البلوتونيوم PBPp2 وتستهدف النقاط الصفر المحدَّدة سلفًا. ثم تعود الطائرة الزرقاء للتصوير فقط، لأنَّها مجهَّزة بأكثر الأجهزة حساسيَّة، تُرسل الصور إلى قاعدة استقبال، وتقوم بتحليل النتائج الأوَّليَّة للقصف.

فجأة، سادت حالة صمت كبيرة عندما سُمع صوت الإنذار الحادّ الذي أُعلن عن بداية التجربة النوويَّة الأولى لقنبلتي PBPu1

باليورانيوم، وPBPp2 بالبلوتونيوم. بعدها بقليل، بالضبط بعد دقيقة و٥٩ ثانية من الإنذار، سُمع صوت طائرة يأتي من بعيد. تتبَّعها الجميع، كلٌّ بمنظاره القويّ المقرَّب. أو على الشاشة القريبة التي تصوّر من المكان عينه بكاميرا صغيرة منصوبة في أمكنة استراتيجيَّة حسَّاسة. لم تكن المسافة بعيدة عن الموقعيْن. مرَّت الطائرة الأولى، فوق الهدف الأوَّل، وألقت القنبلة الأولى التي أحدثت انفجارًا قويًّا عموديًّا على بُعد ٣٠٠ متر من الأرض مثل الرعد. القنبلة لا تقتل، ولكنَّها تصدر حرارة كبيرة. ثم أُلقيت بعدها قنبلة ثانية مشابهة، في نقطة أخرى. فأحدثت الهلع نفسه إذ سُمع في المنصَّة الشرقيَّة بقوَّة. لم تُشاهد إلَّا الأدخنة وهي تصعد بشكل عموديٍّ قبل أن تتلاشى نهائيًّا. أعلنت الشاشة القريبة أنَّ العدوّ لم يستسلم وانتهى وقت الانتظار، نمرُّ إلى المرحلة الثانية من برنامج الإتلاف النهائيّ للعدوّ، لأنَّه لا يُقدِّر ما ينتظره.

فجأة، شوهدت الطائرة الحديديَّة تسير بشكل موازٍ للطائرة الصفراء بخطوط حمراء تجعلها مرئيَّة ولا تتماهى مع الرمال، تطيران على ارتفاعين مختلفين قليلاً. الأولى باتِّجاه النقطة صفر A، والثانية باتّجاه نقطة صفر B. قامتا بدورات عديدة. عُرف أنُهما تمسحان المكان بالتصوير قبل القصف. ابتعدتا كثيرًا قبل أن تعودا من بعيد في الخطّ نفسه، بشكل متوازٍ متباعد. كانتا مثل الصاروخين. ألقت الأولى قنبلة اليورانيوم، وقبل أن تنفجر، كانت الثانية على بُعد مسافة واضحة، ألقت قنبلة البلوتونيوم الشديد الانفجار. ثم غاصتا في الأعماق قبل أن تأتي ثالثة عندما بدأت الغيمة تصعد عاليًا، على ارتفاع كبير بسرعة أقلّ، وبدأت تقوم بدورات حول الفقّاعتين للتصوير، قبل أن تبدأ الفقّاعتان البيضاء والصفراء في النزول شيئًا فشيئًا.

كلُّ الوجوه كانت معلَّقة على الشاشة التي كانت تسجِّل أمام

أعينهم قوّة الانفجارين، وكثافة الغيمة والإشعاعات والانزياحات عن مركز الهدف في النقطة الصفر A وB. قبل أن يصرخ جميع من كان في المنصّة: برافووووو. لقد كانت التجربة ناجحة وزاوية الانحراف قليلة جدًّا، تكاد لا تُذكر. حتى الغيمة لم تتّسع بأكثر ما حُدّد لها، على الرّغم من الرياح الخفيفة التي كانت تهبّ غربيّة على المكان.

ظلّ آدم يتأمّل الشاشة الزرقاء بكلّ أرقامها الكثيرة، ويحاول أن يقرأها ويسجّلها. ارتسمت على محيّاه كلّ علامات الرضى. لم يكن الأمر سهلاً. شعر في لحظة من اللحظات أنّه كان يحمل ثقلاً يتجاوز قدراته.

ركض سميث نحو آدم الذي نزلت عليه التهاني من كلّ الضبّاط وأصدقاء المخبر.

- هل رأيت يا عزيزي آد؟ قال سميث. غزالة ويمامة. كانتا دقيقتين إلى درجة لا يمكن تخيُّلها. كانت حساباتك أدقّ من حساباتي.

- أتمنّى أن يُسهم هذا في تنمية الدفاع عن النفس ضدّ المعتدي فقط، وليس ضدّ كلّ من يختلف عنّا. وإلّا ستفني البشريّة بعضها بعضًا. مدن وشعوب بأكملها ستزول من على الخارطة. ما تزال صور هيروشيما وناغازاكي ماثلتين أمام أعين كلّ الناس. لتكن PBPu1 وPBPp2 وسيلتيْ ردع. مهمّ جدًّا أن يدرس الناس المخاطر.

- ردع وهجوم. *التنظيم* قتل خيرة أبنائنا.

التفت آدم جهة المتكلّم الذي كان يقف وراءه. عرفهما. مستشارا ليتل بروز اللذان عوّضا ليتل بروز.

- وسرق بشر آرابيا كلّهم ورماهم نحو التيه والموت.

- طبعًا، يجب إنذار الساكنة بقنابل حراريّة غير إشعاعيّة لتدرك مخاطر ما ستتعرَّض له. إذا بقي الإنذار بلا جواب، تُطلق القنبلة النوويّة الصغيرة. تطبيقًا لقانون السنّ بالسنّ، *والبادي أظلم* الذي رفع شعاره

الماريشال ليتل بروز؟

ـ المشكلة الوحيدة هي تحديد من هو البادي أوَّلاً. كلّ المشكلة هناك يا عزيزي.

ـ أنت أميركيٌّ وتعرف من هو البادي.

قال المستشار الثاني.

ـ مشكلتي أنّي أعرفه، ولهذا وُجِب الحذر من كلّ شيء، بالخصوص عندما يتعلّق الأمر بشيء شديد الخطورة مثل النوويّ. ستقول لي ومن دفعك إلى هذا؟ بكلّ تأكيد ليست الحرب. المسألة أخلاقيَّة ومعقّدة لا أجد لها أيَّة أجوبة. خذ ترومان. المجنون من يتمنّى أن يكون في مكانه في تلك الفترة. أمامك بلدك المهدَّد من اليابان، وبحريَّتك وسفنك التي أُحرقت، وأنت تملك أفتك سلاح يمكن أن يغيِّر، ليس فقط مجرى الحرب، ولكن أيضًا مجرى الإنسانيَّة نفسها، ماذا كنت ستفعل في مكانه؟

ـ ما فعله تمامًا.

ـ سهل جدًّا هذا الكلام يا عزيزي. لو لم يكن معه ناس يفكِّرون لأطلقوا قنابلهم على مدن كثيرة، وأبادوا اليابان وشعبها نهائيًا. ربَّما إذا كانت تلك التجربة قد نفعت في مأساتها، فقد جعلت قيام الحروب صعبة في زماننا بين الكبار، وحسمت التطوُّرَ البشريَّ الحربيَّ، ولجمت اندفاعه. ماذا لو أطلق خروتشوف أو كينيدي الصاروخ الباليستيَ الأوَّل على سفينة الآخر؟ كنّا رأينا عالمًا يتهاوى قبل النهاية. لهذا نحتاج اليوم إلى أن نفكِّر ونفكِّر ونفكِّر.. حتى ونحن نملك ما ندافع به عن أنفسنا. ليست المسألة سهلة، وأعتقد أنّ الماريشال ليتل بروز هو سيِّد العارفين.

ـ نعم. سيِّد العارفين.

ـ هزّ الرجلان رأسيهما مثل دميتين غبيّتين.

ضحك سميث أيضًا من حركة الرجليْن، وسحب آدم نحو الفريق العلميّ والضبَّاط والجنرالات للتهنئة، قبل الافتراق. وقبل أن ينصبَّ المخبر على دراسة كلّ نتائج التجربتين عن قرب، واختبار الصور التي ستتمُّ قراءة كلّ تفاصيلها. لا بدَّ من تحليل ملايين الصور المخبريَّة التي التقطت عن قرب، إضافة إلى العيّنات الحيَّة من المكان نفسه.

عادت الطائرات الثلاث للتصوير فوق مكان التجارب النوويَّة بعد أن خفّ صعود الغيمة العموديّ، وبدأت في النزول التدريجيّ نحو القرية الاصطناعيَّة التي كانت في الأصل، قبل أن تُبنى في شكل بنايات موقَّتة للتجربة، عبارةً عن مكان أثريّ مهجور، كان يسكنه أعداء القلعة في الفترات القديمة. حاولوا أن يؤسِّسوا قلعة بديلة تمتدّ طوليًا في عمق الصحراء، ويحيط بها حائط سميك شُيِّد بالأحجار الكبيرة والمقاومة. وليس بعيدًا عنها، في المنطقة التي حُدِّدت بالنقطة B للتجارب النوويَّة، بُنيت قرية أخرى بالحائط الدفاعيّ نفسه، تربط بينهما من تحت الأرض أنفاقٌ كثيرة تساعد على التحرُّك والهرب وتمويه الأعداء، قبل أن تُهجَّر هذه القرى بعد أن خرَّبها جنود قلعة الغرب كما سمُّوها، في وقت سابق.

ـ عزيزي آد، كنتَ في حساباتك.

قال سميث، وهو يفتح باب الهامر أمام آدم ليركب.

ـ بحسب الشاشة، كان كلُّ شيء شديد الدقَّة.

ـ الكثير من الضبَّاط العسكريِّين يرون أنَّ قنبلة الإنذار زائدة، لأنَّها تمنح العدوَّ فرصة الهرب مع الناس، ممّا يضع الناس البسطاء تحت خطر التعرُّض للقصف النوويّ.

ـ بالمنظور العسكريّ أكيد. لكن بالمنظور الإنسانيّ لا. مشكلة العالِم أنّه لا يفكّر بشكل شموليّ يندمج فيه العسكريُّ والإنسانيُّ. نريد أن

نتيح فرصًا للسلام دائمًا قبل الإقدام على الموت. هذه هي الحرب الصغيرة، المحدودة المكان، لقتل الحرب الكبرى، حرب الإبادة البشريَّة. فرصة لمن ما تزال في قلبه رغبة في الحياة.

ـ على كلّ حال، عندكم أعمال كثيرة غدًا أو بعد غد. ستصلكم الصور والتقارير من خبراء الإشعاعات الذين يكونون قد بدأوا في عملهم. سيتوقَّف عليكم تحليلها كلّها بدقَّة وإرسال التقارير. أتمنّى فقط أن تُتاح لي فرصة أن أكون معكم على الرَّغم من المسؤوليَّة الشديدة، لأنَّ القلعة لم تعد بخير ونفكِّر في احتمال هجرها، لأنَّ مخاطرها أكثر من منافعها. الكثير من الأماكن التي كانت استراتيجيَّة لم تعد كذلك. الكثير من آبار النفط واليورانيوم التي كانت القلعة تشكِّل مظلَّة حمّالة لها من أيّ اعتداء إرهابيّ سافر، أصبحت خاضعة لنظام الرقابة الكلّيَّة لأسطول البحر الأحمر ومضيق هرمز. بينما المخاطر تزداد كلّ يوم أكثر على الآلاف من جنودنا وعلمائنا وموظَّفينا.

ـ حضورك ضروريٌّ ومهمٌّ يا سميث. ربَّما أفدتنا بما لا نعرفه.

ـ سنرى. الآن يجب أن نصبّ كلّ جهودنا على آثار القنبلتين. من هذه التجارب، نستخلص الحقائق العلميَّة التي يمكن تطويرها لننقص من المخاطر إلى أقصاها.

الجملة نفسها قالها ميجور في الوقت نفسه، الذي أردف ساخرًا:

ـ الأفكار الجميلة تتقاطع دائمًا.

أغلقت على أثرها أبواب السيَّارات، التي انطلقت في رتل جماعيّ متوجِّهة نحو القلعة.

لم يتذكَّر آدم الشيء الكثير، ولا حتى العمليَّة التجريبيَّة التي كانت ناجحة إلى حدّ كبير، سوى وجوه الآرابيين المحروقة من شدَّة لفح الصحارى، الذين يُعدُّون بالآلاف، وهم يتوغَّلون عميقًا في محرقة الرمال.

ـ ٢ ـ

مرَّت المروحيَّة العسكريَّة على انخفاض كبير. كان صوت محرِّكاتها قويًّا كأنَّه كان في رؤوسهم.

شعر آدم، الذي ذهبت عنه غفوته، ببعض الأمان. للفراغ سطوته. لا شيء يملأ الصحراء إلَّا الصمت المريب، الذي كلَّما توغَّل فيه الإنسان زاد عزلة وخوفًا.

رتل السيّارات يتقدَّم في سكينة كبيرة. لا شيء يُسمع إلَّا هدير المحرِّكات التي تعمِّق وحشة المكان. الغبار الذي كانت تخلِّفه العجلات يُنزل الظلمة الصفراء قبل أوانها. يتصاعد عاليًا لدرجة أن يُعمي كلّ المسالك. تساءل آدم: كيف يمكن لرماد أن يسكن هنا؟ وكيف لإيڤا أن تعبر هذا القفر بدون أن ينتابها خوف من كلِّ شيء يحيط بها؟

أوَّل ما يقطع المضمار يكون آدم سعيدًا، ويتحوَّل تعبه الجسديّ في النهاية إلى لحظة انتشاء. لكنَّه عندما ينتهي من كلّ شيء يقطع المدرَّج القديم كلَّه مشيًا، بعد أن يكون قد ارتاح على مدرَّجات

الملعب قليلاً، واسترجع بعض أنفاسه. بدون أن ينسى عادته المتأصّلة فيه، في كلّ مرَّة، ينحني لالتقاط شيء يثير انتباهه، قبل أن يجمع الكلّ في إناء فخَّاريٍّ موضوع على الطاولة، وُجد في الأصل للورود. في إحدى المرَّات، وجد حلقة ذهب، لا يعلم لمن! فكَّر في البداية أن يضعها ضمن مفقودات القلعة، في المكان الذي تُجمّع فيه الأشياء الضائعة، حتى يأتي صاحبها فيطلبها. لكنَّه، في النهاية، قرَّر أنَّها من موجوداته المميّزة والخاصَّة، فألحقها بإنائه الفخَّاريِّ.

كانت هناك واقفة تنتظر عودته. إيڤا. كانت تلبس الأحمر وعلى ظهرها معطف أبيض، وشعرها يسرح عاليًا بسبب الرياح الخفيفة التي هبَّت حاملة في إثرها كلّ ما عثرت عليه في طريقها. تنتظره بشغف كان يرتسم في عينيها.

عندما اقترب منها، نزع السمَّاعتين من أذنيه. حيّاها.

نظرت إلى وجهه وصدره الذي امتلأ عرقًا، ثم قالت ضاحكة:

ـ عندك حاسَّة ذئب. يتحسَّس الأشياء قبل حدوثها.

ـ بالضبط. لا شيء يجذبني نحو رجل مثل عرقه. ليس كلّ الرجال طبعًا. من أحبّ. كانت أمّي تقول لي دائمًا إنّ لي نزعات حيوانيّة خطيرة.

ـ لا أعرف يا إيڤا كيف أشكركم. جهودكم كانت كبيرة. حتى الحقّ في الكتابة، منحه لي جهازكم الذي أعطاني حياة أخرى، إذ لم أعد مجبرًا على الكتابة واستعمال أصابعي. كلامي يكفي ليكتب بنفسه كلّ ما أقوله له.

ـ ولكنَّك لا تكتب.

ـ بلى.. لأنَّ لي جهازًا يسمعني ويسجّل كلّ توتُّراتي. كدت أحسب أنّي سجين أو مقيم كما يُسمّون هنا، أو مجرمًا. لدرجة أن بدأت أسأل نفسي إذا لم أكن إرهابيًّا، ممَّن وضعوا القنابل في المدارس

والميتروهات واغتالوا المثقَّفين والعلماء، فجَّروا البرجين التوأمين قبل ثمانين سنة تقريبًا.

ـ الآن.. أنت أكثر حرِّيَّة، ومن حقّك أن تفكِّر في عالم آخر.

ـ لا أعرف. طبعًا أن أخرج من هنا. أين سأذهب إذا اشتهيت أن أزور والدي الذي توفِّي دون أن أراه؟ كلُّ بلدان آرابيا التي كانت قائمة اندثرت نهائيًّا. حتى بعضها الذي كانت له قيمة بنفطه وماله وتربته، لم يعد موجودًا، أو لنقل تمزَّق إلى قطع صغيرة تديرها قبائل ومجموعات مشتركة، وأقلّيّات طائفيَّة ولغويَّة وعرقيَّة؟ لمن ينتمي الذي أصبح بلا هويَّة؟ أنا اليوم لا هويَّة لي، وربَّما لا وجود لي، سوى أنّي أعرف أنّي من آرابيا، بلا أرض محدَّدة، ينتظر أن يوضع مثل الهنود الحمر في محتشد عامّ، مساحاته فيه محسوبة.

ـ الدكتاتوريّات هي من وضعه فيها.

ـ نعم. الدكتاتوريّات نفَّذت ما كان عليها تنفيذه، ويوم صدَّقت أنَّ لها دولة، في أوَّل هزَّة، أُعيدت إلى بدائيّتها الأولى. نحن في عالم شديد الغرابة. عندما قام الآرابيُّون بثورتهم كبقيَّة الشعوب قتلوا أنفسهم أوَّلاً، وغرسوا السكاكين في اللحم الحيّ من أجسادهم، ثم أكلوا رؤوس بلدانهم وبعدها خلقوا فراغًا ظنُّوه هو الديموقراطيَّة، ويوم استيقظوا وجدوا أنفسهم، مجموعات يقتلها العطش والصحارى والثعابين، كالعمران الذي شُيّد على الرمال، وفي ثانية واحدة انهار كلّ شيء. في المرَّة الماضية عندما أراد مالكو الماء أن يسدُّوا قنواته، على بقايا الآرابيين، مات الآلاف عطشًا ورفسًا وتدافعًا للوصول إلى الآبار المسيَّجة. ماذا بقي اليوم من عمران الأوهام القديمة؟ لا شيء. الكلّ ذاب كمدن الريح.

صمت يومها قليلاً، وكأنّه أدرك أنّه ذهب بعيدًا في تصوُّراته. لكنّه

سمع الماريشال ليتل بروز يتحرّك في دماغه ويطمئنه: *ليس ممنوعًا يا صديقي أن تفكّر، ولكن ممنوع أن تفكّر بشكل مخالف فقط. الباقي أنت حرّ، وفي مجتمع حرّ، أو لنقل في مساحة لك فيها مطلق الحرّيّة. الخطر ليس التفكير، ولكن في التفكير المختلف الذي يقتل النظام.*

فجأة اهتزّت السيّارة بعنف شديد عندما اصطدمت بصخرة بركانيّة كبيرة.

ـ يبدو أنّك غفوت.

ـ كنت مع إيفا. تمنّيت أن نلتقي بها.

ـ صعب يا عزيزي. هي في منطقة السدّ. المسافة بعيدة نسبيًّا، ويقتضي الأمر إجراءات أمنيّة وترتيبات جديدة. أنت تعرف، المنطقة كلّها ليست بخير. على أيّ حال، وجودها بالسدّ أفضل لها. المنطقة مؤمّنة بشكل جيّد. ظننتك تفكّر في منجزنا المشترك الذي سيغيّر العالم.

ـ سعيد به طبعًا، لكنّي أشعر أحيانًا أنّنا مثل ترومان، نريد ولا نريد. حالة فيها الكثير من الصعوبات.

ـ أنت تعرف يا آدم أنّ الخراب الذي لحق بالإنسانيّة سبّبه امتلاك سلاح الدمار الشامل، وأنت كنت في عمق المعمعة، وتعرف لماذا ناضلنا جميعًا لتدميره في كلّ بلدان العالم بلا استثناء، كما دُمّر سابقًا في العراق وليبيا وسوريا والجزائر، التي ردعت نفسها بنفسها قبل فوات الأوان.

ـ أحيانًا، أعود إلى الوضع البشريّ وأطماعه. وأرى أنّ الذي حمى العالم من أيّة مغامرة قاسية هو أنّ العالم متساو في الرعب، بمعنى أنّ العالم كلّه يعترف أنّه مجرم، ولكنْ كلٌّ بحسب درجة القوّة التي يملكها. ما الذي جعل *أزاريا* تتمتّع بكلّ هذه الحصانة ولم يطبّق القانون إلّا على آرابيا؟ يومها كان عدد سكّان الأولى ٦ ملايين بينما

سكّان الثانية ٣٠٠ مليون، نصفهم مات اليوم في الحروب والعزلة والخراب. هل هناك منطق؟ يكاد مخّي ينفجر. هذا ما يؤدّي إلى الرغبة في التساوي النوويّ. داخل هذه الأرض ملغّم باللّامنطق واللّاعقل، وأحيانًا حتى باللّاجدوى.

ـ معك حقّ. لو كان فيه منطق لما ركضنا نحو القنبلة، ولقضينا الوقت كلّه في إسعاد الإنسان. لكن كيف نحمي أنفسنا والإنسان من سطوة *التنظيم* الذي يتمدّد كلّ يوم أكثر.

ـ ما هو الحقّ يا عزيزي سميث، وأين يتخفّى؟ أنا أبحث عنه وأُسعد به إذا عثرت عليه. في هذا العالم الذي يحكمه الأقوى، وهو من يحدّد صلاحيّة الشيء من عدمها، ما دورنا نحن؟ ستقول لي إنَّ العالم كان دائمًا هكذا. يحكمه دومًا المنطق الأمبراطوري. الخوف هنا. كلّ المجتمعات بمجرّد انتقالها إلى أقاصي الهيمنة انتحرت. انظر من حولك الحضارات، الحضارات الإفريقيّة البائدة، الأميركيّة اللاتينيّة، الفارسيّة، الرومانيّة، الإسلاميّة، الغربيّة والأميركيّة تحديدًا. الذي يتهدّد أميركا قوّتها الزائدة. القويّ يُقْدِم على المغامرة أكثر، فيصبح غير عادل في النهاية. القويّ يستمرّ عندما يكون عادلاً.

ـ الحقّ لا ينزل من السماء يا آدم ولا يُمنح، لكنّه يُبنى في كلّ ثانية، مشكلته الأبديّة والوحيدة هي أنّه يبدّد أيضًا في كلّ ثانية. وكلّ عملنا أن نواجه هذا التبدّد بإعادة بنائه المستمرّة.

ـ بالضبط، هذا هو الأهمّ. يبدّدون ونبني، *يبدّدون ونبني*! من ينتصر في النهاية؟

ثم مدَّ رأسه قليلاً إلى الوراء.

اهتزاز السيّارة المتواتر منحه الرغبة في الاستكانة أكثر..

ما هو الحقّ؟ هي حرب حقيقيّة. خسرت أصدقاء كثيرين في

الحرب السرّيّة القاتلة، وخسرت البشريّة أناسًا قبلنا للغرض نفسه. كلّهم قُتلوا، كلٌّ واحد بطريقة. أغلبهم تكوّنوا في أميركا أو في أوروبا. أكاد أفقد عقلي ومخّي. لا بدّ أن يغيّر العالم طريقه. هو تدمير منظّم وليس صدفة أبدًا. لا يمكن للصدفة الغريبة أن تكون بكلّ هذه الدقّة. ما معنى أن تُمحى المادّة الرماديّة كلّها في آرابيا؟ في الجرائم يطرح دائمًا السؤال الخطير: قل لي من المستفيد، أقل لك من ارتكب الجريمة. إبادة وراءها عقل يفكّر ليس في الحاضر ولكنْ في القادم أيضًا. أحفظ عن ظهر قلب تلك المقالة التي قرأتها في ذو نيويوركر ماغازين، أشعرتني بالبرد في ظهري. أحفظها عن ظهر قلب[1].

---

(١) كتب ميكائيل كولنز Michael Collins الذي اغتيل في ظروف غامضة، في ذو نيو يوركر The New Yorker: كلُّهم مرُّوا عبر طاحونة الموت شادو، لأنَّ أزاريا قرَّرت أن تبقى الدولة النوويّة الوحيدة في المنطقة. عدد لا يُحصى من نوويّ آرابيا، يبيّن ملامس جرائمها وآثارها. واحد من هؤلاء لا على التعيين، د. ساري رضوان رضا، دكتور في الفيزياء النوويّة، كان يشتغل في مشروع سرّي في بلده، اغتيل في الجزائر العاصمة. من المؤكّد أنَّ هناك سلسلة من التواطؤات الداخليّة أدّت إلى ارتكاب الجريمة براحة كاملة، ومُسحت في الإرهاب الذي كان في عزّ تجلّيه. هناك فِرَق بكاملها تخصَّصت في البحث والتقصّي عن البرامج العلميّة العراقيّة، فدمّرت كمّيّات كبيرة من الملفّات والبحوث المهمّة والمختبرات ناهيك عن تدمير كمّيّات هائلة من الموادّ الأوّليّة والمعدّات الصناعيّة والمخبريّة. صرَّح قبل فترة، كبير المفتّشين هانز بلكس، واحد من ضبّاط المخابرات الأميركيّة ورئيس فرق التفتيش العاملة تحت مظلّة الأمم المتّحدة: *حتى ولو دمّرنا كلّ شيء، فنحن أمام جيش من العلماء ما عدا الخبراء والمهندسين العاملين في المجال النوويّ والبيولوجيّ والهندسة الكيميائيّة والفيزياء. هؤلاء يشكّلون الخطر الحقيقيّ على السلام*. بذلك صدر القرار ١٤٤١ الصادر من مجلس الأمن على ضرورة استجواب كافّة العلماء والباحثين العراقيين البالغ عددهم ٣٥٠٠. وأرفق القرار بأسماء وعناوين العلماء والخبراء والأساتذة العاملين في المجالات والبحوث والدراسات العمليّة لكافّة الاختصاصات. ومع دخول العراق، تمّت السيطرة على

ـ مستغرب يا سميث كيف يستطيع العالم أن يكون بكلّ هذا العجز في

= الوثائق السرّيّة. وتمّ تفكيك كلّ الشركات التي تعمل في عمليّات التصنيع العسكريّ. أين سينا الواقعة في الشمال الشرقيّ من مدينة بغداد، وشركة المثنى والرشيد و٧ نيسان، والبرموك والقعقاع، ومنشأة حطّين، الواقعة في الجنوب الغربيّ من بغداد، وكلّ الشركات العاملة في الحوامض الكيماويّة، دمّرت وفكّكت كلّ معدّاتها. محمّد البرادعي مدير الوكالة الدوليّة للطاقة في ذلك الوقت، أكّد رسميًا على سرقة المعدّات النوويّة والصناعيّة العراقيّة، ونُقلت إلى خارج العراق للاستفادة منها في المفاعلات الأجنبيّة. وتمّ تدريب فرق خاصّة للاغتيالات وتصفية العلماء سُمّيت الظلّ أو *شادو*. بدأت بتصفية أبرز العقول العاملة في مجال الهندسة الكيماويّة والفيزياء والاختصاصات والبحوث المتقدّمة. في ١٦ ـ ٠٣ ـ ٢٠٠٤ اغتيل الدكتور غائب الهيتي أبرز علماء العراق، والدكتور مجيد حسين علي عالم الفيزياء النوويّة والطرد الذرّي وهو أساس علم الذرّة، والعالم مهنّد الدليمي من كلّيّة جامعة التكنولوجيّة والدكتور شاكر الخفاجي مدير عام الجهاز المركزيّ للتفتيش والسيطرة النوعيّة. باستثناء الذين تمّ التحقيق معهم وتعذيبهم. في معسكر كوبر في مطار بغداد وقصر السجود في المنطقة الخضراء، ٧٣٠ عالم وأكاديمي عراقي. وكان قبل هؤلاء جميعًا جعفر ضياء جعفر صاحب مشروع القنبلة النوويّة العراقيّة، والعالم الفيزيائي الدكتور سلمان رشيد سلمان اللامي الذي مات في جنيف بمرض غامض في ١٩٨١، وهو العام الذي ضُرب فيه مفاعل تمّوز: والدكتور زياد حنّا الحدّاد مهندس مفاعلات الماء الثقيل الذي هرب إلى روسيا. بذلك تحقّق الوعيد الذي أطلقه جيمس بيكر في وجه طارق عزيز، في جنيف في عام ١٩٩٩: إذا لم تتعاونوا معنا، نُعِدْكم إلى عصور ما قبل القرون الوسطى. آخر دفعة هم العلماء الإيرانيُّون الذين يرجّح أنّ *شادو* هي التي قتلتهم. شهرة بوراني كانت بجانب زوجها داريوش رضايي. يوم ٢٣ يوليو ٢٠١١، ومعهما ابنتهما. سمعت طلقًا جافًا. ظنّته يأتي من بعيد ومن الخارج، لكنّها انتبهت فجأة للدرّاجة الناريّة التي أطلقت عليه النار ثم، طارت في الطرقات. كان عمره أربعين سنة فقط. خلال السنة التي أصبح فيها داريوش جزءًا من البرنامج النوويّ الإيراني تلقّى العديد من التهديدات. ومغريات للعمل خارج وطنه. ومسعود علي محمّدي، اغتيل عام ٢٠١٠، إثر انفجار بالقرب من منزله في العاصمة طهران. اغتاله علي مجيد جمالي الذي اعترف بأنّه تلقّى تدريبًا على يد الموساد. أمّا مجيد شهرياري، أحد المسؤولين عن المشاريع الكبرى في برنامج

تطبيق القانون؟ أزاريا تملك حقيقة مفاعلات نوويَّة وأكثر من ٢٠٠ رأس نووي، ولا أحد يحاسبها؟

ـ أزاريا لا تشذّ عن القاعدة. أنت تعرف يا آدم أنّ الضعيف عدديًا يحصّن نفسه بالقوّة فقط؟

ـ وهل هذا يكفي لتحوط نفسك بترسانة عسكريَّة، وتحرم الآخرين من الحدّ الأدنى؟

ـ الأقلّيَّة تشعر دومًا بالخطر حتى ولو لم يكن موجودًا. تستبق.

ـ قتل العلماء أيضًا استباق؟

ـ قد يكون. لكنَّه أمر مرفوض. لم تقل لي كيف كان اللقاء مع أمايا؟

ـ تكلَّمنا باختصار. كان جميلاً ولكنْ مبتورًا. . للأسف. المهمّ يا عزيزي، أنّك قمت بما وعدتَ به. ننتهي من حيثيّات هذا المشروع

= طهران النووي، فقد قُتل في تفجير في اليوم الذي استهدف فيه رئيس هيئة الطاقة الذرّيّة فريدون عبّاسي الذي نجا بأعجوبة. التفجير الثاني أودى بحياة شهرياري. اليد نفسها اغتالت مصطفى حمدي روشن. كان شابًا لمعة من ٣٢ سنة. شديد الذكاء. من العلماء الذين يغيّرون كلّ شيء بذكائهم الخارق. هو أحد المسؤولين عن موقع نتانز لتخصيب اليورانيوم بالقرب من أصفهان. لقد ألصق مجهولون عبوة ناسفة في محرّك سيّارته. كان في لوائح عقوبات مجلس الأمن الدولي والتقى شخصيًا بمفتّشي الوكالة الدوليّة للطاقة الذرّيّة. حدّثهم طويلاً عن فكرة المشروع النوويّ السلميّ، ثم سألهم لماذا لم يحرّكوا ساكنًا تجاه أزاريا؟ عندما ألقي القبض على العميل الأميركي ماتي فالوك، اعترف كيف كان يرتاد الجامعات والكلّيّات المتخصّصة بالهندسة والفيزياء النوويّة التي تُدرّس في جامعات شريف وأمير كبير، وشهيد بهشتي، وجامعات شيراز وأصفهان، حيث بها تخصُصات فرعيّة دقيقة وشديدة الأهمّيّة الاستراتيجيّة، في هندسة المفاعلات النوويّة. هذا جزء من كثير لتوقف أزاريا عند حدّها، وتستجيب للوكالة النوويّة بفتح أبواب ديمونة السرّيّة وغيرها؟ ماذا لو أنشأت آرابيا *شادو* يقوم بالعمل الإجراميّ نفسه ضدّ نوويّي أزاريا؟

وندرس النتائج وصور التجربة، وأسافر بعدها نحو أمايا.

ارتسمت ابتسامة فجائيَّة على محيّا سميث.

ـ وإيڤا المسكينة التي سرقت قلبها؟

ـ إيڤا كريستوفر، حبيبتي. امرأة كبيرة في قلبي. صديقة جميلة. ستعود حتمًا إلى السويد عند ابنيها كيتي وأندرسن، وربَّما عادت إلى زوجها لارسن. مصيرها العائليّ مثل مصيري معلّق في الهواء.

ـ لا أعتقد. حبّها لك منحها فرصة أن تستمرّ هنا. طوال خمس سنوات من اليأس والأمل، ظللتَ أنت قضيّتها الأولى والأخيرة يا آدم.

ـ مشكلتي أنّي أحاول أن أقنع نفسي بأنَّ أمايا ما تزال كما تصوَّرتها، على الرَّغم من انفصالنا الهادئ، لكنّي فوجئت بها تغيَّرت كلّيًا. تصوَّر حتى موقفها من النوويّ تغيَّر، وهي الطبيبة في المجال الإشعاعي، والصارمة أيضًا. تغيَّر ١٨٠، درجة حتى إنّي أصبحت عاجزًا عن فهمها. في الأخير، تركتني معلَّقًا في الفراغ، وتحوَّلت إلى دمية غبيَّة، وفرغت عيناها من أيّة حياة. هي نفسها المرأة التي نصحتني باستماتة بالبقاء في بنسلڤانيا، وأنَّها هي من سيرافق والدي في مستشفى فال دو غراس في باريس. منذ أيّام أرى الكابوس نفسه. حتى البارحة أيضًا. رأيتني التقينا في نُزُلٍ صغير على ساحل مهجور يشبه أحد سواحل أرابيا الغربيَّة. دخلته بجواز أميركي مزوّر غير جوازي، لا أدري لماذا! كنت في الفراش، أتأمَّل عينيْ أمايا، وأصغي لأنين المطر في الخارج، عندما سقط الباب فجأة. رموا أمايا من الطابق العاشر حيث كنّا نُقيم، بينما أخرجوني عاريًا من سريري. ترجَّيتهم أن ألبس لباسي، لكنَّهم رفضوا. قالوا لا وقت لدينا. لفُّوني في إزار زهريّ كانت تحبّه أمايا، لكنّي فوجئت به يقطر دمًا. واقتادوني إلى مكان كلّ ألوانه خضراء وحقنوني، ونمت لأستيقظ شبه دائخ. طلبت ماء، قال الذي كانت

عيناه مثل عينيْ أحد الزواحف: يجب أن تتعلّم أن تسقط الماء من حساباتك وتقاوم العطش، لأنّنا في مكان لا ماء فيه. قبل أن أقوم متعبًا ومرهقًا جدًّا، بحلق ناشف كلّيًّا.

كان سميث مصغيًا بانتباه، ومن حين لآخر يلتفت نحو ميجور توني النائم كما في المجيء. كان متعبًا من شدَّة تحرُّكاته التنسيقيَّة الكثيرة بين المَخبر والوفد العسكريّ القادم من البحر الأحمر ومضيق هرمز ومكتب الماريشال. كان موعودًا بعشرة أيَّام عطلة مستحقَّة، لكن يبدو أنّ الأمر أصبح صعبًا بعد تدهور الوضع الأمني المحيط بالقلعة. لا يمكنه أن يترك أيّ شيء للصدفة.

مالت المروحيَّة جهة اليمين، قريبًا من رأس الرتل الذي توقَّف فجأة.

ظلَّت تدور وتدور في المكان نفسه، على ارتفاع منخفض، قبل أن تجد لها مكانًا تنزل فيه، وينزل منها عشرة جنود مدجَّجين بالسلاح، وتوجَّهوا إلى الفجوة الواقعة بين الجبلين التي يُفترض أن تكون تحت الحراسة الدقيقة. نزل سميث أيضًا متحسِّسًا سلاحه، وطلب من آدم أن يبقى في مكانه حتى لا يكون الأمر مجرَّد مصيدة. وأمر ميجر توني الذي استفاق مذعورًا من نومه الثقيل، أن يغادر السيّارة ويبقى بجانبها لحراستها، من يدري؟

كانت في المكان الذي نزلت فيه المروحيَّة، سيّارة هامر، محروقة وبها العديد من غالونات البنزين الحديديَّة، التي صُبّت عليها.

ثلاث جثث ملقاة على الأرض، متفحّمة كلّيًّا تقريبًا. وبالقرب منها كتابة كبيرة:

ها هو كبيركم الذي علّمكم السحر فرانكي دوفوكو، الذي يحبّ المجتمع البدائيّ، فأعطيناه ما احتاجه من نار؛ والفونسو جيروم الذي

لم يجد مكانًا ينشر فيه مسيحيَّته إلَّا هذه الصحراء الطاهرة، فكافأناه بما استحقّ؛ وميمون الذي باع نفسه للشيطان، طهَّرنا خيانته بالنار. هذه إجابة عن التجارب النوويَّة التي تهيّئونها لقتلنا وقتل الإسلام. لن نهزمكم وإنَّما الله هو من سيريكم برهانه. التوقيع: **الكوربو. التنظيم.**

ليس بعيدًا عنها، ثلاث جثث أخرى، قتيلان لم يمرّ على قتلهما أكثر من ثلاث ساعات، يتدلَّيان على شجرة لارغن الوحيدة في المكان. كانا بدون هويَّة، وهما من الرجال الملثَّمين الذين يدلُّون على الطريق عادة. بالقرب منهما امرأة مخوزقة بسيخ ثقيل، دخل من فرجها وخرج من حنجرتها. كتبوا على صدرها المنزوع الثديين وبطنها المفتوح الذي نُزع رحمه:

هذه قحبتكم، الجاسوسة، الباحثة في الطبيعة سوزان كليبر نُعيدها إليكم كاملة غير منقوصة إلَّا من ثدييها لكي لا ترضع لقيطًا يأتي هنا ليعيث فسادًا في أرضنا، ورحمها لكي لا يحبل بخنزير يدخل البلاد وكأنّها زريبة، ولا تلد مرَّة أخرى قاتلًا جديدًا. نالت جزاءها الذي استحقّته.

التوقيع: **الكوربو. التنظيم.**

نزلت مروحيَّة الإسعاف الحمراء التي كان قد تمّ إخطارها. أخذت الضحايا، ثم طارت بسرعة.

عندما أخبره بتفاصيل الحادثة، شعر آدم بحقد يكبر في داخله، ولأوَّل مرَّة لم يندم على التجارب النوويَّة.

- هل يُعقل أن يُقتل علماء لا يملكون إلَّا أدواتهم البسيطة؟ هل يُعقل أن يُحرق ناس ذهبوا نحو بشر مثلهم في سقف المعاناة، من تلقاء أنفسهم؟ لأوَّل مرَّة أشعر بأنّي لم أخطئ في خياراتي.

- يا عزيزي. . ربَّما هذا ما تراه الآن، لكنِّي أعيش فيه. دوَّامة من

الموت لا تنجب في النهاية إلّا الموت والانتقام الذي لا ينتهي.

شعر آدم بألم في قلبه. تذكّر كيف التقى بفرانكي دو فوكو أوّل مرّة، وكيف نهاه عن مواصلة الأبحاث النوويّة، لأنّ هناك شعوبًا ستنقرض وهي مقدمة على إنهاء نفسها بنفسها، وترجّاه أن يوقف العمل في المشروع، لأنّ الوضع خطير فلا يزيدوه ثقلاً ينهكه ويدمّره. ووعده بأنّه سيطمئن سكّان السدّ والصحراء الذين يتخوّفون من خراب أكيد.

لم يتحرّك الرتل إلّا عندما طارت المروحيّة العسكريّة، وعادت في دوراتها المعتادة فوق السيّارات التي كانت تعبر في صمت.. مثل الثعبان، الصحراء التي لا تنتهي.

ـ ٣ ـ

رأى دعوة الوداع الأخير على الشاشة في غرفته في شكل خبر، في الحاشية الزرقاء التحتيّة:

سيتمّ اليوم توديع علماء البعثة دلتا المكوّنة من ستّة علماء، الذين جاؤوا فقط للسهر على وضعيّة سكّان آرابيا التائهين، ومراقبة الأوضاع التي يعيشون فيها، فدفعوا ثمن وقوفهم بجانب الحقّ غاليًا، وبأبشع طريقة. علامة التنظيم أصبحت اليوم معروفة، لهذا وُجبت محاربته بلا رحمة وبكلّ الوسائل المتاحة. وكلّ من يدافع عن حقوق الإنسان ليرى أوّلاً ما حدث. لمن أراد توديعهم في القلعة وسمحت ظروفه العمليّة، أن يلتحق بالمدرّج القديم على الساعة التاسعة صباحًا.

عندما سُجّيت الأجساد الستّة المغطّاة بعلميْ أميركا وأميروبا، في المدرّج القديم الذي أُغلق نهائيًا لأسباب أمنيّة، ولم يعد مكانًا للرياضة بعد أن تمّت إعادة تأهيله نهائيًا، وقف سبعة جنود من جنود البحريّة وأطلقوا سبعة عيارات في السماء، تكريمًا للضحايا. بعدها عزفت الفرقة النحاسيّة نشيد *أميروبا المزدوج*. كان على رأس الحضور ممثّل

من الأسطول البحري ومسؤول عن فيدراليّات الدول الأوروبيَّة، الضحايا لم يكونوا عسكريِّين، لكن اغتيالهم وقع في منطقة عسكريَّة محروسة ومؤمّنة. رئيس البعثة فرانكي دو فوكو، كان يتعاون مع بعض ضبّاط الربط المتخصّصين في الإنثروبولوجيا والإثنوغرافيا، لتسهيل حياة السكّان الأصليين في المنطقة، ويسلِّم لهم بعض نتائجه العلميَّة لتحسين الأوضاع البيئيَّة والحياتيَّة للناس.

بدأت شفرات المروحيَّة الضخمة تدور حتى أصبحت غير مرئيَّة. حمل فيلق عسكريّ كلّ التوابيت على ظهره، أربعة، أربعة، في شكل مستقيم، واتّجه بها نحو عمق المروحيَّة. ثم أغلقت كلّ أبوابها. التحق بهم مبعوثا الأسطول.

بعد لحظات، طارت بشكل مائل قليلاً، قبل أن تصعد عاليًا ويستقيم طريقها.

تابع آدم المروحيَّة حتى غابت في عمق سماء كانت بعيدة أكثر من العادة، وبلا لون.

ثم توجَّه نحو مكتبه ومنه إلى المخبر.

المخبر كلُّه كان مجنَّدًا للبحث في كلّ التفاصيل للتخفيف من آثار القنبلتين إلى أقصى حدّ ممكن.

انتظروا أربعة أيَّام متتالية قبل أن تصلهم النتائج النهائيَّة لمعاينة مكان انفجار القنبلتين والآثار التي خلّفتاها. شيء في أعماق آدم لم يكن على ما يرام منذ التفجيرين، اللذين على الرَّغم من نجاحهما الكبير، لم يخلّفا فيه الانطباع الذي تمنَّاه. أن تنجح تجربة ما شيء، وأن تستيقظ المخاوف الكثيرة، شيء آخر! لهذا ظلَّ ينتظر بشغف نتائج التحاليل والقياسات الفيزيائيَّة والآثار الكيميائيَّة للانفجارين، وحركة الغيمة النوويَّة، والإشعاعات، حتى ولو كانت محدودة. لقد شعر بأنَّ

الزمن كان يطول كثيرًا كلّما تأخَّر وصول الوثائق والصور والمعاينات الحيَّة.

عندما انكفأ آدم على الصور الأخيرة والتحاليل والحسابات التي وصلته، كانت بعض الحيرة قد ارتسمت على وجهه. لكنَّه حاول قدر المستطاع أن لا يظهرها. ثلاث ملاحظات حول الانفجار، أوَّلاً أنَّ PBPp2 كانت عنيفة بدرجة أكثر ممَّا توقَّعه وحسبه؛ ثانيًا، إشعاعها تخطَّى العتبة المقبولة، وتجاوز الحدّ الأقصى الذي هو قطر بكيلومتر واحد؛ ثالثًا، أنَّ الأجساد التي كان يفترض أن يموت فيها حرقًا، القريبون من المركز فقط، قد تمزَّقت كلِّيًا، حتى تلك التي وضعت في مكان بعيد خارج احتمال الكيلومتر.

سأل ميجر، وهو يريد أن يستشيره كعسكري:

- ماذا ترى يا عزيزي توني، وأنت تقرأ كلّ هذه البيانات العسكريَّة من خبراء من المكان عينه؟
- جيِّد أنَّهم وثقوا وبعثوها لنا، لأنَّ وثائق مثل هذه تُخفى وتظلّ سرِّيَّة. ويفعل بعدها المهندسون العسكريُّون ما يريدون ميدانيًّا.
- يعرفون جيِّدًا أنّنا حضرنا التجربة، ويجب أن نعرف النتائج لنستخلص الحقائق التي لا يجب أن تتسبّب في ضرر لا نريده، لا لنا ولا لغيرنا. في النهاية، نحن نحلم على الأقلّ بسعادة الإنسان لا بفنائه.
- ربَّما كنتُ أوَّل من فهم حيرتك. التمزُّقات التي أحدثتها قنبلة البلوتونيوم كانت كبيرة وإشعاعاتها المتولِّدة عن الانفجار قويَّة ومخيفة. الأجساد لم يبق منها الكثير، على الرَّغم من أنَّنا كوَّناها من مادَّة ثلاثيَّة أكثر مقاومة من جلد الإنسان. وأبعدنا قسمًا منها إلى حدود الكيلومترين.

في اللحظة نفسها، تدخَّل الدكتور المختصّ في الجروح

الأمراض الناتجة عن الإشعاعات، نعُوم إدوين.

- ليس لي ما أضيفه على ما قلتموه سوى أنَّ الانفجار كان أقوى بكثير ممّا توقّعتموه. الأجسام التي تمّ تصنيعها من اللاتيكس القريب من جلد الإنسان، روعيت فيها قوّة الإنسان على الثبات والتحمُّل بالخصوص في الأماكن البعيدة نسبيًّا عن مركز التجربة. لم يبق أيّ شيء منها حتى على بعد تجاوز دائرة الكيلومتر الأوَّل. معناه في حرب ما تلقّى فيها PBPp2 ستكون فيها النتائج وخيمة. سيموت لأعداء والجِمال والأحصنة وكلّ ما يحيط بهم بعد الكيلومتر الأوَّل من بوت ونخيل وواحات وهواء وغيرها.

- لهذا، أضاف آدم، نحتاج إلى أن نعرف رأي سميث في هذا كلّه. هو الأقرب من دوائر القرار، حول فكرة منع تصنيع القنبلة الثانية، بكلّ بساطة، والاكتفاء بقنبلة اليورانيوم الكافية لتدمير الأعداء بلا مشقَّة وإحداث الهلع فيهم، ما دام الجانب الردعي هو المقصود في النهاية. غير ذلك، سيدخلنا في دوَّامة الحسابات الكثيرة من جديد، وهو أمر قد لا يؤدِّي بالضرورة إلى نتائج كثيرة وفارقة.

ارتسمت ضحكة طفوليَّة على ميجر توني نيلسون.

تتحدَّثون وكأنَّ المسألة سهلة عسكريًّا على الأقلّ. توقيف إنتاجها قد يكون مستحيلاً بالخصوص مع ما يحدث اليوم، وأمام أعيننا. *التنظيم* كبر وأصبح قوَّة مستقلَّة ومدرَّبة على الأسلحة التقليديَّة التي لم تعد تخيفه، لأنَّ الموت نفسه لا يخيفه، هو مجرَّد بطاقة سفر قانونيَّة نحو عالم آخر أجمل وأبهى وألذّ أيضًا. ربَّما كان اتِّساع رقعة *PBPp2* هو ما يبحث عنه تحديدًا جيش حلفاء *أميروبا*. والأمر مشروع. أنت تحارب عدوًّا أعمى بشكل كلِّي. هم أيضًا يحلِّلون النتائج بحماس غير حماسنا، وأهداف غير أهدافنا العلميَّة. أنا أيضًا أتمنَّى من قلبي

أن يتمّ تحسين القنبلة، على الأقلّ كي لا تمسّ الناس الأبرياء، في الأماكن المعزولة. وهذا ممكن جدًّا.. لكنّي أعرف أيضًا أنَّ هناك بعض الأشياء عندما تخرج تنتهي.. لا يمكن السيطرة عليها.

اختلى آدم قليلاً. كتب تقريره لسميث. وطلب أن يتمّ التفكير في موضوع توقيف تصنيع PBPp2 جدّيًا، الذي بيَّنت التحليلات مخاطره الكبيرة على كلّ الناس، بما في ذلك جنود القلعة المكلَّفين بتأمين المنطقة. لأنَّ الإشعاع يمكن أن يصل بسهولة حتى السدّ والوادي، إذا زادت قوّة العواصف والرياح، وإن كان ذلك بنسب أقلّ، لكنّه ممكن. يجب التخفيف من دائرة التأثير والقدرة على التحكُّم التي لم تعد اليوم عملاً شاقًّا كما كانت من قبل.

لكنَّه قبل أن ينهي التقرير، جاءه ميجر توني برسالة مشمَّعة من القاعدة البحريَّة في مضيق هرمز، حيث توجد مختبرات التحاليل النوويَّة. فتحها وهو يتمنَّى في أعماقه أن يُعاد النظر في قنبلة البلوتونيوم *PBPp2* نظرًا لخروجها عن النظام المفترض، وهي إدخال الخوف والجزع في قلب العدوّ. عندما قرأها بدا له كأنّ ميجر توني هو من صاغها، لأنَّها احتوت على الأفكار نفسها التي عرضها أمام أعضاء المخبر في جلسة تحليل النتائج: *إلى البروفسور آدم وفريق عمله. التجربة الميدانيَّة الأولى كانت ناجحة إلى أكبر حدّ. النتائج جيِّدة، بل مبهرة، أكثر من المتوقّع. PBPu1 بقيت في الحدود التي رسمت لها وهو أمر جيِّد توصَّلتم إليه بفضل أبحاثكم الفذّة. بينما PBPp2 فقد تعدَّت قطرها المحدَّد لها بأكثر من كيلومتر آخر. وهو أمر أيضًا ليس سيِّئًا، لأنَّه منحنا فرصة الاختيار بين نموذجين وبحسب الحاجة العاجلة. يُسمح بامتلاك سلاحين يتحدَّد استعمالهما بحسب العدوّ، الذي على الأرض، عدده وعدّته وإمكاناته العسكريَّة وقدراته القتاليَّة*

ومدى انتشاره أيضًا. نحن نعتبر ذلك نجاحًا ثانيًا ربّما لم يكن محسوبًا. هذا لا يمنع التحسينات الممكنة للقنبلتين. كلّ التحيّة. وحفظ الربّ أميروبا. نسخة إلى الأميرال، ونسخة إلى الكولونيل سميث جوردن.

أخبر فريق العمل بالرسالة التي تثني على جهود الكلّ. ثم عرض عليهم فحوى الرسالة بكلّ تفاصيلها. ارتسمت على وجوه الجميع فرحة ممزوجة بحيرة شبيهة بخوف آدم الباطني من شيء غامض كان يرتسم في الأفق. لم تكن حيرة عاديّة، بل تعمّقت أكثر، لأنّ آدم لاحظ فجأة أنّه حتى إمكانيّة التصليح لم تعد واردة، أو على الأقلّ صعبة، لأنّ كلمة: *هذا لا يمنع التحسينات الممكنة للقنبلتين* لا يدلّ مطلقًا على موافقة توقيف أو إعادة النظر في *PBPp2* بل العكس هو الصحيح. الخطأ في التقييم وانتشار الإشعاع عند العلماء، أصبح مسألة إيجابيّة عند العسكر. ربّما كان ذلك هو الفارق الكبير بين عالمين يلتقيان في كلّ شيء، ويختلفان أيضًا في كلّ شيء.

كلّ النقاشات وضعت مسؤوليّة الإقناع على ظهر سميث.

حاول الاتّصال على الخلويّ، لكنّه لم يجب. فكّر حتى أن يصعد إلى غرفته، لكنّ ذلك لم يكن مسموحًا به، ثم إنّه في جناح الضبّاط ومُراقب جدًّا، ويحتاج إلى مضيف مخوّل أمنيًّا يقوده إلى هناك. وقد لا يروق لسميث أو للضبّاط أنفسهم الذين يقيمون معه في البناية نفسها، بالخصوص في الفترة الأخيرة، حيث أصبح كلّ شيء غير مريح أمنيًّا.

وهو يعاود كتابة تقريره النهائي إلى سميث، فكّر في إضافة كلّ تفاصيل الرسالة التي تلقّى نسخة منها، لم يستطع أن يتفادى كلمات فوكو الأخيرة، التي كان فيها ذهنه شديد الصفاء وقلبه مفعمًا بمحبّة.

- نيّتك أعرفها يا آدم ولا أشكّ فيها. وهي لا تختلف عن نيّة أيّ عالم كبير منح حياته لخير البشريّة، لا شيء يهمُّه سوى علمه وعمله. لكنْ هل كلّ البشر الذين يحيطون بنا لهم الأحاسيس والانشغالات الإنسانيّة التي نملكها نفسها؟ لا أعتقد. لأنَّنا عندما نكتشف الأشياء، نحن لا نفعل ذلك لأجلنا فقط أو لأجل زماننا، ولكن للأزمنة الآتية، وإلّا لا قيمة لما نقوم به. انظر من حولك وستمنحني بعض الحقّ. انظر كيف بدأ نوبل وكيف انتهى. كان يريد سعادة الإنسانيّة عندما تمكّن من السيطرة عليها وعلى قوّة النيتروغليسيرين[1] بعد أن حوّلها إلى عجينة، أثبت بها للكلّ أنّه يمكننا أن نفجّر الصخور المستحيلة. وأثبت أن لا قوّة تقف أمام اكتشافه لخدمة البشريّة. قبل أن يقوّيها ويخلق البلاستيك. بفضلها، تمّ شقّ أنفاق أعماق جبال الألب، وفجّر الصخور التي كانت تضيّق على ميناء نيويورك، وحفر ميناء نيوكاستل مثلاً. وأنجز مخابر لاكتشافاته العلميّة في باريس، همبورغ وسان روميو وستوكهولم وغيرها. لكنّه في النهاية مات وحيدًا حزينًا، بين ذراعيْ خادمه، في ليلة من ليالي ديسمبر الباردة، من سنة ١٨٩٦، وبعد أن رأى كيف تحوّلت مكتشفاته في المتفجّرات، من العاديّة إلى الأكثر عنفًا: ا الديناميت، إلى الأشد قوّة: باليستيت[2]، أفضل متفجّر بلا أدخنة، إلى قوّة مدمّرة. كلّ الخراب البشري اليوم يدين له بالكثير، بما في ذلك تفجيرا هيروشيما وناغازاكي. لا أريد أن أُعطيك درسًا، أنت تعرفه أحسن منّي. في مثل هذه الأمور، تؤخذ النتائج بعين الاعتبار وليس النوايا الحسنة. طريق جهنّم، يا عزيزي، مفروش بالنوايا الحسنة.

---

(١) **La nitroglycérine. Nobel 1864.**

(٢) Balistite: Trinitroglycérine et de Dinitrocellulose خليط متساو بين مادّتين شديدتي التفجير، ترينيتروغرليسيرين ودينيتروسيليلوز.

ـ *أعطيك كلّ الحقّ يا صديقي.*

عندما غادر مكتبه، لم يجد أيّة رغبة للذهاب إلى الغرفة.

وقف قليلاً يتأمّل المدرَّج القديم الذي أصبح بقرار من مجنون من ليتل بروز، مكانًا للتدريبات العسكريَّة بعد أن رُبِطَ بالمطار الجديد الذي بُنِيَ في محيط القلعة. بينما فُتحت بوّابة نحو الملعب مباشرة، تسمح لمن أراد أن يمارس الرياضة أن يفعل ذلك مباشرة دون المرور عبر المدرَّج القديم. كان يبدو له مثل الجنّة المسروقة التي منحته الحياة مدّة من الزمن، في اللحظات الأكثر ضيقًا.

جلس آدم قليلاً على الكرسيّ الحجري. رأى دريمز وميرلين وهما تتّجهان نحوه. من بعيد سألته دريمز وهي تفتح ذراعيها عن آخرهما.

ـ خسارة يا آدم. كنت أفكّر في أن أجلس معك قليلاً، وأتأمّل قوّتك وصبرك وأنت تقطع هذه المسافات الطويلة، لكن يبدو أنَّ الملعب حُوّل إلى ميدان عسكري.

ـ لا مشكلة. القلعة هي مكان عسكريّ كلّيًا. يمكنني استعمال الملعب، لأنَّه مفتوح للكلّ، ولو أنّه لا يعوّض المدرَّج القديم الذي أصبح يمثّل لي بابًا مهمًّا من أبواب الجنّة. طبعًا جنّتي المتواضعة فقط.

ـ حتى الملعب ليس سيئًا.

ـ أبدًا، وربّما كان اتّساعه أفضل.

ثم قام فحيًّا ميرلين التي وصلت تجرّ نفسها جرًّا.

لم يكن قادرًا على تأجيل سؤاله عن إيفا.

تنقصكم واحدة... هههه.

إيفا لن تأتي. عندها عمل كثير وكثيف جدًّا مع مهجّري آرابيا. تبذل جهودًا كبيرة لكي تكون قريبة منهم، بالخصوص النساء والأطفال

والعائلات التي لم تأكل منذ أيّام. تقوم بعمل خارق حقيقة، لا أحد يستطيع فعله غيرها. تمكّنت من أن تشقّ قنوات المياه مع الكثير من المهندسين المتخفّين من بين المهجّرين، وأزالت عنهم خوف *التنظيم* الذي يقتل كلّ من شمّ فيه رائحة العلم والثقافة. استغلّت أطراف الوادي وجهة السدّ المحروسة من العسكر، لتنمية زراعة البقول والضروريّات. الناس يعملون ولم يعودوا ينتظرون مساعدات الأمم المتّحدة، ما عدا الحليب الجافّ والمعجّنات التي تساعد على المقاومة.

ـ امرأة من ذهب. قليل من الحماية فقط.

ـ نعم. قالت ميرلين، كلّ ما تقوم به يمكن أن يُنسف في ثانية.

ـ أحيانًا، لا أصدّق ما أرى وما أسمع وما أقرأه أيضًا. كيف يمكن لشعوب منحت البشريّة العلم والخير والسعادة، أن تتحوّل إلى كائنات غير مرغوب فيها؟ شعوب على حافّة الانقراض.

ـ إيڤا وجهود المنظّمات الإنسانيّة خفّفت من آثار الجروح والخيبات كثيرًا.

ـ لكنّها مع أوّل عمليّة للتنظيم، ستنسحب من المكان في ثانية.

ـ وهو ما حدث معنا بعد العمليّة الأخيرة. لكنّ إيڤا قالت إنّها لم تنهِ عملها وإنّها لن تغادر المكان، ووقّعت على وثيقة تحمل المسؤوليّة الكاملة إذا ما حدث أيّ شيء. أشجع منّا جميعًا. تعرف المنطقة، وأصبحت تتكلّم العربيّة بشكل يفهمها به الذين لا يعرفون الإنجليزيّة أو الأورولينغوا.

ـ تستحقّون كلّكنّ الاحترام والتقدير.

ـ وأنت أيضًا وفريقك. ستقلّلون حتمًا من المظالم. كلّ الناس يتحدّثون عن المنجزات الثمينة التي حصلتم عليها.

تمنّى لو يقول كلّ ما كان في قلبه، لكنّه فضّل أن يتركهنّ على النيّة الطيّبة، بالخصوص في هذه السنّ الغضّة التي لا تحتمل الهزّات الكثيرة. وهو يلتفت عفويًّا نحو المضمار الطويل، انتابه وجه إيڤا وهي تركض وراءه تحت المطر في محاولة يائسة لإدراكه. ركضت حتى تعبت، فأصبحت شهيّة كبرتقالة مغمّسة في مياه المطر، تلمع القطرات عليها كأنّها بقايا ندى على بشرة آدميّة حيّة وممتلئة.

التفت آدم نحو دريمز.

ـ إذًا، ستعودان قريبًا كلّ واحدة إلى بلدها؟

ـ مبرمجة. غدًا مروحيّة تنقل عتادًا عسكريًّا وتعود شبه فارغة إلى البحر الأحمر.

ـ رتّبتما كلّ شيء مع الماريشال.

ـ تعرف أن لا أحد يدخل مكتب الماريشال، بالخصوص في هذه الظروف الاستثنائيّة! لكنْ رتّبنا كلّ شيء مع نائبيه وإدارته التي لم تقصّر أبدًا. على كلٍّ، أنت تعرف حساسيّة المناطق العسكريّة، يفضّلون دائمًا التخلّص ممّن يزعجونهم أو يكلّفونهم جهدًا إضافيًّا. من يدري ربّما التقينا مرّة أخرى.

ـ من يدري، نحن في زمن شديد القسوة والخوف. أنا نفسي لا أعرف أيّة وجهة أسلك؟ أرض أبي وأمّي وأجدادي لم تعد موجودة، وانقسمت إلى شمال وجنوب، والشمال إلى خمس دول والجنوب إلى أربع. وفي الخمسة والأربعة: قبائل ومجموعات غريبة تتقاتل على التراب والمعدن ووجهة الرياح. أصبح الحاكم في النهاية لا يختلف عن رئيس عصابة.

ـ وأمايا ويونا؟

ـ بخير. لكنْ، لا أعرف الشيء الكثير عن وضعهما.

ـ كلّ الخير. المهمّ.. نودّعك.

ثم عانقته دريمز بعد أن وضعت في جيب سترته الداخلي رسالة. وهمست في أذنه أيضًا، *إيڤا توصيك بتدميرها، والأحسن بحرقها*. ثم انفصلت عنه. فهم كلّ شيء بدون عناء وتوغّل، معها في التمثيليَّة حتى النهاية بدون أن يظهر أيّ ملمح من الدهشة.

احتضن أيضًا ميرلين بالطريقة نفسها. تمنَّى لهما سفرًا سعيدًا، وتبادل معهما العناوين الإلكترونيَّة السريعة لضمان تواصل كتابيّ أو كلاميّ عند توافر السبل والوسائل إلى ذلك.

وضع الرسالة في جيبه. مشى قليلاً ثم بدأ يقوّي في حركة خطواته حتى وصل إلى الملعب محاذيًا المدرَّج القديم، تأمَّل الأشجار التي بدا له كأنّها كانت تهرب إلى الخلف. كانت نهايات الخريف وبدايات الشتاء قد نزعت منها كلّ ألوانها وجرَّدتها من معظم أوراقها، فبدت كهياكل ميّتة، لكن واقفة. عندما دخل إلى الملعب، اختار المدرَّج نفسه، الذي جلس فيه هو وإيڤا، قبل أن تغيب في عمق الرمال والسدّ. تنفَّس طويلاً. أشعل سيجارة. لأوَّل مرَّة يفعل ذلك بعد الرياضة. ثم فتح الرسالة، وهو منكفئ عليها كلّيًّا بحيث لا قوّة ترى ما فيها.

لم يكن بها أيّ عطر سوى ملوحة المكان وعرق الأصابع التي كتبتها.

تأمَّل المطر القويّ وهو تحت غطاء الملعب، في مدرَّج المتفرّجين العالي. لا يدري ما الذي ذكَّره بمصبّات جبل لاسوفريير[١] في الكاريبي. شلّالات من المطر الدافئ.

---

(١) La Soufrière

شيء واحد أطلبه منك، أن تقبلني للحظات كما أنا وأتكلّم بصوت عال أمامك، أنا التي تأكّدت بسرعة أنّي لا أحبك فقط، ولكنّي تمنّيت أن أنتمي لرمالك وتربتك. اعذرني حبيبي أنّي لم أكتب لك. فوق رأسك تدور الأقمار الاصطناعيّة التي لم تعد لنا والتي لا شغل لها إلّا أن ترصد الناس، لأنّ لا شيء تغيّر من الجهة الأخرى. قتلة التنظيم، ما يزالون هنا، وضحايا الحروب التي كسرت أقوامًا ومحقت أجناسًا، ما تزال هنا أيضًا. بجانبك رياح لا نعرف اتّجاهها، وفي قلبك الحزين جرح كبير لا أحد يعرف كيف يرتقه. شيء في هذه الدنيا يتغيَّر بشكل لم أعد أطيق تحمُّل نفاقه. اعذرني أيضًا إن لم أتواصل معك لسببين، أوّلهما أنّ كلّ ما ينبت على هذه الرمال أو خارجها، أو في مياه السدّ التي بدأت تقلّ بشكل مخيف لأنّه لم يتمّ تنظيفه، مراقب بدقّة مثل الأنفاس التي تصعد وتنزل. ثانيًا، أريد أن أكون حرّة كدقّات قلبك، وهو أمر غير متوافر هنا للأسف. كلّ مساء قبل أن أنام أتمتم: خذني إليك حبيبي. كما فعلت معك في تلك الليلة الهاربة التي سجّلوها في أجهزتهم، شبه متأكّدة من ذلك، ويتلذّذون عليها كلّما اشتاقوا لامرأة تملأ فراغهم المهول وخوفهم من آت يتوقّعونه دومًا، لدرجة أن تمرّ الحياة وهم لا يعرفون ماذا فعلوا بوقتهم. لكنّي لست منشغلة بهم، ولا بالمعتوهين الذين يتحكّمون في أنفاس البشر. لهم في هوسهم من ضغائن سرّيّة ما يفجّرون به الكرة الأرضيّة قطعة قطعة، ثم فجأة يبحثون عمّن يلصقون فيه التهمة المناسبة. صمّمت أن أضع نفسي خارج الكذبة المعمّمة. فهم بلا ذاكرة، ولا يرون إلّا ما يشتهون رؤيته في النهاية. لا أريد أن أُطيل عليك بجنوني. لكنّني اخترت أن أبقى هنا، وربّما أموت هنا، مع أناس لا يعرفونني، ولكنّهم وضعوا كلّ

حياتهم بين يديَّ، وهم يعرفون جيِّدًا أنّي مجرَّد امرأة اختارت حياتهم وتستعمل كلّ ما في وسعها لمساعدتهم. أدرك حبيبي أنَّ الحياة في النهاية سلسلة من الخيارات، وكلٌّ منّا يختار ما يريح قلبه وحواسّه. سعدت بما سمعته من أخبار عن نجاح تجربتيْ PBPu1 وPBPp2. اللتين ستغيّران الكثير في النظام النوويّ الذي كان محظورًا رسميًا، حتى الآن على الأقلّ. سمعنا التفجيرين القويين من هنا، ليس بعيدًا عن السدّ والوادي. ربّما سأقول لك ما لم يقله لك أحد، ولن يقولوه لك. لا أحد يعرف كم قتلت هذه التجربة من مهجّرين حقيقيين، لم يكونوا يعرفون أنَّ المنطقة عسكريّة وغير سائلين عن شيء أمام موتهم اليومي. ثم إنّهم ناس لا أحد يطالب بهم ولا بدمهم. يجب أن تستمع حبيبي بانتباه لما سأقوله لك. أفظع من كلّ ما حكيت، هو أنَّ أعضاء هؤلاء البؤساء تُباع وتُشترى عند بوّابة القلعة. وهناك مافيا من رحَّل أرابيا تعيش على هذا. ما أقوله خطير ويمكنه أن يؤدّي بي إلى الهلاك، لكن لا يهمّ. عندي ثلاث حالات حيَّة، أدخلوهم إلى مستشفى القلعة بحجّة أنَّهم جرحى الكهرباء، دخلوا بكلِّ أعضائهم خرجوا مبتورين منها. ولم يغادر أهاليهم المكان حتى سحبوا معهم مرضاهم. وكانوا يظنُّون أنّ الحالة عاديّة. واحد أخذوا منه الكلية التي لم يَشْكُ منها أبدًا، والثاني الطحال وجزءًا مهمًّا من الكبد. معظمهم يموتون بعد أيّام في غياب الأدوية. لا أتحدّث عن الصفقات المجنونة التي تتمّ عند بوّابات القلعة. يمكنك أن ترى ذلك! في كلّ فجر كيف يتبادلون الأعضاء ويتقاضون مالاً مقابل البيع. أنا لا أعرف إذا كان الماريشال على علم بذلك، لكنَّه يتمّ يوميًا. بعثت بوثيقة للجهات المعنيَّة في وزارة الدفاع، وفي أسطول البحر الأحمر ومضيق هرمز، بدون أن أذكر اسمي. ما يحدث في هذه الحرب لم يحدث في أيّ

مكان آخر. تصنع البشريّة الآن أبشع صورة لها. انتبه حبيبي لما تمتم به، فقد أصبح خطرًا على الحياة كلّها. يكفي أن أقول إنّ رائحة تشبه رائحة الكبريت وصلت ولو قليلة، ولكنّها وصلت أيضًا إلى النخيل فجرّدته من أيّة حياة في اللحظة التي مسّته فيها. لا أحاسبك يا قلبي، ولكنّي أخشى أن يكون قد فات الأوان. شيء واحد مؤكّد هو أنّ الكثيرين سيموتون بهذا السبب أو غيره. رأيت العساكر يمشون بالواقيات الإشعاعيّة ممّا يدلّ أنّ شيئًا من ذلك وصل إلى هنا. سلّمني الضابط محسن الراوي، وهو عراقي، في الجيش الأميركي، واقيًا لي وللطبّاخة التي تُعدّ الأكل للمهجّرين الجدد الذين لم يستقرّوا. أرجعتهما له. وشكرته من قلبي. قلت له عددنا كبير ولا ينفعنا. قال إنّه حاول الحصول على أكثر، لكنّ الظروف لم تكن مساعدة أبدًا. قد يكون ذلك مجرّد تضخيم منّي، لكن أنت حبيبي. وقلبي منحته لك بلا أسئلة. ومن واجبي أن أحدّثك بصوت عال. احذر على نفسك، وحافظ عليها وعلى أمايا، إذا كُتب لكما اللقاء، وإذا تمكّنت من الخروج من تلك القلعة الصعبة. أنت عالِم نوويّ شابٌ ممّا يجعلك قنبلة موقوتة. هناك فوائد كبيرة لاختطافك، ولكن أيضًا فوائد أكبر لقتلك. أنت في القلعة محميّ. لكن احذر. لو كان عندي أيّة وسيلة اتّصال بأمايا أو يونا، لقلت لهما: أضع حبيبي بين أيديكما فلا تتركانه. أقول لك بلغة أجدادك: **نحبّك ونموت عليك يا عمري**، كما تعلّمتها هنا من المهجّرين، في ظلّ طغيان الأورولينغوا واللغة الأميركيّة اللتين أصبحتا لغتيْ الاستعمال البراغماتيّ، عسكريًا ومدنيًا، وخلّتا من كلّ حسّ إنسانيّ جميل. اعتقد أنّ شكسبير لو عاد سينتحر ههنا. نسيت أن أقول لك إذا كُتب لك أن تشاهد قناة سي بي إس، إنّهم يحضّرون لحصّة عن السدّ وعن الآرابيين والجهود التي تُبذل للخروج

من الضائقة المائيّة. انتهينا من التحضير، ولم يبق إلّا بدء التسجيل قريبًا. سأخبرك بيوم ووقت بثّها بأيّة وسيلة ممكنة.

الآن لم يبق لي ما أقوله لك. خذني بين ذراعيك كلّما أردت أن تنام، أشعر بالبرد في داخلي.. أحبّك

إيڤا. حوّاء مثل سلحفاتك. لم تقل إنّ معناها إيڤا.

نزل المطر خفيفًا. كانت نقاطه تغطّي الأشجار العارية.

فهم لماذا طلبت منه إحراقها. أغمض عينيه لكي لا يرى شيئًا غيرها.

سمعها، يكاد صوتها الخافت والآتي من بعيد، يشبه الأنين: حبيبي، *خذني بين ذراعيك. أشعر بالبرد في داخلي.*

أخرج الولّاعة، أشعل سيجارة في البداية، ثم كوّم الرسالة حتى أصبحت مثل الكرة وأحرقها. سحقها بين يديه. تمنّى أن يدفنها في صدره، لكنّه خاف من شيء غامض فيه شمّ خطره من بعيد. ذهب نحو كيس الزبالة لكي يرمي الرماد، ولكنّه في الثانية نفسها غيّر رأيه.

اقترب من الجهة اليسرى من المدرَّج، حيث علت الرياح قليلاً بعد توقُّف المطر. ثم نفخ على الرماد بهدوء، فتطاير عاليًا.

وهو ينزل من المدرَّج، رأى لأوّل مرّة رجلاً يلبس لباسًا أخضر، كتب عليه واحد من شعارات ليتل بروز *النظافة من الإيمان* الذي أشاعه في القلعة.

حمل الزبّال الكيس المليء بالأوراق وقناني البيرة، ربّما لعساكر كانوا يجلسون هنا، قبله، ثم انسحب.

ـ ٤ ـ

الماء يسيل دافئًا.

الأوضاع تتغيَّر بسرعة في قلعة أميروبا.

لم يكن دشّ الغرفة الجديدة التي مُنحت له بأناقة الغرفة السابقة الواسعة في شكل سويت، التي أقام فيها قبل أن يُعيده ليتل بروز، بدواعي قيل اقتصاديَّة، إلى مكانه الأوَّل، في غرفة صغيرة في الطابق الخامس.

أغمض عينيه، وهو يتحسَّس قطرات الماء التي ساحت على جسده، ومدَّدت شرايينه المتقلّصة. شعر بانسيابه الهادئ واللذيذ، كأنّه يدا امرأة من حرير، تمسح على جرح قديم.

أغمض عينيه تحت نعومة الماء.

نسي لحظتها كلّ شيء، بما في ذلك ما قرأه وما رآه وما سمعه عن الانفجارات التي تكاثرت في الأيَّام الأخيرة، وكانت تأتي من بعيد. نسي كلّ شيء إلّا تلك النعومة المرتبكة لإيفا، في ليلة هاربة.

لقد رأى بأمّ عينه كلّ ما وصفته له إيڤا بدقّة شديدة.

استغرب كيف كان غبيًا ولم يفكّر في ذلك من قبل؟

على مدار الأيّام التي تلت، عاين كلّ شيء بنفسه عن قرب، إذ افترض أن تكون المعلومات التي وصلت إلى إيڤا مبيّتة وغير حقيقيّة. كانت الرياضة هي حيلته وضالّته. وكانت المدرّجات، بحكم ارتفاعها وموقعها الاستراتيجيّ، هي مكانه الوحيد الذي كان يرى من خلاله كلّ شيء. لكنْ، كان عليه أيضًا أن يحذر ولا يثير أيّة شبهة في عينيْ من يراقب المكان، حتى ولو بدا خاليًا من أيّ جهاز حسّاس، لا مجسّات ولا كاميرات تشوّش على المطار الحربيّ والطائرات في نزولها وصعودها. لهذا، بدا كأنّه يمارس رياضته الاعتياديّة بعد غلق المدرّج القديم وتحويله إلى منطقة عسكريّة.

بشكل طبيعيّ، ينزل الأدراج جريًا ثم يصعدها حتى الأعلى، بحيث يظهر أمامه المشهد كاملاً، مُخْفيًا رأسه في قبّعة لباسه الرياضيّ الواقية من المطر، التي لا تُظهره وهو ينظر إلى المكان حتى لا يُثير أيّة شبهة. فجأة، بالضبط كما وصفته إيڤا وكما لاحظه في العديد من المرّات، رأى السيّارة الصباحيّة، الهامر، قد خرجت وعلى متنها أربعة عساكر. فَهِم أنّها هي. لمح المشهد عن قرب كأنّه لقطة سينمائيّة هاربة، ثم نزل بحيث يظلّ منظر السيّارة ماثلاً أمام عينيه، ثم يصعد من جديد. ركّز جيّدًا. لمحهم وهم يتبادلون عن قرب أشياء هشّة، من خلال الطريقة التي كانوا يحملونها بها. يسلّمون شيئًا يشبه حاوية صغيرة لعسكريّ ينزل من السيّارة، ثم يستلمون الفارغ وكيسًا أبيض لم يشكّ آدم في أنّها نقود، ثم يغيبون داخل الرمال، بسيّارتهم الصفراء رباعيّة الدفع، التي تنطلق بسرعة بمحرّك يكاد يكون مخنوقًا، قبل أن يتماهوا مع الصفرة كالحيّات الصحراويّة.

ثم يواصل صعوده ونزوله وتسلُّقه الأدراج، حتى بعد غياب السيّارة كليًّا، ليقلّل من الشكوك المفترضة.

على مدار الأيّام المتتالية، تأكّد له أنّ الحركة يوميَّة ولها وقت واضح. وأنّ تبادل الحاويات الصغيرة لم يكن حالة طارئة، ولا تقتصر على أناس يتمّ إدخالهم إلى المستشفى بسبب مرض عاديٍّ وانتزاع بعض أعضائهم، ولكنَّه كان قاعدة تمسّ بؤساء الرمال من الآرابيين الضائعين أيضًا، الذين يتمُّ اختطافهم أو قتلهم وانتزاع أعضائهم وفق عمليَّة يشترك فيها حتى الأطبَّاء، وإلّا سيصبح من الصعب القيام بالعمليَّة كلّها. مجموعات من القتلة المحترفين لا يعملون إلّا بحسب الطلب والعضو المطلوب. شبكة منظَّمة تجوب الصحارى وتحدّد ضحاياها من الناس الأصحّاء. أحيانًا يغرونهم بالعمل. يأتون بهم جياعًا ضعافًا. يعملون لديهم في واحة يُقال إنَّها متخفِّية بين الوادي والجبل، ومحاطة بشبابيك عالية. يعملون بها. يأكلون ويشربون ثم يمرضون. فيؤتى بطبيب ينتزع الأعضاء المطلوبة، يضعها في الحاوية المحفوظة في درجة برودة خاصَّة ومدروسة، ثم يأتي من يوصلها إلى القلعة بطرق سريعة. يُقال إنَّ *الكوربو* نفسه هو المشرف على هذا التجمُّع السرّيّ الذي يدرُّ على *التنظيم* مالاً كثيرًا.

هل يُعقل أن يكون *الكوربو* مشرفًا على هذا الكارتيل من اللحم البشريّ؟

الكثير ممَّن يعرفون المنطقة، يؤكِّدون أنّه هو أيضًا من يشرف على بيع النفط، في بعض مناطق آرابيا التي يسيطر عليها، للمتعاملين الغربيِّين الخواصّ الذين يصمتون عليه لأنَّ مصلحتهم معه. كثيرًا ما شوهدت عشرات الصهاريج الصفراء، وهي تقطع الصحارى مثل سيل من الجراد، ولا طائرة واحدة تقصفها، مع أنَّ المنطقة مراقبة كليًّا.

حتى أنفاس الحشرات تُقاس بدقَّة. عندما تصل الصهاريج إلى الميناء الصغير والمعزول وكأنّه ميناء سرّيٌّ، تُفرّغ فيه حمولتها النفطيَّة، تغيب في داخله وكأنَّ البحر ابتلعها فجأة.

لا يخرج أبدًا عن عادته التي تأسره.

عندما انتهى من حمَّامه، أشعل سيجارته، سحب نَفَسًا طويلاً حتى شعر بالغياب الجميل الذي استحضر فيه إيفا، على غير عادتها، امرأة من عطر الليل وندى الفجر، غارقة في شهوة الألوان.

وقبل أن يقوم باتِّجاه النافذة، كما تعوَّد أن يفعل بعد كلّ حمَّام، ارتسمت فجأة أمامه الشاشة الواسعة على بياض الحائط، بوجه ليتل بروز الذي كاد ينساه بسبب غيابه الطويل. شعر كأنّ الوجه، على الرَّغم من أنّه افتراضيٌّ، زاد انتفاخًا ودورانًا وتعجَّن كحبَّة بطاطا سكنها دود الأرض. زادت استدارة رأسه الذي أصبح أملس كحجر الوديان. ولا شعرة واحدة. لدرجة أن أصبح يشبه بشكل غريب الدوتشي[1] موسوليني. لا أحد يعرف ما إذا كان يقصد ذلك، أم أنَّها مجرَّد صدفة.

ـ الغرفة الجديدة ليست في مقام باحثٍ نوويٍّ كبير في حجمك، لكنَّها الظروف الاقتصاديَّة والعسكريَّة التي حتَّمت على الكلّ بعض التقشُّف، وممارسات جديدة.

ـ لا مشكلة يا ماريشال. هي نفسها غرفتي القديمة، ولم أجد صعوبة كبيرة في التآلف مع رطوبتها وحيطانها وشاشتها. يكفي أنَّها حمتني في الظروف الصعبة. ثم إنَّنا في ثكنة في النهاية ولسنا في قصر، وعلينا بالتالي أن نقبل بالقليل. قارن معي، يا سيِّدي الماريشال،

(١) Duce. Mussolini

بداية دخولي إلى القلعة، إذ كنت قريبًا من حالة السجين، لدرجة ظننت أنّني واحد من سجناء غوانتنامو.

ـ قليلون مَنْ تفهَّم هذه التغييرات القاسية علينا جميعًا. أحيِّيك على هذا كلّه، وهو يدلُّ على تحسُّنٍ حقيقيٍّ في فهم خاصيَّة القلعة. لكنّي ألاحظ أنَّك من ساعة ما عدت من التجربة النوويَّة، لم ترتح! أنت تُتعِب نفسك كثيرًا يا آدم..

ـ واجبي سيِّدي الماريشال تجاه الأرض التي منحتني كلّ شيء.

ـ أيّة أرض؟

ـ بعد كلّ هذا يا ماريشال، تسألني عن أيّة أرض؟ أرض واحدة منحتني كلّ شيء.

ـ أرى أنّك أصبحت مداومًا على الملعب أكثر من اللّازم.

جفّ فجأة حلق آدم. شعر بدوار يحتلّ دماغه ويضغط عليه بقوّة. هربت الكلمات منه في كلّ الاتّجاهات. تنبَّه إلى أنَّ عينيْ ليتل بروز كانتا صغيرتين جدًّا مثل عينيْ فلوس أمّه الأعمى، كلَّما مشى قليلاً نطح الحيطان. قبل أن تموت في ذلك الشتاء القاسي، لم توصِ إلّا بثلاثة أشياء، كما حكت له أخته تالا[1]. أن ينتبهوا لوالدهم الصعب، لكنْ طيِّب القلب. وآدم المنفيّ خارج حيطان أمِّه، وما عندوش اللي يهتمّ به وعلامة خير الدار، الفلوس الأعمى.

ـ تعرف يا سيِّدي ارتباطي بالمضمار. يذكِّرني دائمًا بأنَّ الدنيا ما تزال بعض الخير، وتستحقّ أن تُعاش.

أجاب آدم بشكل شبه آليّ. شعر كأنّ السؤال مطوى حادّ توغَّل في عمق جسده بعنف شديد بدون مقاومة. يعرف أنَّ جمل ليتل بروز

---

(١) اسم أمازيغي، يعني منبع الماء. الساقية.

كأنّها مبرمجة بناء على ما تراه وما جمعته من قبل عن الشخص. شعر ببرودة قاسية في كامل أعضاء جسمه لدرجة أن أحسّ بالشلل أو كاد. كلُّ شيء في جسده تفكّك فجأة، كأنّه دمية بين يديْ طفل لا يعرف شيئًا اسمه لعبة.

ـ كان المدرَّج القديم ممتعًا وجميلاً. يذكّرني دائمًا بملعب بنسلڤانيا حيث كنت أُجري كلّ تدريباتي.

ـ انتهى. المدرَّج يجب نسيانه. قالها ليتل بروز بشكل جافّ. لقد أصبح جزءًا من المنطقة العسكريَّة كما تعرف، ولا يحقّ لأيِّ مقيم أو غيست أن يمشي فيه. لقد أُغلق. هل تجد راحتك في الملعب؟

ـ أجري فيه، وأتسلَّق أدراجه للحفاظ على اللياقة. أجري أحيانًا. أصعد. أنزل. وسيلتي لإخراج كلّ ثقل العمل في المخبر. العمل المخبريّ خطير، مهما تفادينا الإشعاعات، يظلّ شيء منها ملتصقًا في مكان ما فينا، ويؤثّر علينا. الرياضة تقلّل من هذه المخاطر.

ـ لم أفهم لماذا أحرقت الوثيقة التي كانت بين يديك؟ ذكّرتني بالعمل السرّيّ أيّام الماكارثيَّة التي كانت تُعادي أيّ عقلٍ وأيّ تصوُّرٍ غير ما تراه هي.

فجأة، تحوَّلت البرودة إلى قطعة ثلج استقرَّت في داخله. شعر كأنّه في حرب نفسيَّة، وعليه أن يقاومها بكلِّ الوسائل المتبقّية في داخله. في النهاية، ليس لديه الكثير ممَّا يخسره. كأنّ ليتل بروز كان يعرف كلّ شيء عن الوثيقة أو الانطباع الذي خلَّفه وراءه، ويريد فقط أن يلعب بأعصابه. لا يعرف كيف استطاع أن يجد الإجابة التي كانت نائمة في داخله، لأنَّه افترض كأنّ ليتل بروز يريد الحصول على حقيقة لا يعرف إلَّا أجزاءها الظاهرة التي لا تحتاج إلى عبقريَّة كبيرة.

ـ أيَّة وثيقة؟ قصدك رسالة أمايا؟ تعبت صراحة من أن أبقى معلّقًا على

الفراغ. الذكريات جميلة، لكنَّها هي في النهاية حياة موازية غير نافعة لأنَّها انتهت. أريد شيئًا آخر. سعيد فقط أنَّها حيَّة، ولكنّي أوَّل ما ننتهي من العمل المخبريّ ونؤمن جهودنا العلميَّة لتفادي أيّ سوء حساب، لأنَّ الأخطاء في هذه الحالات كارثيَّة. سأعود إلى بنسلفانيا، وألتحق من جديد بمخبري. أصدقائي كلُّهم هناك. أحلم أن أعمل في الحقل نفسه لاسترداد صداقة أمايا على الأقلّ. سأظلُّ في المخبر، ولكنْ، هذه المرَّة، في المجال الإشعاعيّ ومخاطره وكيفيَّات التقليل من مضارِّه، إذ كما تعرفون ماريشال، يمكن الاستفادة منه في المجال المدنيّ والطبّيّ.

ـ لكنَّها تحبُّك. لولا حبُّها ما جاءت نحوك لتسمعك، من بيت أبيها. لكنْ يبدو أنَّك تركتها لصالح امرأة أخرى، إيڤا، ربَّما تفيدك أكثر في اللجوء السياسيّ أحسن من الموت في قفر آرابيا.

ـ لا أدري يا ماريشال لماذا لم يدخل في دماغكم أنّي أميركيٌّ، ولست في حاجة إلى لجوء سياسيّ ولا إلى زواج من أجنبيَّة. انظر في القلعة كم من أصل فيها في ناسها وفي حجارتها أيضًا، وكم من دين؟ ألا يهزُّكم هذا؟ نعم، كبرتُ في آرابيا. والدي وأجدادي وأختي تالا منها، لكنّي شيء أكثر من ذلك. أكثر بكثير. ويونا حبيبتي من أبٍ وأمّ أميركيين، الأمّ من أصول يابانيَّة والأب من أصول آرابيا! هل تتخيَّل ذلك يا سيّدي؟ إيڤا امرأة طيّبة، حالتها مثل حالتي. افترقت مع زوجها، لأنَّها لم تعد تشعر بالحاجة إلى بقاء غير مفيد. ما حدث بيننا لم يكن في النهاية أكثر من ليلة هاربة، كما يحدث ملايين المرَّات بين البشر. استمتعنا ولم نؤذ أحدًا.

ـ بكلّ تلك الحرارة؟ ما رأيته أكثر من ليلة هاربة يا آدم. حالة حبٍّ.

شعَر شعر آدم، كأنّه يريد أن يقوده نحو زاوية لا يريدها هو، لأنَّها

ستضع حتمًا إيڤا في خطر كبير. وعلى الرَّغم من مقاومته لاستفزازاته، شعر بنفسه مجرَّدًا من كلّ شيء، عاريًا كما نزل من بطن أمّه أوّل مرَّة. إيڤا كانت محقَّة عندما همست في أذنه، وهي في قمَّة حالة الانتشاء: *لندخل تحت الفراش حبيبي، يمكن أن يكون زبانيَّة ذلك الوغد يراقبون كلّ حركاتنا.*

ـ عاديَّة. كما أيَّة ليلة هاربة بين رجل وامرأة.

ـ أردت أن أنبِّهك إلى شيء مهمّ بالنسبة لك، ويجب أن لا يغيب عنك في عالم يسير بسرعة، ويطحن في طريقه، بلا رحمة، الضعيف أو من قلَّت فائدته. اعذرني في صراحتي القاسية يا آدم. هذه الحروب لم تعلِّمني إلَّا المزيد من الثبات حتى في الوضعيّات الأشد يأسًا.

فكَّر في أن يطمئنه لكي يخفِّف من حقده ضدَّه، ويقوّي عزيمته بأنَّه سيصبح إنْ آجلاً أو عاجلاً ماريشالاً. ويستطيع بذلك أن ينتقم من الزمن الذي جمَّده في وضعيَّة كالكائن الثلجيّ، على الرَّغم من كلّ ما قدَّمه. يكفي مثلاً أنَّ حرب العراق يتَّمته في كبره، وأنَّها نزعت منه سلطان الشهوة قبل أن تنصبَّ شهوته كلُّها في العمل والجيش وتقديم شيء مدهش ينقذ أميركا من كلّ المخاطر. خاف من أن يُثير غضبه، فهو عصابيٌّ ولا أحد يترقَّب ردَّة فعله. كلَّما تحدَّث آدم إليه وضع في رأسه سلفًا أنَّه يحادث موسوليني في عزّ نوباته التي تنتهي دائمًا بكسر شيء قريب. لا يدري لماذا تراجيديا البشر تتشابه في كلّ الأوقات في أساسيَّاتها، وأحيانًا في تفاصيلها. لقد قتل أحد الحكَّام من آرابيا الغربيَّة بالطريقة نفسها التي مات بها الرجل الذي ظلَّ يقلِّده بجنون. كلاهما ترك فرصة النجاة تفلت منه. كان يمكن للحاكم أن يهرب إلى فنزويلّا، وكان بإمكان الدوتشي أن يهرب في طائرة ألمانيَّة وُضعت تحت تصرُّفه. الأوَّل أخرجوه من نفق للماء والفضلات قبل أن يمنحوه

للأعداء لتمزيقه حيًّا. والثاني أخذه الثوّار إلى الضفَّة الغربيَّة من بحيرة كوم[١]، قبل أن تعرض جثَّته أمام غضب الناس في ميلانو. حتى في المصائر النهائيَّة يتشابهون. تمنَّى تشرشل الذي سبق أن تراسل مع موسوليني، أن يُقتل، وأنْ لا يصل إلى المحاكمة، بينما وقع الشيء نفسه مع حاكم إحدى قلاع آرابيا الغربيَّة، أن يُقتل ولا يُجرّ لأيَّة محكمة، ولا يُمنح أيَّة فرصة للدفاع عن نفسه وإخراج ما كان يملكه من وثائق. شيء ما تصنعه الأقدار المجنونة وتسخِّر له بشرًا ينفِّذونه بالطريقة التي ترويهم داخليًّا، وتشفي غليلاً معاندًا ينام فيهم منذ زمن بعيد.

مرَّة أخرى، أحسَّ آدم بليتل بروز يلعب بأعصابه المتعبة، ويستمتع بذلك. انتابه قلق كبير لم يستطع أن يخفيه، ارتسم واضحًا على وجهه في شكل حيرة لا حدود لها. شعر بالعرق البارد ينزل في داخله، ويغرق قلبه. عَبَرته ابتسامة هاربة. تذكَّر أمايا وهي تنزع منشفته بهدوء، تتشمَّمه كلَّما غادر الحمَّام مثل حيوان ناعم يحاول أن يتعرَّف على ذويه ليس بالنظر فقط ولكن أيضًا بحاسَّة شمِّه. تضحك: *عندما يغيب عرقك تصبح شيئًا آخر غير أنت. عرقك هو علامتك معي. ما يغريني فيك هو، وليس عطرك الفرنسيُّ أو الإيطاليُّ. هذا يشترك فيه الجميع، لكنَّ عرقك ماركة مسجَّلة عندي وحدي. ما عليهش هذه المرَّة أغفر لك جهلك بجنوني وشهوتي، في المرَّات القادمة لن أقربك بعطورك الفايحة، التي لا تعني أيّ شيء، لأنَّها تمحو كلّ آثارك التي تسكنني.*

- تبدو بعيدًا. الحبّ مسموح في قلعتنا. في هذا، لا أشبه بيغ بروذر! تفهمني؟

---

(١) Le lac de Côme

ـ ليس كثيرًا يا سيِّدي. قصدك إيڤا. قلت لك لا تعني لي أيّ شيء. ليلة كما جميع البشر.

أحسّ آدم بأنَّ الماريشال يريد إغراقه في شيء يريد هو أن يتفاداه. يريد أن يعرف فحوى الرسالة، وهل هناك علاقة حبٍّ حقيقيَّة أم مجرَّد نزوة حيوانيَّة. ممّا يعرِّض إيڤا لمخاطر طاحونة ليتل بروز التي لا ترحم.

ـ أنت مشكور على كلّ جهودك الكبيرة يا آدم. وضعنا بين يديك كلّ ما احتجته، وتغاضينا عن بعض أخطائك بما فيها ليلة الحبّ بينك وبين إيڤا. لكنَّ الآن الأمور تغيَّرت. نتعرَّض لعدوان من *التنظيم* غير مسبوق، ونعاني أيضًا من ضائقة ماليَّة كبيرة سببها الأزمات الاقتصاديَّة المتواترة. المهمّ. سننزع عنك كلّ الزوائد. مضيفك الطيِّب، سالم، أُرسل إلى مهامّ أخرى. وعليك أن تعتمد كلّيًّا على نفسك في كلّ شيء في انتظار تحديد وضعك. سنسخِّره لك عندما نحتاجك نحن لشيء مهمّ لا ينتظر. الظروف أحيانًا تجبرنا على أن نُعيد النظر في كلّ التفاصيل.

تنهَّد عميقًا، معبِّرًا عن خوف تحوَّل فجأة إلى فرحة.

لم يكن يعتقد أنَّ ليتل بروز سيفاجئه بهذه الغباوة التي لا تعني له أيَّ شيء أبدًا. أن يكون سالم أو لا يكون، لن يغيِّر ذلك في الأمر شيئًا. سالم كان طيِّبًا، ولا عمل له إلّا في استثناءات خاصَّة عندما يجيء ضيف أو رسالة خاصَّة. ما عدا ذلك، كلّ شيء يصل بالوسائط السريعة. الشاشة تقوم بكلّ الأشياء حتى أتفهها.

كان على آدم أن يتظاهر بالأسف لكي يقلِّل من شكوك ليتل بروز. أظهر حزنًا بالغًا على ذهاب سالم. لم يكن يعرف أنَّ في أعماقه قدرًا من العبث والسخرية ضدَّ كلّ ما يُحيط به من قسوة وجدِّيَّة مصطنعة.

- سااالم. خسارة. خسارة كبيرة. كان مساعدي الكبير.

- وقد لا تراه ثانية، مثله مثل الكولونيل سميث جوردن، الذي يبدو أنَّه سيُرقَّى إلى جنرال. أصبحت له مهامٌ مضاعفة على ظهر الأسطول، في البحر الأحمر. هنا، نحتاج إلى رجال ميدان، وإلى مقاتلين حقيقيِّين. وهذا سيقلِّل من تحمُّلك هذا الوضع القاسي. لكنَّنا سنعمل على تسهيل مهمَّة نقلك أنت أيضًا قريبًا إلى مكان آخر.

- أنا مستغرب قليلاً. نحن لم ننه عملنا أبدًا. عملنا المخبريُّ ما زال مستمرًا لإزالة بعض الشوائب من القنبلة. هذه هي التجربة الأولى فقط، وقد ظهرت فيها بعض العيوب، بالخصوص في القنبلة *PBPp2* التي اتَّسع قطرها على غير حساباتنا، ما يضع سكّان المناطق المجاورة لأراضي المعارك في خطر.

- منطقة خالية، وهي أصلاً منطقة عسكريَّة لا يدخلها أحد.

- أعرف يا سيِّدي! لكنَّها الصحراء الكبرى، التي يعبرها اليوم معظم سكّان آرابيا المكسورين والمقهورين، الذين لا يعرفون شيئًا عن هذا المنع. بل الكثير منهم يمكن أن يوجد في هذه المناطق التي تقولون عنها إنَّها عسكريَّة، وهو لا يعلم أبدًا. يأتون هاربين من كلِّ شيء، الحروب والخوف والعطش والجوع والبرد. أبواب الفيدراليّات الأوروبيَّة كلّها مغلقة لم تبقِ لهم إلَّا صحراءهم ورملهم، ونخيلهم وإبلهم، لمن هم أكثر حظًّا، الباقي، في كلِّ خطوة ينفتح قبر يأكل آخر الأنفاس، بينما يواصل الآخرون حتى ينفتح قبر ثان، وثالث، وعاشر، ومائة، وألف، ومليون. لا أحد معنيٌّ يا سيِّدي بالذين يموتون في الصمت. لا شيء يغطِّي أجسامهم إلَّا سماء مغلقة، ولا شيء يسترهم إلَّا تربة جافَّة.

بدون أيَّة حركة، انسحب ليتل بروز، وعوَّض بالإعلانات الحربيَّة

التي لم تتوقَّف. كان يريد أن يسأله عن الأوضاع الأمنيَّة التي تدهورت، لكنَّه أدرك بحاسَّته بأنَّه سيهرب منه. بعض الأوساط العسكريَّة تُحمِّله مسؤوليَّة التأمين السيِّئ للمنطقة، الأمر الذي تسبَّب في مقتل دو فوكو العالم الأنثروبولوجيّ وفرقته بكاملها.

انغلقت الشاشة نهائيًّا، ولم يعد هناك أيُّ شخص إلَّا ظلّ ليتل بروز الكابتن والمريض، وكأنّ آدم، طوال المدَّة الماضية، كان يحادث نفسه أو ظلًّا يأتي ثم ينقشع كغيمة، وقت يشاء. كان ليتل بروز يمشي مصحوبًا بالأناشيد الوطنيَّة، وهو يعطي المتفرِّج بظهره.

الصورة جديدة.

تنهَّد آدم بعمق كبير، ثم رمى بنفسه على السرير.

٧ ـ الخطأ مهد الخراب

نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذُه، لكنَّ صيرورة العالم تسير وفق نظام التمزُّق الذي مسَّ العالم كلَّه.

ـ ١ ـ

أطول ليلة أبدًا في قلعة *أميروبا*.

لم يكن ميجر توني مخططًا عندما أطلق عليها ليلة القيامة.

تكاثفت عيارات الرصاص حتى أصبحت متتالية، متلاحقة بشكل متواتر، وقريبة إلى درجة الإحساس كأنّها كانت تأتي من داخل القلعة. في اللحظة التي ساد فيها صمت مرتبك، عوى رماد طويلاً في عزلة حزينة. كان صوته جافًا ومخنوقًا، ربَّما من شدَّة العطش، لكنَّه لم يشكّ أبدًا في أنَّه رماد في عزلته وفي عمق الغياب، حيث لا أحد يستطيع أن يحدِّد مكانه بالضبط، كأنّه يتنقَّل من بين التلال الكثيرة، ومن هضبة لهضبة، ومن مسلك لآخر. يعرفه من بين مئات الأصوات، ليس فقط بنبرته الخاصَّة، ولكن أيضًا ببكائيَّته المتخفِّية التي تشبه النحيب.

يحدث مع رماد أن يندفن ويغيب نهائيًا، حتى يظنّ جميع من تعوَّدوا عليه أنَّه مات، أو نام ولم يستيقظ، أو انتفى من بين الجبال والوديان التي يرتادها بلا خوف، لكنَّه سرعان ما يعود مالئًا المكان والآذان بنداءاته القاسية.

يُدرك آدم وفق ما رواه الأجداد، الذين ينحدرون من السلالة، أنّ زماد لم يكن حيوانًا عاديًا. لم يكن ذئبًا مميَّزًا عن بقيَّة الذئاب، لم يكن طوطمًا هنديًا، بل أكثر. *كان إلهًا قديمًا.*

تلاحقت بعده أصوات الذئاب التي بدا عددها كبيرًا، كأنّها تتقاتل بمختلف أعمارها، من أجل جيفة أو شيء يصلح لأكل لا يكفي الجميع. كانت كأنّها تتزاحم للهجوم على القلعة بسبب الجوع والعابرين الآرابيين الذين جاؤوا من بعيد، وأصبحوا ينافسونها في كلّ شيء، بما في ذلك أكلهم اليومي الصعب وشبه المستحيل أحيانًا، كالزواحف والثعابين والعقارب، أو الغزلان عندما تتوافر، لكنَّ هذه مساحة الضباع، ولا أحد يستطيع أن يشترك معها فيها، لأنَّها تحتاج إلى القوّة والركض وقدر كبير من الصبر والحيلة والخديعة، وحشيش الوديان إذا توافر، وأحيانًا أشجار لارغن المتوحّشة المنتشرة في بعض المناطق. حقول لارغن الكبيرة، استولت عليها شركات من الفيدراليات الأوروبيَّة، ولا يمكن الاقتراب منها، وإلّا الموت والقتل هو المآل الأوحد لمن يركب رأسه. الحيوانات بمختلف أصنافها فهمت حدودها، فهي لا تقترب، تنظر إلى ما يُرمى من الحقول من بعيد، لكنّ البشر العابرين بالقرب منها تعلّموا متأخّرين. تبدو كالواحات، شديدة الخضرة، أو كالأشجار المثمرة، في عمق الصفرة الرمليَّة القادرة على المقاومة. لم تعد كما كانت، قبل سنوات عديدة، مفتوحة للعابرين، فقد أصبحت مُحاطة بالأسلاك الشائكة كأنّها ثكنة. تدخل إليها يوميًا الكثير من السيّارات رباعيَّة الدفع الصفراء، وتخرج منها. يحرسها مسلّحون سود لا يعرفون أيَّة لغة. عندما يراها الآرابيُّون العابرون، يتأمَّلونها قليلاً، ينظرون إلى عيون الحرَّاس السود الجاهزين لإطلاق النار. يترجُّونهم بالنظرات للحصول على بعض الوريقات.

يخرج الحرَّاس كلّ الفروع المقلَّمة من أشجار لارغن، ويرمونها في الفضاء، فيتقاتلون عليها تاركين وراءهم أمواتًا، وأحيانًا عددًا كبيرًا من الجرحى. بعضهم، ممَّن لا يجدون من يجرّهم وراءه، أو يحمّلونهم على ظهر جمالهم الجائعة، ينتهون طُعمًا للذئاب والضباع في اليوم الموالي، إذا لم يبذل أحد الحرَّاس أو اثنان جهودهم لدفن الجثث لتفادي الضباع التي تسحق في طريقها كلّ شيء.

لم يكن إطلاق الرصاص، الذي تواصل طويلاً، شيئًا عاديًّا. لا أحد يعرف ماذا حدث بالضبط!

حتى الذين افترضوا أنَّها مجرَّد مناورة لتحريك عساكر القلعة من غفوتهم الثقيلة، أخطأوا. فقد افترضوا أنَّ الجند كانوا في حاجة لمن يهزّهم في يقينهم: أنَّهم مؤمَّنون في أجنحتهم الشرقيَّة والغربيَّة أو الشماليَّة والجنوبيَّة، ونسوا أنَّهم في النهاية في مهمَّة عسكريَّة خطيرة، وأنَّ القلعة ليست منتجعًا أبدًا، لكنَّها قاعدة عسكريَّة لها واجب الحفاظ على منابع النفط والغاز واليورانيوم في المنطقة، وغيرها من الواجبات الأمنيَّة الضروريَّة لاستقرار المنطقة. كانت مجرَّد مكان موقَّت قبل أن تصبح الحاجة إليها كبيرة، وتتحوَّل إلى مدينة تعيش بانغلاق داخل الرمال، بكلّ مرافقها. لكنَّها تعيش أيضًا بما يصلها من سفن البحر الأحمر ومضيق هرمز. هذا ما يرهق ليتل بروز، لأنَّه كان يخطِّط لشيء اسمه الاكتفاء الذاتيُّ، أي أن يجعل من الهكتارات التي احتلَّها لتأمين المكان والواحات القريبة، والتي اشتروها من الرُّحَّل الملثَّمين، مكانًا خاصًا للزراعة التجريبيَّة، ويحوّلها إلى منطقة ينبت فيها كلّ شيء حتى المستحيل، كما كان يقول. لكنَّ قبائل آرابيا التي نجت من التفكُّك والانهيار، والمتحالفة التي قبلت بالقاعدة على مضض على رمالها، لم تقبل بأن يحتلُّوا الأرض ويزرعوها. جنرالات سفن مضيق هرمز والبحر

الأحمر أقنعوا ليتل بروز بأنّهم ليسوا في حاجة لخلق عدوّ جديد في فترة شديدة التقلُّبات والصعوبات، ولا يريدون استفزاز *التنظيم* الذي زادت قوّته في المنطقة، إذ أصبح يجنّد بؤساء آرابيا الذين لا شيء أمامهم إلّا الموت العدميُّ أو الموت الدينيُّ، ودخول حلف *إيروشينا* القويّ بأطماعه هو أيضًا، على الخطّ، يمكن أن يُعيد كلّ شيء إلى الدرجة الصفر.

فجأة، بالضبط على الساعة ١٠ ليلاً و١٧ د و٢٢ ث، دوّى انفجار قويّ، اهتزّت له أركان القلعة وانكسر زجاج العديد من الأبواب والنوافذ ومداخل القلعة الأربعة. قبل أن تعوم القلعة في ظلمة كاملة لمدّة دقيقة واحدة و٥٨ ثانية، اندثرت فيها أيّة حياة، وأصبح التنفُّس والصمت ثقيلين مثل الرصاص. تشبَّث كلُّ واحد بمكانه ينتظر ما تسفر عنه اللحظات القادمة. لا شيء يُرى في الخارج إلّا نيران آبار النفط التي تشتعل من بعيد، مشكّلة حولها هالة من الحمرة تُشبه ألوان المغيب. تبدو المصافي ومشاعل الغاز قريبة وسط ظلمة قاسية، لا تُرى فيها إلّا عيون الحيوانات الباحثة عن منفذ أو مخبأ أو جثّة.

بعدها عاد ضوء المولّد الاحتياطيّ. لم تكن كلّ الأماكن مُضاءة، لكنّ الممرّات والحديقة والمدرّج القديم، إضافة إلى المطار العسكريّ ومداخل القلعة، ظلّت الأنوار فيها كما كانت، ولم تتغيّر أبدًا على العكس من الأماكن العامّة، فقد خَفَت ضوؤها. لكنّ ضوء المنارة التي وُضعت على أعالي الطابق السابع، ظلّ يدور ويمسح كلّيًا، محيط القلعة، والمطار، والامتدادات الفارغة التي تحدُّها الأسلاك الشائكة المكهربة، مُظهرًا كلّ التفاصيل الصغيرة والدقيقة.

على الساعة ٢٦ و٣ دقائف و٢٢ ثانية، دوّى انفجار ثانٍ، فعلت ألسنة النار في خزّان الوقود الخارجي، المحاذي لمدخل القلعة

الشرقي، لتخترق السماء بلهيبها. كان أقوى من الأوَّل. اهتزَّت له كلّ أركان القلعة، لكنَّ ضوء القلعة لم ينطفئ. الرصاص الذي تلاه لم يمنع سيّارات الإسعاف والإطفاء من الخروج بقوَّة وكثافة صوب الخزّان، في محاولة نجحت بعد حوالى الساعتين في إخماد النيران. تلاه رصاص كثيف وسيّارات عسكريَّة في حركات مجنونة، محمَّلة بالعساكر، حتى الشاشات التي ظلَّت تبثُّ كلمات ليتل بروز، سرعان ما صمتت للحظات، وتحوَّلت إلى شاشات سوداء قبل أن تعود إلى نظامها المعتاد. ثم بدأت تبثّ، بشكل دائريّ، في حزام أسود تحتيّ، كُتب بالأبيض: *المطلوب من الجميع البقاء في أمكنتهم وانتظار الأوامر التي تصدر عن الجهات العسكريَّة. القلعة تتعرَّض لهجوم خطير، من جهة مجهولة*. لا حركة حتى في الحديقة العامَّة، ولا في وسط كلّ جهات القلعة الأربع: الغربيَّة والشرقيَّة والشماليَّة والجنوبيَّة، ولا حتى منطقة الغيست أو البنايات الإداريَّة التي كانت مُضاءة، ولكن بلمبات هي أقرب إلى الفوانيس الخفيفة. لم يتوقَّف الرصاص ولا المتفجِّرات التي بدأت تبتعد شيئًا فشيئًا.

كانت سيّارات الإسعاف قد زادت كثافة. كثر عددها، حتى لتكاد يصطدم بعضها ببعض من شدَّة السرعة.

الشاشة تبثُّ الأناشيد الوطنيَّة، ونشيد *أميروبا* الذي يؤكِّد على الوحدة بسبب ما تتعرَّض له القلعة.

لكنْ، بعد ساعة ونصف الساعة، تحسَّن الوضع، قبل أن يتغيَّر نهائيًّا. إذ خفَّ الرصاص وحركات السيّارات العسكريَّة وأزيز الطائرات بدون طيَّار، وحتى الطائرات العسكريَّة المعتادة. تغيَّر الكلام في أسفل الشاشة الذي أصبح أكثر ثقة: *لقد تمَّ دحر هجوم التنظيم نهائيًا ويحاول جنودنا تأمين المحيط كلّه. كلّ المرافق تشتغل، وأُعيد تصليح المولّد*

الكهربائي. وهو ما حدث بالفعل، إذ أُطفئ المولّد الاحتياطيُّ وأُعيد تشغيل المحطّة الأساسيّة.

لا أحد يعرف ماذا حدث بالضبط!

ـ ليس شرطًا أن يعرفوا. كثرة الشرح تقتل الشرح.

قال ليتل بروز، وهو يحاول أن يمسح عرقه ويطّلع على ملخّصات التقارير التي كانت تصله تباعًا من غرفة العمليّات.

ـ جزء من البحريّة تدخّل، وقصف مواقع *التنظيم*.

ـ أيُّ موقع، تهكّم ليتل بروز؟ لا يملكون شيئًا. هذه أقصى قواهم استعملوها نهائيًا. هذه كلُّها ردود فعل الكوربو، أمير *التنظيم*، بعد الضربة القاسية التي وُجّهت له، وللردّ على التجارب النوويّة التي ستُبيدهم نهائيًّا فور دخول السلاح في ميدان العمليّات.

ـ لا نعرف حتى الآن عدد الضحايا، لكنّ التقديرات الأوّليّة تقول إنّ سيّارة الرقابة الليليّة التي كانت متّجهة نحو مصافي النفط قد تعرّضت لخطر جسيم، وأيضًا السيّارات التي كانت محاذية للخزّان قد نُسفت بمن فيها. قوائم من كان بها، لم تصلنا بعد.

ـ سميث هو قائد فرقة المراقبة النفطيّة المخوَّل من طرف القيادة البحريّة في البحر الأحمر ومضيق هرمز، وهذا يزعجني حقيقة. سأطرح هذا الموضوع مع القيادة مباشرة لتتّخذ الإجراءات اللازمة، لكنْ ليس الآن. كان دائمًا هاجسه الأساسي إفراغ القلعة نهائيًّا، لأنّ دورها انتهى بحسبه. لحماية آبار النفط والمصالح الحيويّة، يمكن الاكتفاء بالقواعد البحريّة المحيطة بالربع الخالي، والقوّة الضاربة لسفن البحر الأحمر ومضيق هرمز، والأقمار الصناعيّة التي تطوّرت لدرجة أنّها أصبحت ترى التفصيل الصغير. الاعتماد على الضربات الاستباقيّة بالطائرات من دون طيّار، أكثر من ضرورة. للأسف، بهذا المنطق

العسكريّ والخبرة الخاصّة، وجد آذانًا صاغية عند القيادة.

- لا تُعطِ لهذا قيمة يا سيّديْ الماريشال. ننتهي من هذا الوضع الخطير الآن، ونُعيد ثقة المسؤولين في القلعة.. أمّا الأمور الأخرى ستأتي من تلقاء نفسها. المهمّ صحّتك، لأنّنا نريدك قويًا في هذه المرحلة.

قال بيرل غروسمان، قبل أن يواصل في الخطّ نفسه نائبه الثاني فرناندو ليفي، الذي عاد من موقع الانفجار.

- يجب أن تظلّ قويًا يا سيّدي. هناك حوالى الثلاثين ضحيّة في الهجوم الخطير. لكنّ شبكة المعلومات السرّيّة ستعلمنا بكلّ شيء. عليها ضغط كبير من كلّ الجهات.

- وعلينا أيضًا ضغط لا ينتهي. ثلاثون كثير!

أجاب ليتل بروز بصوت أبحّ ومنكسر إلى حدّ كبير.

- أنت تعرف يا سيّدي أنّ الضربات الموجعة هي في استهداف الأماكن الاستراتيجيّة، لأنّ عدد الضحايا سيكون كبيرًا، ثم إنّ الخطّة الإعلاميّة ستكون أعظم ومحبطة للطرف الثاني. سياستنا في محاربة *التنظيم* يجب أن تتغيّر.

- يجب أن تتغيّر، لكنّي مكبّل بهذا العقيد الذي رُقّي إلى رتبة جنرال قبل أيّام، وهو ما يضع كلّ جهودنا في خطر.

- يمكن أن ينزع يا سيّدي بسهولة. بالوسيلة الشرعيّة أو الوسائل الأخرى. لأنّنا لا يمكن أن نظلّ تحت رحمة من يريد تدمير قلعة، تكسّرت أقوام بائسة وبربريّة على حيطانها الصلبة.

شعر ليتل بروز فجأة بألم حادّ في حوضه. منذ بدأت التفجيرات وهو يتناول القرص تلو القرص. يشعر بأنّ مثانته لم تعد قادرة على التحمُّل وتكاد تنفجر. لعنها بقوّة: *يلعن طيز أمّك، لم تجد وقتًا إلّا في عزّ الحرب؟ لا أريد أن يستعيد أعدائي مَثلهم المفضّل الذي يتكرّر كثيرًا*

في مثل هذه الحالات: كي الصيّاد يمشي يصيد، السلوقي يروح يبوّل.

ترك غروسمان وفيرناندو ملتصقين بالشاشات مع غرفة العمليّات التي كانت تبعث بكلّ التفاصيل الدقيقة مع الصور في صيغتها الأولى والمعالجة للصحافة، بينما اتّكأ هو على الحائط بصعوبة متفاديًا ضوء الكاشف الذي كان يمسح المنطقة ويُظهر كلّ شيء. شعر بانهيار كبير لم يعهده في ركبتيه المتورّمتين ورجليه المنتفختين. في المرّة الماضية، قبل العمليّة بقليل، أُخذ على جناح السرعة بسبب تجلّط كاد أن يصعد إلى دماغه، ويتسبَّب له في سكتة دماغيّة، لن يخرج منها إلّا بصعوبة. وإذا خرج لن يكون ذلك بأقلّ من شلل. لقد ثقل كثيرًا، وزاد وزنه منذ العمليّة الفاشلة التي لم تأتِ بجديد، سوى أنّها حوّلته إلى مضغة في أفواه من لا يحبُّونه، والذين ينتظرون موته أو انهياره العصبيّ. حسنًا فعل أنّه رفض تركيب عضو كلّ ما فيه ينفُره. لا يعرف وهو يزحف نحو المرحاض كيف استحضر وجه موسوليني الذي يحبُّه، لا يعرف لماذا؟ ربّما لأنّه كان قويًا حتى النهاية، وتحمَّل مسؤوليّاته بلا تردُّد، فمات، كما حلم، كبيرًا. ظلّ دوتشي. أحيانًا يلومه على سذاجته، إذ كيف لم يستقلّ الطائرة الألمانيّة التي وُضِعت تحت تصرُّفه من بعض أصدقائه النازيّين. كان غبيًّا أيضًا عندما ترك الموت يختاره، ولم يختر هو موته. الكبار هم من يتحمَّلون مسؤوليّاتهم في مواجهة خطر أن يسقطوا بين أيدي أعداء متخلّفين، سيجعلون منهم سخرية العصر، وفي النهاية يمزّقونهم، كما فعلوا بأحد قادة آرابيا الغربيّة، الذي ظلّ يقلّد موسوليني في كلّ شيء، بدءًا من كلمة القائد أو *الدوتشي*، وانتهاء بكلّ جنونه وحركاته الصغيرة وعاداته. حتى دفنه في مقبرة مجهولة تمّ بالطريقة نفسها. جثّة الدوتشي سُرقت من طرف الفاشيّين الجدد، وأُخفيت طويلاً في كنيسة. خبّأها، بعد ذلك، الفرانسيسكان، في

خزانة في كنيسة بالاتّفاق مع السلطة. في النهاية، سُلمت لأقربائه لتُدفن مع بقيّة أفراد العائلة. قُتل ببشاعة. ليس الإيطاليّون وحدهم من كانوا يريدون رأسه. للمخابرات الإنجليزيّة يد أيضًا في ما حدث. فقد عملت كلّ ما في وسعها لاغتياله، وأن لا يترك حتى يصعد إلى منصّة القضاء ويفضح المراسلات بينه وبين تشرشل، ومناقشاتهما السرّيّة لتقاسم المستعمرات التي كانت في قبضتهما. أحيانًا، يعطف ليتل بروز على موسوليني أو بنيتو ـ كما يحلو له أن يسمّيه، ويعطف أيضًا على صديقته اليهوديّة مارغريتا سرفاتي التي ظلّت من أكثر النساء قُربًا إلى قلبه. حتى كلارا بيتاكي التي قُتلت معه وعُلّقت في ساحات ميلانو العامّة، لم تبلغها أبدًا. يرى فيه قدوته في الشجاعة، واستعمال السلاح المناسب لمقاومة العدوّ المناسب، لأنّ أيّ تساهل هو موت قبل الوقت. القائد هو من يُعطي الأمر الصارم ولا يتردّد في تحمُّل المسؤوليّة، متذكّرًا كلام قائده النموذجيّ: *أسمح باستعمال كلّ الوسائل الحربيّة، أؤكّد كلّ الوسائل، سواء البحريّة أو الأرضيّة*. كان هذا يعني استعمال الأسلحة الكيميائيّة ضدّ الأحباش، وهو ما فعله قائده بيترو بادوغليو، تمامًا مثل غرازياني قبله بسنة في ١٩٣٥، الذي دفن البشر والحيوانات في أمطار من الغازات السامّة، بينما تراجع عن استعمال الأسلحة الجرثوميّة المحرّمة وقتها دوليًّا ببروتوكول جنيف.

وضع قطعة القماش البيضاء في فمه، ثم أدخل الأنبوب الرهيف، بصرخة مكتومة، في مثانته، التي نبع منها الدم مصحوبًا بصفرة قيحيّة، قبل أن يحضر البول الذي شعر بدفئه ونعومة سيلانه. منحه حالة من الراحة الكبيرة والرضى عن النفس.

سمع صراخًا يشبه ذاك الذي يصدره الجمهور أثناء مقابلة كرة قدم. لكنْ، لم يكن مستعدًّا أن يردّ على ذلك وهو في عزّ سيلانه الذي

استمرَّ طويلاً. لأوَّل مرَّة، يشعر أنَّه لو ينهار العالم كلِّيًا لن يغيِّر من هذه اللذَّة ولن يتركها فيه. هي تغنيه حتى عن اللذَّة الجنسيَّة التي لم تعد تطرق دماغه المتعب، وتحوَّلت إلى حالة ذهنيَّة يختلط فيها الرضى عن النفس بمتعة أن يشعر أنَّه تخلَّص من كلّ الحرائق والزوائد التي تشتعل في داخله. ليصرخوا؟ لا يشعر بنفسه معنيًّا إلَّا بما يجعل القلعة في الواجهة. فقد جعل منها رهانه لنواة حكم لا يؤمن كثيرًا بالكائن الهشّ. الحروب تعلِّم الإنسان أن يكون فوق العاديّ.

عندما استراح أخيرًا في زاويته المظلمة، بعد عناء كبير، رأى المنارة التي تقع فوق السقف الذي فوق رأسه، وهي تمسح المكان كلِّيًا وبكلّ تفاصيله، مظهرة كلّ الدقائق والنتوءات وحركات الزواحف، والطائرات الأخيرة التي كانت تستعدّ للإقلاع نحو البحر الأحمر، بعد الضربات التي نفَّذتها ضدّ قواعد *التنظيم*.

تمدَّد جيِّدًا، ثم وضع السمَّاعة على رأسه حتى يتمكَّن من سماع غروسمان وفيرناندو.

ـ هل استفسرتم عن حقيقة الخبر.

ـ نعم يا سيِّدي. الفجيعة ليست بسيطة ولا خفيفة. المعلومات التي تنزل تباعًا تؤكِّد على أنَّ عدد الأموات ارتفع أكثر. ٣٥ شخصًا، وأكثر من ١٠٠ جريح. والجنرال سميث نفسه مُصاب بجروح بليغة جدًّا. الأطبَّاء يمنعون كلّ اقتراب منه، ما يجعل حتى رؤيته شديدة الصعوبة.

ـ أوصلني بالمستشفى! لا يمكن.

ضغط فيرناندو على زرٍّ أمامه. سمع خشخشة ثم صوتًا واضحًا.

ـ نعم. دكتور ستيفان والترسكوت.

ـ معك الماريشال.

دخل ليتل بروز مباشرة على الخطّ.

ـ كيف وضعيَّة الجنرال سميث؟ دكتور ستيفان.

ـ وضعه سيِّئ سيِّدي الماريشال. سيِّئ جدًّا. الانفجار مزَّق أليافًا كثيرة في البطن والوجه، وأحدث حروقًا كبيرة في كامل الجسم. جزء كبير من أمعائه الغليظة تمَّ استئصاله مع جزء من الكبد. نحاول إنقاذ رجله اليمنى من البتر إذا تمكَّنَّا. لم ندَّخر أيّ جهد.. سيِّدي الماريشال.

ـ يمكن أن نأخذه إلى القاعدة. الوسائل هناك أفضل.

ـ اتَّصلوا بنا من قاعدة البحر الأحمر، لكنَّنا رفضنا نقله. قلنا لهم لا يمكن نقله في حالته. نحاول أن ننقذ من جسمه ما هو حيويّ حتى يتمكَّنوا من نقله، إذا استجاب جسده بشكل إيجابيّ. بدون ذلك سيموت في الطريق. ولا نريد أن نتحمَّل مسؤوليَّة ذلك. وضعه شديد الحساسيَّة.

ـ هل يمكن رؤيته الآن.

ـ صعب. لأنَّنا سنضطرّ لإفراغ القاعة التي بها مختلف المتخصِّصين، وهذا مستحيل، فهو تحت الرقابة الدائمة والصارمة. ربَّما غدًا، إذا تحسَّن أمره.

ـ تصبح على خير دكتور.

ـ تصبح على خير ماريشال.

التفت نحو الآلات. شعر بشيء غريب.. هو مزيج من الحزن والخوف.

سأل نائبيه عن الوضع الأمنيّ. أجابا في وقت واحد:

ـ تمّت السيطرة على كلّ شيء.

لم يسمع غروسمان وفرناندو إلَّا صوت ليتل بروز، وهو يزحف

بصعوبة نحو غرفته، وهو على كرسيّه المتحرّك. قبل أن يغرقا في مراقبة كلّ ما كان يصلهم عن طريق شاشات الرصد المرتبطة بكلّ محطّات القلعة وفرق عملها العسكريَّة، ويستأذناه في بثّ خبر جرح الجنرال سميث. قرأه، وهو يحاول أن يعتدل بشكل مريح في كرسيّه.

خبر عاجل: *أُصيب الجنرال سميث جوردن، قائد قوّات الربط، بجروح خطيرة جرّاء اعتداء غاشم من التنظيم. كلّ ضبّاط القلعة بمختلف رتبهم وأسلاكهم، والعلماء والمدنيين، يتمنّون له الشفاء العاجل.*

ـ ابعثوا.

كانت الساعة الرابعة و٤٢ د و٥٥ ث.

استقرّ الخبر في أسفل الشاشة، وبدأ يدور.

ـ ٢ ـ

الكوربو. الغراب الأسود. هذه المرَّة لم يتكلَّم، ولكنَّه ترك له رسالة خطِّيَّة لا توجد فيها أيَّة ثرثرة:

أرأيت يا صديقي؟ الكوربو. الغراب الأسود يضرب في القلب وقت ما يشاء. يضرب ما له تمثيل رمزيّ قويّ. شريكك في قنبلة الموت انتهى. سميث: انتظر دورك.

لم يعلّق، فقد بدا له كلّ شيئًا عبثيًا، كأنّه يعيش في عمق كابوس، ينتظر فقط متى يفتح عينيه للمرَّة الأخيرة لينتهي كلّ شيء، ويعود إلى حياته الطبيعيَّة مع زوجته وابنته يونا.

كلّ شيء أصبح يلفُّه الغموض في دماغه. ما حدث لم يكن صدفة. حتى الرسالة التي تلقَّاها من الكوربو لم تكن زائدة. المشكلة أنَّ *التنظيم* انتقل إلى رؤوس الناس. حتى فكرة المقايضة معه وإخلاء القلعة ليست كلامًا زائدًا لا أساس له، كما يقول ليتل بروز وأشباحه التي توفّر له الظلّ. لقد رأى بعينيه الحركة كلّها. السيّارات التي تخرج محمَّلة بالاحاويات الصغيرة، تضعها بين أيدي أناس يرتدون ألبسة

بألوان رمليَّة، ملثَّمين كما الطوارق. يتسلَّم جند القلعة الأربعة الحاوية الصغيرة والثقيلة نسبيًّا، كما توحي بذلك حركاتهم، يركب الجميع الهامر إلَّا واحدًا منهم، يسلِّم كيسًا أبيض صغيرًا للرجل الطويل والملثَّم، ثم يركب السيّارة ويعود إلى القلعة، ليدخلها من بابها الرئيسيّ الشماليّ. بينما يندفن الغرباء بسيّارتهم في عمق الرمال.

منذ أن قرأ آدم خبر إصابة سميث وهو في حالة قلق، قبل أن ينزل عليه خبر وفاته كالصاعقة.

توفِّي عند الساعة الـ ٣٧ و٧ دقائق و٧ ثوان الجنرال سميث غوردن، متأثِّرًا بجراحه البليغة، وهو يقوم بواجبه الوطنيّ والإنسانيّ في الدفاع عن القلعة.

حاول وقتها الدخول إلى المستشفى، لكنْ لم يسمح له الحرَّاس المستنفرون إلى أقصى الحدود، لأنَّه غيست، ووجوده في المنطقة الجنوبيَّة من القلعة لا يخوِّله الدخول إلى مستشفى عسكريٍّ واقع في جهة الشمال إلَّا في الحالات الاستثنائيَّة. بذل آدم جهودًا لا حصر لها للاتِّصال فقط بأيِّ زميل من زملاء المخبر، ولكنَّه لم يفلح، حتى كاد أن ييأس لولا اتِّصال هيتاشي ياكوموتو، المشرف على مخبر الانعكاسات النوويَّة للتجارب المخبريَّة والحيَّة، الذي أقنعه بأن يلزم غرفته مثله، لأنَّ المسالة عسكريَّة، ولهذا: الكلّ في وضع استنفاريٍّ صعب، وأنَّه متى عُثر على أحدهم، بالخصوص ميجر توني، سيعلمه برغبته.

أكبر أمنيات آدم هي أن يلمس تابوت سميث، ويودِّعه فقط بكلمتين من القلب، ويشكره على كلّ ما فعله من أجله في هذا القفر الذي لم يشعر فيه بأيَّة راحة. سيطلب منهم أن يسمحوا له بالحضور، بالخصوص أنَّ المدرَّج القديم حيث تُجرى مراسم الوداع الأخير

موجود في منطقة يُسمح فيها للغيست بأن يمشي، أي أنَّها ليست منطقة مغلقة، كما في جهة الشمال أو شمال الشمال حيث كلّ شيء مسدود، حتى الدخول والخروج يتمُّ ببطاقة بواسطة معلومة رمزيَّة خاصَّة تُضاف إلى الشريحة الموضوعة تحت جلد المعنيّ.

حتى اللحظة التي كان يركض فيها، بين الأجنحة والأمكنة والحدائق واضعًا كلّ شيء في رقبة الصدفة الجميلة، لم يصدِّق. مجرَّد كابوس، من حين لآخر يجبر نفسه لفتح عينيه عن آخرهما، فقط ليقتنع أنَّ ما حدث كان قاسيًا، ولا يمكنه أن يكون حقيقة. لكنْ، كلّ ما كان يُحيط به يؤكِّد أنَّ ما حصل لم يكن مجرَّد كابوس، ولكنَّه كان وجعًا حقيقيًّا، إهانة، صفعة.

عندما رُفع العلم الأزرق والأبيض والأخضر والأصفر الذي تخترقه نجوم الدول المكوِّنة للفيدراليَّة الأوروبيَّة الكبرى، وبجانبه العلم الأميركيُّ التقليديُّ، بكلِّ ضخامته، في أعالي القلعة، جهة الشمال، شعر آدم بضيق في صدره، وبرغبة كبيرة في التحوُّل إلى رماد والعواء بكلِّ ما يملك من قوَّة. فقد رفض ليتل بروز حضوره حفلة الوداع الأخير، بحجَّة أنَّها مخصَّصة للعسكر من ذوي رتبة محدَّدة.

- على كلِّ حال، لن نحرمك من متابعة المراسم عن طريق الشاشات الكبيرة والصغيرة البيتيَّة، أو من نافذة غرفتك، فهي تطلُّ على المدرَّج القديم وعلى الساحة العامَّة.

- صحيح أنِّي مدنيٌّ يا سيِّدي الماريشال، لكنِّي في مخبر انتهى عسكريًّا في النهاية. أكثر من هذا، سميث صديقي. ومدير المخبر ويليام ليس أقلّ عسكريَّة من الجميع، على الرَّغم من أنَّه مدنيّ.

- لا يمكن. الجنرال سميث اختار هويَّة عسكريَّة، فلا يودِّعه إلَّا من اختاروا الهويَّة نفسها، ولبسوا اللباس نفسه. هل رأيته يومًا بلا لباس

عسكريّ؟ وهل رأيناك أنت يومًا بلباس عسكريّ؟

ـ أنا لست عسكريًا، صحيح يا ماريشال، هي ظروف كلّ واحد فينا، لكنّنا أصدقاء من تاريخ طويل. وكما تعرف، نعمل في المخبر نفسه منذ سنوات طويلة، في بنسلفانيا وهنا.

ـ لا، يا آدم. هناك فروق جمّة. هو اختار الحرب ومات فيها. هذا هو العسكريّ.

ـ ولكنّك أنت خير من يُقدِّر هذا الوضع الاستثنائيّ.

ـ هو القانون العسكريُّ يا عزيزي. انظر، على الرَّغم من الصعوبات الحياتيَّة وقسوتها، لكنّي هنا بحكم الواجب العسكريّ، أسهر على كلّ شيء، حتى على أدقّ التفاصيل التي يجب أن تتحرَّك كما الساعة. أحدثنا إصلاحات ضخمة في الهياكل العسكريَّة وفي مسؤوليّات القلعة، لأنَّ الضرورة تقتضي ذلك، حتى ولو حتَّم هذا إغضاب مسؤولين كبار في مضيق هرمز والبحر الأحمر. مع كلّ هذه الاحتياطات، لم نستطع منع الاعتداء. أنت تعرف الكوربو جيّدًا ونحن أيضًا، ونعرف أنَّه درس معك، قبل أن يترك كلّ شيء ويلتحق بجماعة بيشاور بعد أن طلَّقته زوجته وعادت لمخبرها وعملها في أميركا.

ـ نسرين قُتلت في قصف جوّيّ أميركيّ يا سيّدي.

ـ لا أعتقد. هو يكذب، ليبرِّر حقده فقط.

هذه اللغة في فم ليتل بروز لا تعجبه أبدًا. وجود سميث أبعده عنهم طويلاً وعن ألسنتهم الفولاذيَّة. لكنَّ ليتل بروز لا يتغيَّر أبدًا. وكان يقفل كلّ الأبواب في وجهه.

ـ الأمر أبسط من هذا كلّه يا سيّدي. تمنَّيت فقط أن أودّعه كما يودّعه أصدقاؤه من العسكريّين، وأعضاء فرقة البحث، ونضع على تابوته

جماعيًا باقة ورد بيضاء تشبه قلبه. أعرف أنَّ المسألة معقَّدة، لهذا بعثت لكم من غرفتي بملفٍّ كبير، فيه كلّ الوثائق والصور التي تثبت درجة الصداقة بيني وبين سميث. فقط لأحصل على وثيقة خاصَّة، مدَّة صلاحيَّتها هي مدَّة المراسيم فقط وبعدها تموت تلقائيًا، تخوِّلني حقَّ الوقوف والسير على روحه وتوديعه.

ـ وصلتني. أنت تعرف الإجابة جيِّدًا. في هذا يعود القرار لي ولنائبي، وللّجنة الأمنيَّة المساعدة التي أخذت على عاتقها تسيير الأزمة. لا نحيد عن الطَّريق الذي خطَّه لنا الأخ الأكبر. *الخطأ مهِّد للكارثة.*

شعر آدم ببرودة كلمات ليتل بروز القاسية جدًّا. باردة كما الموت الفجائي.

ـ أمرك ماريشال. أمرك. أنت من يقرّر يا سيِّدي...

انسحب ليتل بروز، الذي كان وجهه قد تحوَّل إلى حجر صوّان، وحلَّت محلّه على الشاشة الأناشيد الوطنيَّة وخبر الهجوم والوفاة، الذي ظلَّ يدور بلا توقُّف في أسفل الشاشة.

سحب السيجارة الأخيرة، وضغط على الباكيت الفارغ حتى حوَّلها إلى كرة كرتونيَّة صغيرة في عمق كفِّه، ثم رماها على السرير الذي كان ما يزال في فوضاه الكبيرة.

أشعلها بيد ترتعش، ثم سحب منها نَفَسًا طويلاً ملأه بكلّ النار التي كانت تشتعل في داخله.

فتح النافذة المطلَّة على الساحة. سمع ضربات المدفع الكبيرة من أعالي القلعة، لم ير إلَّا الأدخنة تتصاعد من البناية القديمة التي اهتزَّت بعنف، وشعر بالأرضيَّة التي كان يقف عليها تنسحب من تحت رجليه، لدرجة أن خاف من سقوط القلعة كلِّها على رأسه. لم ينم جيِّدًا. حزن كثيرًا، حتى شمَّ روائح حرائقه في الكابوس الذي سكنه. كان سميث،

في لحظات راحته الداخليَّة وسكينته، يشبِّه نفسه دائمًا بقائد *صحراء التتار*، الذي عندما جاءت الحرب التي استعدَّ لها على مدار ثلاثين سنة مضت، أُصيب بمرض أقعده حتى الموت. لم يكن اعتداء البارحة عاديًا، فقد بيَّن هشاشة أنظمة الحذر كلّها. لأوَّل مرَّة اختُرقت الأسوار بسبب انفجار خزّان المحروقات الملتصق بالقلعة، من الجهة الخارجيَّة.

قرأ الجنرال ستيفنسن التأبين بالإنجليزيَّة الأميركيَّة، ثم بالأورولينغوا. بعدها مباشرة، عزفت فرقة أميروبا النحاسيَّة، النشيد الوطنيَّ الأميركيَّ. ثم تقدَّمت مجموعة عسكريَّة بحريَّة تلبس الأبيض، وضعت تابوت سميث على أكتافها، ثم اتَّجهت به نحو المروحيَّة المتوقِّفة وسط الساحة التي رُفعت فيها عشرات الأعلام.

شعر آدم بألم يبدأه من قلبه وينزل باستقامة نحو بطنه.

أحسَّ آدم بنفسه وحيدًا في هذا الخلاء الموحش.

دارت شفرات المروحيَّة العسكريَّة طويلاً وبسرعة متزايدة، ثم انفصلت عن الأرضيَّة التي ظلَّت ملتصقة بها. تتبَّعها آدم بعينين مكسورتين، وهي تعلو باستقامة مخترقة الرياح الثقيلة التي بدأت تقوى رمالها بكثرة. بدت له الكواسر الضخمة في عمق سماء رخوة وهشَّة كتلك التي رآها منذ طفولته، قطعة بلا حدود من الزجاج الأزرق والملوَّن، والتي ظلَّ مقتنعًا أنَّها ستسقط يومًا على رأس الخليقة بسبب حَجَرة يرميها طفل صغير في عزِّ غضبه، تصيبها في العمق. فينهار كلُّ شيء، وينتهي العالم نهائيًا. ويسيل الماء الأزرق من السماء. مع أنَّه يعرف جيِّدًا ألَّا سماء في النهاية، كتلة من الغازات العالية، والثقوب السوداء والفراغات التي لا حدود لها.

سميث لم يكن صديقًا جميلاً فقط، بل أكثر. كان قريبًا من

روحه، وربَّما كان أكثر سكّان أميروبا فهمًا لداخله. رافقه سنوات قليلة قبل أن يُمنع نهائيًا من زيارة أزاريا، في ثلاث بعثات إلى إرانيا وأزاريا وأربع مقاطعات من أرابيا، التي كانت تنمّي برنامجًا نوويًّا سرّيًا أو معلنًا، مدنيًا أو عسكريًّا. كانا يختلفان ويلتقيان، في تحاليلهما في عالم يصنع في كلّ ثانية حائطًا جديدًا، رقميًا أو مادّيًا.

عندما كانت المروحيَّة تحاول اختراق العاصفة والكتلة الرمليَّة، كانت الكواسر تنزل مجموعات كبيرة على الجثث التي خلَّفتها حرب اليومين الماضيين الطاحنة. تُركت هناك حتى تنهيها الكواسر والذئاب، التي أصبحت تعبر من خلال الثقوب التي خلَّفها القصف وضربات الرجال السود. كلّ الحروب الأخيرة التي خاضتها أميروبا، تترك وراءها جثَّة الضحيَّة تحت الشمس والرياح حتى تتحلَّل من تلقاء نفسها، منذ حادثة اختطاف البعثة العلميَّة أثناء عودتها من صحراء آرابيا وإبادة الفيلق الأميركيّ السابع بغباء. خرجوا يجمعون الجثث لدفنها. ثلاث جثث كانت موضوعة فوق بعضها بعضًا. حُشيت بالديناميت والمتفجّرات الحارقة. في اللحظة التي حاولوا حملها انفجرت مخلّفة وراءها عشر أرواح من الفيلق السابع الأميركيّ. من يومها، ظهر الفرمان منشورًا في كلّ القلعة ومحيطها وحديقتها وشاشات الرصد المنتشرة في كلّ مكان وفي البيوت أيضًا: العين بالعين والسنُّ بالسنّ والبادي أظلم. ثم اختُزل الشعار إلى البادي أظلم، التي كُتبت على الكثير من اليافطات المعلّقة أيضًا وجه ليتل بروز المدوَّر، بلباسه العسكريّ وبصدره الذي تملأه النياشين الملوَّنة، وبابتسامته الساحرة التي يُقال إنّها كانت وسيلته لاجتذاب النساء نحوه قبل أن يتَّخذ قرارًا نهائيًا وصارمًا باحتقارهنّ، واعتبارهنّ من أسوأ ما خلق الله، وأنَّهنّ سبب كلّ الهزائم والكوارث التي تحصل في العالم.

من حيث لا يدري، مدّ آدم يده إلى اللوح الذي يعلّقه على صدره

بشكل دائم أو في جيبه، منذ أن أهدته له إيفا وقالت له عليك الآن أن ترمي القلم نهائيًا. أنت تتكلّم فقط وهو يكتب. هذا جهازك الذي يناسبك. مسّ اللوح الملتصق به، ثم تمتم بالكلمة السحريّة، كما تعوّد أن يفعل قبل أيّ تسجيل صوتي. آدم ٢٠٨٤. وكتب أرقامًا وحده كان يعرفها.

«الأقدار مثل الصدف تصنع جنونها خارج أيّ قانون. سميث جاء به الله إلى هذا القفر لينقذني. حزين أنا في هذا الفراغ وهذا القلق الذي يقتلني. بيننا أكثر من ملمح يجمعنا. سنوات طويلة بعد حرب الخليج، الأولى والثانية، كنّا في أراكا، إحدى عواصم أرابيا الجنوبيّة، أنا وسميث... كنّا متعبين وخائفين، على الرّغم من احتياطاتنا في اللباس، من أن تكون قد مسّتنا الإشعاعات. وكنت أريد أن أقول له شيئًا سبقني إليه. سألني يومها عن رأيي في حاكم أراكا إحدى مقاطعات آرابيا الذي كان قد أُعدم ببدائيّة وتوحُّش قبل سنوات. قلت بلا تردُّد. لا يختلف عن هتلر. اندهش بأن فتح عينيه عن آخرهما. قال لا أعتقد أنّ البشريّة أنجبت شبيهًا لهتلر، وإلّا لكانت أفنت بعضها بعضًا. صحيح أنّه يشبهه في عظمة أيّ دكتاتور، فأعطى لنفسه الحقّ في احتلال أرض ليست له، مقاطعة كياتا التي هي جزء أيضًا من أرابيا. كانت بلاده في غنى عنها، تكفيه أبدًا لأن يجعل منها أرض زراعة واقتصاد حيّ. أنهيت جملته: لكنّه اقتيد نحو حتفه. كيف؟ عاود سميث سؤاله. قلت أقنعوه بالتدخُّل. كانوا يعرفون عقله الضيّق جدًّا، والذي ظلّ في صلبه جافًّا وقبليًا، وبلا امتدادات إنسانيّة. العظمة عندما تكون شبيهة بسلطان الله، تتحوّل إلى غباء يقيني، لا قوّة تلجمها وتشرّع لنفسها كلّ شيء. قادوه مثلما يُقاد فأر التجارب نحو حتفه. قالت له إبريل جلاسبي، السفيرة الأميركيّة، أيّام حرب الخليج الأولى: الحكومة الأميركيّة لا تتدخّل في الخلافات الحدوديّة بين دولتين عربيّتين. وهو ما اعتبره ضوءًا أخضر أميركيًا

لمهاجمة كياتا. وقبل يومين، في ٣١ يوليو ١٩٩٠ من الغزو، أخبر جون كيلي مساعد وزير الخارجيَّة الأميركيّ لشؤون الشرق الأدنى، الكونغرس: الولايات المتَّحدة ليس لديها التزام بالدفاع عن مقاطعة كياتا، في آرابيا الجنوبيَّة في ذلك الجزء. والولايات المتَّحدة ليس لديها نيَّة في الدفاع عن كياتا إذا تعرَّضت لهجوم من قبل أراكا. الفخّ أُعِدّ بإحكام مع جلاسبي. صنعوا له قبراً من أوهامه. تململ سميث قليلاً: يبدو أنَّ الأوهام مع القوَّة، تصبح حقيقة. جلاسبي نفت ما نُسب لها من كلام، لاحقًا. أجبته ونحن نستعيد تلك الأيّام: نعم نفت، لكنّ هناك شريط لقائها مع حاكم أراكا في ٢٥ أفريل ١٩٩٠ ومتوافر. حدث هذا بعد سنوات طويلة من حربيْ الخليج، إذ كُلِّفنا بالبحث عن اليورانيوم المشبع، يكون حاكم أراكا قد خبَّأه في أماكن كثيرة في بغداد وفي الصحراء، لم نجد شيئًا سوى بشر يأكلون الفراغ والهواء الساخن. سحبوا السكاكين في وجه بعضهم بعضًا، وخطُّوا حدودًا في رؤوسهم، الأكراد، الشيعة والسُّنَّة، داعش، القاعدة... هو عصر الأمبراطوريَّات، القويّ يفرض سلطانه، قال سميث. كلَّما تذكَّرت مآلات آراكا، شعرت بحزن كبير. أرض يليق بها مصير عظيم آخر. أشعر اليوم بأنّي خسرت صديقًا كبيرًا ورجلاً صريحًا. كان دائمًا يقول بصوت عال ما يفكّر فيه باطنيًّا. أصبح أحيانًا مصدر شبهة حتى بالنسبة لليتل بروز، لكنَّهم لم يجدوا ولا ذرّة تشكّك في وطنيَّته. عندما سألته عن الشرخ الذي يعصف بأميركا، ويحوّلها تدريجيًّا إلى ثلاث قوميَّات متقاتلة البلاك واللاتينو والأوروبيُّون، قال: هذا العمى صنعه المال، وسيتحوَّل إلى دم لن يتوقَّف، ما دام ثقل الأزمات تتحمَّله جهة واحدة. البلاك لم يكونوا ملائكة ولا اللاتينو، لكنَّ البيض ليسوا أيضًا رسلاً منزَّهين. لقد وصلت الضغائن إلى أقاصيها، وهذا مؤشّر على بداية انهيار الأمبراطوريَّة

الكبرى، اليوم أو بعد مائة سنة قادمة، لا يهمّ! نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، لكن صيرورة العالم تسير وفق نظام التمزُّق الذي مسّ العالم كلّه».

تساءل آدم، وهو يرى المروحيَّة وهي تبحث عن مخرج من العاصفة الرمليَّة التي تعالت حتى كادت تغطّيها كلّيًا: *هل كان سميث يعرف قبل ثلاثين سنة أنَّه سينتهي هنا، في مكان لم يُصنع له أبدًا حتى أصبح لون بشرته يشبه حجارته وناسه؟*

خُيِّل إليه في لحظة من اللحظات أنَّه سمع عواء الذئب رماد الذي أصبح بعيدًا، منذ أن سُيِّجت القلعة بالأسلاك الشائكة المكهربة. لم يُترك منفذ صغير لأيّ كائن حيّ لكي يعبر، عبر الفجوات الصغيرة، بدون أن يتعرَّض للمهالك.

بدا صوت رماد بعيدًا ومكتومًا، كأنّه كان يأتي من خلاء موحش وبلا نهاية.

سمع انفجارًا عنيفًا تردَّد في الجهات الأربع في قلعة أميروبا.

لم يكن عواء كما تخيَّله، آدم وهو يتابع المشهد بقلب متعب، كان صاروخًا من *التنظيم*، على ما يبدو، مرّ على بُعد مسافة قليلة من المروحيَّة راسمًا خطًّا أحمر واشتعالاً في الفضاء، بعد أن اعترضه سلاح الباتريوت الجديد الذي يقيس سرعة الانطلاق في ثوان، ومنها ينطلق بسرعة مضاعفة ليعترض الهدف القادم نحوه.

لم تستطع المروحيَّة أن تخترق العاصفة التي التفَّت حولها، وكأنّها داخل تيّار مائي يصعب الفكاك منه. مالت بدرجة أكثر لتفادي قوَّته الساحبة، ثم شرعت في النزول التدريجي نحو مكان انطلاقها بصعوبة كبيرة. تنفَّس الفريق الذي كان على الأرض بخوف كبير، إذ لم يكن أمام الطيَّار ما يفعله إلَّا متابعة صعود ونزول ومَيلان المروحيَّة

ومراعاة جهة الرياح والعاصفة الرمليَّة، التي حَوَّلت كلّ شيء في دقيقة واحدة إلى محيط ذي صفرة داكنة أقرب إلى الحمرة. كلّ الخبراء العسكريِّين في القلعة يعرفون جيِّدًا مخاطر الرمال الدقيقة على محرِّكات المروحيَّات والطائرات، عندما تتجمَّع في الفجوات تسدُّها، وتتسبَّب في توقُّفها وسقوط الطائرة في الكثير من الأحيان.

نزلت المروحيَّة أخيرًا في الساحة العامَّة، وهي تتمايل كنسر جريح، حتى إنَّ آدم خاف عليها من الاصطدام بجدار أو بحائط قديم، لأنَّ السيطرة عليها بدت شديدة الصعوبة.

بقيت جاثمة في مكانها تحت رحمة العاصفة. استغلّ الطاقم الأرضيُّ الوقت لمراقبة محرِّكات المروحيَّة، وتنقية الشفرات والفجوات من كلّ ما علق بها من رمال وأجسام دقيقة متطايرة في الهواء. ولم تَطِرْ من جديد إلَّا مساء، عند الساعة ١٦ و٣٠ د و١٦ ث، بعد أن هدأت العاصفة، وعادت السماء إلى لونها الطبيعيّ، الأزرق الحائل.

علت باستقامة، كما في المرَّة الأولى، قبل أن تنحرف يمينًا نحو الأسطول الأميركيّ، في خليج هرمز والبحر الأحمر، الذي ينام فيهما كالحيَّة الأسطوريَّة الهامدة، تبتلع أيَّة طائرة أو سفينة أو آليَّة تمرُّ من هناك، من دون إذن مسبق. فقد سقطت طائرات كثيرة، بما فيها طائرة ركّاب إندونيسيَّة وجدت نفسها تعبر تلك الأجواء خطأ. لم يجدوها في أيّ مكان، وكأنَّ شيئًا ما ابتلعها، لكنَّ كلّ الروايات تؤكّد أنَّ مدفعيَّة الأسطول أسقطتها خطأ.

لا يدري آدم كم استهلك من سجائر، وهو مسمّر في نافذة الغرفة.

ظلَّ يتأمَّل المشهد إلى أن ابتلعت السماء الحائلة المروحيَّة التي صغرت في عمق السماء، حتى انطفأت وانطفأ هدير محرِّكاتها نهائيًا.

ـ ٣ ـ

لم يعد شيء في الملعب ولا في المدرَّج القديم. كلّ شيء مات فجأة. حتى الأوقات التي تعوَّد عليها الصبح، المساء، والليل أحيانًا عندما يكون الجوُّ صافيًا ومريحًا، ماتت أو لم تعد تعني له الشيء الكثير. عندما أخبر سميث بمضايقات ليتل بروز، وهما في طريق العودة بعد تجربتي PBPu1 وPBPp2 كان خجلاً ولم يجد كلماته. أجابه سميث، وهو يتأمّل خواء المكان الذي كانت تأتي منه رائحة غامضة هي مزيج من الخوف والغرابة والإعجاب بالمدّ اللّامتناهي الذي كان ينبتُّ أمامه بكلّ عظمته وجبروته، ثم التفت نحوه:

هل ترى هذا المدّ يا آد؟ يستطيع الإنسان أن يحتلّ ويروِّض بعض أمكنته لصالحه، ولو للحظات ليشعر بنفسه أنَّه عظيم وقويّ وإله صغير بحجم اللعبة، ولكن ماذا يستطيع أمام هذه القوّة التي ليست فقط أرضًا وتربة ونفطًا ويورانيوم، لكنَّها أيضًا رياح عاصفة لا أحد يعرف متى تتحرَّك، عواصف تمسح كلّ شيء، حيوانات خادعة لا تنتظر إلّا انكسار الإنسان، في مساحة ليس هو سيِّدها كما يعتقد. يجب أن تضع

في رأسك يا آد، أنّ ليتل بروز رجل كبير، أعطى لأميركا ما كان واجبًا عليه، بأخطائه وعنصريَّته وكرهه للأجناس والديانات التي لا تشبهه، لكنَّه اليوم مثل حيوان كان قد عاش في الأدغال سيِّد المكان، ثم فجأة أصبح لا شيء، يملك قوّته من ضعف الآخرين وحالاتهم الصعبة. أنت عالِم كبير، فوق ما تحدّده رؤية ليتل بروز الضيِّقة، بإمكانك أن ترفع ضدَّه دعوة، أيَّة واحدة، العنصريَّة، الإهانة، المضايقة.. أساعدك على ذلك وتنجح، لكن ما جدوى ذلك كلّه؟ أنت ستعود قريبًا إلى مخبرك، وهو سيغادر مكانًا لم يعد قادرًا عليه، بل المكان نفسه لم يعد بأهمِّيَّته نفسها أيّام الحرب الباردة. نستطيع أن نحصل على هذا كلّه أمنيًا من خلال أساطيلنا في البحر الأحمر ومضيق هرمز. أتمنَّى فقط أن تكون قد فهمتني جيِّدًا، لأنّه لا لغة أخرى أمام رجل مريض حقيقة. أتمنَّى فقط أن ينتهي بكرامته.

وقتها، صمت آدم وترك سميث لتأمُّلاته قبل أن يتوقَّف الرتل نهائيًا.

بدا الملعب خاليًا من كلّ شيء، إلَّا من الزبَّال الذي ظلَّ ينظر صوب الفراغ، ومن حين لآخر، يلتفت نحو الرياضيِّين الذين يركضون عادة في مثل هذه الأوقات من أيَّام السبت. يقف بعيدًا، ثم يمشي على الحوافّ بحثًا عن أيَّة ورقة أو أوراق من الأشجار المتهاوية، أو عقب سيجارة، أو حتى صحيفة تُركت هناك، ليضعها في كيس القمامة الذي يحمل تسمية خاصَّة في القلعة، *كيس الرسكلة*، أو إعادة المعالجة، إذ تستعمل محتوياتها في إنتاج الطاقة بواسطة الحرق للحصول على طاقة رخيصة، تدمج مع اللوحات الشمسيَّة، فتساعد على مدّ القلعة بجزء مهمّ من التدفئة أيَّام الخريف والشتاء والطاقة الكهربائيَّة.

بعد لحظات التسخين، لم يجد آدم لا الرغبة ولا الطاقة في الجري. فاكتفى بالمشي باستقامة وخفَّة، محاولاً محو كلّ ما حدث من

ذاكرته المتعبة. لم ينتبه لظلّ الميجور توني نيلسون الذي كان وراءه، يقتفي خطواته.

- كانت الخسارة قاسية جدًّا، لهذا لم نلتق! رافقت جثمانه حتى البحر الأحمر، حيث كان أقرباؤه في انتظاره. خسارة، ولكنْ هذه هي الحرب ضدّ عدوٍّ يراك ولا تراه.

- خسارة قاسية. في النهاية، لا نملك قدرًا آخر إلّا قدر الحياة، على قسوته.

زاد توني في سرعته قليلاً، أسرع آدم أيضًا ليظلّ بمحاذاته.

- هل تعلم يا آدم أنَّهم أغلقوا البارحة رسميًّا مخبر الأبحاث في القلعة. خسارة! كوَّنَّا عائلة جميلة ومتماسكة. وسيتمّ نقل كلّ العلماء نحو أمكنة عملهم الأولى. احتمال أن يُعيدوك إلى مركز بنسلفانيا لمواصلة أبحاثك النوويَّة. هل اتَّصلوا بك؟

- لا. ربَّما كانت آخر إبداعات ليتل بروز؟

- لا. لا دخل له. قرار سفن البحر الأحمر ومضيق هرمز. المنطقة خطيرة، ويمكن أن يكون هجوم مباغت وكبير على القلعة يتمّ الاستيلاء فيه على آليّات شديدة الحساسيَّة كما تعرف. وفاة سميث جردن خلقت فراغًا حقيقيًّا.

- ليتل بروز أعادني إلى غرفتي الأولى، ونزع المضيف سالم، الذي كان يساعدني. أصبحت أتدبَّر أموري وحدي. ليس مشكلاً. كلُّها أيّام وينتهي كلّ شيء، ونترك له قلعته.

- نعم. يقول إنَّها إجراءات تقشُّفيَّة. فعل ذلك مع كلّ الذين لا يحبُّهم. حتمًا هي فكرة من أفكار مستشاريْه العظيميْن والعبقريّين الفذَّيْن: بيرل غروسمان وفرناندو ليفي، اللذيْن جاء بهما في مكان الرجل الجميل سير جون. فقد خلقا فراغًا كبيرًا من حوله، وعزلاه أكثر عن كلّ

محيطه الذي كان يغطّي نقصه. لكنّها مسؤوليّته. هناك تحقيق قد فُتح لمراقبتهم جميعًا ومتابعة تحرُّكاتهم المشبوهة مع مجموعات تتاجر في الأعضاء البشريَّة وفي المخدَّرات وتهريب النفط. المسألة الآن طيُّ الكتمان، إذ يبدو أنَّ امرأة من نساء السدّ أُخذت منها كليتها قدّمت شكوى بهذا الصدد.

ـ هذا صحيح، لقد أصبحا هما من يسيِّر القلعة، في غياب مُسيِّر حقيقيّ. ما يزال يحلم بأن يصبح ماريشالاً، وهو يتحرَّك بالحفّاضات ومعون البول والفضلات. زِدْ على ذلك البروستاتة التي قضت عليه نهائيًا. كان يجب أن يتوقَّف أو يوقَف. المستشاران يؤكّدان له طبعًا في كلّ صباح، أوّل ما يستيقظ، وفي المساء قبل أن ينام، أنَّه الأجمل والأبهى والأبقى، وأنَّ فكرة الترقية إلى رتبة ماريشال أصبحت على مرمى حجر، بل تجاوزها، ولم يعد في حاجة إليها.

ـ إلى الجحيم. لم يعد شيء فيه يخيف. وليست لي حكمة سميث لتحمُّل عنصريَّته وجهله. حزين جدًّا على توقيف مخبر الأبحاث، إذ كان بالإمكان العمل أكثر على التخفيف من أضرار PBPp2 البشريَّة والبيئيَّة، وهو أمر في متناولنا علميًا، سأكون أسعد إنسان.

ـ تستطيع في بنسلڤانيا استرجاع المبادرة، ومواصلة العمل لتطويره أكثر.

ـ إذا لم يستعملوها قبل ذلك مع الجنون الذي أصاب *التنظيم* في الآونة الأخيرة. يريد أن يصنع انتصارًا قبل إفراغنا لهذا المكان. في حاجة ماسَّة له.

ـ على أيّ حال، جئت من أجلك لسداد دين على عاتقي يا آدم.

ـ خير يا ميجور توني. الرسالة؟ لكنّي أعرف أنَّ الظروف لم تكن ملائمة للسؤال عنها.

ـ امش، واترك حركاتك كما هي، ولا تتوقَّف ولا تتأخَّر. سأبعث لك في

المساء مضيفي الخاصّ، نرى معًا حفل الغوسبيل على روح سميث، وأسلّمك الرسالة التي تركها لك. أنا نفسي لا أعرف المحتوى، سوى أنّه ألحّ على تسليمك الأمانة. أعتقد أنّ الأمر يتعلق بأمايا.

ـ أمايا رأيتها وتحدّثت إليها، وعرفت أنّها بخير. هذا كلّ ما يهمُّني في النهاية.

ـ لا أدري، ربّما شيء جديد. زِدْ من سرعتك يا عزيزي ولا تلتفت إلى الوراء، علينا أن نركض بلا هوادة. الزبّال الآن تحوّل إلى شرطيّ، وكأنّه يراقبنا من أعلى المدرّجات. حالته تثير الشفقة، لكنّ المسكين ينفّذ أوامر فُرضت عليه، من ليتل بروز أو من نائبيه.

ـ معك حقّ.. نجري.

مطر ناعم يتهادى على أرضيّة الملعب. شمّ رائحة الياسمين، ثم عطر البرتقال، ثم مزيجًا من البنفسج والبرتقال والياسمين. كان وجه أمايا مضاء مثل شعاع فجريّ. رآها تركض بلا توقُّف، يتركها تسبقه قليلاً، ليراها كما هي، قطعة من الجنّة، تحت شمس تغيب وتشرق كما يحلو لها. شعرها تعبث به الرياح في كلّ مكان. يسبقها لكي يسمع أنفاسها تتقطّع وراءه. تحاول عبثًا أن تلحق به. يكمل الدورة بسرعة. يراها من بعيد كظلٍّ يستحمّ بغيم ومطر. تتماهى مثل نسمة هاربة.

زاد في السرعة أكثر.

لم يدرِ كم من الوقت قضاه في الركض، لكنّه جرى كثيرًا، قبل أن ينبّهه الميجر توني. *اتبعني، لنصعد معًا الأدراج بهدوء، والتفت وراءك بهدوء، نحو مدخل القلعة ناحية المطار العسكريّ، وسأشرح لك قليلاً*. من وراء الشبّاك، رأى آدم سيّارة هامر تتوقّف كما رآها منذ زمن بعيد. ينزل منها عسكريّان، أحدهما مسلّح، يبقى على مسافة بعيدة نسبيًا، بينما الثاني يأخذ حاويتين بلاستيكيّتين. يسلّمهما للرجل

الملثَّم، بينما يسلِّمه هو أيضًا حاويتين باللون نفسه ثقيلتين، يظهر ذلك من طريقة حملهما. يتسلَّم الرجل الملثَّم كيسًا صغيرًا، افترض آدم أنَّ به نقودًا. يركب كلّ واحد سيّارته. ثم يغوص الملثَّم في عمق الرمال، بينما تعود سيّارة هامر إلى مدخل القلعة في شمالها.

ثم سحب توني آدم بنعومة إلى أعالي المدرَّج، وكأنّهما يتدرَّبان على تحمُّل قوَّة الصعود كما في الجبال. من حين لآخر، يقيس توني، بساعة القياس، دقّات القلب ممّا يسمح لهما بالتوقُّف قليلاً. بينما كان الزبّال قد انسحب، واتّجه نحو زاوية أخرى ليكون ما يحمله توني في يده واضحًا. رأيا بشكل أوضح سيّارة هامر، وهي تتوقَّف عند باب المروحيَّة الطبيَّة الحمراء، التي كتب عليها طوارئ. ينزل منها رجلان يلبسان الأبيض، بقفّازتين، الأكيد أنَّهما طبيبان أو ممرِّضان. يستلمان الحاوية الزرقاء، ثم يتوغَّلان في عمق المروحيَّة التي طارت بعدها بسرعة نحو مكان غير معلوم.

انحدر توني وآدم من جديد إلى مضمار الملعب، وواصلا الدوران وكأنّهما لم يريا شيئًا.

استقرَّت شكوكهما على شيء واحد.

ـ هل فهمت سرّ اللعبة؟ على كلّ حال، هناك من يصوِّر كلّ هذه التفاصيل وسيفضحون كلّ شيء.

أسرّ توني لآدم، وهو يواصل جريه.

ـ لا يمكن أن يكون الأمر شيئًا آخر سوى تهريب الأعضاء.

ـ نعم. لا احتمال آخر غير هذا. وأكثر. في المروحيَّة طبيبان، وهذا يعني احتمال وجود جريح على متنها، وأنَّ العمليَّة ربَّما يمكن أن تكون قد بدأت في الطائرة نفسها، قبل الوصول إلى أقرب مستشفى، لا أحد يعرف هويّته ومكانه.

ـ ليست المرَّة الأولى يا توني. رأيت هذا في العديد من المرَّات، وبالشكل نفسه، وفي الوقت نفسه.

ـ أنا أعرف أيضًا وأتابع الموضوع عسكريًا، منذ أن كلَّفني سميث غوردن، بعد أن تقدَّم أحدهم بشكوى من سكّان السدّ، أو ربّما من حقوق الأجناس الآيلة إلى الزوال، الموجودين هناك، إلى القيادة العليا في البحر الأحمر ومضيق هرمز. ففتحوا تحقيقًا في الأمر. ويبدو حقيقة أنَّ الأمر ليس تهمة من أعداء ليتل بروز. ما يحدث شديد الخطورة. استفحل الأمر منذ مجيء نائبيْ ليتل بروز الجديديْن، اللذين قاما بتصفية كلّ من يمكنه أن يراقبهما أو يقف ضدَّهما ويفضحهما.

ـ جريمة موصوفة بكلّ المقاييس. يستغلُّون مأساة الناس التائهين في رمال الموت.

واصلا الركض قبل أن ينفصل توني عن آدم:

ـ أتركك عزيزي تتمّ دوراتك. لا تنسَ المرور لحضور حفلة الغوسبيل في كنيسة *القدّيسة* هذا المساء على روح الجنرال سميث غوردن. سأبعث لك من يرافقك.

ثم واصل جريه حتى غادر الملعب.

أضاف آدم دورتين بعد مغادرة توني الملعب، ثم خفَّف من جريه حتى تحوَّل إلى مشي. . إلى أن غادر الملعب. بينما الزبّال ما يزال معلَّقًا على رأس الأدراج. لم يوله أيَّة أهمِّيَّة، وواصل سيره حتى غرفته.

عندما فتح الباب، شعر بالبرد. رأى السلحفاة حوَّاء وهي ترفع رأسها، وكأنّها كانت تبحث عنه. ألم تقل له إيڤا: هي ذي حبيبتك، *ضعها في عينيك قبل قلبك*؟ عندما مدَّ يده نحوها لم يفهم. عضَّته على غير عادتها. بدأت تمشي وتجيء بسرعة، وتنطح الأشياء المحيطة بها كأنّها أُصيبت بالعمى. عندما يتحرَّك تأتي نحوه، وعندما يهدأ تُصاب

بحيرة. لا تعرف ماذا تفعل. حملها من ظهرها، فبدأت تنطُّ في الفراغ محاولة التخلُّص منه. كانت في حالة هَيَجان كبير. لم يكن في عينيها ما يثير الشكّ ولا نقطة بياض، ثم إنّها كانت في العيادة قبل أيّام مع مرور الطبيب الذي أكّد على صحّتها وعافيتها. وضعها في سلّتها التي كانت تنام فيها وسط الأكل والحشائش وأوراق السلطة، التي كان يقطفها وهو في طريق عودته من المضمار، أو يأتي بها من المطبخ.

لم تأكل شيئًا. لم تشرب.

عندما مرَّ الحارس، وذهب معه عند ميجر توني وحفل الغوسبيل، تركها نائمة بعد أن تحرَّكت كثيرًا.

أغلق الباب بنعومة لكي لا يوقظها، وخرج.

قاده الحارس مباشرة إلى حفلة الغوسبيل.

كانت سهرة الغوسبيل ناجحة بكلّ المقاييس. حضرها الكثير من العسكريّين، وكذلك الكثير من العاملات في القلعة. كان الجوُّ مفتوحًا وجميلاً. أُوقدت فيه الكثير من الشموع على روحه. كلّ من أصدقائه قالوا كلمة عنه. الكثير منهم لم ينه كلمته، ما عدا ممثّل ليتل بروز الذي قرأ كلمة باسم الأخ الأصغر. *اعتبرْني أخاك الأصغر. لقد كنت لمعتنا الكبيرة*. الباقي كان كلُّه عبارة عن شعارات بُثَّت سابقًا على المباشر على الشبكات المختلفة. آدم قال كلمة صغيرة، ثم عاد إلى مكانه. *شكرًا معلّمي. تعلّمت منك الكثير. شكرًا لقلبك الكبير.*

ثم بدأ حفل الغوسبل برباعيّ شابٍّ مكوَّن من تينورين بصوتين فخمين وقويَّين، وبصوت خفيف وصوت باريتون، وصوت منخفض لكنّه ممتلئ. أنشدوا أشياء قديمة لجسيكا جورسي، ويولاندا أدامس، وليز ماكومب، والأقدم ماهليا جاكسون، ابنة لويزيان، وغولدن غيت كوارتيت. كانت سهرة هادئة، ولكنّها حزينة جدًا. افترق بعدها الحاضرون بشيء من الراحة

الداخليَّة والسلام مع النفس، مع موسيقى هندل التي أغرقت جميع الحاضرين، قبل خروجهم، في سكينة كبيرة وعودة نحو الداخل.

على الرَّغم من صرامته وجدِّيَّته، لم يكن سميث غوردن قاسيًا أو صادمًا. كان مسيحيًّا مؤمنًا بالخير لكلّ الناس. يقول دائمًا إنّه يجب عدم اليأس من الإنسان. بقدر ما يملك طاقة تدميريَّة تقوده حثيثًا إلى البدائيَّة والحروب، يملك أيضًا طاقات داخليَّة خلَّاقة وقويَّة جدًّا للتجدُّد والخروج من الدوائر الضيِّقة التي كثيرًا ما يضع نفسه داخلها.

قبل أن يغادر بقليل، جاءه ميجر توني وسلَّمه غلافًا فيه رسالة الدعوة الرسميَّة لحضور الحفل، تفاديًا لمضايقات ليتل بروز المحتملة، أو من زبانيَّته الصغار. هو يعرف جيِّدًا مزاج الرجل، ليس طبيعيًّا. أحيانًا يكون طيِّبًا، ولكنَّه في أغلب الأحيان، بسبب ضغط وضعه الصحّيّ، يتحوَّل إلى شخص لا يُطاق حتى وهو بعيد. لأنْ لا أحد التقى به أو ادَّعى ذلك، فكلّ ما يصل عنه من أخبار مختلفة، هو في الأصل ما يُسرَّب عنه من القاعة البيضاء أو من على شاشات الرصد. إذ لا أحد يمكنه أن يدَّعي أنَّه رآه ما عدا أصدقاؤه الذين رافقوه في الرماديّ، وكانوا حاضرين لحظة انفجار السيّارة ـ الصهريج المليئة بالنفط.

ـ ليس هذا المهمّ، قال توني. هذه الدعوة احتفظ بها. إذا أزعجك ليتل بروز تستطيع أن تقول له إنَّك كنت مدعوًّا من طرفي. كلّ شيء موجود في الوثيقة. وهذه الرسالة التي تركها لك سميث. هنا لا أحد يرانا، ومع ذلك احذر قليلاً.

ـ سأحاول عزيزي.

ـ إذا احتجت لي، أنا موجود هنا دائمًا، في كنيسة القدّيسة، بعد الظهر. مكان مريح. يوفِّر السكينة التي نحتاج إليها في الأزمنة الأكثر قسوة وصعوبة.

ـ ٤ ـ

في الليل، عندما عاد من حفل الغوسبيل، كانت حوّاء في سلّتها، ما تزال نائمة، تمامًا كما تركها. لم يرد أن يوقظها، إذ بدت في حالة عصبيَّة وحالة عمى لم يشهدها فيها من قبل. وضعها في الزاوية المظلمة، وغطّاها بالستائر حتى لا يزعجها الناموس، الذي يستغلّ أيّة فرصة لفتح النافذة ليدخل سريعًا ويستقرّ في مكان لا أحد يستطيع أن يزيحه منه.

تمدَّد على السرير.

فتح آدم الرسالة التي سلَّمها له توني. لم يجد ما توقَّعه باستثناء بعض الكلمات الطيِّبة التي لا أحد يقولها غير سميث غوردن: عزيزي آد. *أتمنَّى أن تعذرني هذه المرَّة، أخشى أن أستقرّ في العمل على ظهر السفينة ولا أراك. عمل الربط بين القلعة ومحيطها من المناطق المؤمنة، والسدّ، يأخذ الكثير من وقتي. سعيد أنَّ تجربتنا نجحت، لا تشغل بالك، أعرف أنَّ كلّ شيء سيصلح قريبًا. أثق في الإنسان دائمًا. أضع بين يديك هذا المفتاح USB أتمنَّى أن تجد فيه ما لم*

تجده من قبل. كان في نيّتي أن أسلّمك أنا كلّ شيء بيدي، وأشرح لك كلّ الملابسات، لكن كلّفت توني للقيام بذلك، فهو ثقة كبيرة، مثلك.

سحب آدم الجهاز قليلاً، وأدخل فيه المفتاح الصغير. ضغط بأصبعه، فارتسمت شاشة بعرض الحائط كلّه. ثم عاد ليتمدّد على سريره. وبدأت الصور تتلاحق كما في أوّل مرّة. فجأة، بدا له كأنّه في عالم يعرفه. وضع يده على فمه، وظلّ يتأمّل المشاهد التي كانت تمرّ أمامه، كما لو أنّها أفلام خرجت من مخابر الأخوين لوميير في بداية السينما، أو شارلي شابلن، الفارق الوحيد هي أنّها كانت بالألوان والصوت والحركة طبيعيّة.

١ ـ يظهر الركّاب وهم ينزلون من الطائرة. من بينهم تتّضح هيئة آدم وهو يمتطي السلّم الميكانيكيّ، بقبّعته السوداء، وكوفيّته الحمراء، وحقيبته الصغيرة التي أهدتها له أمايا التي كانت قد سبقته إلى باريس قبل أسبوع، لاستقبال والده مع أخته تالا وإدخاله إلى مستشفى فال دو غراس. عندما انتهى السلّم الميكانيكيّ، جرّ حقيبته وراءه.

٢ ـ يتوقّف آدم قليلاً عند معبر شرطة الحدود، يُخرج جوازه الأميركيّ. يقرأ ما هو مكتوب على اللوح الضوئيّ: *جهة الأوروبيّين والفرنسيّين، وكلّ الجهات الأخرى*، المخصّصة لبقيّة الجنسيّات. يسأل المضيفة الواقفة تحت اللوح الضوئيّ. تؤشّر بيدها مع ابتسامة مشرقة، نحو الجهة الأوروبيّة التي كانت شبه خالية. يقدّم جوازه لشرطيّة الحدود. تنظر إليه قليلاً. وفي ثانية واحدة تُرجع له جوازه.

٣ ـ بياض خفيف يبيّن أنّ الفيلم رُكّب على عجل. آدم وهو يصعد الأدراج الميكانيكيّة. يغيب قليلاً وسط الوجوه الكثيرة، قبل أن يظهر من جديد وهو يقف مع الذين وصلوا معه، لأنّه لم تكن لديه أيّة

أمتعة. يسير. يمرُّ عبر حاجز الجمارك. يخرج من جهة الذين ليس لديهم ما يصرّحون به.

٤ ـ بياض. ثم وهو يجرُّ حقيبته في وسط مطار عامر. الصورة مأخوذة من فوق. لكنَّه يظهر بقبَّعته وكوفيَّته الحمراء. يُخرج شيئًا من جيبه. تليفون. يتلفن. صوته لا يصل. يهزّ رأسه بسعادة، ويرفعه وهو يحكي. ينظر إلى اللوح الضوئيّ الخاصّ بالطائرات التي وصلت.

٥ ـ يتَّجه آدم نحو الباب الدوَّار الذي يؤدّي إلى الخارج. يظهر بشكل أكبر. تخرج من فمه جملة بالكاد مفهومة، وهو على التليفون. لا مشكلة، *أنتظرك. الطائرة وصلت متقدّمة*. ثم صوت غير مسموع. يقفل على إثره التليفون. يضعه في جيبه. يخرج وهو يجرُّ حقيبته.

٦ ـ في الخارج الثلج يتساقط. يغطّي ظهور السيّارات والحافلات ورؤوس الناس. حركة عاديَّة تشبه حركة كلّ المطارات. المغادرون يدخلون. والقادمون يخرجون. حافلات الهيلتون الرماديَّة، الصغيرة والخاصَّة، تتوقَّف. تأخذ المسافرين ثم تنطلق لتحلَّ محلَّها أخرى. السيّارات الخاصَّة التي فضَّلت عدم التوقُّف في الباركينغ والاكتفاء بالموقف الموقَّت الذي لا دفع فيه لمدَّة عشر دقائق.

٧ ـ صورة أُخذت من فوق، من طابق علويّ في المطار أو من سطح قريب. سيّارة حمراء صغيرة تتوقَّف في مكان التوقُّف السريع والموقَّت. عرفها. سيّارة أمايا. نزلت منها. كانت ترتدي معطفًا زهريًّا. في جزئه العلويّ، المحيط برقبتها، صوفٌ اصطناعيٌّ. تحته يظهر قليلاً لباس ورديٌّ خفيف منقَّط بالأحمر مثل العَلَم اليابانيّ. على رأسها قبَّعة حمراء. أشَرت بيدها وهي ترفعها عاليًا. قرأ بين شفتيها وفي عينيها: حبيبي. يرفع يده نحوها ويهمُّ بالتقدُّم. بينما تضع مفتاح السيّارة في جيب حقيبتها الزهريَّة الصغيرة.

٨ ـ فجأة، فصلت بينهما حافلة الخطوط الجوّيَّة الفرنسيَّة المتّجهة عادة إلى الأوپرا، أو إلى مطار أورلي، في دورات عاديَّة، على رأس كلّ ساعة.

٩ ـ فجأة، بياض. كأنّ الزمن توقَّف. أصبح المشهد واسعًا. طلقة أولى جافَّة. تفرَّق الناس في كلّ الاتّجاهات. رجل يسقط على الرصيف. يرفع آدم رأسه قليلاً ويتراجع للدخول إلى المطار. يهجم عليه ثلاثة رجال يرتدون الأسود مثل الخرس الخاصّ. يغطُّونه كليًّا. ثم يدفعون به في عمق السيّارة المحصَّنة. رشقات الرصاص تزداد كثافة.

١٠ ـ سيّارة سوداء كانت تقف في الزاوية، في الظلّ. تدور في مكانها دورة مجنونة. ثم تنطلق بسرعة وتخرج نهائيًّا من المشهد.

١١ ـ الرصاص يتكاثر. يسقط شخص كأنّه قُنّص من الأعلى. ثم ثان. جثَّتان، واحدة لم تكن بعيدة عن حافلة الخطوط الفرنسيَّة. وثلاث جثث لرجال يلبسون السواد. آدم داخل السيّارة بالكاد يظهر. يحوط الأمن سيّارة آدم. الكثير من الناس كانوا عاجزين عن القيام. يصرخون في أمكنتهم، بينما امتلأ مدخل المطار بسيّارات الإسعاف.

١٢ ـ صورة مكبَّرة قليلاً. الحافلات لم تتحرَّك من مكانها. جاثمة. حافلة الخطوط الجوّيَّة الفرنسيَّة التي فصلت بينهما، لم تتحرَّك من مكانها أيضًا. فيها الكثير من الثقوب، وزجاجها مكسور كليًّا.

١٣ ـ حافلة الخطوط الجوّيَّة تتحرَّك، بسرعة ثقيلة في البداية، ثم يسرع. يرى أمايا التي كانت متخفِّية من ورائه تركض نحو السيّارة السوداء التي أخذته، وهي تصرخ. فجأة سمع طلقًا ناريًّا أتى من الجهة العليا. تسقط أمايا على الأرض. تحاول أن تقوم لكنَّها تسقط ثانية. الكاميرا تصوِّر من الأعلى نحو الأسفل. أمايا بلباسها الناعم الفاتح، في بركة ثقيلة من الدم على مستوى الرأس.

أماااااياااا... يا إلهي؟ ماذا أرى؟ لا يمكن.

وضع آدم يده على فمه، وترك الشريط حتى النهاية.

١٤ ـ سيّارات الإسعاف الكثيرة لا تتوقّف. أضواؤها الدوّارة تملأ المكان، مع سيّارات الشرطة.

١٥ ـ بياض وصوت خفيٌّ لشريط كان يتحرَّك. ثم سواد.. والنهاية.

أعاد الشريط إلى اللقطة ١٣ التي نُزعت من الشريط الذي سبق أن رآه. تأمّلها صورة، صورة. نَفَسًا، نَفَسًا. رعشة، رعشة. رأى بوضوح هذه المرَّة، كيف كانت أمايا مختبئة من وراء حافلة الخطوط الفرنسيَّة، وعندما تحرَّكت هذه الأخيرة، قامت أمايا وركضت نحو السيّارة السوداء التي كانت قد وضعت آدم في الداخل وسقط بجانبها الحرَّاس الثلاثة. كانت في حالة رعب، وهي تندفع إلى الأمام، لكنَّ الرصاصة التي أصابتها في الساق، أسقطتها أرضًا، حاولت أن تقف على رِجْل واحدة وتتحرَّك نحو السيّارة، في أقلّ من ثانية أصابتها رصاصة جديدة في الرأس. مدَّت يدها نحو جبهتها ثم سقطت مثل الحَجَرة على فمها. هذه التفاصيل لم يرها آدم في المرَّة الأولى.

أمايا... لا يُعقل؟ أخذته رعشة في كلّ أعضائه. وشعر ببرودة عميقة شعر بها تقلُّه حتى تحوّله إلى شيء يشبه الورق المرميّ على حافَّة سلَّة المهملات. لم يستطع أن يكتم صرخته وهو يكاد لا يصدِّق ما كان يراه أمام عينيه.

وضع مرَّة أخرى يده على فمه لكي لا يصرخ مثل الذي أُصيب بسكّينة في القلب، ويُسكت العاصفة التي أحرقت داخله. لم يكن آدم في حاجة إلى تفكير كبير. لقد مسحوا في الشريط الأوَّل اللقطة ١٣، أي كلَّ ما تعلَّق بموت أمايا ليبقوه في المشروع الذي وضع فيه شرطًا مسبقًا لمواصلة عمله فيه.

لم يعرف ماذا يفعل، هل يحقد على سميث غوردن أم يجد له الأعذار التي تبرّئه من عمل كهذا؟

أغمض عينيه لكي لا يرى إلّا تلك الضبابة التي نزلت عليه بقوّة، فطمست كلّ شيء أمامه.

يا ألله، أيُّ قدر أسود؟ لماذا لم تبق حافلة الخطوط الفرنسيّة في مكانها؟ الأكيد أنّها كانت ستنجو.

فجأة، استعاد آدم المحاورة التي دارت بينه وبين أمايا، واللقطة الأخيرة التي بدت فيها كدمية غبيّة.

فجأة، انفتحت الشاشة وغطّت على الشريط الذي كان في النهاية، على وجه ليتل بروز الذي زاد انتفاخًا.

ـ أقدّر حزنك يا آدم.

التفت آدم نحو الشاشة، تمنّى في تلك اللحظة أن يكسرها أو يحرقها؟ لكن ماذا يكسر وماذا يحرق؟ لا شيء.

ـ نعتذر يا عزيزي.. اضطررنا إلى ذلك. كلّ فريق العمل كان في حاجة ماسّة إليك، أنت من يملك أساسيّات البحث المسجّل باسمك في مسألة انصهار الجزئيّات وكيفيّة التحكّم فيها، والتحكّم في الطاقة الناتجة عن ذلك. تجاربك المخبريّة عرّفتك بأنّه يمكن السيطرة عليها لتفادي ما حدث في هيروشيما، وربّما ناغازاكي أكثر، لولا أن حمتها الفجوة الجبليّة الكبيرة التي أكلت كلّ الطاقة المتولّدة عن الانفجار.

ـ كلّ هذا انتهى. أريد فقط أن أعرف هل ماتت أمايا في الحادث؟

ـ لو تأمّلت الكتابة في الأخير، لوجدت أنّها من الذين سقطوا يومها بسبب *التنظيم* البشع.

ـ ماذا فعلتم بي؟ كلّ ما رأيته كان مجرّد افتراض محكم؟

ـ نعم. ارتكب التقنيُّون والمهندسون خطأ فادحًا في النهاية. كاد أن يخرِّب كلّ شيء. عليك أن تتفهّم. لولا ذلك، ما كنت قبنت. على أيّ حال، لست أنا صاحب الفكرة. نحن قمنا بتنفيذها فقط على مستوانا، بفضل خبرة مهندسينا ونائبيّ النبيهين لكلّ شيء. وولكر سام ولوثر سيمسون لا يكرهانك، لكنّهما قاما بواجبهما العسكريّ الضروريّ.

ـ ياااااااه. . . أحسست بكلّ شيء. بكلّ شيء أبدًا. لم أرد أن أصدّق، لأنّي كنت أريد أن أؤمن بأنّ أمايا ما تزال على قيد الحياة. رأيتها في النهاية تحوَّلت حركتها كما في ألعاب المانغا. رأسها يدور بغباء غريب. مجرمون يا ليتل بروز. مجرمون حقيقة. تعرف يا ليتل بروز ماذا أتمنّى الآن؟

ـ أن تملأ جسدك بالمتفجّرات حتى العنق، وتأتي إلى مكتبي وتفجّر نفسك فيّ.

ـ هذه المرّة، أخطأت. لا حلم لي الآن سوى أن أجلس مقابلاً لك وأتأمّلك، وأرى وجهك الذي مزّقه اللغم وشوّهه حتى حوّلك إلى حيوانٍ أسطوريّ بلا رحمة، حاقد على الكلّ، حتى على والده الذي جرّه نحو هذا الاحتضار الطويل! ثم أستمتع وأنا أراك وأنت تُدخل في مثانتك ذلك الأنبوب الرقيق والمؤلم في فراغ حجرك لتحرّر البول المحتقن في مثانتك التي تنتفخ بسرعة. أرى فقط هذا الهرم الوهميّ والكاذبَ، وهو يتمرّغ كلاشيء أمامي، يبحث فقط عمّن يرحمه بطلقة رصاص في دماغه. تنبّهني إلى المسدَّس في درجك. لا أمنحك هذه الفرصة، لكنّني أتمدّد على السرير وأتأمّلك. تحاول أن تقوم لأخذ المسدّس لتنتحر، أخطفه قبلك وأرميه من الطابق السابع، حيث

تخفي رائحتك التي تشبه الجيفة. تتضوَّر في مكانك. تتنهَّد. تتعرَّق. تتمنَّى موتًا لا يأتي. أشتهي أن أكون قريبًا منك، وجهًا لوجه. أتأمَّل صفرة وجهك وخجلك الذي يمحوه وجهك الحديديُّ، وأنت على كرسيِّك المتحرِّك، ولا تجد حتى من يغيِّر حفّاضاتك التي التصق بها خراك على مدار أسبوع. رائحتك العفنة تصعد إلى السماء ولا أحد يقربك، حتى وولكر سام ولوثر سيمسون، لأنَّ رائحتك العفنة التي هي خليط من فضلاتك وبولك وعرقك وحقدك الأعمى أيضًا، أبعدت عنك حتى الذباب الذي عافك. نفسي أراااااك هكذا. قتلك لا يفيدني. أصلاً لم أفكِّر فيه.

ـ تعرف أنِّي أستطيع الآن أن أقتلك مثل الكلب. لكنِّي لن أفعل. سجَّلت فقط كلامك، وبعدها سأطلب إذنًا لكي يتركوك لي وحدي، وقتها نتحدَّث أنا وأنت.

ـ موتي سهل جدًّا، ولكن هل يشفي غليلك؟

ـ ما يشفي غليلي هو ما ستراه. سترى الذي لم تره أبدًا في حياتك.

ـ خرايا عليك، وعلى كلِّ ما سأراه في رائحتك.

ـ سترى. ألم تشتق لحوّاء بعد؟ ألم يشرك جنون المسكينة؟ سنداويك أنت أيضًا.

لم يفهم. انطفأت الشاشة، وبقيت الصورة معلَّقة على أسماء الضحايا، التي بدأت تصعد في نهاية الشريط. الجرحى. ثم الذين سقطوا برصاص التنظيم: *مارتن* من البحريَّة النيفي، الذي رمى بنفسه فوق آدم، من تنيسي. الثاني *سيمون بيكر*، من كارولينا الجنوبيَّة، شابٌّ شجاع حاول أيضًا أن يتصدى لقتلة *التنظيم*، الثالث يونس بحري، ضابط شرطة فرنسي، في خليَّة مكافحة الإرهاب، من ضواحي باريس، من سارسيل، قتل في الظروف نفسها. *أمايا*، زوجة آدم. أُصيبت وهي

تحاول أن تركض نحو زوجها الذي كان رجال الأمن المكلَّفين بحمايته قد هرَّبوه. ماتت في المستشفى بعد ساعات من وصولها. وخمسة مسافرين أيضًا كانوا في المكان نفسه.

وهو في الفراش، سمع التليفون يدقّ.

ما كاد يقوم من مكانه ليري وضع حوّاء التي بدت له غير عاديَّة اليوم كلَّه، حتى جاءه صوت مثقل بالرمال: *آدم. أعرف أنّك هنا ولا تأخذ التليفون. خذه، لا تخف. الغراب. الكوربو لا يأكل الناس. كيفك يا عزيزي الآن، بعد كلّ هذه المحن والتواطؤات؟ أيّها العالم الكبير؟ يا مخترع PBPu1 وPBPp2 الرائعتين. انتهى دورك يا عزيزي، وستُرمى في هذا الفراغ كالذين سبقوك. أنت الآن لا شيء. بعوضة في صحراء! ما الأفضل؟ أن تكون بعوضة أم غرابًا؟ نسيت أن أبارك لك نوبل للفيزياء. إسمع الآن الخبر، قبل ثوان أعلنوا اسمك. يا بختك. مليون دولار، ماذا ستفعل بها؟ سنحشوها لك في مؤخّرتك في شكل قنابل، صنعتها أنت بيدك أو عقلك.*

صمت. جاء بعدها صوت ويليام ديكنز، مدير مختبر بنسلفانيا: *مفخرة لنا جميعًا*. وبعده صوت آخر. وآخر. آخر. عرف صوت توني. كلُّها الجملة نفسها: *مبروك نوبل للفيزياء*.

شعر بجسده أثقل من الرصاص، وبالعبث في كلّ شيء.

لا يدري إذا كان صوت الكوربو حقيقة أم مجرَّد وهم، وأن مباركات نوبل ليست إلّا سلسلة من الأوهام الذهنيَّة التي أوصلوها له، لكنَّه أغمض عينيه لكي لا يرى ولا يسمع شيئًا، وتمنى فقط من كلّ قلبه أن يخرج بأقصى سرعة ممكنة من هذا الكابوس الذي لبسه أو ألبسوه إياه، حتى كاد يخنقه بعفنه.

فتح عينيه قليلاً. رأى الشاشة الملوَّنة كما في الأعراس، وهي

تنفتح باتّساع، وتكبر، حتى تملأ الحائط كلّه. قرأ الخطوط التي ارتسمت أخيرًا بكلّ وضوح:

تُبارك قلعة أسبروبا ممثّلة في الجنرال دافيد حيون دوغلاس، ليتل بروز، لأحد أهمّ باحثيها السيّد آدم غريب صاحب مشروعي PBPu1 وPBPp2، بفوزه بجائزة نوبل للفيزياء. يستحقّها بقوّة، فهو سيّد السلام مع رفقاء مخبره الذين استطاعوا أن يتحكّموا في الإشعاعات الخطيرة ما يسهّل اليوم استعمال الأسلحة الفتّاكة في دوائر ضيّقة ضدّ كلّ من يهدّدون السلام العالمي والإنسانيّة.

مدّ آدم يده نحو حوّاء، كانت أنفاسها قد انقطعت نهائيًّا.

اقترب منها أكثر. غاب نَفَسُها نهائيًّا.

٨ ـ يُونَا تَغرُسُ حُلْمًا فِي الجُرح

وكأنّه ليس من حقّك أن تكون عالِمًا أو فنانًا أو أيَّ شخص منحه الله بعض القوّة للتمايز! اليوم، أشعر بشيء أكبر منّي. بفرح أن أفوز، وبسعادة أن تكبر يونا بسرعة وتصبح صحفيّةً كما حلمت في الأماكن الأكثر قسوة، أو أن أكون صديقًا لامرأة بقيمة إيفا، التي تركت كلّ رفاه الحياة السهلة، وجاءت لتكون بجانب أناس بؤساء خسروا كلّ شيء حتى شرطهم الإنسانيَّ الأدنى الذي يجعل من الإنسان إنسانًا.

آدم لابنته يونا

.

ـ ١ ـ

كلّ القلعة تغيَّرت.

بدأت الحركة تخفّ فيها شيئًا فشيئًا. لم يبق من الفرق العلميَّة إلَّا القليل وأيضًا الفرق العسكريَّة المتخصِّصة. شمال القلعة لم تبق فيه إلَّا القيادة والذين يسيِّرون برج الطيران. الجهة الغربيَّة أُفرغت. تبعتها الجهة الشرقيَّة التي أُفرغت إلى أكثر من النصف، عسكرًا وعتادًا.

الملعب أُغلقت أبوابه، وكلُّ النظام اختلَّ. المطار الحربيُّ أصبحت تؤمُّه طائرات الهيركلس الضخمة التي تُحمَّل بالعتاد الحربيِّ كالدبَّابات الثقيلة التي كانت تُحيط بالقلعة والرادارات وبمختلف العتاد والأثقال. كأنّ القلعة كلّها كانت بصدد الترحيل. حتى إنَّ الكثير من المجموعات كانت تظهر ليلاً وهي تُحيط بالنار والحطب، وكأنّ عيون ذئاب تلمع في عمق الليل. بعضهم أصبح يتحدَّث عن إفراغ القلعة باتّفاق مسبق مع الكوربو الذي لم يُطلق رصاصة واحدة قريبة من القلعة. دوريَّات المروحيَّات لا تُظهر أيَّة حركة قريبة من القلعة، ولم يحدث أيّ اعتداء على العابرين من القلعة إلى السدّ، أو غابات لارغن

التي لا تقترب منها المجموعات المسلَّحة، مع أنَّها لا تشبه في شيء القلعة، ولا يوجد حولها إلَّا عسس محدود، ما يؤكِّد أنَّ شيئًا تمّ بين القلعة والتنظيم.

على مدار الشهر الذي أعقب الاعتداء على القلعة ومقتل سميث وسبعة من مجموعة الربط، والمروحيّات الحربيَّة الثقيلة تذهب وتجيء، في حركة دائبة، وبلا توقُّف، محمَّلة بالآليّات التي كانت تنقلها من القلعة باتّجاه آخر، لا أحد في القلعة تحدَّث عنه، سوى أنَّ الكثيرين أصبحوا شبه متأكّدين من أنَّ إخلاء القلعة نهائيًّا قد بدأ، وأنَّ ما رُوِّج له لم يكن شائعة.

امتلأت غرفة آدم الضيِّقة بالهدايا والورود، بمناسبة فوزه بنوبل للفيزياء مناصفة مع صديقه الياباني كاتسومي من المخبر نفسه، في فرعه في هيروشيما، بعد أن انتقل للعمل هناك لم تثره إلَّا هديَّة واحدة أعادت له فرحًا قديمًا. جاءته من السدّ: قنّينة عطر فراولة وعليها ورقة صغيرة عاديَّة، لكنَّها مملوءة حنانًا: حبيبي آدم، اقبل هذه الهديَّة المتواضعة. هي عطر يونا. *فقط لنقول لك إنَّنا معك بكلّنا. نحن فخورون بك. يونا هنا مع قناة السي بي إس لتصوير السدّ، وكلّ ما يحيط به والحياة التي فيه. قبل مدَّة قصيرة، رأيت لها شريطًا كان يحمل عنوانًا غريبًا قليلاً: هيروشيما، القوَّة والأخلاق. عملت فيه على لحظات اتّخاذ الرئيس الأميركي ترومان قرار القصف وصعوبة تحديد المدن. وفي ماذا كان يفكّر الأمبراطور هيروهيتو عندما طلب منه لاستسلام بلا شروط. ستراه يومًا برفقة يونا وأنتما في بيتكما. لأوضاع هنا تحسَّنت قليلاً، لكنْ سمعنا بأنَّهم سيخلون المكان كلّه. لا أعتقد أنّي سأترك كلّ هؤلاء الناس الذين تعلّقوا بي. إذا استطعت ن تأتي للسدّ، ليس بعيدًا. تعال. لكن يجب أن تضمن أمنك، فهو*

أساسي بالنسبة لنا. زِدْ على ذلك لا أعتقد أنَّ الجنرال المعتوه سيحرِّرك. حزنت على وفاة سميث، لكنْ لا تلمه. متأكّدة من أنك عرفت بقيَّة قصَّة أمايا. يونا تعرف كلّ شيء، وهي التي تابعت قضيَّتك وجعلتها مرئيَّة مخافة أن لا يعلم أحد بمكانك. وطمأنوها على مكان تواجدك، لكنَّها لم تحصل على إذن لزيارتك في منطقة عسكريّة شديدة الحساسيَّة.

لم يستطع أن يوقف دمعة سبقته إلى عينيه. مدَّ أصابعه يتحسَّس جهازه الصغير:

«أتمنَّى أن يصلك يومًا ما في هذا التسجيل الذي وضعت فيه فقط ما شغل قلبي لكيلا يموت قهرًا. ماذا أفعل يا يونا؟ هذا العالم صعب، أحيانًا لا أستوعبه، ولا أعرف أبدًا ماذا يُنتظر منِّي. قبل أسبوع لم أشعر بسعادة أن أكون زوجًا أو أبًا، أو حبيبًا، أن أكون فائزًا أو خاسرًا؟! في عالم لا أعرف إذا كنت فيه حرًّا أو سجينًا أو مهدَّدًا بشيء لا أعرف سوى أنَّه الاغتيال والموت، وكأنّه ليس من حقّك أن تكون عالمًا أو فنّانًا أو أيّ شخص منحه الله بعض القوّة للتمايز؟ اليوم أشعر بشيء أكبر منِّي. بفرح أن أفوز، وبسعادة أن تكبر يونا بسرعة، وتصبح صحفيَّة كما حلمت في الأماكن الأكثر قسوة، أو أن أكون صديقًا لامرأة بقيمة إيڤا التي تركت كلَّ رفاه الحياة السهلة، وجاءت لتكون بجانب أناس بؤساء خسروا كلّ شيء حتى شرطهم الإنسانيّ الأدنى الذي يجعل من الإنسان إنسانًا».

تأمَّل قنّينة العطر. يعرفها جيِّدًا هي عطر أمايا. ربَّما لأنَّ عطرها خفيف، فحمل بعض خصائصها. عندما ضمَّ أمايا آخر مرَّة وهي تستعدّ لتوديعه في مطار دجيف كنيدي، والسفر إلى باريس لاستقبال والده في مستشفى فال دو غراس، شمّ الرائحة نفسها، العطر نفسه، بل الطعم

نفسه. سألته وهي تسخر من دهشته من عطر يابانيّ يكاد يكون عاديًا، وليس هو الأغلى: *هل أعجبك؟* قال بدون تفكير. جدًا. *لا يعطّرك أنت فقط ولكنّه يعطّر المكان كلّه*. أجابت بضحكة جميلة ارتسمت في عينيها قبل شفتيها: *ربّما لأنّك تحبّني فقط*. ضحك وهو يمرّر يده على كتفيها كما تعوّد أن يفعل مع كلّ الناس المقرّبين: *بكلّ تأكيد ليس هذا، لكن أكبر. لأنّه معها أصبح شيئًا آخر*.

لم يخرج من غرفته على مدار الشهر الذي عبر بسرعة، في وقت زادت وتيرة الترحيل وإفراغ القلعة من كلّ حياة. مرّة واحدة خرج من غرفته ومشى في مساحاتها الضيّقة لدفن حوّاء في الحديقة، التي أكّد له البيطريُّ موتها مسمومة، ولم تكن في حالة سبات عميقة. يومها كان برفقة الميجر توني الذي طلب منه شيئًا بسيطًا لكن شديد الثقل. *«قاوم هذه اللحظة القاسية. لا تحقد على سميث لأنّه لم يكن يعرف شيئًا عن القصّة. بل الأمر تخطّاه. في البداية وصله الشريط كما بُعث له، وكان سعيدًا أن يمنحه لك، لأنّه كان مؤمنًا بأنّ أمايا حيّة لأنّها تخفّت وراء حافلة الخطوط الفرنسيّة. ثم وصله الشريط الثاني متأخّرًا، فلم يُرِد أن يُربك عملك وجهودك، لأنّه كان مصرًّا على إشراكك في مشروع كنتَ أنت سيّده. لكنّه كان مصمّمًا على أن يخبرك في الفرصة الأقرب. هل تصدّق أنّه كان يخاف أيضًا من أن يغيب ولا يقوم بواجبه نحوك؟ لهذا احتاط ضدّ كلّ الاحتمالات، آخرها كان الموت، لأنّه لم يفكّر فيه طويلاً»*.

مضى الشهر كلّه في نقل عتاد القلعة بشكل متواتر، وزادت الدوريّات الليليّة التي كانت تتوغّل في عمق الصحراء. الكثير من الآرابيين كانوا تائهين في عمق الصحارى حاملين على ظهورهم أثقالهم وشقاءها. يتوقّفون. ينظرون صوب القلعة.. عندما يرون الترسانة

العسكريَّة ويسمعون الرصاص الذي لا يتوقَّف، يعودون على أعقابهم وسرعان ما يتوغَّلون في عمق الصحارى، على مدّ البصر، حتى تأكلهم الكثبان الرمليَّة التي سرعان ما تحرّكها الرياح فيضطرُّون إلى تغطية أوجههم، ويمشون. . لا دليل لهم إلى الشمس والقمر والنجوم ووجهة العواصف أو حواسّ جمالهم التي تحملهم، والتي ما تزال فيها بعض حواسّ الحياة.

كان آدم بالقرب من الحديقة يقف تحت شجرة موز، فهي كانت تحبّ الموز. رشّ قبرها الصغير بالماء. تفتَّحت الوردة الحمراء عن آخرها ولم تمت، على الرَّغم من أنَّه نقلها من حافَّة درج المطار حيث لم يكن لها أيّ دور، ويمكن لعابر أن يعبر من هناك فيطأها ويمضي. فرعها كان على الحافَّة المسموح بها، بينما جذرها مغروس من وراء الشبّاك الذي يفصل المنطقة العسكريَّة عن المدنيَّة. مدَّ يده وحفر عميقًا بقطعة قصب، وأخرج من تحت جذرًا يشبه البصلة وحملها، وهو يحاول أن يتركها داخل تربتها حتى تستطيع أن تقاوم. سحب الورود التي بُعثت له يوم فوزه التي يبست في المكان، ونظَّف محيط قبرها الصغير الذي لا شيء فيه يثبت أنَّه قبر! العلامة الصغيرة التي خطَّها على الشجرة وحفرها بسكّين توني العسكريّ.

وقف سالم عند رأسه:

ـ لا تُتعب نفسك، سأسهر عليها بعدك.

ـ وأنت لا تخرج من القلعة، كلّهم غادروا تقريبًا.

ـ سيأتي وقتنا نحن وكذلك العمّال المكلّفين بالصيانة والمتابعة، والقيادة المركزيَّة وحرَّاس القلعة في جهتها الأماميَّة والخلفيَّة. . لن نخرج حتى نطمئنّ على الجميع. ثم ما تزال لدينا قوّات وبعثات في أماكن متفرّقة في الربع الخالي، ننتظر وصولها قبل الخروج.

- كلّ الشكر لك يا سالم.
- أردت أن أبارك لك فوزك! أنت تشرّف الإنسانيَّة.
- إذا بقي شيء اسمه الإنسانيَّة، إذا لم تكن هذه الكلمة فقط ستارًا يغطّي توحُّشنا الكبير. شكرًا يا سالم. أعرف جيّدًا طيبة قلبك وكرمك وحبّك.
- أنا جئتك بلباسك يا سيّدي. هو باسمك. أتركه معك! ولأرافقك إلى الطابق السابع.

ضحك آدم، وهو يربت على كتف سالم:

- وماذا أفعل بلباس واق من الأشعَّة. لا يوجد في القلعة أيّ شيء من هذا، وتجاربنا المخبريَّة لم يتسرَّب منها أيّ شيء من هذا القبيل. ربَّما لو منحوا هذا اللباس لناس السدّ لكان أفضل، إذ يبدو أنّ البلوتونيوم الذي فجّرناه في القنبلة *PBPp2* وصل حتى أطراف السدّ، وهو ما يضع الناس في حالة خطر دائم.

يتجاوزني هذا يا سيّدي. أنا موكلٌ بتوزيعها في الجهة الجنوبيَّة على الغيست فقط.

والمقيمون؟

المقيمون لست مكلَّفًا بهم، هناك من يقوم بذلك في مكاني في جنوب الجنوب. من الأفضل، يا سيّدي أن تأخذ لباسك وتلبسه في الوقت المناسب، نحن في منطقة لا شيء فيها مؤمَّن. يقولون نزع المخابر يمكن أن يخلّف إشعاعاتٍ لا أحد يعرف مخاطرها في الوقت الراهن. ضعها في حقيبتك، لن يكلّفك ذلك الكثير. قد تحتاجها. نحن لا نأخذ شيئًا معنا إلّا حقيبة المعاش الضروريَّة، التي يوجد بها مقدار أسبوع لمقاومة الجوع والعطش في هذا القفر. وهذه ستُعطى لكم يوم المغادرة.

ـ من الأحسن أن لا أورِّطك بأسئلتي التي لا قيمة لها. المهمّ، نمشي إلى الطابق السابع. لحظة ـ ثانية واحدة، أُخبر ميجر والطبيب الياباني أكاينو[1] عن مكان تواجدي، لأنّه كان يفترض أن نلتقي بجانب قبر حوّاء حتى لا يكونوا على علم.

تلفن بسرعة. ترك رسالة للميجر توني في هاتفه، بينما أخبر الطبيب أكاينو. اعتذر منهما عن اللقاء. هو لا يعرف لماذا فعل ذلك، لأنّه في الحقيقة لم يكن لديه أيّ موعد، لا مع أكاينو ولا مع ميجر توني نيلسون. الطبيب الياباني بمجرّد أن قال له دعوني؟ إلى الطابق السابع، فهم جيّدًا الغرض. فردَّ عليه بأنَّ الموعد يمكن أن يؤجَّل.

ـ تفضَّل سيِّدي.

ركبا السيّارة الكهربائيّة الرابطة بين شمال القلعة وجنوبها. رأى في طريقه القلعةَ التي تكاد تكون خالية، حتى في الجهة الأكثر امتلاء عادة بالعسكريِّين وهم يلعبون الغولف أو هم يتدرَّبون. تأكَّد حقيقة من أنَّ القاعدة المتقدِّمة في صحراء الربع الخالي لم يعد لها أيّ وجود، وأنَّها تعيش اللحظات الأخيرة من حياتها.

بمجرَّد أن دخل إلى مكتب الطابق السابع، شعر بضيق كبير. شمّ رائحة غريبة تشبه الموت. لم تكن البخّاخات المختلفة العطور قادرة على نزعها من أنفه. تذكَّر كلّ ما قاله البارحة، كلمة كلمة، وجملة جملة.

ـ لماذا أخبرت ميجر والكلب الأحمر؟ ألا تثق فينا؟

قال بيرل غروسمان وفرناندو ليفي في الوقت نفسه، وكأنّهما حفظا الجملة نفسها.

---

(١) Akaino. وتعني الكلمة الكلب الأحمر.

ـ كأنّك غير مرتاح معنا في قلعةٍ وفَّرت لك كلّ سبل الحماية.

ـ أنا لم أقل شيئًا. أوّلاً أكاينو ليس كلبًا أحمر. رجل حمل على ظهره كلَّ مرضى القلعة. أمّا ميجر، فهو الصديق الوحيد المتبقّي من فريق العمل. كلّهم تقريبًا غادروا. لم يبق بها إلّا أنا وأكاينو. لا صديق لي غيرهما، بعد وفاة سميث بتلك الطريقة البشعة. ثم إنّي أخبرتهما أيضًا، لأنّي منذ مقتل حوّاء مسمومة، أصبحت حياتي في خطر.. وأخبرت الجهات المعنيَّة أنَّه إذا وقع لي أيّ شيء، الرجاء أن لا يبحثوا عن القاتل خارج القائمة التي سلّمتها لهم.

ـ ميجر! له مهمَّة في مضيق هرمز. وعندما يعود، سينتقل مباشرة إلى السدّ لإنقاذ عساكرنا هناك وبعض الخبراء الدوليّين، وهذا برنامج ـ للأسف ـ خارج عن نطاقنا، ولكنَّ الأسطول هو من له الكلمة العليا فيه. ما يعني أنّك ستظلّ عاريًا، وستكون وحيدًا.

ـ لي ثقة كبيرة في شيء غامض، لا أفهمه.

ـ هل بعثتَ شخصًا لاستلام الجائزة، أو توكل شخصًا في القلعة؟

ـ لن أوكل أيَّ شخص. أخبرتهم عن طريق ميجر توني أنّي سأحضر شخصيًا لاستلام الجائزة؛ أو أُكلّف زميلي كاتسومي، الفيزيائيّ الأميركيّ اليابانيّ، بوصفه زميلاً قديمًا في مخبر بنسلفانيا؛ أو ابنتي يونا، إذا تمكّنتْ من ذلك. لا أدري إذا أجبت عن سؤالكم!

صمت ليتل بروز بحقد.

ـ هل تدري أنَّه يمكن أن تُتابَعَ بتهمة شتم القيادة العليا في القلعة.

ـ لم أشتم أيَّ شخص. رددت على من أهانني، ومستعدّ أن أقف أمام محكمة عسكريَّة عاريًا من أيّ محام، وأدافع عن نفسي حتى النهاية. في هذا أيضًا، أخبرت المسؤولين الكبار.

ـ أخرج من هنا. أخرج قبل أن آكل رأسك.

سمع صوتًا أبحّ وثقيلاً، مصحوبًا برائحة كريهة.

ـ أخرج من هنا، لا أريد حتى أن أسمع عنك شيئًا، ولا حتى موتك.

هزّ المستشاران رأسيهما آذنين له بالخروج. لم يناقش، لكن في أعماقه شعر بسعادة غريبة.

كان غضب ليتل بروز عاصفًا، رسم يأسًا كبيرًا في لغته وصراخه:

ـ كلُّكم بؤساء وحقيرون. لم أجْنِ من ورائكم إلّا الهزائم. لا شيء. تتشابهون في كلّ شيء. هذا اللاست آرابك البائس، سيحرمني من رتبة ماريشال.

ـ لا شيء حدث. الجبل الأعظم رأس في مكانه يا سيِّدي. زمام المبادرة بين أيدينا. ظروف أجَّلت الأمور فقط. الجائزة هذه خلطت الحسابات قليلاً، لكنّنا نثق في الزمن، ونعمل عليه. الزمن يا سيِّدي وحده الكفيل بالنجاح.

ـ الزمن عدوِّي الأوَّل والأخير. هل تتصوَّرونني أسلِّم كلّ هذا للكوربو على طبق من ذهب؟

ـ ومن قال هذا يا سيِّدي. سنرتِّب أمرًا يضعك خارج أيّ شبهة.

لم ينس أبدًا. استرجع ليتل بروز فجأة جمله الأخيرة التي بقيت عالقة في داخله مثل الشعلة الحارقة وهو يمضغ الحزن القاسي، والخيبة التي اشتعلت فيه بقوَّة.

«لا حلم لي الآن سوى أن أجلس مقابلاً لك وأتأمَّلك، وأرى وجهك الذي مزَّقه الصهريج وشوَّهه حتى حوَّلك إلى حيوانٍ أسطوريٍّ بلا رحمة، حاقد على الكلّ، حتى على والده الذي جرّه نحو هذا الاحتضار الطويل! ثم أستمتع وأنا أراك تُدْخِل في مثانتك ذلك القضيب الرقيق والمؤلم في فراغ حجرك لتحرِّر البول المحتقن في مثانتك التي تنتفخ بسرعة. أرى فقط هذا الهرم الوهميَّ والكاذبَ،

هذه اللعبةَ السخيفةَ، هذا الموت المتجدّد في الرماد، وهو يتمرّغ أمامي، يبحث فقط عمَّن يرحمه بطلقة رصاص في دماغه. تنبّهني إلى المسدَّس في دُرْجك، لكنّي أتمدَّد على السرير وأتأمّلك. تحاول أن تقوم لأخذ المسدَّس، أخطفه قبلك وأرميه من الطابق السابع حيث تخفي رائحتك التي تشبه الجيفة. تتضوَّر في مكانك. تتنهَّد. تتعرَّق. تتمنَّى موتًا لا يأتي. أشتهي أن أكون قريبًا منك، وجهًا لوجه. أتأمَّل صفرة وجهك وخجلك الذي يمحوه وجهك الحديديّ، وأنت على كرسيّك الحديديّ المتحرّك، ولا تجد حتى من يغيّر حفاضاتك التي التصق بها خراك على مدار أسبوع. رائحتك العفنة تصعد إلى السماء، ولا أحد يقربك حتى وولكر سام ولوثر سيمسون، لأنَّ رائحتك العفنة التي هي خليط من فضلاتك وبولك وعرقك وحقدك الأعمى أيضًا، ووسخ قلبك، أبعدت عنك حتى الذباب الذي عافك. نفسي أراااااك هكذا. قتلك لا يفيدني ولا يريحني أيضًا. أصلاً لم أفكّر فيه».

ـ أريده أن يذوق أشدّ العذاب.

ـ نحن في عمليَّة ترحيل، والخطأ غير مقبول يا سيّدي. يحتاج الأمر إلى شيء آخر أكثر ذكاء وتريُّثًا. لماذا لا نسرّب المعلومة لمجموعة *شادو* المكلَّفة باختطاف نوويّ آرابيا. لا أحد يحاسبه، ولا يهمّ إذا اعترف القاتل بعد سبعين سنة، يكون الزمن وقتها قد تغيَّر نهائيًّا. أو نختار له قحبة محترفة من قحبات *شادو*، فتقوم بما يجب القيام به بحرفيَّة. ألم تنته أيّام الدكتور يحيى المشد في نزل الميرديان، في غرفة ٩٤١ بهذه الطريقة؟ حتى العاهرة ماري كلود إكسبرس، التي أدَّت وظيفتها كما يجب بمنحه ليلة نادرة كلَّفته حياته، لم يكن حظُّها أحسن من حظّه. فقد تمَّت تصفيتها بحادث سيّارة وهي في حالة سكر. سلسلة الدومينو

ضروريّة، لتفادي خطر الحماقة القاتلة.

ـ المهمّ أن يتمّ كلّ شيء خارج القلعة. زمن أسود ويمشي بشكل عكسيّ. آرابيّ بائس يعلّمنا ما يجب فعله وما لا يجب فعله؟ سأنتحر قبل أن أرى آرابيًا يأمرني أو حتى ينصحني. لو كنّا في ظروف غير هذه، كنّا، بدل حمايته، *بعناه للتنظيم* الذي لا يطلب أكثر من ذلك. وقد طلب ذلك من خلال بعض مخبرينا ووسطائنا. والكوربو سيكون سعيدًا لسلخه حيًا. لكنّنا نخاف من استثمار قدراته. الكوربو والتنظيم ليسوا أغبياء إلى هذا الحدّ.

ـ ننتهي من ترتيبات إفراغ القلعة. أنا مسؤول عن كلّ شيء حتى آخر حشرة في هذا المكان. ربّما كان الفعل النهائيُّ هو الذي سيمنحني فرصة التحوُّل إلى ماريشال، حتى ولو كان ذلك في آخر العمر.

ـ الكلّ يعرف سلفًا أنَّ خروجنا من هنا سيكون ليلة احتفال للتنظيم الذي تقول كلُّ تقاريرنا أنّه أصبح قريبًا. لكنّه لا يعتدي علينا ولن يفعل. هدنة طبيعيّة تساعد الطرفين. لكنّنا لن نكرّر خروجنا من ڤيتنام، حيث تركنا وراءنا كلّ شيء واقفًا. قرن من الزمن تعلّمنا منه الكثير، ومنه أنَّ العدوَّ إذا أردت أن تدمّره إمّا أن تمحوه أو ترجعه إلى بدائيّته الأولى. البدائيّة فيها متعة أن ترى البدائيَّ يقتل أخاه على لقمة خبز، أو الاستيلاء على أرض لا تنجب إلّا الرمال والرماد، أو يقاتله من أجل مصلحة ميّتة.

ـ نحن يا ماريشال في صلب الحرب العالميّة الثالثة ولا يثبت فيها إلّا القويُّ، الصابرُ على تحقيق النتائج.

ـ سنخسر سوقًا مهمَّةً للأعضاء يا ماريشال.

ـ أشعر بانتفاخ في كلّ شيء. أريد الآن أن أنام نهائيًا. لم أعد قادرًا على تحمُّل هذا الاحتقان.

ـ سيزول يا سيّدي. يجب أن لا تمنح أعداءك فرصة النيل منك.

ـ هل أمَّنتم القلعة.

ـ أصبحت مؤمَّنة ومُحاطة بحزام لا مثيل له يا سيّدي.

ـ أوكي. الآن أريد أن أختفي قليلاً. متعب حدّ الموت.

ـ سمعا صريرَ عربته وصراخَه، وهو يدفن القضيب الرقيق في مثانته المنتفخة. ثم صمت، ليفرغها من احتقان اليوم كلّه. بينما واصل بيرل غروسمان وفرناندو ليفي كلامهما بصوتٍ عالٍ كان يصله كاملاً.

ـ سيعرف أغنياء هذه الأرض خيرك وجميلك يا ماريشال.

ـ الذين يحملون اليوم كلْيةً من آرابيا الشرقيَّة، أو عينين من أرابيا الغربيَّة، أو قلبًا من آرابيا الوسطى، أو كبدًا صوماليًا، رئةً وأمعاءَ من الصحراء، أو عضوًا إفريقيًا، سيعرفون النعيم الذين هم فيه. بأثمانٍ تافهة مدَّدت طويلاً في حياتهم. سيعرفون عندما يخسرون ذلك كلّه.

ـ نظرا إلى بعضهما بعضًا، وكتما الضحكة التي كبرت فيهما.

ـ ٢ ـ

احتجّ آدم بعنف، وأصرّ على أنَّه لن يسافر بدون إيفا. وأنّه ينتظر المروحة التي تأتي من السدّ لتلتحق بالجميع، لأنَّه لاحظ أنَّ العسكريين المرابطين في السدّ أكّدوا أنَّ مجموعة كبيرة ما تزال تنتظر هناك لتفريغ المنطقة، فهي عُرضة لكلّ الاعتداءات الممكنة من *التنظيم* الذي يعرف كلّ شيء، ولا ينتظر إلّا الخروج النهائيّ ليهجم ويحرق ويقتل.

ـ لا أركب بدون إيفا. مسؤول عن حياتي.

ـ لكن يا سيّدي أنا مسؤول عن ذلك أمام قيادتي.

ـ قلت لك لن أذهب.

ردّ بعنف، وبشكل جافّ، على العسكريّ الطيّب الذي ترجّاه أن يركب لأنّ الوقت محدود؟

ـ ما عليهش اتركه لي. سآخذ الأمر على مسؤوليّتي.

التفت الشابّ نحو الصوت. عندما رأى الرتبة العسكريّة، حيّاه ووقف باستقامة.

ـ أنا سأتصرَّف. من أيِّ فرقة أنت.
ـ فرقة المظليين B 2345.
ـ مع ريدفورد مور؟
ـ نعم مع الكولونيل مور.
ـ سأخبره. قل له بأنّي نقلته معي، بأنَّ أمرًا صدر منّي، وأنّه سيسافر معي. فهو تحت وصايتي نهائيًا.

خطّ بعض الكلمات على الورقة التي انتزعها من كرّاسته، وقّعها، ثم التفت نحوه.

ـ خذ معك هذه الورقة حتى لا يقلقك أحد. سلّمها للكولونيل مور.

ربَّت على كتف آدم زارعًا في قلبه وعينيه بعض الاطمئنان.

ـ لا عليك يا آدم. الوضعيَّة في السدّ خطيرة وليست سهلة، وكلّ القبائل متوفّزة حول الماء الذي بدأ يقلّ، لأنَّ المياه الجوفيَّة التي كانت ترويه سحبتها *أزاريا* من تحت، بوسائلها المتطوّرة جدًّا، بينما الوادي الكبير الذي كان ينحدر من أعالي الجبال الإفريقيَّة، بُني عند مصبّاته سدٌّ كبير، سدّ الرونيسونس[١] الضخم، الذي حدَّ من مجرى المياه، ولم يسمح بمرور إلّا الفائض الذي يعلو فوق السدّ ليروي الحقول المجاورة. وأصبحت القبائل تتقاتل عليه، وكلّ واحدة احتلّت جانبًا من جوانبه واعتبرته ملكيَّة خاصَّة لها. المسألة شديدة التعقيد الآن. سترافقنا في إخراج عشرة من عسكريين من محشر السدّ، ومن هناك سنأتي بإيڤا ويونا. إذا لم تكن قد خرجت مع فرقتها. سأمنحك فرصة البحث عن إيڤا. سنعبر بالمروحيَّة على المكان، بعدها نغادر لنلتحق بالقاعدة في البحر الأحمر. هذا كلّ ما أستطيع فعله من أجلك. ولا

---

(١) Renaissance النهضة.

حلّ آخر لي، لأنّنا سنكون آخر من يغادر المكان.

ـ لا أدري كيف أتصرَّف يا عزيزي توني. إيڤا هناك، وتعني لي الكثير، وهي مواطنة أوروبيَّة ولها حقّ الحماية. ابنتي يونا مواطنة أميركيَّة يابانيَّة، لها حقّ الحماية أيضًا. لا يمكنني أن أدخل بدونهما.

ـ سنكون آخر المغادرين. لم يبقَ إلّا نحن وقيادة الطابق السابع. لهم مروحيَّتهم الخاصَّة، لكنْ عليَّ أن أسهر على كلّ ذلك. حتى الجنديّ الأخير.

وهو واقف، جاءته مجموعة من العساكر تجري باتّجاهه لكي يتمّ توجيههم نحو طائرة هيركلس الكبيرة الرابضة على المطار. حيَّاه باستقامة.

ـ هذا ما تبقّى من جماعة الجيني. راقبت القائمة واحدًا واحدًا.

ـ أوكي. وقِّع لي على الورقة.

وقَّع الضابط، ثم التحق بمجموعته. توغَّل توني عميقًا بسيّارته للمرَّة الأخيرة. لم يرَ أحدًا. كلُّهم غادروا. توقَّفت عند قدميه السيّارة الصغيرة التي كان فيها قسم القيادة. استقام:

ـ جنرال دافيد دوغلاس.

ـ كيف عرفتني؟

ـ بمرافقَيْك بيرل غروسمان وفرناندو ليفي اللذيْن لا يخفيان على أحد.

ـ هل بقي أحد؟

ـ كلّ الفيالق غادرت يا سيِّدي. بقيت الطائرتان الحربيَّتان وبرج المراقبة الذي سيُفرغ بعد قليل، ويأتي تقنيُّوه معنا في المروحيَّة نفسها. ويخلو كلّ شيء، لنبدأ في تطبيق المرحلة الثانية التي أمرتم بها. كلّ شيء منظَّم بدقّة.

ـ هل من أخبار عن مجموعة الكوربو؟

ـ ليسوا بعيدين عن المكان. عددهم بين ٣ آلاف إلى ٥ آلاف مقاتل، من أهمّ مقاتلي التنظيم، يُعِدُّون العدّة للدخول إلى القلعة منتصرين.

ـ والـ ٢٠٠ مقيم ماذا نفعل بهم؟

ـ لا وجود لهم. بااااح! أطلقنا سراحهم في الليل، في الصحراء، لينضمُّوا إلى بقيَّة الآرابيّين الضائعين. لم يبق أيّ واحد منهم. مجرمون حملوا السلاح ضدَّنا، لن أثقل بهم الطائرات الأميركيَّة. الوكالات الدوليَّة ستعرف أنَّنا غادرنا وأنَّنا أطلقنا سراح كلّ المساجين، لأنَّه لا مكان لهم في الطائرات، وأنّ *التنظيم* كالعادة قام بمجازره.

ـ أنا ليست لي الرتبة الكافية لمناقشة سيادتك. هي أوامرك وأنت نفَّذتها.

ـ لا تخف. لا يوجد ما يناقض القانون. ولدوا في الرمال ويموتون فيها.

ـ وهل دوَّنت كلّ هذا في مذكّرات *يوميّات ماريشال في دوّامة العزلة* يا جنرال؟

حاول أن يرسم ابتسامة متخفّية، بلا ذوق ولا معنى سوى الهزيمة المتخفِّية عميقًا فيها.

ـ *المقيمون*، هم آخر من أفكّر في إدراجهم في مذكَّراتي.

وقبل أن تنطلق سيّارته نحو المروحيَّة، وهو ما يزال نصف متخفٍّ في لباسه الثقيل:

ـ تريد أن تعرف خاتمة المذكَّرات؟

بدون أن ينتظر إجابة ميجور توني، فتح المذكَّرات على آخر صفحة وآخر السطور: *قبل قليل، استلمت الورقة الباردة التي تحيلني*

إلى التقاعد كأثاث قديم، بعد أن أكّدت لي أنّ حلم الماريشال اضمحلّ، وحلّت محلّه الحقيقة القاتلة لجنرال مريض: نشكركم على كلّ ما قدّمتموه. بدءًا من اللحظة نعفيكم من كلّ مسؤوليّاتكم، وستتكفّل إدارة الأسطول في البحر الأحمر ومضيق هرمز بإدارة كلّ العمليّات. سأخرج من هذه الدنيا، وقد زاد يقيني بأنّ الموت الذي نشب فيّ، سأدفنه في هذه القلعة. ضاعت حكاية الماريشال، وبقي ألم المثانة ومرض يغرس كلّ يوم خرابه فيّ أكثر. ماذا بعد كلّ هذا العمر؟ لا شيء. أغلقوا الأبواب، أسدلوا الستائر، أغلقوا النوافذ، وضعوا شيئًا واقيًا لأنوفهم، أريد أن أتحلّل مرّة واحدة، وبسرعة بوهم أقلّ، وحلم منعدم. هذه الحياة ليست أكثر من جثّة متحلّلة وحفنة خراء.

- إسمع. . أقرأ لك آخر سطر يا ميجر توني: *الحياة رهان. قاتلت حتى النهاية ضدّ تيّار القدر الصعب، وخرجت منه كبيرًا كجبل أشمّ، لم تطأه أرجل البشر. فخور بما عبر، منتظر صوب الشمس لما سيأتي.*

ثم أمر سيّارته بالتحرُّك.

بقي ميجر واقفًا في مكانه يتساءل ما إذا كانت حقيقةً تلك آخر جملة في مذكّرات الماريشال؟

بعد أن أنهى دورته على متن السيّارة الكهربائيَّة، توغّل عميقًا في أحد أجنحة بيوت المقيمين. وجد جثثًا مكدَّسة بعضها فوق بعضها الآخر وروائحها قويَّة. كأنّها قُتلت بغازات سامَّة، فأفواهها كانت مفتوحة وأيديها يابسة على حلوقها. صوَّر صورًا كثيرة؛ ثم فتح القاعة الثانية، وجد المشهد نفسه؛ ثمّ الثالثة: الجثث كأنّها أُبيدت بغازات سامَّة، لأنَّ الروائح التي كانت تخرج منها مختلفة، ممّا اضطرّه إلى أن يضع منديلاً على فمه. صوَّر بكاميرا صغيرة كانت معه. كلّها كانت في حالة بحث عن الهواء ومتشبِّثة بحلوقها.

تقيّأ بمرارة، ثم عاد بسرعة نحو مخرج القلعة الرئيسي. أخذ الجنديين اللذين تركهما مع آدم، ثم اتّجهوا مباشرة نحو المروحيّة التي كانت في وسط الساحة، ليس بعيدًا عن الحديقة وعن قبر حوّاء.

ركب الجميع. وبدأت محرّكات المروحيّة تدور شيئًا فشيئًا.

أطلق للمرّة الأخيرة زمّور الإنذار الذي ظلّ يدور ويدور وهو عند بوّابة الطائرة. فجأة، رأى ظلّين يتّكئان على بعضهما بعضًا، وصراخ سيّدي ميجر توني نيلسون. . سيّدي ميجر. . . أخذ منشفتين كبيرتين. ركض نحوهما. طلب منهما أن ينزعا لباسيهما. صوّر كلّ شيء. نزعاه. أفرغ عليها الماء بكمّيّات كبيرة، ثم غطّى كلّ واحد منهما بمنشفة قبل أن يقودهما نحو المروحيّة:

ـ هل هناك أحياء غيركما.

ـ لا نظنّ. كنّا تحت الأجساد. لم يكن هناك أيّ شخص.

ـ متى حدث هذا؟

ـ فجر اليوم. أصبنا كلّنا بدوخة مباشرة بعد الأكل.

ـ بسرعة. . . بسرعة. . . إصعدا، ونرى بعدها ما يمكن فعله.

صعد الجميع إلى الطائرة. صعدت الطائرات الحربيّة عاليًا، وبقيت تدور في مكانها. تبعتها الهيركلس السبعة الرابضة. ثم طائرات الشحن، ثم المروحيّة الأخيرة التي كان بها طاقم الطابق السابع.

ـ دقيقة ننتظر الآن فقط شباب برج المراقبة.

وقبل أن ينهي جملته، كان الشباب الأربعة بالسيّارة الكهربائيّة التي نزل منها الجميع، بمن فيهم السائق وقد التحقوا بالمروحيّة الأخيرة. التي بدأت تصعد شيئًا فشيئًا. بينما في الخارج كان المطار فارغًا كلّيًا.

كانت الحيرة في عيني آدم كبيرة من الشخصين اللذين عرّاهما توني، وغيّر لباسهما.

ها أنا ذا أخرج الآن من دائرة الخوف، لأذهب نحو تيه جديد لا أعرف مآلاته. ربّما لأنّي الآن لم أعد أشكّل أيّ شيء على العموم. ذهب سميث الذي كان يمكنه أن يسألني. عندما سألني: أين تريد أن تذهب تردّدت، لأنّي لم أعرف كيف أجيبه. فيّ شيءٌ من هذه الصحراء، كان من الصعب عليّ التخلُّص منه، لكنّي لم أقل له في أيّة لحظة من اللحظات أين أريد. شوقي لبنسلفانيا كان كبيرًا، ولزوجتي وابنتي أكبر، لكنَّ الآن كلّ شيء تغيَّر أبدًا. ماذا بقي لي فيها سوى الاستسلام للموت في العزلة في مستشفى مدنيّ أو ثكنة عسكريّة، يحملونني مثل كيس من الطمي قبل دفني في أيّ مكان. في أعماقي، كان بي شيء من رمال هذا المكان الذي لم أعرفه إلّا من ميراث حملته طويلاً، قبل أن أعرف أنَّ جزءًا منه لم يكن ميراثًا حيًّا ولكن موتًا، كان عليّ أن أجرّه مثل الملايين بدرجات متفاوتة عبر قرابة العشرين قرنًا. كنت ضدّ النوويّ، ولم أفكّر فيه إلّا لأنبّه لمخاطره الكارثيّة. البشريّة تذهب نحو فنائها، وهي لا تدري. نشأت فكرة قنبلة الجيب من العدم. من فكرة صغيرة. ماذا لو صنع الإنسان قنبلة صغيرة واستعملها عند الضرورات القصوى في مكان محدَّد، بدل قتل الناس جميعًا في مدينة مثل هيروشيما، التي في ثوان خسرت نصف سكّانها ـ ٢٠٠ ألف، ثم ارتفع العدد بشكل متواتر. كنّا في زمن آخر يرى بعين واحدة. سيأتي من يحمل قنبلة نوويّة بحجم القنبلة اليدويّة، ويفجّرها في سوق عامّة أو مول واسع تعبيرًا عن منتهى يأسه. سميث كانت له الرؤية نفسها، لكنّه أيضًا كان يحمل التربة نفسها التي كنت أحملها. طلب أن يُدفن في عمق نهر الأردن. سأنام هناك إلى أن يعاود نهر الأردن امتلاءه، ويمضي بي حيث يشاء بسلام ولا حروب، وأقطع الأمكنة كلّها بلا ذعر ولا خوف. مجرَّد ذرّات من رميم عظام تمنّت أن

يكون العالم بشكل آخر. كانت تلك وصيّته. وأخذه أهله إلى هناك، ودُفن في المكان الذي أحبّه على الرَّغم من احتجاج الكثير من الأوساط المتطرّفة في أزاريا، التي اعتبرته عدوًّا منذ أن صرَّح أنَّ على المنطقة أن تخلو نهائيًّا من السلاح النوويّ، وإلّا فمآل العالم هو الزوال الحتميّ والموت القريب.

سمع في تليفون توني اللاسلكي:

ـ هل كلّ شيء انتهى؟

ـ خمسة على خمسة. كلّه تمام. القلعة خالية كلّيًّا. شباب برج الطيران معنا. نحن في ربط مباشر مع القاعدة الحربيَّة. نستطيع أن نتصرَّف. سندور دورتين أخيرتين من علوٍّ منخفض لنرى هل بقي شخص تحت، وننطلق.

ثم نزع السمّاعة عن أذنيه، بينما ظلَّ الطيّار في اتّصالاته العاديَّة.

ـ هل أنت بخير الآن يا آدم؟

ـ أفضل، يا ميجور.

ـ أرأيت؟ كلّ شيء انتهى. قاعدة نبتت هنا منذ قرابة النصف قرن، ها هي الآن تنسحب من المشهد، وقد تنسحب من الأرض نهائيًّا، وتصبح تربة كغيرها من التسطُّحات العاديَّة، وستأتي الرياح الهوجاء وتمحو كلّ ما بقي واقفًا أو بدا كذلك.

ـ هل فكَّرتم في أنَّها يمكن أن تصبح قاعدة متقدّمة *للتنظيم*.

ـ نعم. فكَّرنا في هذا. فكَّرنا مليًّا ووجدنا الحلول.

كانت المروحيَّة تدور في حركة مَيَلان واضحة. في الدورة الثانية علت أكثر.

شيء لا يُصدَّق، كلّ هؤلاء البشر كانوا مردومين في الرمال؟ فجأة

بدأت أمواج البشر تخرج من وراء الرمال بقوّة. بالمئات. بالآلاف. يركضون في حركة هستيريّة.

ـ واووووو. اين كانوا متخفّين؟

ـ أنت لم تر شيئًا. هذه الرمال تخبّئ ما لا يمكن تصوُّره.

ـ الصحراء ستغلق نهائيًّا.

أمواج الرجال الذين يرتدون الأصفر ويركضون بأعلام سوداء خُتِم عليها بالحرف العربي القديم: *لا إله إلّا الله محمّد رسول الله*. تغرق أرجلهم في الرمال، لكن لا قوّة كانت قادرة على منعهم. كانوا يخرجون من واحات النخيل ومن عمق اللّاشيء. ارتفعت المروحيَّة أكثر كي تتفادى أيّ صاروخ محتمل، على الرَّغم من ابتعاد هذه الفرضيَّة. كانت الطائرة تصوِّرهم، وأمام الجميع شاشة كبيرة كانت تظهر كلّ التفاصيل القريبة. الآلاف تتدافع بفوضى ولا نظام. كسرت الأبواب ثم دخلت في أعماقها في فرحة عارمة. كانت الحوَّامة تدور حول المكان. غابت الأشكال، ولم تعد تُرى واضحة إلّا على الشاشة. امتلأت ساحة القلعة بالذين يلبسون الأسود أو بعض العمّال الذين رأى منهم الخادمة، وهي تعانق واحدًا من الرجال السود، تمنّى أن يقول له أوقف الكاميرا، ولكنَّه سمع تمتمة القائد: *كلّهم متشابهون في النهاية. المجرم والذي يبدو بريئًا. العربيُّ الجيِّد في النهاية هو العربيُّ الميِّت*. *بدا له ذلك مرتسمًا في مدخل القلعة*. دارت المروحيَّة ربع دورة. سأل الموظَّف مرَّة أخرى قائد الطائرة: *كلّ شيء في مرماي سيِّدي. أضغط؟*

هزّ القائد رأسه للمرَّة الأخيرة بالإيجاب. لم يسمع الانفجار، ولكنَّه رأى نارًا حارقة صعدت من عمق الساحة فتطايرت الحجارة والأجساد، بالمئات عاليًا في حالة تمزُّق قصوى. ثم دوّى انفجار آخر

وآخر من عمق القلعة. أغمض عينيه لكي لا يرى شيئًا. فتطايرت كلّ الحيطان والحصون العالية المكوّنة للقلعة الكبيرة. عندما اقتربت المروحيَّة قليلاً، طلب الطيّار ارتداء اللباس الأبيض والأقنعة المضادّة للموادّ الكيماويَّة والإشعاعات. كانت القلعة والناس بالداخل يركضون في كلّ الاتّجاهات. فجأة، رأى تحتهم طائرة بدون طيّار أطلقت شيئًا. انفجر، فاهتزّت الطائرة نفسها التي كانت على مسافة بعيدة، ثم رأى الأدخنة تكوّن الحلقة التي غطّت القلعة كلّها. انقطعت شبكة الإرسال.

عندما التفت آدم وراءه، رأى الحلقة تكبر وتتّسع لتغطّي القلعة كلّها ومحيطَها القريب.

لم يتذكّر وقتها شيئًا سوى الذئب رماد الذي يكون قد هجر المكان بسبب حاسّته الحيَّة.

كانت القلعة كومة حجارة وبقعة رماد مثل رأس جبل بركانيّ.

ـ انتهى كلّ شيء سيّدي.

ـ نتوجّه نحو السدّ، ومن هناك إلى القاعدة.

الكلّ مع الواحد، والواحد للكلّ.

سمع شعار ليتل بروز يأتي من المروحيَّة الثانية، لكنَّه لم يسعده. أدرك أنّ ليتل بروز يكون منتشيًا إلى الأقصى.

تذكَّر كلماته قبل سنوات عندما تحدَّث معه.

ـ البيغ بروزذر لا يعرف شيئًا. لقد تفسَّخ وترك البلاد أيضًا تتفكَّك بين الأوروبيين واللاتينو والسود. لا بدّ من العودة إلى الصفاء العرقيّ إذا أردنا أن نستمرّ.

ـ هل أنت صاف يا ليتل بروز؟

ـ جدًّا.

ـ وسلالتك! تعرفها جيّدًا!

ـ نعم. ليست من سلالة القردة، ولا حتى من الذئاب التي تعتزّ بها. من رجال الأمبراطوريَّة النمساويَّة الهنغاريَّة. لا يوجد في السلالة ما يُهين. هتلر كان البيغ برونز الوحيد الذي عرف كيف يحافظ على نقاء الجنس والعرق. ماذا لو انتصر، هل تتصوَّر العالم بهذه الخلطة البشريَّة التي لا نظام فيها اليوم؟

ـ في هذه، انتصرت عليّ يا معلّمي.

ـ برافو. . أنّك عدت إلى رشدك.

هل أنا متعب. لا . حزين؟ ممكن.

كانت المروحيَّة تقطع الصحراء الخالية إلّا من الغزلان المذعورة بسرعة كبيرة.

الأفواج البرّيَّة تأتي في شكل موجات ارتداديَّة، لا تتوقَّف، تتراكض نحو القلعة.

من بعيد وهي تجري نحو قلعة لم تعد موجودة.

أراد آدم أن يسأل ميجر، لكنَّه بدا له منغمسًا في غفوة نوم من شدَّة التعب، فألغى الفكرة. واضح أنّ القنبلة التي استُعملت فوق القلعة لم تكن تقليديَّة، عرفها من شكلها ومن عنف الهزّة التي أحدثتها في الطائرة، على الرَّغم من ابتعادها عن قطر الانفجار. القنبلة المستعملة هي أخت *PBPu1 من السلالة نفسها، وهي من اليورانيوم التي بيَّنت التجارب أنَّ التحكُّم فيها كان في النهاية تقريبًا مائة بالمائة.*

ـ ٣ ـ

عندما شرعت المروحيَّة في النزول، بدأت تهتزّ بسبب الرياح التي زادت فجأة.

كان الطيَّار في اتّصال مباشر مع الجهات المختصَّة بالجوّ. التفت صوب ميجر توني نيلسون.

ـ ميجر، أعتقد أنَّه علينا أن نسرع، لأنَّ الجوّ سيتغيَّر. وهناك عاصفة ترتسم على البحر.

ـ سنبذل جهودنا لكي نجمع جنودنا بسرعة، ونغادر هذا المكان بسرعة.

بدا السدّ من تحت المروحيَّة كأنّه بحر بلا حدود. كيف انقلب المنظر فجأة من صحراء صفراء قاحلة إلى ماء ووديان ونهرين كبيرين، كلّ واحد يسير في اتّجاه، وكأنّهما اقتسما المسالك. الخضرة تتمدَّد وتُحيط بالسدّ، وحشود بشريَّة وسكنات نبتت على الأطراف إلَّا الجزء الذي يشرف عليه الجيش.

بدأت المروحيَّة في الانحدار شيئًا فشيئًا. عندما اقتربت قليلاً، قال ميجر توني لآدم:

ـ انظر يا آدم، ماذا ترى تحت؟

ـ هيكزاغون[1]؟ نجمة سداسيَّة الأضلاع.

ـ ليست نجمة. تلك قبائل متعدِّدة تتّجه نحو نقطة الماء. تُسمّي نفسها باسم لوطا، أي اتّحاد قبائل آرابيا، ستتقاتل وتفني بعضها بعضًا، كلَّما وقعت المعارك. لولا حراسة وحداتنا لأفنت بعضها بعضًا. هؤلاء الأقوام، كان الماء يدخل إلى بيوتهم ناعمًا ساخنًا أو باردًا. ها هم اليوم حتى التمر لا يجدونه. قطرة ماء يقطعون بسببها كلّ مخاطر الدنيا لكي يحصلوا على ما يشربونه. الكثير منهم يكون قد مات منذ سنوات لولا هذا السدّ الأزرق، والسدّ الصغير بجانبه الذي يسمُّونه الوادي الأبيض، وهو مكوّن فقط من فائض تدفُّق السدّ الأزرق. اليوم لم يعد التدفُّق واردًا.

وعندما اقتربت المروحيَّة، تفادت السدّ وحطَّت قريبًا من الوادي، تمتم الطيّار الذي ظلَّ حزامه مشدودًا:

ـ هذا مكان النزول، أنا متأكّد من صلابته، لأنَّ البقيَّة مثل المياه المبتلعة. هي بالضبط النقطة التي حدَّدتها لنا الرابطة من قبل للنزول فيها كلَّما جئنا إلى هذا المكان.

نزل آدم. رفع توني رأسه حتى يتمكَّن من سماعه بسبب هدير المحرِّكات الذي يبتلع كلّ الأصوات الأخرى.

ـ ما زلت مصمّمًا على النزول؟ يمكننا أن نمرّ. نأخذ العسكر ونخرج من هذه المستنقعات الخربة! وهذه الرمال المبتلعة. العاصفة ستكون ثقيلة علينا إذا لحقت بنا.

ـ انزل يا عزيزي، ولا يهمّ إذا تُركت هنا. لن أعود بدون إيڤا ويونا.

---

(1) Hexagone

ـ أرجو أن تُسرع. أعرف أنَّ إيڤا ليست بعيدة عن هذه الأمكنة، ولكن حاذر، لأنَّ القبائل هنا متصارعة على لا شيء. الإنسان كلَّما تهتَّك داخليًّا زادت أنانيَّته. أتركك هنا تبحث عن إيڤا، فلن تكون إلَّا هنا. أنا أمرّ للجهة الأخرى أجمع وحدات الجيش. وضعها سهل جدًّا، فقد جُمعت في ثلاث نقاط. آتي بها وأعود إليك لنستلمك أنت وإيڤا ويونا، ونعبر نحو البحر الأحمر.. ومن هناك تسهل الأمور أكثر.

بمجرَّد أن طارت الطائرة، بدأ يركض تجاه حاشية النهر حيث بعض التجمُّعات ليسألهم، لا يمكن أن يجهلوا إيڤا التي تعيش ككلّ الناس. دخل عميقًا في القصب ليتخفّى عن المجموعات التي كانت تدور. وجد بيتًا مفتوحًا، فدخل. وجد رجلاً يزحف في الساحة، وبجانبه ولدان معوَّقان وامرأة مريضة في الفراش. سألهم إذا ما كانوا يعرفون إيڤا التي تساعد الفقراء. لم يفهم الرجل أيَّة كلمة ممّا كان يقوله. لكنْ عندما كلَّمه بالعربيَّة المدرسيَّة بدا كأنّه فهمه قليلاً. أشار الرجل إلى الناحية الثانية من السدّ.

ـ لكنْ، عليك أن تتخفّى. سيقتلونك إذا عرفوك.

ـ شكرًا يا عزيزي.

ركض على الحافّة وهو ينادي إيڤا. كانت الجموع تتقدَّم من الجهات الخمس، بعض أفرادها قادم من بعيد. رأى دارًا أخرى. عندما دقّ على الباب، وجد كلبًا مقتولاً عند المدخل وحوالى عشر جثث منتشرة في فوضى، في البيت.

عند الباب رأى رجلاً مسلَّحًا. حاول أن يتفاداه. لكنَّ الرجل سأله موجِّهًا سلاحه صوبه.

ـ أبحث عن السيِّدة إيڤا؟

ـ تركت هذه الجهة وراحت نحو الطرف الآخر من السدّ، حيث الحماية

ما تزال متوافرة. هنا لا شيء يحمينا. لو تنتظرني قليلاً أطمئنّ على العائلة من السرّاق والقتلة، وأرافقك. أنا اشتغلت مهندسًا مع السيّدة الطيّبة، وأنا من صنع أوّل مرّة بالقصب ممرّات المياه.

ـ أنتظرك هنا عند الحافّة.

ـ يمكنك أن تأتي معي. الأوضاع صعبة. القوّات بدأت تغادر الأمكنة، وساد منطق: القويُّ هو السيّد.

ـ أنتظرك هنا يا سيّدي.

ركض الرجل نحو الجهة الأخرى. وقبل أن يتحرَّك، وقع في فخّ آخر. وجد نفسه وجهًا لوجه مع مجموعة مسلّحة.

نظر إلى وجوههم. غابت الكلمات في حلقه. قال:

ـ أنا صديق إيڤا. وأنا أبحث عنها.

وكأن لا أحد يستمع إليه.

ـ أنا آدم غريب. أبحث عن السيّدة إيڤا. قيل لي إنَّها تُقيم هنا.

خمس رصاصات كلّ واحدة جاءته من مكان. الأولى مسَّته في الكتف. تجمَّد في مكانه. امتلأت نباتات الوادي الخضراء وخضرة القصب، بالدم. الرصاصة الثانية مسَّته من بعيد. شلَّت ذراعه الثاني. الثالثة مسَّت خصره فاعوجّ وتلوَّى. الرصاصة الرابعة مزَّقت ألياف الساق.

صمَّم أن لا يسقط، وأن يظلّ واقفًا. كان يترجرج في مكانه. يعرف أنَّ الرصاصة القادمة ستخترق دماغه حتمًا، لأنَّها ستكون رصاصة الرحمة.

لا يدري، في تلك اللحظة بالذات، لماذا تذكَّر مصير الرجل الذي أحبَّه، روباشوف، على الرَّغم من أنَّه لم يكن خيرًا إلى كلّ هذا

الحدّ: *طلقة ثانية جافّة مثل ضربة مطرقة، أصابته خلف أذنه. بعدها ساد الصمت الكلّي. داهمه البحر بزئيره الصاخب من جديد، دحرجته موجة وارتفعت به عاليًا. قبل أن تواصل رحلتها بكبرياء كقدر ساخر، يهزّ كتفيه بلامبالاة.* سمع طلقًا ناريًّا جديدًا جاءه من مكان غامض قبل أن يتحوّل إلى طلقات متتالية بلا توقُّف. سقط على ركبتيه. ثم دار به كلّ ما كان يُحيط به. فدخل في دوار لا يدري كم استمرّ.

عندما فتح نصف عينه اليمنى للمرّة الأخيرة، رأى قتالاً عنيفًا ليس بعيدًا عن حوافّ السدّين. ورأى الرؤوس تتطاير في كلّ اتّجاه، وتغيب الأجساد تحت العاصفة الثلجيّة التي بدأت تلفح الوجوه وقصب الوديان والبنايات الهشّة. رأى الوجوه التي كانت الرياح تعبث بألبستها. اللوحة التي شاهدها من فوق تفكّكت. الأحصنة التي هربت نحو الماء غرقت بأصحابها.. لم تكن عين ماء كانت سدًّا كبيرًا. رأى الرايات تتمزّق إلى ألف قطعة، تخترقها راية كبيرة شديدة السواد كُتب عليها بالأبيض: لا إلٰه إلّا الله. محمّد رسول الله. راية *التنظيم*. وكأنّها صفحة منزوعة من كتاب قديم تمّ العثور عليها بعبث الصدفة على حافّة البحر. مياه الوادي أصبحت حمراء، وبقايا الدوابّ التي وردت إلى المكان هربت في كلّ الاتّجاهات والأدخنة. بعضها تخبّط طويلاً قبل أن يستسلم للتيّارات المائيّة التي سحبته نحو الأعماق. لم يكن ممكنًا الهرب، لأنّ كلّ الجيوش وضعت جيشًا آخر مكلّفًا بكلّ من يهربون من ساحة المعركة. كانت الأنفاس الأخيرة، وهي تتقطّع، تصله ساخنة مرعوبة من شيء كان يؤكّد لها مرّة أخرى أنّ الحياة انتهت هنا أيضًا.

فجأة، شمّ رائحة ما، حاول أن يعرف سرّها، ولكن ذاكرته لم تسعفه. كانت الأدخنة كثيفة ورائحة البارود الممزوجة بعسل النخل قويّة وصعبة التحمُّل. نظر إلى السماء، غابت زرقتها وحلّت محلّها رياح

باردة وثلوج كانت تكبر شيئًا فشيئًا. لكنَّه رأى فيها حركة كثيفة، وسمع فوق رأسه دبيب النمل والأحصنة وركض البشر، بعضهم هارب من الجنَّة وآخرون يتسابقون نحو جهنَّم. هدأ قليلاً. سمع طلقات ناريَّة متتالية، كثيفة.

حاول أن يجرّ نفسه، لكنَّه لم يستطع. لم يكن قادرًا على التحرُّك. هل هو كابوس أم حقيقة؟ لا يريد أن يعرف، لأنَّ الوقت كان قد انتهى. كان تحت نخلة وارفة. تذكَّر مشروب اللّاغمي الذي كان يصنعه أجداده ويخمّرونه ويتركونه يبرد طويلاً. ثم يتمدَّدون تحت النخلة، ويشربونه مصحوبًا أحيانًا بحليب الناقة للتخفيف من تخمُّره والسكر الذي يحدثه.

الضباب والغبار والرياح زادت كثافة. الزرقة غابت نهائيًّا. عندما حكّ جانبه الأيسر الذي بدا ميّتًا، سمع صوتًا خشنًا، لكنَّه لم يكن صوت الأحصنة في لحظاتها الأخيرة، ولا حشرجة الأموات وهم يتعرَّضون للسحق والتقطيع والذبح، إذ كلّ شيء بدا هادئًا. سمع الكواسر الضخمة. عرفها من رفرفة أجنحتها التي كانت تمرّ فوق رأسه بظلال أجسامها الضخمة مثل الطائرات الحربيَّة.

من وراء كتلة الضباب الثقيلة التي طمست كلَّ المعالم وبدأت تتفكَّك شيئًا فشيئًا، ببطء كبير، وعندما صمت ضجيج الحرب فجأة، وكأنَّ يدًا ما كتمت على كلِّ الأنفاس المتحاربة، رأى أكثر من سبعة ذئاب والعديد من الضباع، وهي تتقدَّم نحوه تاركة وراءها كومات الجثث العائمة فوق الماء، والمنتشرة على نبتات الديس الجارحة، وقصب الوديان التي شقَّتها مياه السدّ. كانت تريد جسمًا حيًّا تنهشه. في البداية، نظرت إلى عيون بعضها بعضًا بحيرة. أدركت بعدها من الخزرات الحادَّة أنَّ الطريدة الحيَّة لم تكن قابلة للقسمة. بعض إناث

الضباع، التي خرجت من المعركة، كانت تزحف نحو أعماق الماء، تتأمّل طويلاً الرجال الجرحى والمنهكين وهم يقاومون التيّارات المائيّة، وعندما يستسلمون للغرق، تغرس فكاكها الحديديّة على رقابهم، أو تنزل تحت الأجساد المرتخية من شدّة التعب، فتسحبها من أرجلها نحو اليابسة لتأكلها بتأنٍّ.

بدا كأنّه ميّت أو يموت. لا قوّة بقيت فيه. اقتربت منه ذئاب براري الشمال. كانت تُظهر أنيابها الحادّة، من شدّة الجوع. كأنّها كلّها اتّفقت عليه. أحاطت به وهي تستعدّ للهجمة القويّة التي تشلُّ حركته وتحوّله إلى طعم سائغ، وربّما سهل. وما كادت تصل حتى سمع حفيفًا يشبه حفيف آنيّة طائرة تسير بسرعة الريح.

هل يعيش خرافة؟ لم يصدّق أن يكون هو. فجأة خرج الذئب رماد، ووقف أمامها بعد أن استقام شعره. واجهه الذئب الأسود بالصرامة القتاليّة نفسها. أنيابه تسيل لعابًا، ويلحس أنفه بلسانه بسبب دم الجثث التي غرق فيها. تراجع رماد قليلاً إلى الوراء. ليصطدم الذئب الأسود بالشجرة المقابلة بعد أن تفاداه رماد بخفّة.

وقبل أن يقوم ثانية، وهو شبه دائخ، ضربه بمخلبه الحادّ قبل أن يغرس أنيابه بشكل عنيف في حنجرته. حاول الذئب الأسود أن يخرج من موته، فتخبّط طويلاً، لكنّه لم يستطع أن يفعل شيئًا، إذ تراخت كلّ عضلاته ولوى رقبته، وخمد نهائيًا، في وقت كانت الضباع التي زاد عددها تحوط به في شكل دائريّ ضيّق، بروائحها الكريهة. يدور أحدها حول رماد منتظرًا أن يغافله، كما تعوّد أن يفعل. لكنّ رماد كان قد دار في مكانه ليغرس أنيابه في خاصرته اليسرى. نقطة ضعف الضبع جانبه، لأنّ أيّ جرح فيه يوهنه. قبل أن يرفع الضبع المرقّط رأسه ويستعدّ لهجومه، كان قد ارتسم على جانبه الأيسر خطٌّ مستقيم طويل،

كأنّه ضربة سكّين حادّ، فاض فمه دمًا. أخرج الضبع أنيابه عن آخرها في لحظة دفاعيَّة شرسة وأخيرة. ضرب بمخلبه الأيمن القاتل الضربة الأخيرة، التي تفاداها رماد بسرعة كأنّه توقَّعها، قبل أن يكتشف أنَّها مسَّته في الصدر. بدأ الضبع يتدحرج في مكانه ويلحس دمه، وكأنّه كان يريد أن ينهي المعركة بسرعة. في اللحظة التي غفل الضبع قليلاً، وهو يتلذَّذ بمسح دم الجرح العميق، كانت الضربة الثانية القاتلة في الخصر السليم من جسده، فالتوى محدثًا صوتًا حزينًا كمن تلقّى رصاصة في الدماغ. قام الضبع بصعوبة كبيرة من مكانه ورجلاه ترتعشان. وقف بصعوبة. ترجرج قليلاً. . وفي اللحظة التي رفع رقبته عاليًا مستنجدًا ببقيَّة الضباع وسماء زادت بعدًا وبياضًا وثلجًا، تراجعت الضباع كلّها إلى الوراء، وهي ترتعد من شدَّة البرد والخوف، بينما كان رماد قد مرّ على رقبته كالسهم بضربة ناب حادّة. ففاض الدم هذه المرَّة من الرقبة والحنجرة التي أظهرت جرحًا عميقًا، كأنّه ضربة سكّين. دار الضبع حول نفسه قليلاً برقبة مرتخية. حاول أن يقف مرَّة أخرى، ورماد يتأمَّله على بعد أمتار قليلة، وعينه الثانية على الضباع الأخرى التي تجمَّعت مع بعضها بعضًا. ارتعد الضبع طويلاً في مكانه، أظهر أنيابه لإخافة رماد، لكنَّه لم يكن قادرًا على التحكُّم حتى في رقبته التي سال منها الدم كثيرًا. عندما حاول أن يرفع رأسه ثانية، كان رماد فوق ظهره يضغط بكلّ مخالبه الحادَّة على جسد الضبع المرقَّط، الذي لم يكن قادرًا على تحريك أيّ عضو من أعضاء جسده. استسلم للموت أخيرًا بلا مقاومة. لم يتركه إلّا عندما لوى رقبته محدثًا شخيرًا أخيرًا يائسًا. بينما اختفت فجأة بقيَّة الضباع.

صعد رماد على الصخرة الرماديَّة العالية التي أصبحت حمراء من كثرة الدم الذي ساح عليها وبدا واضحًا على الثلج، فبدأت الحيوانات

تتوزَّع هنا وهناك، متوجِّهة نحو الجثث التي انتشرت على مرمى البصر، تنهش ما تستطيعه، وتخفي ما تريده تحت الثلوج أو بين القصب.

رفع رماد رأسه عاليًا. كان الساحل والسدَّان الأزرق والأبيض مليئين بهياكل وجثث الخيول والبشر التي طفت فوق الماء. تأمَّل رماد المشهد طويلاً، وحركة الماء والثلوج التي زادت جِدَّتها والسكينة التي نزلت فجأة. وقف بالضبط عند رأس آدم، يصغي لكلِّ ما كان يحيط به. لا شيء سوى صوت الرياح وخشخشة الورق وحركة الماء وهسيس الثلج الذي يكاد لا يُسمع أبدًا.

تشمَّم آدم طويلاً. قرَّب وجهه من وجهه. أغمض آدم عينيه. لأوَّل مرَّة يشعر براحة واستسلام غريبين، شمَّ رائحة آخر أجداده، مزيج من الصنوبر الحلبيّ، ونبتة المارمان القويَّة، التي كان الأمازيغ القدامى يغطُّون بها أسقف بيوتهم، ورائحة نوّار الخزامى التي كانت تعطِّر الحقول، والفجوة الجبليَّة التي كثيرًا ما ردَّدت اسمه عندما كان شبح امرأة ينطق به، وكلَّما خرج نحوه صمت وانسحب.

اقترب منه أكثر، ثم لحس كلَّ جروحه التي كانت تنزف دمًا حارًّا. أخذه بين فكَّيه، ثم قلبه على ظهره، لعق الدم من جديد الذي كسا جسده كلّه، كأنّه كان يستعدّ لافتراسه وتمزيقه، كما تفعل الذئاب عادة قبل الإجهاز على ضحيَّتها المستسلمة لها. تلحس دمها في البداية، ثم تُدخل أنيابها في جانب العنق الأكثر طراوة من حنجرة الضحيَّة. كأنّ لعابه رتق كلّ شيء، عند الكتف وفي الخصر والركبتين، كأنّ رماد هدَّأ من آلامه كثيرًا. أعاده إلى وضعه الأوَّل، ثم عوى طويلاً. لا يعرف آدم إذا ما كان رماد قد فعل ذلك فرحًا أو حزنًا. أصغى من جديد إلى أنفاسه. تأكَّد من أنَّها ما تزال حيَّة. نظر يمينًا وشمالاً، ثم نشب أنيابه على يافطة معطفه الأسود. استجمع كلّ قواه

وأنفاسه. ثم سحبه إلى الوراء، بعيدًا عن الأدخنة والماء، قريبًا من غابة النخيل.

كان آدم منسحبًا كلّيًا من المشهد الذي كانت الكواسر والذئاب والضباع والنمور تحتلّه، وتتقاتل على الجثث التي ملأت المكان. عوى آدم بكلّ جهده مرّة أخرى. فجأة، خرج صوت مكتوم من داخل آدم هو بين الصرخة العالية والألم الذي انتابه. فتح عينيه مستعيدًا بعض حواسّه. سمع أزيز المروحيّة. كان رماد واقفًا عند رأسه بعد أن أخرجه من الظلال، لكي يكون مرئيًا للمروحيّة التي كانت تدور حول السدّ على ارتفاع منخفض، بعد أن استلمت عساكر التجمُّعات الثلاثة.

لم يحدث هذا معه من قبل. لأوّل مرّة يرى، رماد بكلّ هذا القرب.

مدّ آدم يده لرماد الذي تمدَّد بكلّ طوله بجانبه. لم يكن يسمع شيئًا إلّا أنفاسه الطفوليّة المتقطّعة.

فجأة رأى آدم الطفل الذي فيه يغادره ويصطفّ بجانب رماد، ويركضان بكلّ قواهما بجنون. ركضا على الثلج طويلاً، لكنْ من الصعب التباري مع رماد، فقد كان دائمًا هو من يسبق حتى عندما لا يعرف وجهة السباق إلّا في آخر لحظة.

صرخ صرخة خرجت مكتومة، لكنَّ الحيرة التي ارتسمت في عينيْ رماد، أحسسته أنّه فهمه جيّدًا. قبل أن ينسحب، مدَّ يده نحوه مرَّة أخيرة، وربّما كانت الأخيرة، أو تراءى له أنّها هي الأخيرة. ولكنّه تأكّد من أنَّه سمعه بكلّ حواسّه، حتى بعينيه الصفراوين.

انتظرني يا رماد، نداءاتك تصلني، ولكنّي مجروح حتى الأعماق يا سيّد السلالة الأولى. أريدك بكلّي لأنتمي إليك للمرّة الأخيرة، فهل تسمع جرحي وخوفي؟ انتظرني يا ألمي الدفين وحزني العاري وجرحي

المفتوح. لقد أخفقت في كلّ شيء، حتى في أن أكونك كما أنت، سيّد الظلال والهضاب الخضراء وقمم الجبال وعمق رماد البراكين. لا تذهب وحدك نحو مدافن الرمال الحارقة، أريد أن أموت معك ونحن في عاصفة واحدة، وجنون أخير، لترمينا عاليًا ذرّات من غبار الدنيا، في عرض السماوات الفارغة والمبهمة، وليختلط نداؤك الليليّ الدائم بعوائي الذي لم يسمعه أحد منذ أربعة عشر قرنًا، يومًا يومًا، شهرًا شهرًا، سنة سنة، وقرنًا قرنًا. انتظرني، يا سيّد المخلوقات الحرّة، لم يبق لي ما أخسره على وجه هذه التربة التي امّحت عليها كلّ آثارنا وتبعثرت في فراغات التيه رفات أجدادنا. انتظرني يا رماد، يا سيّد المخلوقات كلّها.

زاد هدير محرّك المروحيَّة. سمع طلقات ناريَّة جافّة. عوى رماد.

مال آدم برأسه نحوه حتى أحسّ بفروه الدافئ، وأنفاسه وحركاته الكثيرة من حوله، قبل أن يتسلَّل في عمق غابات النخيل، ويركض نحو أعالي الهضبة.

كان هدير محرّك المروحيَّة قريبًا جدًّا هذه المرَّة.

مال آدم برأسه قليلاً نحو الجهة التي مشى فيها رماد. بدا له قريبًا وهو يركض بكلّ قواه. يسمع أنفاسه وهي تتقطَّع. طلقة أخرى، ثم أخرى. رأى رماد يتدحرج في مكانه قليلاً ويرتجف جسمه، بعد أن صعب عليه الوقوف، قبل أن يغيب متماهيًا في بياض الثلج الذي غطّى التلال نهائيًّا والأشجار والطرقات والمعابر الضيّقة، وجزءًا من حوافّ السدّ الأزرق، والسدّ الأبيض الذي خفّ عمقه كثيرًا. فجأة حلّت سكينة تشبه الموت. خفَتَ كلّ شيء. حفيف الأشجار العملاقة التي تقاوم السقوط في كلّ ثانية، رياح الشمال الباردة، والرعود التي مزّقت السماء مختلطة بالانفجارات المتتالية، التي كانت تأتي أصداؤها من

كلّ الجهات، من جهة السدّ، من ورائه، من امتدادات الوادي، وحتى من السماء التي رأى كيف انكسر زجاجها وانهارت كلّيًا. وانطفأ الشعاع الأخير من شمس شتويّة، اندفنت مبكرًا في عمق الغيم اللدن، فغامت على حوافّ الهضاب والرمال التي تجمّرت فجأة، ولمع الشعاع الرصاصيُّ الأخير على الثلج بقوّة عاكسًا على صفحته أشكالاً لا حصر لها.

مدّ سمعه وبصره أكثر نحو رماد. كانت نداءاته مسموعة وواضحة، كما في اليوم الأوّل، عندما وجد نفسه على حوافّ قلعة أميروبا، يتشمّم رائحة السلالة ويحرسها عن بعد حتى آخر العمر. ثم رآه بين شجرتين على التلّة، يتنفّس بصعوبة شديدة، بعينين حزينتين مليئتين بالحنين، والوحدة والغياب، وطعم الثلوج التي تكاثفت على ظهره حتى غطّت صدره في البداية وكلّ قوائمه السفلى، ثم جزءًا من ظهره الذي مال قليلاً جهة اليمين، كأنّه استسلم أخيرًا لنوم عميق، بينما واصل الثلج الكثيف تساقطه محمّلاً ببرودة قاسية. غطّى كلَّ شيء، بما في ذلك الخيطَ الأحمرَ الذي امتدَّ طويلاً من شجرة التلّة الوحيدة حتى رأس رماد، فغاب كلّ شيء بما في ذلك الهضاب الصغيرة التي كانت إلى وقت قريب مملكة رماد الأخيرة.

شيء واحد بقي فيه قبل أن يغمض عينيه، نظرته المليئة بالغياب وشعاع الشمس الذي لمع فجأة، فاخترقها مانحًا إيّاها الضوء والنور ممّا جعله يُقبل على نوم بارد.

صوت المروحيّة يكاد يكون فيه.

هذه المرّة، شمَّ عطرًا جاءه من بعيد ليغمره كلّيًا. مزيجٌ من رائحة الفراولة والكليمونتين والبنفسج البرّيّ. استنشقه طويلاً. فتح عينيه للمرّة الأخيرة بصعوبة كبيرة، وهو لا يدري ما إذا قد كان تخطّى حافّة

الكابوس أم ما يزال فيه. العطرُ نفسُه والأيادي الناعمة نفسها، وهي تتحسَّس وجهه وفتحات جروحه. لم ير شيئًا سوى بعض سماء قريبة، كان الأطفال يرمونها بالحجارة، لكسر زجاجها الشديد البياض، الذي أصبح فجأة في مرماهم، وهو ينهيهم حتى يئس من كثرتهم وصراخهم. استمرُّوا في رمي الحجارة، وهو ظلَّ يمنعهم دون أن يُوفَّق. فجأة مسَّت حَجَرةٌ طائشة السماء الرهيفة، فتشقَّقت بعنف تحت دهشة الأطفال كلّهم، فركضوا بخوف وتخفُّوا تحت الأشجار اليتيمة وأسقف البيوت الواطئة، وواحات النخيل. وظلَّ الشرخ يتَّسع في شكل خطٍّ مكسور ومتعرِّج، حتى أصبح ينزلق في كلِّ الاتّجاهات بلا أيِّ ناظم، قبل أن يُحدث صوتًا عنيفًا، تطايرت على إثره القطع الزجاجيَّة في كلِّ الاتّجاهات، حتى أصبحت السماء فجوة سوداء مثل المغارة، تلا ذلك انفجار عنيف تهاوت بعده الأجزاء الصغيرة الأخيرة العالقة بالسماء. تأرجحت في البداية طويلاً قبل أن تسقط بشكل متتابع محدثة ارتطامات كثيرة وعنيفة في صحراء الربع الخالي والثلث العامر، ومضيق هرمز والبحر الأحمر، ووصلت حتى بوارج المتوسّط الثقيلة، لتنشب نيرانًا عالية وأدخنة شديدة السواد، تمدَّدت بسرعة لتشمل البرّ، والبحر، وفجوة السماء السوداء التي اتّسعت أكثر فأكثر حتى أصبحت فراغًا لا قرار لظلمته.

سمع صوتها عند أذنه اليسرى بالضبط، لكنَّ ذاكرته لم تعد تسعفه بسهولة.

«آدم حبيبي، كلّ هذا من أجلي؟ يااااااه يا المجنووون لم أعرفك بكلّ هذه الحساسيَّة المفرطة. أنا معك. في أنفاسك الحيَّة أبدًا. قلبك في قلبي، وكفّك في كفّي. لا تخف. تنفَّس براحة. مجرَّد رعود وأمطار وثلوج. لا تخف حبيبي، كلُّنا هنا. كلُّ من تحبّ أيُّها الشقيُّ المعاند».

شعر بدفء يدها التي ضمَّت كفَّيه مثل عصفورين جمَّدهما البرد والخوف. لأوَّل مرَّة يسمع صوتها بكلِّ نقائه وصفائه، بعد كلِّ هذه السنوات. كان عمره خمس سنوات عندما سمعه لأوَّل مرَّة. حتى أصبح كلَّما ناداه باسمه ااااااااادم، فجرًا قبل عبور الطيور نحو الوادي، ركض ليعرف مَنْ صاحبته، ويكتشف وجهها، لكنَّه بمجرَّد أن يصل إلى عتبة الباب، يكون كلّ شيء قد انطفأ. هي لا أحد غيرها. عرفها من عطرها، مزيج من رائحة الفراولة والكليمونتين والبنفسج البرّيّ. *صافيتا*. امرأته الوحيدة التي ارتسمت في دمه، وظلَّت فيه. تلك التي تشبه عيناها عينيْ رماد في كلّ ألوانهما التي تميل نحو صفرة معاندة، وفي غموضهما. كانت *صافيتا* تسكن في المنحدر الجبليّ، ليس بعيدًا عن السدّ الصغير، الذي يحجز الماء بين جبلين، في أرض كانت تشبه الجنّة بالشجر والغيم والعطر والطيور التي تؤمُّها.

قبل أن ينطفئ النور في عينيه للمرَّة الأخيرة، سمع انفجارين قويَّيْن. رأى بعدها مياه السدّ الأزرق تعلو شيئًا فشيئًا حتى تصل السماء، في شكل آلاف، ملايين، بل ملايير الفقّاعات من الزبد، كما لو أنَّ الصور كانت تمرّ أمام عينيه بالتصوير البطيء، مصحوبة برائحة الكبريت والبارود الأسود والحموضة التي تجفِّف الحلق. الانفجار الأوَّل كان قريبًا جدًّا منه، بينما الثاني كان أبعد قليلاً، وأكثر حدَّة. ثم ميّز بينهما هدير المروحيَّة الذي لم يتوقَّف، وصراخ ميجر توني نيلسون الذي يعرف نبرته من بين آلاف الأصوات، مصحوبًا بموسيقى كنسيَّة قديمة لهندل، سمعها لأوَّل مرَّة في حفل الغوسبيل، ليلة تأبين سميث... هاليلويا هاليلويا هاليلويا... ثم رأى الكورس الجنائزيَّ يحمله على الأكتاف مغطّى بخرقة بيضاء، لم تكن لا عَلَمًا ولا كفنًا، بينهما.

طغت أناشيد هندل قبل أن يكسرها صوت ميجر توني نيلسون الصارخ:

ـ بسرعة يا إيفا إذا أردتم إنقاذ آدم. يونا ليس هذا وقت البكاء. لا بدّ أن نحمله الآن، إنّه حيّ، لكنّه ينزف، وبدأت أعضاؤه تتيبّس بسبب البرد والثلج. جيّد أنّه ما يزال يتنفّس. بسرعة. لا وقت لدينا، قبل أن تكبر العاصفة، ويدركنا غبار الانفجار الثقيل.

باريس، ١٠ اكتوبر ٢٠١٥

وأماكن أخرى: الجزائر، سيدي بوجنان، وهران، الخرطوم، القاهرة، عمّان، مسقط، الدوحة، بيروت، دبي، أبو ظبي، طنجة، تونس، القدس، رام الله...

الفهرس

واسيني

2084 حكاية العربي الأخير

يدخل واسيني في هذه الرواية منطقةً محرَّمةً، إذ يضع الغربيَّ الحاليّ، والعربيَ أيضاً، أمام المرايا التي تُظهر تناقضاتِهما أمام حداثة انتقائيّة في كلّ شيء. لن يكون العربيّ الأخير، في قلعة أميروبا الغامضة الواقعة بين مضيق هرمز والبحر الأحمر، في عمق الربع الخالي، أُمِّيًّا، أو جاهلاً، أو بدائيًّا، بل سيكون عربيًّا في صميم الدقّة التكنولوجيّة. آدم، وهو عالمٌ في الفيزياء النوويَّة والمشرف على تنفيذ برنامج قنبلة نوويَّة مصغَّرة في بنسلفانيا، يتعرَّض لعمليَّة اختطاف في مطار رواسي بباريس، تشترك فيه ثلاثة أطراف: تشادو، المتخصِّص في قتل علماء الذرَّة العرب؛ و«التنظيم»، وهو الجهاز الإرهابيّ الغامض الذي تحوَّل إلى قوَّة ضاربة لكلِّ ما له علاقة بالحياة والفنّ؛ وFBI لأنَّ آدم ينتمي إلى مخبر أميركي وتجب حمايته. ماذا سيحدث للعربيّ الأخير في دوَّامة الموت والاختطاف؟ كيف سيكون مصيرُ ليتل بروز المريض بعنصريَّته الذي ظلّ يحلم برتبة ماريشال؟ ما مصير سميث الذي اختار مسلكَ القيم الإنسانيَّة العالية؟ كيف ستكون ردَّة فعل الكوربو، قائِد التنظيم؟ وهل سيقاوم رمادَ الموت البطيء الذي فُرض عليه؟

مُنجز روائيّ كبير لرحلةٍ في عصرٍ اتّسم بالانقلابات الكبرى على الإنسان نفسه وبالإرهاب الأعمى.

يتنازل الكاتب عن حقوقه المادّيّة للأطفال المرضى بالسرطان.

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت



تصميم الغلاف: © سهام شرَّاد